سلسلة الجوائز العالمية



# قدر الإنسان

القصة الحائزة على
جائزة جونكور سنة ١٩٣٣

تأليف

**أندريه مالرو**

ترجمة : فؤاد كامل

مراجعة : الدكتور أنور لوقا

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

# قدر الإنسان

القصة الحائزة على جائزة جونكور سنة ١٩٣٣

تأليف

## أندريه مالرو

ترجمة : فؤاد كامل

مراجعة : الدكتور أنور لوقا

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر

الدار المصرية للتأليف والترجمة

هذه ترجمة كاملة للقصـــة الحائزة

على جائزة جونكور عام ١٩٣٣

L aCondition Humaine : André Malrau

# الجزءُ الأوّل

٢١ مارس ١٩٢٧

الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل .

أيحاول « تشن » أن يرفع الكلة ؟ أم يضرب من خلالها ؟ واعتصر القلق أحشاءه ، لقد كان يعرف أنه صادق العزم ، ولكنه لم يكن يستطيع فى هذه اللحظة الا أن يفكر فيأمره ببلاهة ، وقد أبهظه هذا الركام من النسيج الأبيض الرقيق (الموسلين) الذى ينسدل من السقف فوق جسد أخفى من الطيف ، لا تبرز منه سوى القوم التى أرخاها النوم ، ولكنها تنبض مع ذلك بالحياة ، لأنها جزء من جسد الرجـل . أما الضوء الوحيـد فكان يتسلل من المبنى المجاور : مستطيل كبير من نور الكهرباء الشاحب تشطره قضبان النافذة ، وكان أحد هذه القضبان يلقى ظله على السرير عند قدم الرجل تماما ، وكأنما ليضفى عليها ضخامة وحياة . وانطلق صرير أربع أو خمس آلات تنبيه فى وقت واحد . هل افتضح أمره ؟ عليه اذن أن يقاتل ! .. أن يقاتل أعـداء متأهبين للدفاع عن أنفسهم ، أعداء متيقظين ! فياله من خلاص !

وانحسرت موجة الضوضاء ، وكانت مجرد ارتباك فى حركة المرور (كانت ثمة ارتباكات فى حركة المرور ، هناك ، فى عالم الناس ...) . وألفى نفسه مرة أخرى وجها لوجه أمام تلك القطعة الكبيرة المتهدلة من النسيج الرقيق (الموسلين) ، وذلك المستطيل من الضوء اللذين يتحركان فى هذه الليلة حيث توقف الزمان عن الوجود .

وطفق يردد لنفسه ــ ترديدا أحمق ــ ان هذا الرجل يجب أن يموت .. اذ كان يعلم أنه لابد قاتله . وسواء ألقى القبض عليه ، أم لا ، وسواء أعدم أم لم يعدم ، فان الأمر يستوى لديه . لا وجود لغير هذه القدم، ولغير هذا الرجل الذى ينبغى عليه أن يسدد اليه ضربته قبل أن يستطيع الدفاع عن نفسه ، لأنه لو دافع عن نفسه ، فقد يصيح مستنجدا .

واختلجت أجفان « تشن » حين اكتشف فى نفسه ــ وهذا الكشف بلغ به الى حد الغثيان ــ انه لم يكن المقاتل الذى يتوقعه ، وانما شـخص يقدم قربانا . ولم يكن هذا القربان للآلهة الذين اختارهم فحسب ، بل كان قربانا

للثورة ، يتصاعد وراءه عالم من الظلمات العميقة الذى تعد هذه الليلة الطاحنة من القلق بالقياس اليه نورا وهاجا • « ان الاغتيال ــ وا أسفاه ! ــ لا يعنى القتل فحسب •• » وفى جيبيه كانت قبضتاه المترددتان ، تضمان : اليمنى موسا مقفلة ، واليسرى خنجرا صغيرا • وكان يدسهما فى أبعد مكان ممكن ، وكأن الليل لا يكفى لاخفاء حركاته • وكانت الموسى أضمن الا أن « تشن » كان يحس أنه لن يستطيع استخدامها على الاطلاق ، أما الخنجر فقد كان تقززه منه أقل • وتخلى عن الموسى التى كان ظهرها يتخلل أصابعه المطبقة ، وكان الخنجر عاريا فى جيبه بلا غمد ، فنقله الى يده اليمنى ، بينما ترك يسراه تسقط على صفحة قميصه الصوفى ، وهناك ظلت ملتصقة بها • ورفع ذراعه اليمنى قليلا ، وقد راعه استمرار السكون الذى أحاط به ، وكأن حركته تلك كانت كفيلة باحداث كارثة ••• ولكن شيئا لم يقع : وظل الاقدام على الأمر متروكا له ، كما كان دائما •

القدم نابضة كأنها حيوان نائم • أهى حقا نهاية جسد ؟ « هل أصابنى مس من الجنون ؟ » ينبغى أن يرى هذا الجسد •• أن يراه ، وأن يرى هذا الرأس ، ودون ذلك لابد من أن يدخل منطقة الضوء ، وأن يدع ظله المكتنز يمر على السرير • ترى كيف تكون مقاومة الجسد ؟ وفى حركة تشنجية ، أغمد « تشن » الخنجر فى ذراعه اليسرى • وكان فى تلك اللحظة عاجزا عن ادراك أنها ذراعه هو ، غير أن الألم ، وفكرة البطش المؤكد به اذا استيقظ النائم أعاداه برهة الى الواقع : فالعقاب أهون من جو الجنون الذى يحيط به • واقترب • وفجأة ، دارت القدم التى كادت تلمس سروال «تشن» كما

فى النور الساطع • وفجأة ، دارت القدم التى كادت تلمس سروال «تشن» كما

يدور المفتاح فى القفل ، ثم عادت الى وضعها القديم فى الليل الهادىء • ربما أحس النائم بحضوره احساسا لا يكفى مع ذلك لايقاظه ••• وتمشت القشعريرة فى أوصال « تشن » : انها حشرة تزحف على جسده •• كلا ، بل الدم يتساقط قطرات من ذراعه الجريحة ، وما برح شعور أشبه بدوار البحر يسيطر عليه •

حركة واحدة يموت بعدها الرجل • ان قتله ليس أمرا عسيرا : وانما لمسه هو المحال • ولابد أن تسدد الطعنة تسديدا دقيقا • ولم يكن النائم الراقد على ظهره فى سرير من الطراز الأوروبى ــ يرتدى سوى سروال قصير ،

غير أن ضلوعه من تحت جلده السمين لم تكن ظاهرة ، فكان على « تشن » أن يحدد هدفه مسترشدا بطرفى الثديين القاتمين • وكان يدرك مدى صعوبة الضرب من أعلى الى أسفل ، ومن ثم فقد شهر نصل الخنجر فى الهواء ، غير أن الثدى الأيسر كان أشد بعدا : فكان عليه من خلال شبكة الكلة ، أن يضرب الى أقصى ما تصل اليه ذراعه فى حركة منحنية أشبه بضربة « السوينج » فى الملاكمة • وغير من وضع الخنجر ، فجعل نصله أفقيا •

ان لمس هذا الجسد الساكن لا يقل صعوبة عن ضرب جثة •• وربما كان ذلك للأسباب نفسها • وانبعثت من الرجل حشرجة كأنما أهابت بها فكرة الجثة هذه • ولم يعد « تشن » قادرا حتى على التراجع ، فقد لانت ساقاه وذراعاه تماما ، وانتظمت الحشرجة ، ذلك أنها لم تكن حشرجة بل كانت شخيرا • لقد صار من جديد حيا ، قابلا للاصابة • وخامر « تشن » فى الوقت نفسه شعور الخزى من ذلك الاستهزاء به • وانزلق الجسد فى حركة خفيفة الى اليمين • هل سيستيقظ الآن ؟ وأوقفه « تشن » بطعنة كافية لاختراق لوح من الخشب وسط حفيف « الموسلين » المتمزق الذى اختلط بصوت الضربة المكتوم • وامتد احساسه حتى طرف الخنجر ، فأحس بانتفاضة الجسد نحوه ، مدفوعا بهزة « الملة » المعدنية ، فشد ذراعه حانقا لكى يوقفه فى مكانه : وهنا تراجعت الساقان معا صوب الصدر ، وكأنهما مربوطتان اليه ، ثم تراختا فجأة • وكان ينبغى عليه أن يضرب مرة أخرى ، ولكن كيف ينتزع الخنجر ؟ وكان الجسم راقدا على جنبه دائماً فى غير استقرار ، وعلى الرغم من تلك الانتفاضة التى جعلته يهتز منذ لحظة ، فقد أحس « تشن » أنه انما يثبته الى السرير بسلاحه القصير الذى ضغط عليه بثقله كله • ومن ثغرة واسعة فى الكلة ، كان يستطيع أن يراه بجلاء : الجفنان مفتوحان •• أمن الممكن أن يكون قد استيقظ فى تلك اللحظة ؟ وكانت العينان بياضا كلها • وبدأ الدم يسيل على نصل الخنجر ••• دم أسود فى ذلك الضوء الزائف وكان يبدو أن الحياة ما زالت تتردد فى ثقل هذا الجسد المتهيىء للسقوط يمنة أو يسرة • ولم يستطع « تشن » أن يتخلى عن الخنجر • وعبر هذا السلاح ، وعبر ذراعه المتصلبة ، وكتفه المتوجعة سرى تيار من القلق يصل بين ذلك الجسم وبينه ، حتى أعماق صدره ، وحتى قلبه المتشنج ، وهو الشيء الوحيد الذى كان يتحرك فى تلك الحجرة • ووقف جامدا جمودا مطلقا ،

وخيل اليه أن الدم الذى ما زال يسـيل من ذراعه اليسرى هو دم الرجل الراقد ، ودون أن يطرأ شىء جديد أيقن فجأة أن هذا الرجل قد مات • وكان لا يكاد يتنفس ، ولكنه ظل يسند الرجل على جنبه فى ذلك النور الشـابت العكر ، وفى تلك الوحشة التى خيمت على الحجرة • ولم ينم أثر ما على وقوع عراك ، حتى ذلك التمزق فى قطعة الموسلين الذى كاد يشطرها الى نصفين : لا لشىء سوى السكون ونشوة ساحقة غاص فيها ، منعزلا عن عالم الأحياء ، متشبثا بسلاحه • واشتد انقباض أصابعه أكثر فأكثر ، غير أن عضـلات ذراعه ارتخت ، وبدأت ذراعه كلها ترتجف كما يرتجف الوتر • ولم يكن ما به خوفا ، ولكنه كان ذعرا فظيعا مهيبا فى الوقت نفسه ، ذعرا لـم يعد يعتريه منذ طفولته : لقد كان وحيـدا مع الموت ، وحيدا فى مكان خـلا من البشر ، وقد سحقه الرعب ، وطعم الدماء فى آن واحد ، فأذاباه •

واستطاع أن يبسط قبضته ، فتدحرج الجسد برفق على بطنه : وحين انحرف مقبض الخنجر عن موضعه ، انتشرت على الملاءة بقعة قاتمة ، أخذت تتسع شيئا فشيئا وكأنها كائن حى • والى جانبها ، أخذ يتسع مثلها أيضا ، ظل أذنين مدببتين •

كان الباب قريبا ، وكانت الشرفة أبعد ، ومن هذه الشرفة كانت تأتى الظلال • وعلى الرغم من أن « تشن » لم يكن يؤمن بالعفاريت ، الا أنه ظل مشلولا عاجزا عن أن يتلفت • وقفز عن موضعه ، فقد تناهى الى سمعه مواء • وأحس بشىء من الخلاص ، فتجرأ على النظر : كانت قطة قذرة تسللت عن طريق النافذة بأقدامها الصامتة ، وقد سددت اليه عينيها • واستولى على « تشن » غضب اشتد احتداده كلما تقدم الظل ، ولم يكن هذا الغضب موجها ضد الحيوان نفسه ، وانما ضد هذه الحضرة ، فما كان ينبغى لكائن حى أن يتسـلل الى المنطقة الوحشية التى ألقى فيها : ان النظرة اليه ممسكا بتلك المدية كانت تمنعه من العودة الى عالم الناس • وفتح الموسى ، وتقدم خطوة الى الأمام ، فلاذ الحيوان بالفرار من الشرفة ، وانطلق « تشن » فى أعقابه ، وفجأة ، ألفى نفسه وجها لوجه أمام شنغهاى •

وبات الليل ــ وقد سرى فيه ما يهز تشن من قلق ــ يغلى كسحابة هائلة من الدخان الأسود مليئة بالشرر ، وعلى ايقاع أنفاسه التى قل لهاثها شيئا

فشيئا ، سكن الليل • وبين مزق السحب ، استقرت نجوم فى حركتها الأزلية التى اجتاحته مع هواء الخارج الذى برد • وانطلقت صفارة ، ولكنها لم تلبث أن تبددت فى ذلك السكون المقبض • وهناك فى أسفل المدينة تماما ، حيث تنعكس أضواء منتصف الليل من خلال الضباب الأصفر على صفحة الأسفلت المبتل وخطوط القضبان الباهتة •• هناك كانت تخفق حياة الناس الذين لا يقتلون • ملايين من الحيوات التى تنبذ الآن جميعا حياته ، ولكن أين تقع ادانتهم التعسة اذا قيست بالموت الذى بات ينحسر عنه ، والذى كان يبدو له أنه يتدفق من جسده دفقات طويلة مثل دم الرجل الآخر ؟ ان هذه الظلال جميعا الساكنة منها والمتأرجحة هى الحياة ، انها كالنهر ، كالبحر البعيد الذى لا يبلغه البصر ــ البحر ••• وتنفس أخيرا من أعماق صــدره ، وخيل اليه أنه عاد الى الحياة مرة أخرى ، فأحس بعرفان لا حد له ، وأوشك على البكاء ، وانتابته الحيرة التى استولت عليه منذ لحظة • « ينبغى الفرار ••• » ولبث فى مكانه ، يتأمل حركة السيارات ، والمشاة الذين يهرولون تحت قدميه فى الشارع المضىء ، وكأنه أعمى استرد بصره ، أو جائع يلتهم طعامه • وود فى نهمه الذى لا يرتوى الى الحيــاة أن يلمس هــــذه الأجساد • وانطلقت الصفارة مرة أخرى ، وانتشرت فى الأفق ، عبر النهر •• انهـا تعلن انتهاء « وردية » عمال الليل فى الترسانة • ألا تبا لهم من عمال حمقى ذهبوا ليصنعوا الأسلحة المخصصة لقتل هؤلاء الذين يجاهدون من أجلهم ! وهل قدر عــلى تلك المدينة المضاءة أن تبقى فى حوزة ذلك الديكتاتور العسكرى كأنها حقل يملكه ، وأن تؤجر حتى الممات ــ كأنها القطيع ــ الى قواد الحرب ، وتجــار الغرب ؟ ان جريمة القتــل التى ارتكبها تعادل انتــاج أيام طويلة تقــوم به ترسانات الصين : فالثورة الوشيكة التى تهدف الى وضع شنغهاى فى أيدى القوات الثورية لا تملك مائتى بندقية • أما اذا ملكت الثــورة الغــدارات ( وعددها حوالى ثلاثمائة ) التى كان يتفاوض ذلك الوسيط المقتول لبيعها الى الحكومة ، فان فرص الثوار تتضاعف ، ذلك أن أول عمل ينبغى أن يقوموا به هو أن يجردوا البوليس من أسلحته ، ليزودوا بها رجالهم • ولكن «تشن» لم يفكر فى شىء من ذلك ولو مرة واحدة خلال الدقائق العشرة الأخيرة •

• •

ولم يكن قد أخذ بعد الورقة التى قتل من أجلها هــــذا الرجل • فعاد أدراجه ، وكأنه يعود الى الســجن • وكانت الثياب معلقة عند قدم السرير

تحت الـكلة • وفتش الجيوب •• فوجد منديلا ، وسـجائر •• ولم يجد المحفظة ؛ والحجرة ما زالت على حالها لم تتغير : الكلة ، والجدران البيض ، والمستطيل المحدد من الضوء ، ان جريمة القتل لا تغير اذن شيئا •• ومد يده تحت الوسادة وقد أغمض عينيه ، فأحس بالحافظة ، صغيرة جـدا ، أشبه بحافظة النقود • أكان خجلا أم قلقا ما أحس به ؟ وزاد من قلقه ضغط الرأس الخفيف على الوسادة ففتح عينيه مرة أخرى • لم تكن ثمة دماء على الحشية ، ولا يكاد يبدو على الرجل أنه ميت • أينبغي عليه اذن أن يقتله مرة أخرى ؟ ولكن سرعان ما التقت عيناه بالعينين البيضاوتين وبالدماء التى لطخت الملاءة ، فتخلص من هذا الاحساس وانسحب الى حيث يوجد الضوء لكى يفتش فى الحافظة • وكان هذا الضوء آتيا من مطعم زاخر بالمقامرين • ووجد الوثيقة فاحتفظ بالحافظة ، واجتاز الحجرة ركضا ، وأدار المفتاح فى قفل البـاب مرتين ، ثم وضع المفتاح فى جيبه • وفى نهاية دهليز الفندق ـ وكان يحاول أن يخفف من سرعته ـ لم يجد المصعد • أيقرع الجرس ؟ ونزل على السلم • وفى الطابق السفلى حيث المرقص والبار وموائد البلياردو ، كان نحو عشرة أشخاص ينتظرون المصعد ، الذى لم يلبث أن وصل • وسـار فى أثرهم • وخاطبه الرجل المجاور له بالانجليزية قائلا : « ان الراقصة ذات الرداء الأحمر رائعة حقا » ، وكان يبدو عليه أنه من بورما أو سيام ، وأنه فى حالة سـكر خفيفة • وود « تشن » فى آن واحد أن يصفعه ليرغمـه على الصـمت ، وأن يعانقه لأنه كان حيا • فغمغم بكلمات على سبيل الاجابة ، فربت الآخر على كتفه مؤيدا • « انه يظن أننى مخمور أنا أيضا •• » غير أن المتحدث فتح فمه من جديد ، فبادره « تشن » قائلا بلغة أهل بكين : « اننى أجهل اللغـات الأجنبية » فأطبق الآخر شفتيه ، ولكنه حدق فى اهتمام الى هـذا الشاب الذى لا يرتدى ياقة ، وانما يلبس صديريا من الصوف الممتاز • وكان «تشن» يقف فى مواجهة مرآة المصعد الداخلية ، ان الجريمة لم تترك أى أثر عـلى وجهه ••• فلم تتغير ملامحه التى هى أشبه بملامح المغول منها بملامح الصينين: وجنتان بارزتان ، وأنف أفطس جدا ، وان تكن ذات طرف خفيف ، أشبه بالمنقار ••• لم تتبدل ملامحه ، وان ارتسم عليها التعب ••• بل ان كتفيه الراسختين ، وشفتيه الغليظتين اللتين تنمان عن رجل طيب ، بقيت على حالها لا تعبر عن شىء غريب يثقله ••اللهم الا ذراعه التىأحس بلزوجتها وسخونتها حين ثناها • وتوقف المصعد ، فخرج مع الآخرين •

وابتاع زجاجة من المياه المعدنية ، واستدعى سيارة أجرة : سيارة مغلقة، وفيها غسل ذراعه ، وعصبها بمنديل • وكانت قضبان الترام المهجورة وبرك مياه الأمطار الخفيفة التى تساقطت فى الأصيل تلمع لمعانا باهتا • وعليها انعكست السماء المضيئة • ورفع اليها « تشن » بصره ، دون أن يدرى لذلك سببا : وما كان أقربه اليها منذ لحظة حين فطن الى النجـوم ! وانه لينأى عنها كلما أخذ حماسه فى الفتور ، وعاد الى عالم الناس •• وفى أقصى الشارع، كانت السيارات ذات المدافع رمادية بلون برك المياه ، وثمة حاجز متألق من الخوذات التى تحملها ظلال صامتة : انها فصيلة من الجنود تدل على نهاية منطقة النفوذ الفرنسى ، ان سيارة الأجرة لا تستطيع أن تمضى الى أبعد من ذلك • وأبرز « تشن » جواز مرور مزيف يثبت أنه كهربائى يعمل فى منطقة النفوذ ، ونظر الحـارس فى الورقة بلا مبالاة ( « ان ما فعلته لتوى لا يبدو للعيان بكل تأكيد » ) ، ثم أذن له بالمرور • وأمامه امتد شارع الجمهوريتين، الذى يعد حدا للمدينة الصينية •

وحشة وسكون ••• وهزيم الأمواج المحملة بجلبة أكبر مدينة صينية تضيع فى هذا المكان ، كما تضيع الأصوات المنبعثة من أعماق الأرض فى قاع البئر : جلبة الحرب ، والهزات العصبية الأخيرة لحشد لا يريد أن يخلد الى النوم • على أن الناس كانوا يعيشون بعيدا ، وأما هنا ، فلم يبق شىء من العالم غير ليل استسلم له « تشن » بغريزته كما يستسلم لصداقة مفاجئة : فهذا العـالم الليـلى المضطرب لا يتعارض مع القتـل • انه عالم اختفى منه الناس •• عالم أبدى ، فهل سيغمر الفجر مرة أخرى هذه الأسقف القرميدية الخربة ، وهذه الأزقة التى فى أحشائها يضىء مصباح جدارا بلا نوافذ ، وعشا من أسلاك البرق ؟ واستغرقه عالم الجريمة ، فبقى فيه كما يبقى المرء فى الدفء • ولم تكن ثمة حياة أو وجود ، أو صوت قريب ، أو حتى صيحة الباعة الصغار ، أو نباح الكلاب الضالة •

وأخيرا ، وصل الى حانوت قذر : «جراموفونات لو ــ يو ــ شن وهملريش» لابد من العودة الى الناس • ولكنه انتظر بضع دقائق لا يستطيع لنفسـه انتزاعا ، وأخيرا طرق مصراعا خشبيا ، فانفتح أحد الأبواب على الفور : انه

انه حانوت ملىء بالاسطوانات المرتبة فى عناية ، عليه مظهر مكتبة الحى العامة ، وهناك فى الجزء الخلفى من الحانوت ، وهو فسيح ، كان أربعة من الرفاق يرتدون الأقمصة ٠

وحين أغلق الباب تأرجح المصباح ، فاختفت الوجوه ، ثم ظهرت من جديد : على اليسار « لو ـ يو ـ شن » المستدير تمام الاستدارة ، ثم رأس هملريش الحليق وكأنه ملاكم مرهق مكسور الأنف ، غائر الكتفين ؛ والى الخلف ، فى الظلام ، كان كاتوف ؛ وعلى اليمين ، كيوجيسور ؛ وحين عبر المصباح فوق رأسه أظهر فى جلاء ركنى فمه الهابطين كأنه صورة من الصور اليابانية المطبوعة ، وما أن ابتعد المصباح حتى تحولت الظلال ، وبدا هذا الوجه الهجين أشبه بوجه أوربى ٠ وتزايدت سرعة تأرجح المصباح ، فجعل وجها « كيو » يظهران كل بدوره ، وأخذ الاختلاف بينهما يقل رويدا رويدا ٠

كان التلهف على السؤال يسيطر عليهم جميعا ، فتطلعوا الى « تشن » فى توتر أبله ، ولكنهم لم ينطقوا بشىء ، أما هو فقد نظر الى بلاط الأرضية الذى تناثرت عليه بذور عباد الشمس ٠ انه يستطيع أن يزود هؤلاء الرجال بالمعلومات ، ولكنه لا يستطيع مطلقا أن يشرح لهم ما يدور بنفسه ٠ وكانت مقاومة الجسد للخنجر تسيطر عليه ، فقد كانت أشد من مقاومة ذراعه : « ولولا سورة المفاجأة ، ما نفذ السلاح عميقا فى جسد الرجل ٠ وماكنت أتوقع قط أن يكون الجسم بهذه الصلابة ٠٠٠ »

قال : « لقد تم كل شىء » ٠

وفى تلك الحجرة ، وجها لوجه ازاء الجسد ، كان على يقين من شىء واحد ، انه « أحس » بالموت ٠

وأخرج التصريح بتسليم الأسلحة ٠ وكان النص طويلا ، فشرع « كيو » فى قراءته : « أجل ، ولكن ٠٠٠ »

وانتظر الجميع ٠ ولم يكن « كيو » متعجلا أو محتدا ، وظل يقرأ بلا حراك وان انقبض وجهه قليلا ٠ غير أن الجميع أحسوا بأن ما اكتشفه يحيره ، وأخيرا أعلن قائلا : « ان ثمن الأسلحة لم يدفع ٠٠ الدفع عند التسليم » ٠

واستبد الغضب بـ « تشن » ، وكأنه سرق فى غفلة من أمره ٠ تأكد من

أن هذه الورقة التى كان يبحث عنها ، دون أن يسنح له الوقت لقراءتها •• على أى حال ، ما كان يستطيع أن يغير شيئا • وأخرج الحافظة من جيبه وناولها لـ « كيو » : لم يكن فيها غير صور فوتوغرافية ، وايصالات •• ولا ورق غير ذلك •

قال كيو : « نستطيع أن ندبر الأمر ــ على ما أعتقد ــ مع احدى فرق الهجوم » •

وأجاب كاتوف : « ان كنا نستطيع أن نتسلل الى ظهر السفينة ، فمن الممكن أن يتم كل شىء على ما يرام » •

وساد الصمت • وانتزع حضورهم « تشن » من وحدته الرهيبة فى رفق ، كما ننتزع نباتا من الأرض ما زالت جذوره الدقيقة تشده اليها •• وكلما عاد اليهم فى الوقت نفسه ، رويدا رويدا ، كان يبدو له أنه يتعرف عليهم للمرة الأولى ، كما تعرف على أخته حين عاد اليها بعد أن زار للمرة الأولى فى حياته منزلا للبغاء • كان هناك التوتر الذى يشيع فى قاعات القمار حين يشرف الليل على نهايته •

وسأل كاتوف : « هل سار كل شىء سيرا حسنا ؟ » ووضع اسطوانته أخيرا ، وتقدم حيث يوجد الضوء •

وتأمل « تشن » ــ دون أن يحير جوابا ــ رأس هذا الروسى الطيب بعينيه الضيقتين الساخرتين وأنفه المرفوعة فى الهواء ــ تلك الرأس التى كان لا يستطيع حتى هذا الضوء أن يضفى عليها مسحة درامية ، أما هو ، فكان يعرف ما هو الموت • ونهض ، وتقدم ليلقى نظرة على « الجدجد » النائم فى قفصه الصغير • وكان يمكن أن تكون لـ « تشن » أسبابه التى تدعوه الى الصمت ، لقد راح يراقب حركة الضوء التى أتاحت له أن يكف عن التفكير : غير أن صيحة الجدجد المتهدجة ــ وكان قد استيقظ عند مجيئه ، اختلطت باهتزازات الظلال الأخيرة على الوجوه • وما برحت فكرة صلابة الجسد مسيطرة عليه ، ورغبته فى أن يتكىء بذراعه فى قوة على أول شىء يصادفه • ولم يكن الكلام مجديا اللهم الا فى تعكير ألفته بالموت ، تلك الألفة التى استقرت فى فؤاده • وسأله كيو : « متى خرجت من الفندق » ؟

ـ « منذ عشرين دقيقة » .

وألقى نظرة على ساعته .. انها الواحدة الا عشر دقائق .

ـ « جميل .. فلننه أمورنا هنا ، ثم نغادر المكان » .

ـ « أريد أن أقابل أباك يا كيو » .

ـ « أنت تعلم أن الأمر سيحدث غدا بكل تأكيد ؟ »

ـ « فليكن » .

وكانوا يعلمون جميعا ما يعنيه كيو .. انه يشير الى وصول القوات الثورية الى المحطات الأخيرة فى الخط الحديدى ، وهذا الوصول اشارة البدء بالثورة .

وردد تشن قوله : « فليكن » .. ذلك أن الشعور بالخطر ، كجميع الأحاسيس العنيفة ، يخلف وراءه فراغا ، فكان يسعى الى استعادته .

ـ « ومع ذلك ، أريد أن أراه » .

ـ « اذهب اليه هذه الليلة ، فانه لا ينام مطلقا قبل الفجر » .

ـ « سأذهب اليه حوالى الساعة الرابعة » .

وكان « تشن » يتجه بوحى من غريزته الى الأب جيسور حين يحتاج الى من يفهمه ، ومع أنه يعلم أن موقفه هذا يؤلم كيو ـ وعلى الأخص لأنه يخلو من كل غرور ـ فانه لم يكن يستطيع أن يمتنع عنه : لقد كان « كيو » أحد منظمى الثورة ، وكانت اللجنة المركزية تثق به ، وكان تشن أيضا يثق به ، غير أنه ما كان يقدم على القتل أبدا اللهم الا اذا اشتبك فى قتال . أما «كاتوف» فكان أقرب الى نفسه . كاتوف الذى حكم عليه بالأشغال الشاقة خمس سنوات سنة ١٩٠٥ حين اشترك ، وهو اذ ذاك طالب بكلية الطب ، فى الهجوم ـ الصبيانى ـ على سجن أودسا ، ومع ذلك ...

وكان الروسى يأكل قطعا صغيرة من الحلوى المسكرة ، واحدة اثر أخرى ، دون أن يكف عن النظر الى « تشن » ، وفجأة أدرك « تشن » معنى الشراهة . فالآن ، وقد قتل شخصا ، كان من حقه أن يشتهى أى شىء . أجل .. الحق ، ولو كان ذلك شيئا صبيانيا . ومد كفه المربعة .. فظن « كاتوف » أنه يريد مغادرة المكان ، ولهذا صافحه . ونهض تشن : فربما كان من الخير كذلك

أن ينصرف اذ لم يعد أمامه ما يفعله فى هذا المكان ، فقد أحيط « كيو » بكل شىء ، وعليه أن يتصرف وفقا لهذه المعلومات ٠ أما هو تشن ــ فانه يعرف ما يريد أن يفعله الآن ٠ وبلغ الباب ، ولكنه عاد ثانية وقال :

ــ « ناولنى هذه الحلوى » ٠

فناوله « كاتوف » كيس الحلوى ٠ وكان يريد أن يتقاسمها معه ، ولكنه لم يجد ورقا ، فملأ تجويف راحته ، وحشا فمه ، ثم خرج ٠

وقال كاتوف : « لابد أنها كانت مهمة شاقة » ٠

وكان « كاتوف » قد لجأ الى سويسرا وأقام بها من سنة ١٩٠٥ الى سنة ١٩١٢ ، حيث عاد خفية الى روسيا ، وعلى الرغم من أنه كان ينطق الفرنسية دون أن تشوبها أية لكنة روسية ، الا أنه كان يبتلع بعض حروف الحركة ، وكأنما يريد أن يعوض على هذا النحو ضرورة النطق الواضح حين يتحدث بالصينية ٠ ومع أنه كان فى هذه اللحظة يكاد يقف تحت المصباح ، الا أن الضوء على وجهه كان قليلا ٠ وكان « كيو » يفضل رؤيته على هذه الصورة ، وقد ارتسم عليه تعبير عن السذاجة الساخرة ، تضفيه على وجهه تلكما العينان الضيقتان ، وعلى الأخص تلك الأنف المرفوعة ( وكان هملريش يشبهه بعصفور يسخر دون أن يضحك ) ٠٠٠ هذا التعبير الذى كان يزيد من ابرازه أنه يخالف ملامحه ، مما كان يضايقه كثيرا ٠

قال كيو : « فلننته من هذا الموضوع ٠ ألديك الاسطوانات يا « لو ؟ »

وبابتسامة عريضة تنم عن استعداده لأداء آلاف الانحناءات المعبرة عن الاحترام ، وضع لو ــ يو ــ شن الاسطوانتين كلاً على جراموفون ، بعد أن فحصهما كاتوف ، وكان لابد أن تبدأ كل منهما فى الحركة فى وقت واحد ٠

وشرع كيو فى العد قائلا : « واحد ، اثنين ، ثلاثة » ٠

وطغى صفير الاسطوانة الأولى على الاسطوانة الثانية ، وفجأة ، انقطع هـذا الصفير ، واتضحت كلمة : « أرسلوا » ، ثم عاد الصفير مرة أخرى ، واتضحت كلمة أخرى « ثلاثين » ٠٠ تبعهما صفير آخر ، تلته كلمة « رجلا » ٠٠ ثم امتد الصفير ٠

وهتف كيو : « رائع » ، ثم أوقف الحركة ، وأدار الاسـطوانة الأولى

بوحدها : صفير .. سكون .. صفير . قف . حسن . ضع عليها ما يفيد أنها غير صالحة للاستعمال .

والآن ، فلنستمع الى الاسطوانة الأخرى : الدرس الثالث . يجرى ... يمشى ، يذهب ، يجيء ، يرسل ، يتلقى . واحد ، اثنان : ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة ، عشرون ، ثلاثون ، أربعون ، خمسون ، ستون ، مائة . رأيت عشرة رجال يركضون . عشرون امرأة هنا . ثلاثون ...

وكانت هذه الاسطوانات المزورة لتعليم اللغات رائعة ، والبطاقة الموضوعة عليها بارعة التقليد .. ومع ذلك كان « كيو » قلقا :

ــ « أكان تسجيلي رديئا ؟ »

ــ « انه جيد جدا .. بديع » .

وانفرجت أسارير « لو » عن ابتسامة ، بينما بدا عدم الاكتراث على كملريش . وفي الطابق العلوى ، صرخ الطفل متألما .

ولم يعد « كيو » قادرا على الفهم :

ــ « اذن لماذا غيرتموه ؟ »

فأجاب لو : « انه لم يتغير ، انه صوتك نفسه .. ومن النادر أن يتعرف المرء على صوته ، كما ترى ، حين يسمعه للمرة الأولى » .

« الحاكى يشوهه ؟ »

كلا .. ليس هذا هو السبب ، فان كلا منا يتعرف بلا عناء أصوات الآخرين ، ولكننا لم نألف ، كما ترى ، سماع أنفسنا ... »

وكان « لـو » مغتبطا اغتباط الصينى حين يشرح لرجل مثقف شيئا يجهله .

« وهذا الكلام ينطبق على لغتنا أيضا ... »

ــ « تماما .. أما زالت الخطة أن يأتي من يأخذ الاسطوانات الليلة ؟ »

ــ « ستبحر السفن فجر غد متجهة صوب « ( هان ــ كيو ) » .

وكانت الاسطوانات ذات الصفير مرسلة على احدى السفن ، بينما كانت

الاسطوانات التى تحمل الكلام مرسلة على سفينة أخرى .. وكانت هـذه الاسطوانات الأخيرة فرنسية أو انجليزية تبعا للبعثة الموجودة فى المنطقة بروتستانتية كانت أم كاثوليكية . وكان الثوار يستخدمون اسطوانات حقيقية لتعليم اللغات تارة ، واسطوانات مسجلة بأصواتهم تارة أخرى .

وقال كيو لنفسه مفكرا : « حين يطلع النهار .. وكم من أشياء قبل أن يطلع النهار ! .. » ونهض من مكانه .

ـ « لابد من متطوعين ، لأجـل الأسلحة .. وبعض الأوروبيين ، ان أمكن » .

واقترب منه هملريش . وفى الطابق العلوى ، صرخ الطفل من جديد .

قال هملريش : « ها هو الطفل يجيبك . أيكفيك هذا ؟ ماذا أنت صانع بالطفل الذى أوشك أن ينفق ، والمرأة التى تئن فى الطابق العلوى بصوت خافت حتى لا تزعجنا ... »

وكان الصوت الذى يشوبه شيء من البغض هو صوت الرجل صاحب الأنف المكسور ، والعينين الغائرتين اللتين وضع مكانهما الضوء العمودى ـ بقعتين سوداوين .

وأجاب كيو : « لكل عمله .. والاسطوانات ضرورية أيضا .. وأستطيع أن أتصرف أنا وكاتوف . فلنذهب للبحث عن بعض رجالنا ( وسنعرف خلال ذلك ان كنا سنقوم بالهجوم غدا أم لا ) وأنا ... »

فقال كاتوف : « لاحظ أنه من الممكن أن يكتشفوا الجثة فى الفندق » .

ـ « لن يكون ذلك قبل الفجر . فقد أغلق تشن باب الحجرة بالمفتاح .. وليست هناك دوريات » .

ـ « ربما كان الوسيط على موعد ما ؟ »

ـ « فى هذه الساعة بالذات ؟ هذا شيء بعيد الاحتمال . ومهما يحدث فان المهم هو تغيير مرسى السفينة : فاذا حاولوا أن يصلوا اليها ، أضاعوا على الأقل ثلاث ساعات قبل العثور عليها .. انها تقف الآن عند حدود الميناء .

ـ « الى أين تريد أن ننقلها ؟ »

ـ « الى قلب الميناء .. حيث لا ترسو على رصيف بالطبع .. فهناك

مئات من السفن •• كذلك تضيع ثلاث ساعات على الأقل • على الأقل » •

– « ربما ارتاب القبطان فيما يحدث ••• »

ولم يكن وجه « كاتوف » يفصح مطلقا عن عواطفه : وانما يستقر عليه دائما ذلك التعبير من المرح الساخر •• أما فى هذه اللحظة ، فقد كانت نغمة صوته وحدها تشى بقلقه ••• ولهذا كان تعبيره قويا •

قال كيو : « اننى أعرف خبيرا فى صفقات الأسلحة • وسيضع فيه القبطان ثقته • ونحن ، وان لم نملك كثيرا من المال ، الا أننا نستطيع أن ندفع لهذا الخبير أجره •• وأعتقد أننا متفقون على أن نستخدم التصريح للصعود الى ظهر السفينة وأن ندبر أمرنا بعد ذلك ؟ »

وهز « كاتوف » كتفيه ، وكأن الأمر واضح لايحتاج الى جدال • وارتدى معطفه الخشن الذى لا يقفل ياقته قط ، وناول كيو سترة كانت معلقة على أحد المقاعد ، وصافح كل منهما هملريش فى حرارة• فما كان المعطف الا ليزيد من اذلاله • وانصرفا ••

وتركا الشارع على الفور ، ودخلا الحى الصينى •

وكانت السحب المتكاثفة الواطئة التى تنفرج فى بعض الأماكن لا تدع نجوم آخر الليل تظهر الا من أعماق الثغرات الممتدة بينها • وكانت هذه الحياة التى تشيع بين السحب تضفى حياة على الظلمة التى تخف تارة ، وتشتد تارة أخرى ، وكأن ظلالا هائلة تأتى لتزيد الليل قتامة • وكان كاتوف وكيو ينتعلان أحذية للرياضة ذات نعال من المطاط ، فما كانا يسمعان خطواتهما الا حين ينزلقان على الوحل • وعلى جانبى مناطق النفوذ – حيث يوجد العدو – كان ثمة وهج يحف بأسطح المنازل • وانبعث فى الجو صوت صفارة طويلة أخذ يتضخم فى بطء حتى ملأ الرياح التى تحمل ضوضاء المدينة المحاصرة ، تلك الضوضاء التى أوشكت أن تتلاشى كما حملت صفير الزوارق الصغيرة التى انضمت الى السفن الحربية – هبت هذه الرياح على المصابيح الكهربائية البائسة التى تضىء جوف الأزقة والحارات ، وحول تلك المصابيح ، برزت من الظلال المهجورة جدران متآكلة كشف عنها بكل ما فيها من ثغرات ، هذا النور الذى لم يكن شىء يؤرجحه ، وكأنما تصدر عن أزلية قذرة • هذه الجدران تحجب نصف مليون من الناس : أهل مصانع النسيج ،

أولئك الذين يعملون منذ طفولتهم ست عشرة ساعة يوميا ٠٠ شعب من القروح والعاهات والبطون الجائعة ٠ وغامت الزجاجات التى تغطى المصابيح الكهربائية ، ولم تلبث أمطار الصين العنيفة المنهمرة أن اجتاحت المدينة فى دقائق معدودات ٠

وناجى كيو نفسه قائلا : « انه حى طيب » ٠٠ ذلك أنه كان ينتقل منذ أكثر من شهر — من اجتماع الى آخر ليعد الثورة فلم يعد يرى الشوارع ٠٠ لم يكن يسير فى الوحل ، وانما يسير على خطة معينة ٠ واختفى صراع ملايين الحيوات الصغيرة اليومية ، وقد سحقته حيـاة أخرى ٠ ولم يعد لمناطـق الامتيازات ، وللأحياء الغنية بأسوارها التى غسلتها الأمطار عنـد أطراف الشوارع ٠٠ لم يعد لهذه الأحياء وجود الا بوصفها أخطارا تهدد ، وحواجز وجدران سجن ممتدة لا نوافذ فيها ، أما الأحيـاء الفظيعة التى منها تألفت معظم قوات الثورة ، فكانت على العكس من ذلك تنبض بانتفاضة شـعب متربص ٠ وعند منعطف أحد الأزقة ، غاصت نظراته فجأة فى أعماق الضوء المنبعث من شارع عريض ٠ وعلى الرغم من الأمطار المنهمرة التى كانت تحجب هذا الشارع ، فقد ظل يراه فى صورة امتداد أفقى ، اذ كان لابد من مهاجمة هذا الشارع فى مواجهة بنادق ومدافع رشاشة ، تطلق نيرانها من أقصاه ٠ وكانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى قد عهدت الى كيو بعد فشل مظاهرات فبراير — بتنسيق قوات الثورة ٠ وفى كل شارع من هذه الشوارع الهادئة التى اختفت معالم منازلها تحت سـيل المطر ذى الرائحة الشبيهة برائحة الدخان ، ضوعف عدد المقاتلين ٠ كان « كيو » قد طلب رفع العدد من ألفى رجل الى خمسة آلاف ، فتمكنت القيادة من ذلك فى خلال شهر ٠ غـير أنهم لم يكونوا يمتلكون سوى مائتى بندقية ( وكان هناك ثلاثمائة غدارة على السفينة « شان تونج » التى ترقد ساهرة وسط النهر المتلاطم الأمواج)٠ وكان « كيو » قد تولى تنظيم مائة واثنين وتسعين فرقة مقاتلة ، تضم كل منها خمسة وعشرين رجلا ، ولا يحمل السلاح الا رئيس الفرقة ٠٠٠

وتفقد أثناء مروره « جاراجا » شعبيا مليئا بسيارات النقل القديمة التى حولت الى أوتوبيسات ٠ وكانت الجراجات كلها « مندرجة » فى القائمة ٠ وكانت الادارة العسكرية قد شكلت هيئة أركان حربية ، وانتخب مجلس الحزب لجنة مركزية ، فاذا بدأت الثورة كان لابد أن تكون تلك الهيئات على اتصال

مستمر بفرق الهجوم • وأنشا كيو وحدة اتصال أولى مؤلفة من مائة وعشرين راكب دراجة ، بحيث اذا انطلقت الرصاصات الأولى ، كان على ثمانى فرق أن تحتل الجاراجات ، وأن تستولى على السيارات • وكان رؤساء هذه الفرق قد فحصوا تلك الجاراجات ، ومن ثم فانهم لن يرتكبوا أية أخطاء • أما الرؤساء الآخرون ، فقد ظل كل منهم يدرس — منذ عشرة أيام — الحى الذى سيقاتل فيه • كم عدد الزوار الذين دخلوا — ذلك اليوم نفسه — الى الأبنية الرئيسية ، طالبين مقابلة صديق لا يعرفه أحد ، فتحدثوا وقدموا الشاى قبل رحيلهم ؟ وكم من العمال ، رغم المطر المنهمر ، عكفوا على اصلاح السقوف ؟ لقد أصبحت كل المراكز المفيدة للقتال الذى سينشب فى الشوارع معروفة •• وأفضل المواقع لاطلاق النار كانت مبينة على الخرائط الموجودة فى المركز الدائم لفرق الهجوم• وكان مايعلمه كيو عن الحياة الدفينة للثورة يعوضه عما يجهل • ثمة شيء يتجاوزه الى ما لا نهاية ، كان يتصاعد من أجنحة المدينة الكبيرة الممزقة •• من تشاباى وبوتونج اللتين تكسوهما المصانع ويكسوهما البؤس •• شيء يتصاعد لتفجير مراكز الأعصاب الهائلة الكامنة وسط المدينة ، وكأن حشدا خفيا يعجل بليل القيامة هذا •

قال كيو : « غدا ؟ »

وتردد كاتوف ، وكف عن هز راحتيه الكبيرتين • كلا ، ان هذا السؤال ليس موجها اليه •• أو الى أحد •

وسارا صامتين •• وتحول المطر الغزير شيئا فشيئا الى رذاذ ، وخفتت الضجة التى يحدثها المطر بسقوطه على أسقف المنازل ، وامتلأ الشارع الأسود بخرير جداول المياه • وارتخت عضلات وجهيهما ، أما كيو فحين اكتشف الشارع كما يتبدى فى الواقع ••• شارع طويل ، أسود ، لا يكترث بشيء — فقد توسم فيه ماضيا انتهى عهده •• ذكرى ملحة تدفعه الى الأمام •

وتساءل كيو : « أين تعتقد أن تشن قد ذهب ؟ لقد قال انه لن يذهب الى أبى الا فى حوالى الساعة الرابعة • أتراه قد ذهب لينام ؟ »

وكان فى سؤاله اعجاب يشيع فيه لون من الارتياب •

— « لا أدرى ••• ربما ذهب الى ماخور •• فهو لا يدمن الشراب ••• »

ووصلا الى حانوت : « شيا •• تاجر مصابيح » • المصاريع مغلقة ، كما

حتى الحال فى كل مكان ٠٠ وفتح الباب وأمامهما انتصب رجل صينى قصير القامة مخيف لا تبين ملامحه فى الضوء المعتم الذى ينبعث من الخلف : ومن هالة الضوء المحيطة برأسه كانت أقل حركة تصدر منه ، ترسل شعاعا زيتيا على أنفه الضخم الذى حفرته البثور ٠ وكانت مئات الزجاجات التى تحيط « بمصابيح ـ العاصفة » المعلقة تعكس وهج مصباحين قائمين على منضدة الحساب ، ولا يلبث هذا الوهج أن يتبدد فى الظلمة التى تجثم على أعماق الحانوت المحتجبة ٠

قال كيو : « وبعد ؟ »

ونظر اليه « شيا » وهو يفرك كفيه فى ترحيب ، ثم قفل على أعقابه دون أن يقول شيئا ، وتقدم بضع خطوات ، وفتش فى مكان خبىء ٠ واحتكت أظافره بشىء من الصفيح ٠ فضرست أسنان كاتوف ، وسرعان ما عاد تتأرجح حمالات بنطلونه المتدلية يمنة ويسرة ٠٠٠ وقرأ الورقة التى أتى بها ، فى ضوء صادر من أسفل نحو رأسه التى كادت تلتصق بأحد المصابيح ٠ كان ذلك تقريرا من المنظمة العسكرية المكلفة بالاتصال برجال السكك الحديدية ، وقد ورد فيه أن الامدادات التى تدافع عن شنغهاى ضد الثوار تأتى من نانكين : وأن عمال السكك الحديدية قرروا الاضراب عن العمل ، غير أن جنود الحرس الأبيض والجيش الحكومى ، كانوا يرمون بالرصاص أولئك الذين يمتنعون عن قيادة القطارات الحربية ٠

ومضى الرجل الصينى فى قراءته قائلا : « وأخرج أحد رجال السكك الحديدية المعتقلين القطار الذى يقوده عن الخط الحديدى ٠٠ وكان مصيره القتل ٠ وخرجت ثلاثة قطارات حربية عن الخط أمس ، بعد انتزاع القضبان» ٠

وهنا قال كيو : « أصدر الأوامر بتعميم أعمال التخريب ، واذكر فى نفس التقارير طريقة الاصلاح فى أسرع وقت ممكن » ٠

ــ «ان رجال الحرس الأبيض يطلقون النار على كل من يقوم بالتخريب» ٠

ــ « تعرف اللجنة ذلك ٠٠ ونحن نطلق النار بدورنا ٠٠ شىء آخر أريد أن أسألك عنه : « ألا توجد قطارات أسلحة ؟ »

ــ « كلا » ٠

ــ « ألا تعرف متى تصل قطاراتنا الى تشنج ــ تشيو(١) ؟ »

ــ « لم تصلنى بعد أخبار منتصف الليل . ومندوب النقابة يعتقد أنها ستصل الليلة أو غدا ... »

اذن ، فستبدأ الثورة غدا أو بعد غد .. ولابد من انتظار تعليمات اللجنة المركزية . وأحس « كيو » بالعطش . وخرج الاثنان .

ولم يكونا بعيدين عن المكان الذى كان عليهما أن يفترقا عنده . وانطلقت من احدى السفن صفارة أخرى ثلاث مرات متقطعات ، أعقبتها مرة أخرى طويلة . وكان يبدو كأنما تتفتح صرختها فى هــذه الليلة المشبعة بالماء ، وتساقطت أخيرا كما يسقط الصاروخ . « هل بدأ القلق يساورهم على ظهر السفينة شانج تونج ؟ » محال . ان القبطان لا ينتظر زبائنه الا فى الساعة الثامنة . وواصلا سيرهما ، أسيرين لتلك الباخرة الراسية هنــاك فى المياه الباردة الخضراء ، حاملة صناديق الغدارات . وانقطع المطر .

قال كيو : « سيتم كل شىء على ما يرام ، مادمت سأجد الشخص الذى أريده .. ولكننى أكون أهدأ بالا لو ان « شانج ــ تونج » غيرت مرساها » .

ولم يعد طريقهما واحدا ، فتواعدا ، وافترقا .. وذهب «كاتوف» للبحث عن الرجال .

وبلغ « كيو » أخيرا بوابة منطقة الامتيازات ذات القضبان الحديدية . وأقبل لفحص أوراقه جنديان من « أنام » ، وجاويش من جيش الاستعمار : وكان يحمل جواز سفره الفرنسى . ولاغراء الحرس وضع تاجر صينى شطائر صغيرة على أطرافه الأسلاك الشائكة . ( وقال كيو لنفسه « طريقة صالحة لتسميم مركز للحراسة اذا لزم الأمر » ) .

وأعاد اليه الجاويش جواز المرور . ولم يلبث « كيو » أن وجد سيارة أجرة ، وألقى للسائق بعنوان « القط الأسود » .

والتقت السيارة التى كان السائق يقودها فى سرعة فائقة ببعض دوريات المتطوعين الأوروبيين . وكانت الصحف تقول عنها : « ان جنود ثمانى دول تحرس هذا المكان » . ولم يكن لذلك أهمية ، فما كان الكومنتانج ينوى الهجوم

---

(١) تشنج ــ تشيو Tcheng-Tchéou هى آخر محطة قبل شنغهاى .

على مناطق النفوذ ٠٠ وامتدت أمامه الشوارع المهجورة ، وتناثرت ظلال التجار الصغار الذين يحملون حوانيتهم على أكتافهم على هيئة موازين ٠٠ ووقفت السيارة عند مدخل حديقة صغيرة تنيرها لافتة مضيئة عليها هذه الكلمات : « القط الأسود » وحين مر كيو بحجرة ايداع الملابس نظر الى الساعة : الثانية صباحا • « من حسن الحظ أن كل أنواع الأزياء تقبل هنا » ذلك أنه كان يرتدى صدارا تحت سترته الرياضية المصنوعة من وبر الصـوف الرمادى القـاتم •

وكانت موسيقى الجاز تحطم الأعصاب ٠٠ ولقد حافظت هذه الموسيقى منذ خمس ساعات ـ لا على جو من المرح ، بل على ضرب من النشوة الوحشية التى تشبث بها كل زوج من الراقصين فى لهفة • وفجأة ، توقفت الموسيقى، وتفكك الجمـع : وجلس الزبائن فى المؤخرة ، بينما جلست الراقصـات المحترفات على الجانبين : بعضهن صينيات فى أثوابهن الضيقة من الحريـر المشغول ، وبعضهن الآخر روسيات أو تجرى فى عروقهن دماء مختلطة • تذكرة لكل رقصة ، أو لكل محادثة • وفى وسط الحلبة ، وقف رجل عجوز تحسبه قسا انجليزيا مخبولا يأتى بمرفقيه حركات أشبه بحركات البطة • وكان قد قضى ليلته ـ وهو فى سن الثانية بعد الخمسين ـ خارج منزله لأول مرة ، فلم يجرؤ على الرجوع اليه ، خوفا من زوجته ، وهكذا أخذ يقضى لياليه منذ ثمانية أشهر فى تلك النوادى الليلية عاجزا عن تنظيف ملابسه : فكان يغير ثيابه الداخلية ـ بين ستارتين ـ فى محلات القمصان الصينية • وثبت رجال الأعمال الذين يواجهون الافلاس، والراقصات والعاهرات، جميع أولئك الذين يعرفون أنهم مهددون ـ ثبتوا أنظارهم على هذا الشبح ، وكأنه وحده الذى يستطيع أن يمنعهم من السقوط فى هوة العدم • فاذا حان الفجر سعوا للنوم، وقد طحنهم الارهاق ، فى الوقت الذى تبدأ فيه من جديد ، جولة الجلاد فى المدينة الصينية • ولم يكن هناك فى تلك الساعة ، غـير رءوس مجزوزة فى الأقفاص السوداء ، رءوس يسيح شعرها من المطر •

ـ «٠٠٠كالقرود ، ياصديقتى العزيزة • سوف تلبسهم ثيابا كالقرود»•

وكان الصوت المهرج الذى يستوحى « القراقوز » ـ يبدو منبعثا من أحد الأعمدة • ولم يكن يتنافر مع جو المكان ، هذا الصوت الأخنف المرير ـ المنعزل

فى صمت حافل بقعقعة الزجاجات فوق رأس القس المخبول : لقد كان الرجل الذى يبحث عنه « كيو » موجودا ٠

شاهده حين دار حول العمود القائم فى مؤخرة القاعة حيث صفت ـ بعضها وراء بعض ـ المناضد التى لا تشغلها الراقصات ٠ وفوق خليط من الظهور والنحور الملفوفة فى زكام من الأسمال الحريرية ، كان مهرج نحيف غير محدودب الظهر ، يتلاءم مظهره مع صوته ، يلقى خطابا تهريجيا على امرأة روسية وأخرى فليبينية مولدة تجلسان الى مائدته ٠ وكان يتحدث واقفا وبكل عضلات وجهه ، وقد ألصق مرفقيه الى جسده ، وجعل يلوح بيديه ، تعوقه فى اتيان هـذه الحركات ملفعة من الحرير الأسود تغطى عينه اليمنى التى كانت مصابة بلا شك ٠ وأيا كان ما يرتديه البارون كلابيك ـ وقد كان يلبس هذه الليلة بذلة « سموكنج » ـ فانما يبدو عليه مظهر من يريد التنكر ٠ وقرر « كيو » ألا يقترب منه فى هذا المكان ، وآثر أن ينتظره حتى يخرج :

ـ تماما ياصديقتى العزيزة ، تماما ! سيدخل تشانج كان ـ شيك هنا مع ثواره صائحا ـ بأسلوب كلاسيكى ٠٠ أقول لك ، بأسلوب كلاسيكى ! على النحو الذى يصيح به عندما يستولى على المدن : اخلعوا على هؤلاء التجار أمامى ثياب القرود ، وعلى هؤلاء الجنود جلود الفهود (كما يحدث حين يجلسون على أرائك طليت بدهان لم يجف ) ! ولنصعد ـ يافتاتى العزيزة ـ الى السفن الامبراطورية ، كأننا آخر أمير من أسرة « لينيج » ـ ولنتأمل رعايانا الذين ارتدى كل منهم ـ للترويح عنا ـ لون خرقته من أزرق وأحمر وأخضر ـ ووضعوا ضفائر وشراريب ، لا تتفوهى بكلمة واحـدة ٠٠٠ ياصديقتى العزيزة ٠٠٠ بكلمة واحدة ، أقول لك ! »

ثم همس كمن يفضى بسر :

« الموسيقى الوحيدة المسموح بها هى موسيقى الأجراس الصينية » ٠

ـ « وماذا أنت صانع ، وسط هذا كله ؟ »

فأجاب متأوها ، منتحبا :

« كيف ؟ ألا تستطيعين أن تخمنى ياصديقتى العزيزة ؟ سأكون منجم البلاط ، وسألقى مصرعى ذات ليلة وأنا اسعى مخمورا ـ الى الامساك بالقمر فى بركة ماء ـ لعلها هذه الليلة ؟ »

ثم بلهجة متعالمة :

« ... كالشاعر « تو – فو » ، الذى تسحر أعماله بكل تأكيد – لاتتفوهى بكلمة ، اننى على يقين من ذلك – أيامكن الفارغة .. وفضلا عن ذلك ... »

وانطلقت صفارة سفينة حربية فملأت القاعة .. وسرعان ما امتزجت بها طرقات الصنوج الثائرة ، وبدأ الرقص من جديد . وكان البارون قد جلس واستطاع « كيو » أن يظفر من خلال الموائد وأزواج الراقصين بمائدة خاليه وراء مائدة البارون بمسافة قريبة . وطغت الموسيقى على كل ضجة ، ولكنه بعد أن اقترب من كلابيك ، استطاع أن يسمع صوته من جديد . وكان البارون يداعب المرأة الفليبينية ولكنه ظل يتحدث الى الراقصة الروسية ذات الوجه النحيف الذى تحتله بأكمله عينان فقط .

– « ... من المؤسف ياصديقتى العزيزة ، أنه لم يعد للناس خيال . من حين الى آخر .. » وهنا يرفع سبابته ويواصل حديثه قائلا : « يبعث وزير أوروبى الى زوجته طردا بريديا ، وتفتح الزوجة الطرد – لا تتفوهى بكلمة – » ويضع سبابته على شفتيه : « .. فاذا برأس عشيقها .. ويدور الحديث عن هذا الموضوع ثلاثة أعوام متعاقبة ! »

ثم يقول بصوت المفجوع : « شىء مؤثر ياصديقتى العزيزة .. شىء مؤثر! انظرى الى . أترين رأسى ؟ هذا ما أدت اليه عشرون سنة من الخيال الوراثى .. انه يشبه مرض الزهرى . – لا تتفوهى بكلمة ! »

ويتخذ صوته لهجة الأمر : « يا ولد ! شمبانيا لهاتين السيدتين ولى » . ثم يعود صوته وكأنه يهمس بسر : « كأس صغير من المارتينى » .

ويصطنع القسوة : « جاف جدا » .

( وحدث كيو نفسه قائلا : « اذا افترضت أسوأ الفروض ، مع وجود هذا البوليس ، فقد بقيت أمامى ساعة كاملة .. ولكن ، أيطول الأمر أكثر من ذلك ؟ » )

وضحكت الفليبينية ، أو تظاهرت بالضحك ، بينما حاولت الروسية أن تفهم بكل عينيها . واستمر كلابيك فى الاتيان بحركاته واشاراته ، مستخدما سبابته وكأنها كائن حى ، قاسيا فى لهجته الآمرة ، داعيا الى الانتباه عنـد

الافضاء بسر • وأوشك « كيو » ألا يسمعه ، ذلك أن حرارة الجو كانت تخدر حواسه ، وبالاضافة اليها قلق خفى تفتح فى هـذا الليل وتحول الى تعب مختلط •• هذه الاسطوانة ، وصوته الذى لم يتعرف عليه ، منذ لحظة ، عند هملريش • كان يفكر بنفس القلق المعقد الذى انتابه وهو طفل أثناء تأمله للوزتيه ، بعد أن انتزعهما الجراح •• ولكنه عجز عن متابعة فكرته •

وصـاح البارون وهو يغمز بجفنه المكشـوف ، وملتفتا صوب المـرأة الروسية • « وباختصار ••• كان يملك قصرا فى شمالى المجر » •

ــ « وهل أنت مجرى ؟ »

ــ « كلا •• اننى فرنسى ( وهو شىء يؤسفنى ياصديقتى العزيـزة ••• يؤسفنى أشد الأسف ! ) غير أن والدتى كانت مجرية •

« وهكذا •• كان جدى العجوز يسكن هناك قصرا •• له قاعات واسعة •• واسعة جدا ــ وتحت أرضه دفن أجدادى • وحوله أشجار الشربين •• كثير من أشجار الشربين ••• أرمل • كان يعيش وحيدا ، مع بوق صيد هائل معلق على المدفأة •• وذات مرة ، أقبل سيرك •• ومعه فارسة •• جميلة •• »

واستأنف يقول بلهجة فخمة : « أقول •• انها جميلة » ثم غامزا بعينه مرة أخرى : « خطفها •• ولم يكن الأمر صـعبا •• وحملها الى احدى تلك الغرف الواسعة ••• »

ويسترعى الانتباه ، رافعا يده : « لا تتفوهى بكلمة ! ••• انها تعيش هنـاك •• باستمرار •• ثم أصابها السأم •• وأنت أيضا ياصغيرتى » ــ ( ودغدغ المرأة الفليبينية ) ــ « ولكن صبرا ، فانه فضلا عن ذلك لم يبذل أى جهد لتسليتها : اذ كان يقضى نصف فترة ما بعد الظهر فى تقليم أظافر يديه وقدميه بواسطة حلاقه الخاص ( كان لديه أيضا حلاق ملحق بالقصر ) بينما كان سكرتيره ــ وهو ابن عبد قذر ــ يقرأ له ، ويقرأ ــ بصوت مرتفع ــ تاريخ الأسرة ••• عمل ساحر ــ ياصديقتى العزيزة ــ وحياة كاملة ! وفضلا عن ذلك ، فقد كان مخمورا بوجه عام ــ أما هى ••• »

وهنا تساءلت الروسية : « فوقعت فى غرام السكرتير ؟ »

ــ « رائعة •• هذه الصغيرة •• را ــ ئعة ! ياصديقتى العزيزة ، أنت رائعة • فراسة عظيمة ! »

ولثم يدها .

« غير أنها كانت تضطجع مع مقلم أظافر القدمين ، لأنها لم تقدر ـ كما تقدرين ـ ثقافة العقل . ثم لاحظت أن الجد العجوز يضربها .. لا تتفوهي بكلمة ، لا جدوى : هكذا افترقا .

« وطفق الرجل المهجور ، يجول في قاعاته الفسيحة ( وأسلافه يرقدون دائما تحت أرضها ) ، متوعدا هذين الصعلوكين اللذين جعلا منه أضحوكة ، بينما كان هذان الأثيمان يثلمان عرضه ما طاب لهما اللثم في أحد فنادق الأقاليم الصغيرة كتلك التي يصفها جوجول ، حيث ابريق ماء مشروخ في الغرفة ، والعربات في الفناء . وأنزل بوق الصيد الهائل من مكانه على المدفأة ، ولكنه لم يستطع أن ينفخ فيه ، فبعث وصيفه يهيب بالفلاحين الى حمل السلاح ( وكانت لا تزال له حينذاك حقوق ) . وسلح الفلاحين : كان لديه خمس من بنادق الصيد ، وغدارتان .. ولكن ، ياصديقتي العزيزة كان عددهم أكثر من اللازم !

« لذا حملوا كل ما في القصر من متاع .. وشرع أولئك التعساء في المسير . تصوري .. أقول لك .. تصوري .. مسلحين بسيوف قصيرة ، وبالقربينات ، وبالبنادق القديمة .. وبأي شيء آخر .. بالمغاول(١) ، وبعدد أخرى غريبة الشكل ، وعلى رأسهم جدي متجهين صوب البندر .. الانتقام يتعقب الجريمة .. وانتشر خبر هذه الحركة ، وسرعان ما وصل الخفراء ومعهم بعض رجال البوليس . فيالها من لوحة رائعة ! »

ـ « وبعد ؟ »

ـ « لا شيء . جردوهم من أسلحتهم . ونجح جدي مع ذلك في الوصول الى المدينة غير أن المجرمين كانا قد رحلا عن فندق جوجول بأقصى سرعة ، في عربة من تلك العربات المتربة . واستبدل جدي لاعبة السيرك بفلاحة ، ومقلم الأظافر بمقلم آخر للأظافر ، وراح يتعاطى الخمر مع سكرتيره .. وكان يعمل من حين الى آخر .. في وصية من وصاياه الصغيرة ... »

---

(١) سيوف طويلة .

« ولمن أوصى بأمواله ؟ »

ـ « هذه مسألة لا أهمية لها ياصديقتى العزيزة ٠٠ ولكنه عندما مات » ، وهنا اتسعت حدقتا البارون ، ثم قال :

« ٠٠ اتضح كل شيء ٠٠ كل ما كان يدور برأسه ـ ذلك النبيل السكير ـ أثناء تقليم أظافره ، وقراءة كتب الأنساب ! ونفذت وصيته ، ودفن تحت أرض الكنيسة ، فى فجوة هائلة ٠٠ واقفا فوق جواده المقتول ، مثل اتيلا ٠٠ »

وانقطعت جلبة الجاز ٠٠ وواصل كلابيك حديثه ، ولكنه كان فى هذه المرة أقل ميلا الى التهريج ، وكأنما خفف السكون من شعوذته :

« حين مات أتيلا ، وضعوه فوق حصانه المشرئب ، فوق الدانوب ، وألقت الشمس الغاربة منه ظلا هائلا عبر السهل ، جعل الفرسان يولون الأدبار مذعورين ، كما يتطاير الغبار ٠٠ »

وأصابته نوبة من الشرود بفعل أحلامه وبفعل الخمر والسكون المباغت ٠ وكان كيو يعرف ما ينبغى أن يعرض عليه من اقتراحات ، ولكنه لم يكن يعرفه جيدا ـ كما يعرفه والده ـ وبخاصة فى هذا الدور الذى يقوم به ٠ واستمع اليه نافذ الصبر ( فبمجرد أن تخلو مائدة أمام البارون سينتقل اليها ، ويومىء اليه بالخروج ، اذ لم يكن يريد أن يبادره بالحديث أو أن يناديه نداء ظاهرا ) ، ومع ذلك فان شعوره لم يكن خاليا من حب الاستطلاع ٠ وكانت المرأة الروسية هى التى تتحدث الآن بصوت متئد مبحوح ـ وربما كانت تهذى من فرط السهاد :

ـ « كان أبو جدى يملك هو أيضا مزارع جميلة ٠٠ وقد هاجرنا بسبب الشيوعيين ٠٠ أليس كذلك ؟ وحتى لا نكون مع الناس جميعا ، ولكى نكون محترمين ، أما هنا فنجلس اثنين على المائدة الواحدة ، وننام أربعة فى الحجرة الواحدة ! أربعة فى الحجرة الواحدة ٠٠ وفوق ذلك لابد من دفع الايجار ٠٠ محترمين ٠٠ ليت الخمر على الأقل لا تسبب لى مرضا ! ٠٠ »

وتأمل كلابيك كأسه : لم يكن قد شرب منه شيئا يذكر ٠ أما الفليبينية ، فعلى العكس ٠٠ كانت هادئة ، تصطلى كالقطة فى حرارة النشوة الخفية التى سرت بها ٠ لا خير فى أن يلقى اليها بالا ، فالتفت الى الروسية :

ـ « أليس معك نقود ؟ »

فهزت كتفيها · وهنا نادى الساقى ، وأخرج ورقة مالية من فئة المائة دولار ·· وحين أعاد السائق بقية النقود ، أخذ منها عشرة دولارات ، وأعطى الباقى للمرأة ، فنظرت نظرة محددة كليلة ، وقالت : « طيب » ثم نهضت · فقال البارون : « كلا »

وكان منظره منظر كاب وفى يبعث على الرثاء ·

ـ « كلا ·· ذلك قد يضايقك هذه الليلة » · وكان ممسكا بيدها ، فنظرت اليه مرة أخرى وقالت : « أشكرك » ·

ثم قالت فى تردد : « ومع ذلك ، اذا كان هذا يسرك ·· »

ـ « سوف أكون أشد سرورا بهذا يوم لا أملك من المال شيئا ·· »

وعاد المهرج فيه الى الظهور :

ـ « ولن يتأخر ذلك طويلا ·· »

وضم احدى راحتيها الى الأخرى ، ثم لثمهما عدة مرات ·

ولحق به كيو ـ الذى كان قد دفع حسابه ـ فى الدهليز الخالى :

ـ « فلنخرج معا ·· هل تشاء ؟ »

فنظر اليه « كلابيك » وتعرف عليه ، وقال : « أنت هنا ؟ شىء عجيب ولكن ·· »

وكف عن هذا التلعثم بأن رفع سبابته قائلا : « لقد فسقت أيها الشاب!»

ـ « فليكن ! »

وكانا قد خرجا فعلا · وعلى الرغم من أن المطر قد انقطع ، الا أن الماء كان حاضرا فى الجو حضور الهواء ·· وسارا بضعة خطوات فوق حصباء الحديقة ·

قال كيو : « فى الميناء سفينة مشحونة بالأسلحة ·· »

وتوقف « كلابيك » · وكان ينبغى على كيو أن يستدير اليه ، بعد أن تقدم الى الأمام خطوة ، وكاد وجه البارون ألا يبين فى الظلمة ، غير أن القطة الكبيرة المضيئة شعارا للحانة أحاطت برأسه كالهالة :

قال : « هى شانج ـ تونج » ·

وكانت العتمة ووقفته بحيث يولى الضوء ظهره ، لا يتيحان له التعبير عن شىء ، فلم يضف شيئا ٠

واستطرد كيو قائلا : « لقد قدمت الحكومة عرضا : ثلاثون دولارا للمسدس الواحد ٠ ولم يصل اليها الرد بعد ، ولكننى حصلت على مشتر يدفع خمسة وثلاثين دولارا ، علاوة على ثلاثة دولارات عمولة لك والتسليم فورا فى الميناء ٠٠ حيثما يريد القبطان ، على شرط أن يكون ذلك فى الميناء ٠ ويستطيع أن يغادر مرساه حالا ، وسيتم التسليم الليلة ، مع دفع النقود ٠ وقد وافق مندوبه : وهذا هو العقد » ٠

وناوله الورقة ، وأشعل قداحته ، وهو يحميها بيده ٠

وحدث كلابيك نفسه قائلاً وهو يتأمل العقد : انه يريد أن يفسد الصفقة على المشترى الآخر ٠٠ « قطع منفصلة » والحصول على خمسة دولارات عن كل سلاح ٠ هذا واضح ، ولكن ماذا يعنينى من هذا كله » اذا كنت سأحصل على ثلاثة دولارات لنفسى ٠

قال بصوت مرتفع : « اتفقنا ٠٠ وتترك لى العقد طبعا » ٠

ـ « أجل ، وهل تعرف القبطان ؟ »

ـ « ياصديقى ، هناك أشخاص أعرفهم معرفة أفضل من ذلك ، ولكننى على كل حال ، أستطيع أن أقول اننى أعرفه » ٠

ـ « من الممكن أن يرتاب فى الأمر ( وخاصة ، وهو موجود فى مكانه ذاك من النهر ) ، وتستطيع الحكومة أن تستولى على الأسلحة ، بدلا من أن تدفع ، أليس كذلك ؟ »

ـ « مطلقا ! »

وعاد مهرجا مرة أخرى ٠ غير أن كيو كان ينتظر الجزء التالى من كلامه : فماذا يملك القبطان حتى يستطيع أن يمنع رجاله هو ( لا رجال الحكومة ) من الاستيلاء على الأسلحة ؟ واستطرد « كلابيك » قائلا بصوت مكتوم :

ـ « لقد بعث هذه الأشياء مورد رسمى ، وانى لأعرفه » ٠

ثم بلهجة المتهكم : « انه خائن ٠٠ »

ورن الصوت رنينا غريبا فى الظلام ، اذ لم يكن يصاحبه أى تعبير

بالوجه ‥ لقد صدر عنه وكأنه يطلب كأسا من الكوكتيل :

ــ « انه خائن حقيقي · عاتي الخيانة ! اذ يمر هــــذا كله عن طريق مفوضية تقوم ‥ لا تتفوه بكلمة ! سأتولى هذا الموضوع · ولكن ذلك سيكلفني أولا مبلغا جسـيما أدفعه لسـيارة الأجرة : فالسفينة بعيدة ··· ولم يبق معي ‥ »

وفتش في جيوبه ، فلم يجد سوى ورقة مالية واحدة ، واستدار لكي يسقط عليها ضوء اللافتة ·

« عشرة دولارات ، ياعزيزي ! هذا لا يكفي ، وسأشتري حالا من عمك « كاما » بعض لوحاته بلا شك من أجل فيرال ، ولكن في هذه الأثناء ··· »

ــ « خمسون ‥ أيكفيك هذا ؟ »

ــ « هذا أكثر مما ينبغي ‥ »

وأعطاه كيو النقود ·

ــ « ستخطرني في منزلي حالما ينتهي الأمر » ·

ــ « اتفقنا » ·

ــ « في ظرف ساعة ؟ »

ــ « أكثر من ذلك ، على ما أظن · ولكن حالما أستطيع » ·

وبنفس اللهجة التي قالت بها الروسية هــــذه العبارة « لو أن الخمر لا تسبب لي مرضا » ، وبنفس الصوت تقريبا ، كأنما استولى ذلك اليأس بعينه على كل من في هذا المكان ، قال : « أليس هذا كله عجيبا ؟ ‥ »

وابتعد ، خافض الأنف ، محني الظهر ، عاري الرأس ، وقد وضع يديه في جيبي الاسموكنج ·

واستدعى كيو سيارة أجرة ، قادته الى حدود منطقة الامتيازات ، عند أول زقاق في المدينة الصينية ، حيث كان قد تواعد مع « كاتوف » ·



وصل « كاتوف » ــ بعد أن ترك كيو بعشر دقائق ــ وصــل الى حجرة بيضاء عارية من الأثاث ، تضيئها اضاءة مسنة مصابيح ــ العاصفة ، وذلك

بعد أن اجتاز دهاليز ، وعبر أبوابا · ولم تكن ثمة نوافذ · وتحت ذراع الرجل الصينى الذى فتح له الباب ، شاهد خمسة رءوس منكبة على المائدة ، ولكنها تركز نظراتها عليه ، على قوامه الفارع الذى تعرفه فرق الهجـوم جميعا : ساقان متباعدتان ، وذراعان متأرجحان ، وصديرى غـير مقفل فى أعلاه ، وأنف مشرع فى الهواء ، وشعر غير ممشط · وكانوا يفحصون قنابل يدوية من أحجام مختلفة · انها فرقة « تشون » tchon احدى منظمات القتال الشيوعية التى أنشاها هو وكيو فى شنغهاى ·

وسأل باللغة الروسية : « كم تطوع من الرجال ؟ »

ـ « مائة وثمانية وثلاثون » · وكان الشخص الذى أجابه أصغر شاب صينى من الموجودين ·· مراهقا ذا رأس صغيرة ، تبرز فى عنقه «تفاحة آدم» بروزا واضحا ، وله كتفان متهدلتان ، وقد ارتدى ثياب العمال ·

ـ « لابد لى من اثنى عشر رجلا هذه الليلة » ·

وكانت كلمة « لابد » تتردد على لسان كاتوف بكل اللغات التى يعرفها ·

ـ « متى ؟ »

ـ « الآن » ·

ـ « هنا ؟ »

ـ « كلا : أمام حوض السفن ين ـ تانج » ·

وألقى الرجـل الصـينى ببضعة تعليمـات ، فغادر المـكان واحـد من الرجال ·

وقال الرئيس : « سيكونون هناك قبل الساعة الثالثة » ·

وكان يبدو بوجنتيه الغائرتين وجسمه الطويل الهزيل ، شديد الضعف، غير أن التصميم الذى يشيع فى لهجته ، وثبات عضلات وجهه ، كانا يشهدان بارادة مستندة تمام الاستناد على الأعصاب ·

وسأل كاتوف : « والتعليمات ؟ »

ـ « فيما يتعلق بالقنابل اليدوية ، تم كل شيء ·· ويعرف الرفاق الآن أنواع قنابلنا · أما بالنسبة للمسدسات ـ من طرازى ناجان وموزر عـلى الأقل ـ فستسير الأمور على ما يرام أيضا · وقد جعلتهم يعملون بخراطيش

فارغة ، ولكن يجب أن يطافوا رصاصات حقيقية ، حتى ولو كان ذلك على غير هدف ٠٠ وهناك من عرض على أن يعيرنا كهفا مأمونا تماما » ٠

وأثير هـــذا السؤال نفسه ، فى كل حجرة من الحجرات الأربعين التى تعد فيها الثورة ٠

ــ « لا وجود للذخيرة ، ولعلها تصل ، أما فى اللحظة الحاضرة ، فلا داعى للحديث عنها ٠ والبنادق ؟ »

ــ « ستصل هى أيضا ٠ وانما المدفع الرشاش هو الذى يقلقنى ، ان لم نتدرب قليلا على اطلاق الرصاص الحي » ٠

وكانت « تفاحة آدم » ترتفع وتنخفض تحت جلده ، فى كل اجابة من اجاباته ، ومضى قائلا : « ولكن ، ألا توجد وسيلة للحصول على مزيد من الأسلحة ؟ سبع بنادق ، وثلاثة عشر مسدسا ، واثنتان وأربعون قنبلة يدوية محشوة ، هذا معناه أن نصف الرجال لا يملكون أسلحة على الاطلاق » ٠

ــ « سنمضى لنأخذها ممن يملكونها ٠ وربما استطعنا أن نحصل عـلى المسدسات حالا ٠ واذا تم لنا ذلك غدا ، فكم من الرجال فى قسمك لن يعرفوا استخدام أسلحتهم النارية ؟ »

وفكر الرجل هنيهة ، وقد أضفى عليه الانتباه استغراقا تاما ٠ وقال كاتوف لنفسه : « انه مثقف » ٠

ــ « حين نستولى على بنادق رجال البوليس ؟ »

ــ « لابد من ذلك » ٠

ــ « أكثر من النصف » ٠

ــ « والقنابل اليدوية ؟ »

ــ « الجميع يستطيعون استخدامها ، وبصورة جيدة جدا ٠ ولدى هنـا ثلاثون رجلا يمتون بصلة القرابة الى الذين عذبوا فى فبراير ٠٠ الا اذا ٠٠ »

وتردد ، ثم ختم جملته بحركة غامضة ٠٠ وكانت يده مشوهة ، ولكنها مرهفة ٠

ــ « الا اذا ٠٠ ؟ »

ــ « الا اذا استخدم هؤلاء الأوغاد الدبابات ضدنا » ٠

ونظر الرجال الستة الى كاتوف ، فأجاب : « لا أهمية لذلك • وعليك أن تأخذ قنابلك اليدوية ، وأن تربط كل ست منها معا ، وأن تدسها تحت الدبابة ، ولن تلبث أن تتطاير فى الهواء بعد ثوان • واذا ساءت الأمور فانكم تستطيعون أن تحفروا حفرا فى اتجاه واحد ، على الأقل •• ألديكم أدوات؟ »

ـ « قليلة جدا •• ولكننى أعرف أين نستولى عليها » •

ـ « حاول أن تستولى أيضا على دراجات : فاذا بدأت الثورة ، ينبغى على كل قسم أن يكون لديه مندوب اتصال ، بالاضافة الى مندوب مركز القيادة » •

ـ « وهل أنت على ثقة من أن الدبابات سوف تنفجر ؟ »

ـ « تماما ! ولكن لا تشغل بالك بهذه المسألة : لأن الدبابات لن تغادر الجبهة • واذا غادرتها ، فسوف أحضر مع فريق خاص • هذا شأنى » •

ـ « واذا بوغتنا ؟ »

ـ « من الممكن رؤية الدبابات عن بعد : ولدينا مراقبون الى جوارنا • فاحمل أنت حزمة من القنابل اليدوية ، وأعط واحدة لكل شخص من الثلاثة أو الأربعة أشخاص الذين تعتمد عليهم كل الاعتماد » •

وكان رجال هذا القسم يعرفون جميعا أن كاتوف ـ الذى حكم عليه بالنفى عقب مسألة أودسا ـ فى معتقل للأشغال الشاقة أقل قسوة من سواه ـ قد طلب أن يرافق عن طيب خاطر بعض أولئك التعساء الذين أرسلوا الى مناجم الرصاص ليقوم بتعليمهم ، كانوا يثقون به ، ولكنهم ما برحوا قلقين • ولم يكونوا يخشون البنادق أو المدافع الرشاشة ، ولكنهم كانوا يخافون الدبابات: اذ يعتقدون أنهم عزل فى مواجهتها • بل حتى فى هذه الحجرة التى لم يكن فيها غير متطوعين ، وكلهم أقارب الأشخاص الذين عذبوا ـ كانت الدبابة فى نظرهم وريثة قوة الشياطين •

واستأنف « كاتوف » الحديث قائلا : « لا تخشوا شيئا من مجىء الدبابات ، فسوف نكون لها بالمرصاد » •

ولكن ، كيف يخرج عقب هذا القول الذى لا يجدى فتيلا ؟ وكان قد قام ـ بعد الظهر ـ بالتفتيش على خمسة عشر قسما ، ولكنه لم يلتق بالخوف •• ولم يكن هؤلاء الرجال أقل شجاعة من الآخرين ، ولكنهم أكثر دقة فى التفكير •

وكان يعلم أنه لن يستطيع تخليصهم من خوفهم ، وأن التشكيلات الثورية خليقة بأن تلوذ بالفرار أمام الدبابات ، فيما عدا الخبراء الذين يتولى هو قيادتهم • وكان من المحتمل ألا تستطيع الدبابات مغادرة الجبهة ، ولكنها اذا وصلت الى المدينة ، فانه يكون من المحال حينئذ ايقافها بواسطة حفر فى تلك الأحياء التى تقطعها أزقة كثيرة •

قال : « لن تغادر الدبابات الجبهة على الاطلاق » •

وسأله أصغر شاب صينى بين الموجودين : « ولكن ، كيف نحزم القنابل اليدوية معا ؟ »

واخذ « كاتوف » يشرح له الطريقة • وخف جو التوتر ، وكان هـذه العملية اليدوية ضمان النصر ضد الطوارىء المقبلة • واستغل « كاتوف » هذه الفرصة للانصراف ، ولكنه مازال مهموما •• ان نصف الرجال لايعرفون استعمال أسلحتهم ، ولكنه يستطيع ـ على الأقل ـ أن يعتمد على أولئك الذين شكل منهم فرقا للقتال ، وكلفهم بتجريد البوليس من سلاحه غدا • ولكن ماذا بعد غد ؟ ان الجيش يتقدم ويقترب ساعة بعد أخرى ، ويعتمد على قيام المدينة بالثورة • وربما استولى فعلا على المحطة الأخيرة • وحين يعود كيو ، سيعرفان ذلك بلاشك من أحد مراكز الاستعلامات • أما تاجر المصابيح فلم يصل الى علمه شىء منذ الساعة العاشرة •

وانتظر « كاتوف » برهة فى الزقاق ، دون أن يكف عن المشى • وأخيرا وصل كيو ، فاطلع كل منهما الآخر على ما فعل • واستأنفا سيرهما فى الوحل بحذاءيهما المصنوعين من المطاط الثقيل : كيو ، صغيرا مرنا كالقط اليابانى ، وكاتوف ، مؤرجحا كتفيه ، ومفكرا فى الجنود الذين يتقدمون ـ ببنادقهم اللامعة من جراء المطر ـ نحو شنغهاى المتوهجة فى أعماق الليل •• وكان كيو يريد بدوره أن يعرف ما اذا كان هذا الزحف قد أوقف •

أما الزقاق الذى مضيا يسيران فيه ، وهو أول زقاق فى المدينة الصينية ـ فكان بسبب مجاورته للمنازل الأوروبية ـ هو زقاق تجار الماشية • وكانت الحوانيت كلها مغلقة ، ولم يكن ثمة حيوان واحد فى الخارج ، وما من صوت يعكر صفو السكون بين نداءات الصفارة وقطرات المطر الأخيرة التى تتساقط

فى برك المياه من سقوف المنازل ذات القرون • كانت الحيوانات نائمة • ودلفا الى أحد هذه الحوانيت بعد أن طرقا بابه • انه حانوت أسماك حية • وكان الضوء فيه مقصورا على شمعة غرست فى حامل، ينعكس ضوؤها الخافت على الجرار المشعة المرصوصة كأنها جرار « على بابا » ، وفيها ترقد أسماك الشبوط الصينية الشهيرة دون أن تتبينها العين •

سأل كيو : « غدا ؟ »

ـ « غدا ، الساعة الواحدة » •

فى مؤخرة الحانوت ، خلف منضدة الحساب ، كان يرقد شخص غير واضح المعالم على ذراعه المثنية • انه لم يكد يرفع رأسه لكى يجيب • لقد كان هذا الحانوت أحد المراكز الأربعة والعشرين التى يستخدمها الكومنتانج لنقل الأخبار •

ـ « وهل تقرر ذلك رسميا ؟ »

ـ « أجل • والجيش قد وصل الآن الى تشنج ـ تشيو • والاضراب العام عند الظهيرة » •

ولم يتغير شيء فى الظلال ، ولم يبد التاجر الراقد فى مؤخرة حانوته الصغير أية حركة ، وانما بدأ السطح المشع الذى تؤلفه تلك الجرار يهتز اهتزازا خفيفا : وصعدت أمواج رخوة سوداء متجمعة فى هدوء•• ذلك أن رنين الأصوات أيقظ الأسماك النائمة ••• ودوت صفارة مرة أخرى ، ولكنها لم تلبث أن تبددت فى الأفق البعيد •

وخرجا ، واستأنفا سيرهما ، دون أن يتجاوزا شارع الجمهوريتين • واستدعيا سيارة أجرة ، انطلقت فى الحال بأقصى سرعة كما تنطلق السيارات فى الأفلام • وانحنى « كاتوف » الذى كان يجلس على اليسار، ونظر الى السائق بانتباه •

ـ « انه من مدمنى الأفيون •• وا آسفاه ! اننى مصر على ألا أقتل قبل مساء الغد • تمهل •• يا بنى ! »

قال كيو : « وعلى هذا فان كلابيك سيتولى احضار الزورق ، ويستطيع الرفاق الذين يعملون بمخازن مهمات الحكومة أن يزودونا بثياب رجال البوليس ••• »

ــ « لا داعى لذلك ، فلدى أكثر من خمس عشرة حلة بالمخزن » ·

ــ « فلنأخذ رجالك الاثنى عشر فى الزورق البخارى » ·

ــ « يستحسن ألا تكون معهم ··· »

ونظر اليه كيو دون أن يقول شيئا ·

ــ « ليس الأمر شديد الخطورة ، ولكنه ليس يسيرا كل اليسر ، كما ترى · انه أخطر من الركوب مع هذا السائق المعتوه الذى يوشك أن يستأنف اسراعه · وليس هذا هو الوقت المناسب لمصرعك » ·

ــ « ولا لمصرعك أنت أيضا » ·

ــ « ليس الأمر سواء ، فمن الممكن أن يحل مكانى أحد سواى ··· فاهم ··· وأفضل أن تهتم أنت بسيارة النقل التى سوف تنتظر ، وبتوزيع الأسلحة » ·

وتردد ، وقد أصابه الارتباك ، ووضع يده على صدره ، وقال لنفسه : « ينبغى أن أدعه يفكر فى الأمر مليا » · ولم يتفوه كيو بشىء · وواصلت السيارة انطلاقها بين صفين من الأضواء التى غشاها الضباب · لم يكن ثمة شك فى أنه أنفع من كاتوف : فاللجنة المركزية تعرف تفاصيل خططه كلها ، ولكن بالأرقام ، أما هو فقد كان يحيا هذه التفاصيل ، وكانت المدينة تسرى مسرى الدماء فى عروقه ، وكأن مواطن ضعفها هى جروحه الخاصة · ولم يكن بين رفاقه من يستطيع أن يتصرف بمثل سرعته وسداده ·

قال : « اتفقنا » ·

وأخذت الأضواء تتكاثر شيئا فشيئا ··· وظهرت من جديد السيارات المصفحة فى مناطق الامتيازات ، ثم خيمت الظلمة مرة أخرى ·

ووقفت السيارة ، ونزل منها كيو ·

قال كاتوف : « انى ذاهب لاحضار الثياب ، وسأصحبك حين يتم الاستعداد » ·



كان كيو يقطن مع أبيه منزلا صينيا لا يعدو الطابق الأرضي ، ويتألف من

أربعة أجنحة تحيط بحديقة . واجتاز الجناح الأول ثم الحديقة ، ودلف الى قاعة قد زينت جدرانها البيض على اليمين وعلى اليسار ، رسومات ترجع الى عهد أسرة سونج (١) Song وعنقاوات زرقاء على طريقة شاردان (٢) ، وفى المؤخرة تمثال لبوذا من أسرة « واى » منحوت على الطراز الرومانى ، ومتكئات نظيفة ، ومنضدة للأفيون . وبدت النوافذ خلف كيو عارية كنوافذ المرسم . وما كاد والده يسمع صوته ، حتى دخل . لقد كان يعانى منذ عدة سنوات من داء الأرق ، فلم يكن يغفو أكثر من بضع ساعات عند الفجر ، ولهذا كان يرحب مسرورا بكل ما يمكن أن يملأ ليله .

ـ « مساء الخير يا أبتاه ... سوف يأتى تشن لزيارتك »

ـ « جميل » .

ولم تكن ملامح « كيو » هى ملامح أبيه ، ومع ذلك ، فقد كان يبدو أن دماء والدته اليابانية كانت كافية لتخفيف صرامة رأس الراهب المتنسك الذى يحمله « جيسور » العجوز ـ وهى صرامة أبرزها هذه الليلة رداؤه المصنوع من وبر الابل ـ لتحبو ابنه وجه مقاتل من « الساموراى » .

ـ « هل حدث له شيء ؟ »

ـ « أجل » .

ولم يوجه سؤالا آخر . وجلس الاثنان . ولم يكن « كيو » يشعر بالنعاس ، فأخذ يقص على والده قصة « كلابيك » دون أن يذكر شيئا عن الأسلحة . ولم يكن ذلك لأنه لا يثق بوالده ، وانما لحرصه على أن يكون المسئول الوحيد عن مصيره ، فما كان يطلع أحدا على أكثر من مجمل لأفعاله . ومع أن هذا الشيخ ـ أستاذ علم الاجتماع بجامعة بكين الذى طرده « تشانج ـ تسو ـ لين » بسبب تعاليمه ـ قد شكل أفضل اطار تورى فى الصين

---

(١) هى الأسرة المالكة الصينية التاسعة عشرة . وقد حكمت من سنة ٩٦٠ م الى سنة ١٢٨٠ م . (المترجم)

(٢) مصور فرنسى (١٦٩٩ـ١٧٧٩) يعد من أعظم المصورين الفرنسيين الواقعيين فى القرن الثامن عشر . (المترجم)

الشمالية ، الا أنه لم يكن يشارك فى العمل الثورى نفسه • وما أن يلج كيو هذا المكان حتى يشعر أن ارادته تتحول الى عقل ، وهو شيء لا يكاد يحبه ، فهو يهتم بالكائنات بدلا من أن يهتم بالقوى • ولأنه كان يتحدث عن كلابيك الى أبيه الذى يعرفه معرفة طيبة ، فقد بدا له البارون أشد غموضا من الشخص الذى كان ينظر اليه منذ لحظة •

ــ « ••• وانتهى به الأمر الى أن طلب منى خمسين دولارا ••• »

ــ « انه لا يريدها لنفسه ، يا كيو ••• »

ــ « ولكنه كان قد أنفق لتوه مائة دولار : شاهدته يفعل ذلك بعينى رأسى • ان جنون الكذب شيء محير دائما » •

وكان يريد أن يعرف الى أى مدى يستطيع أن يواصل استخدام كلابيك • أما والده فكان ــ كعهده دائما ــ يبحث عما فى هذا الرجل من صفات جوهرية أو فريدة • غير أنه من النادر أن نجعل رجلا ما يتصرف مباشرة بوحى من أعمق شيء فيه ، وكان كيو يفكر فى غدارته •

ــ « اذا كان فى حاجة الى الاعتقاد بأنه غنى ، فلماذا لا يحاول أن يغتنى؟ »

ــ « لقد كان أكبر تاجر للتحف فى بكين ••• »

ــ « لماذا ينفق اذن كل أمواله فى ليلة واحدة ، ان لم يكن ذلك لايهام نفسه بأنه غنى ؟ »

واختلجت عينا جيسور ، وألقى بشعره الأبيض الطويل الى الوراء ، واتخذ صوته ــ على الرغم مما يشيع فيه من وهن الشيخوخة ــ طابعا واضح المعالم كالخط الهندسى :

ــ « ان جنونه بالكذب وسيلة لانكار الحياة •• الانكار ، لا النسيان أليس كذلك ؟ ويحسن بك ألا تثق بالمنطق فى مثل هذه المسائل ••• »

وبسط كفه فى حركة مضطربة ، وكانت ايماءاته القصيرة لا تتجه يمينا أو يسارا ، وانما تتجه أمامه : كان يبدو أن حركاته التى يكمل بها جملة ما لا تنحى شيئا ، وانما تقبض على شيء •

ــ « كان يبدو عليه وكأنه يريد أن يثبت لنفسه ليلة أمس ــ أن الثراء لا وجود له ، على الرغم من أنه قد عاش ساعتين كما يعيش الأثرياء •• ولأنه

فى هذه الحالة لا يعود للفقر وجود أيضا • وهذا هو جوهر الموضوع • لاوجود لشيء • وما الأشياء كلها غير حلم • ولا تنسى الخمر التى تساعده •••»

وابتسم چيسور • وكانت ابتسامة شفتيه الهزيلتين، بطرفيهما المتهدلين، تعبر عنه تعبيرا أدق من الكلمات التي ينطق بها • وكان قد راض عقله منـذ عشرين عاما على محبة الناس بالتماس المعاذير لهم ، ولهذا كانوا يقدرون عطفه، دون أن يفطنوا الى أن هذا العطف انما يضرب بجذوره فى الأفيون • وبينا كانوا يرون فى حلمه سجية من سجايا البوذيين ، كان هذا الحلم فى الواقع هو حلم مدمنى الأفيون •

وأجاب كيو : « لا يستطيع انسان أن يواصل الحياة اذا أنكرها » •

ـ « انها طريقة سـيئة للحيـاة •• ولكنه فى حاجة الى أن يحيا حياة سيئة » •

ـ « فهو مضطر الى ذلك » •

ـ « اضطرارا من صنع تجارة التحف ، وربما المخدرات ، وتهريب الأسلحة بالتواطؤ مع البوليس الذى يمقته بالطبع ، ولكنه يتعاون فى هـذه الأعمال الصغيرة كنوع من الجزاء العادل •••»

ولم يكن لذلك خطر فى رأى البوليس ، الذى كان يعلم أن الشيوعيين لا يملكون ما يكفى من المال لشراء الأسلحة ممن يستوردونها فى الخفاء •

قال كيو : « ان لكل انسان نوع الألم الذى يلائم طبيعته • ولكن ما الذى يجعله يتعذب ؟ »

ـ « لم يعد لألمه من الأهمية ، أو من المعنى ـ أليس كذلك ؟ ـ ولا من العمق ما يفوق أكاذيبه أو سروره ، انه يخلو تماما من كل عمق ، وربما كان هذا ما يصوره أحسن تصوير ، لأنه شيء نادر • وهو يفعل ما فى وسعه من أجـل ذلك ، ولكنه يحتاج الى مواهب ••• وحين لا تكون مرتبطا بشخص ما يا « كيو » ـ فلابد من أن تفكر فيه لكى تتنبأ بأفعاله ! وأفعال كلابيك••»

وأشار الى حوض الأسماك ، حيث كانت تصعد وتهبط كيفما اتفق أسماك الشبوط السوداء ، الرخوة ، المدببة الأطراف كأعلام القتال •

ـ « ها هى ذى •• انه يشرب الخمر ، ولكنه خلق لتعاطى الأفيـون ،

فالناس يخطئون أحيانا فى انتقاء رذائلهم ، وكثيرا منهم لا يلتقون بالرذيلة التى يمكن أن تنقذهم • شيء مؤسف ، لأنه أبعد من أن يكون بلا قيمة • غير أن مجاله لا يعنيك » •

وكان هذا حقا • لقد كان « كيو » اذا انقطع هذه الليلة عن التفكير فى القتال فانه لم يكن يستطيع أن يفكر الا فى نفسه • سرى فيه الدفء شيئا فشيئا ، كما حدث له ذلك فى « القط الأسود » منــذ لحظة ، ومن جديد ، استولى عليه خاطر الاســطوانة الملح ، كما يمشى دفء الراحة الخفيف فى ساقيه • رقص على والده ما أحس به من دهشة أمام الاسطوانات ، غير أن قصته كانت توحى بأن الأمر يتعلق بتسجيل من تلك التسجيلات التى تتم فى المحلات الانجليزية • وأنصت اليه جيسور ، وهو يربت على ذقنه المدببة بيده اليسرى • وكانت يداه بأناملهما النحيلة بديعتين جدا • وكان قد أمال رأسه الى الأمام ، فسقط شعره على عينيه رغم اتساع جبينه • ولكنه لم يلبث أن أزاحه بحركة من رأسه دون ان يفارق الشرود نظراته :

ــ « لقد تصادف أن وجدت نفسى أمام مرآة ، فلم أتعرف على نفسى •• »

وكان يدلك بابهامه أصابع يده اليمنى تدليكا رفيقا ، وكأنه ينشر مسحوقا من الذكريات • وكان يتحدث الى نفسه ، متعقبا فكره ، دون أن يدخل فى حسابه وجود ابنه :

ــ « لاشك أنها مسألة وسائل : فنحن نسمع صوت الآخرين بآذاننا » •

ــ « وصوتنا ؟ »

ــ « عن طريق الحلق : فانك اذا ســددت أذنيك ، سمعت صــوتك • والأفيون ينتمى هو أيضا الى عالم لا نسمعه بآذاننا ••• »

ونهض كيو ، دون أن يلحظه أبوه •

ــ « ينبغى أن أخرج مرة أخرى هذه الليلة » •

ــ « هل أستطيع أن أفيدك بشىء يتعلق بكلابيك ؟ »

ــ « كلا •• أشكرك •• نعمت مساء » •

ــ « نعمت مساء » •



انتظر « كيو » راقدا ، فى محاولة لتخفيف احساسه بالتعب • لم يوقد

ضوءا ، ولم يتحرك من مكانه • ولم يكن يفكر فى الثورة ، وانما الثورة التى تحيا فى كثير من الرءوس كما يحيا النوم فى رءوس أخرى ـ هى التى كانت تجثم عليه بحيث لم يعد سوى قلق وانتظار • مجموع البندقيات أقل من أربعمائة •• انه النصر ، أو الرمى بالرصاص ، مع بعض التجويد ! غدا •• كلا : فى الحال • مسألة سرعة : تجريد البوليس من سلاحه ، وتسليح فرق القتال بخمسمائة مسدس موزر قبل أن يتدخل الجنود الذين يحملهم القطار الحكومى المصفح • من المقدر أن تبدأ الثورة فى الساعة الواحدة ـ والاضراب العام ، بالتالى ، عند الظهر • فينبغى أن يتسلح الشطر الأكبر من فرق القتال قبل الساعة الخامسة • أما الجماهير فكانت على أهبة الاستعداد • وليس من شك أن نصف رجال البوليس الذين يعانون هم أنفسهم من شظف العيش ، سينضمون الى الثوار • ويبقى النصف الآخر • وجال فى خاطره : « الصين السوفيتية ••• » الاعتراف بكرامة قومه ، ورفع تعداد الاتحاد السوفيتى الى ستمائة مليون نسمة • وسواء أكان النصر أم الهزيمة •• فان مصـير العالم يحوم الليلة بالقرب من هذا المكان •• اللهم الا اذا حاول الكومنتانج ـ بعد الاستيلاء على شنغهاى ـ أن يسـحق حلفاءه الشيوعيين •• وقفز من مكانه : ها هو باب الحـديقة يفتح •• وطغت الذكرى عـلى القلق •• أهى زوجته ؟ وأرهف سمعه •• وأغلق باب المنزل ثانية • لقد دخلت « ماى » • كان معطفها المصنوع من الجلد الأزرق والذى يكاد يشبه معاطف العسكريين يضاعف من طابع الرجولة فى مشيتها ، بل وفى ملامحها : فم واسع ، وأنف قصير ، ووجنتان ناتئتان تميزان أهل شمال ألمانيا •

ـ « هل سيبدأ كل شىء حالا ، يا كيو ؟ »

ـ « أجل » •

كانت طبيبة باحدى المستشفيات الصينية ، ولكنها كانت قادمة من هيئة النساء الثوريات التى كانت تشرف على ادارة مستشفاها السرى •

ـ « انه دائما نفس الشىء كما تعلم : فقد تركت لتوى صبية فى الثامنة عشرة من عمرها حاولت أن تنتحر بحد الموسى فى محفة العرس ، اذ أرغمها أهلها على الزواج من حيوان محترم • وحملوها الى المستشفى فى ثوب الزفاف الأحمر الذى لطخته الدماء ، وسارت وراءها أمها أشبه بطيف قزم صغير ، تنتحب بالطبع • وحين أخبرتها بأن الفتاة لن تموت قالت لى : « يا للمسكينة

الصغيرة ! ومع ذلك فقد منحت لها فرصة الموت ·· » فرصة ·· ان هـذه الكلمة تقول وحدها أكثر مما تقوله خطبنا جميعا عن حالة النساء هنا ·· »

كانت ألمانية الأصل ، ولكنها ولدت فى شنغهاى ، وتخرجت فى الطب من هيدلبرج وباريس ، وتتحدث اللغة الفرنسية دون أن تشوبها أية لكنة · وألقت بقلنسوتها على السرير · وكان شعرها المتموج مرسلا الى الوراء ، حتى يسهل تمشيطه · وراودته رغبة فى أن يربت على شعوها · وكان لجبينها العريض طابع رجولى أيضا ، غير أنها منذ أن كفت عن الحديث ـ ولم يحول « كيو » عنها نظراته ـ عاودتها الأنوثة أولا : لأن تخليها عن الارادة أضفى على قسماتها شيئا من الوداعة ؛ وثانيا : لأن التعب أرخى عضلاتها ؛ وثالثا : لأنها خلعت غطاء رأسها · ويشيع الحياة فى محياها فم شـهوانى ، وعينان واسعتان ، شفافتان ، صافيتان الى درجة أن نفاذ نظراتها لا يبدو صادرا عن حدقتيها ، بل عن الظل الذى يلقيه جبينها على محجريها البيضاوين ·

واجتذب الضوء كلبا پيكينيا أبيض ، أقبل يخب فى مشيته ، فداعبته قائلة بصوت مكدود : « أيها الجرو ، ذو الشعر الكثيف · المهفهف الغزير · »

وأمسكت به بيسراها ، ورفعته الى وجهها تعانقه ، وقالت باسمة :

« أيها الأرنب ··· المتأرنب ··· »

قال كيو : « انه يشبهك · »

ـ « أليس كذلك ؟ »

ونظرت فى المـرآة الى الرأس البيضاء الملتصقة برأسها ، فوق أقدام صغيرة متقاربة · لقد صدر ذلك الشبه الطريف بينهما عن وجنتيها الجرمانيتين البارزتين · وعلى الرغم من أنها لم تكن جميلة الا تجـاوزا ، فقد تذكر تلك التحية التى ألقاها عطيل بعد أن أدخل عليها شيئا من التعديل : « يا فارستى العزيزة ·· »

ووضعت الكلب عـلى الأرض ، ثم نهضت · ونم معطفها نصف المفتوح عن نهدين كاعبين يذكران المرء بوجنتيها · وقص عليها « كيو » ما حدث له تلك الليلة ·

وأجابت : « استقبلت المستشفى هـذا المساء ما يقرب من ثلاثين فتاة من هيئة الدعاية ، استطعن الهرب من الجنود البيض ·· جريحات · ومازالت

المستشفى تستقبل المزيد منهن • وتقول الفتيات ان الجيش قريب جدا •• وان هناك كثيرا من القتلى ••• »

ـ « ونصف الجرحى سيموتون •• لا يمكن أن يكون للالام معنى الا حين لا يؤدى الى الموت ، وانه ليؤدى اليه دائما •• »

واستغرقت ماى فى التفكير ، ثم قالت أخيرا : « أجل •• ومع ذلك ربما كانت هذه الفكرة من أفكار الرجال •• أما بالنسبة لى •• أنا المرأة ، فان الألم ـ وهذا شىء غريب ـ يجعلنى أفكر فى الحياة أكثر مما أفكر فى الموت•• ربما بسبب أوجاع الولادة •• »

واستغرقت مرة أخرى فى التفكير : « كلما زاد عدد الجرحى ، واقتربت الثورة كثرت المضاجعة • »

ـ « هذا واضح » •

ـ « ينبغى أن أخبرك بشىء ، ربما ضايقك قليلا ••• »

وكان يتكىء على مرفقه ، فنظر اليها متسائلا • وكانت ذكية جريئة ، ولكنها تفتقر فى كثير من الأحيان الى اللباقة •

ـ « لقد انتهى بى الأمر الى مضاجعة « لنجلن » بعد ظهر اليوم •• »

وهز كتفيه وكأنه يريد أن يقول « هذا شىء يعنيك وحدك » • غير أن حركته ، والتعبير المتوتر المرتسم على وجهه ، لم يكونا ملائمين لعدم الاكتراث هذا • وسددت اليه بصرها ، تلوح عليها علامات الارهاق الشديد ، وقد بالغ فى ابراز خديها ما يسقط عليهما من ضوء عمودى • ونظر بدوره فى عينيها المحتجبتين فى الظل ، الخاليتين من أية نظرة ، ولم يقل شيئا • وسأل نفسه ألا يمكن أن يكون التعبير الشهوانى الذى يتسم به وجهها ناشئا عن التقابل القائم بين عينيها هاتين المحجوبتين ، واكتناز شفتيها اكتنازا خفيفا ، وبين بقية ملامحها •• هذا التقابل الذى يؤكد أنوثتها تأكيدا عنيفا • وجلست على السرير وأمسكت بيده • وكاد يسحبها ، ولكنه استسلم لها • غير أنها أحست بحركته :

ـ « أيؤلمك هذا ؟ »

ـ « قلت لك انك حرة • » وأضاف فى مرارة : « فلا داعى لأن تطلبى ما هو أكثر من ذلك » •

ووثب الجرو على السرير ، فسحب يده ، ربما لكي يربت عليه •
وأعاد قوله : « أنت حرة •• وكل ما عدا ذلك قليل الأهمية » •
ـ « ومع ذلك ، فقد كان « ينبغي » أن أخبرك •• ولو كان ذلك من أجل راحة نفسي » •
ـ « نعم » •
ـ « أما أنه كان من واجبها أن تخبره ، فأمر لم يكن يشك فيه أحدهما • وأحس برغبة في أن ينهض فجأة : فان وضعه وهو راقد على هـذا النحو ، وهي جالسة على سريره كأنه مريض تسهر عليه •• ولكن ، لأية غاية ؟ لقد بات كل شيء بلا جدوى •• ومع ذلك ، واصل النظر اليها ، واكتشاف أنها تستطيع أن تعذبه ، ولكنه أحس ايضا منذ شهور أنه سواء نظراليها أم لم ينظر، فانه لم يعد يراها •• وقد يرى أحيانا بعض التعبيرات المرتسمة على وجهها •• أما ذلك الحب العنيف الذى كثيرا ما كان يوحد بينهما كالطفل المريض ، وهذا المعنى المشترك لحياتهما وموتهما ، وهذا الاندماج الجسدى بينهما •• فلم يعد لشيء من هذا وجود ازاء المصير المحتوم الذى تبهت دونه الصـور التى تشبعت بها أنظارنا • وساءل نفسه : « ألعلى أحبها اقل مما أظن ؟ » كلا فحتى فى هذه اللحظة كان واثقا من أنهـا لو قضت نحبها ، فانه لن يخدم قضيته كما يخدمها الآن بحافز الأمل ، بل مجردا بأسـه ، وكأنه ميت هو أيضا • غير أن شيئا لن يحول دون زوال لون هذا الوجه المدفون فى أعماق حياتهما المشتركة ، كأنما يكتنفه الضباب ، أو يطويه الثرى • وتذكر صديقا قدر عليه أن يشهد أفول عقل المرأة التى يحبها بعد أن اصيبت بالشلل عدة شهور ، وخيل اليه أنه يشهد ماى وهى تموت على هذا النحو ، وأنه يشهد اختفاء صورة سعادته اختفاء لا مبرر له ، كما تتلاشى سـحابة فى السـماء الرمادية • كأنها ماتت مرتين ، مرة بفعل الزمن ، ومرة بفعل الاعتراف الذى أفضت به اليه •

ونهضت من مكانها ، ثم سارت حتى بلغت النافذة • كانت تسير بخطوات ثابتة رغم ما تعانيه من ارهاق • وآثرت بدافع من الخوف والحياء العاطفى ممتزجين ألا تعاود الحديث عن الاعتراف الذى أدلت به منذ لحظة ، ما دام هو قد التزم الصمت ، آثرت أن تتجنب تلك المحادثة التى كانت تشعر مع ذلك أنهما لن يستطيعا تجنبها ، فحاولت أن تعبر عن حنانها بأن تقول أى

شيء ولو كان تافها ، فعمدت ــ بوعى من غريزتها الأنثوية ــ الى الاهابة بروح فى الطبيعة يحبها : ففى مواجهة النافذة كانت شجرة من أشجار مارس قد تفتحت أثناء الليـل ، وكان نور الحجرة يسطع عـلى أوراقها التى ما زالت منكمشة بحيث تعلو خضرة رقيقة جسمها المعتم ، وقالت :

ــ « لقد أخفت أوراقها فى جذعها خـلال النهار ، وها هى ذى تخرجها الليلة بينما لا يراها أحد » .

وكان يبدو كأنها تناجى نفسـها ، ولكن هيهات أن يخفى على « كيو » معنى النغمة التى شاعت فى صوتها .

قال دون أن يفتح ما بين فكيه : « كنت تستطيعين اختيار يوم آخر . »

وكان يرى نفسه هو أيضا فى المرآة متكئا على مرفقه : وجه يابانى صميم بين هذه الملاءات البيضاء . « لو لم أكن مولدا . . » وبذل مجهودا عنيفا لكى يطرد الأفكار الحاقدة أو الوضيعة المتأهبة لتبرير غضبه واشـعاله . ونظر اليها ، وأطال النظر ، وكأنما يريد ــ بقسوة الألم الذى يصبه ــ أن يعيد الى هذا الوجه ما فقده من نضارة .

ــ « ولكن اليوم ــ يا كيو ــ هو اليوم الذى تصبح فيه هذه المسألة بالذات شيئا لا أهمية له . . . و . . . » .

وكادت تضيف : « وما أشد ما كان اشتهاؤه ! » . وفى مواجهة الموت ، يهون ذلك ، ولكنها قالت : « . . . وأنا أيضا ، يمكن أن أموت غدا . . »

هذا أفضل . . وكان كيو يعانى أشد الآلام اذلالا للنفس : الألم الذى يحتقر المرء نفسه لأنه يعانيه . لقد كانت فى الواقع حرة فى أن تضاجع من تشاء من الرجال . . فما مصدر هذا العذاب الذى لا يعترف له بحق واحـد عليه ، بينما يستأثر دونه بكل تلك الحقوق ؟

ــ « حين فهمت يا كيو أننى متمسكة بك ، سألتنى ذات يوم ــ وربما لم يكن ذلك بطريقة جدية تماما ، اذا كنت أعتقد أننى أستطيع الذهاب معك الى معسكر الاعتقال ، فأجبتك بأننى لا أدرى ، وأن العسير فى المسألة هو بلاشك البقاء فى ذلك المكان . . ومع ذلك ، فقد جال بخاطرك أننى أستطيع أن أفعل ذلك ، مادمت أنت أيضـا تتمسك بى . . . فلمـاذا تنصرف الآن عن ذلك الاعتقاد ؟ »

ـ ذلك أن الذين يذهبون الى معسكر الاعتقال أشخاص معينون · كاتوف يمكن أن يذهب ، حتى ولو لم يحب حبا عميقا ·· انه يذهب من أجل فكرته عن الحياة ·· وعن نفسه ·· والمرء لا يذهب الى معسكر الاعتقال من أجل شخص ما » ·

ـ « يا لها من أفكار تنتمي الى عالم الرجل وحده ·· يا كيو ! »

وطفق يفكر ، ثم قال : « ومع ذلك ، فأن يحب الانسان أولئك الذين يستطيعون أن يفعلوا ذلك ، أو أن يحظى بحبهم ، ماذا ينتظر الانسان من الحب أكثر من ذلك ؟ يا له من جنون أن يحاسبهم بعد هـذا على سلوكهم ! وحتى لو فعلوا ذلك بدافع من أخلاقهم ··· »

قالت في لهجة متئدة : « ليس ذلك من أجل الأخلاق ·· فانني لن أكون قادرة بكل تأكيد أن أفعل ذلك ، في سبيل الأخلاق » ·

وقال هو أيضا بلهجة متمهلة « غير أن هذا الحب لم يمنعك من مضاجعة ذلك الشخص ، مع أنك كنت تدركين ــ كما قلت منذ لحظة ــ أن هـذا العمل سوف يثير ثائرتي ؟ »

ـ « كيو ، سأقول لك شيئا غريبا ، ولكنه صادق مع ذلك ·· كنت أعتقد منذ خمس دقائق فحسب ، أن الأمر سواء لديك ·· وربما لأن هذا الاعتقاد كان يريحني ·· ثمة نداءات ــ وخاصة حين يكون المرء قريبا الى هذا الحد من الموت ( وانه لموت الآخرين الذى اعتدت على مواجهته حتى الآن يا كيو ·· ) ··· لا علاقة لها بالحب ··· »

وعلى الرغم من هذا كله . فقد كانت الغيرة موجودة ، وربما كانت أدعى للحيرة بقدر ما كانت الشهوة الجنسية التى اثارتها فى نفسه قائمة على الحنان · كانت عيناه مغمضتين ، وقد استند على مرفقه ، وحاول ــ ويا لها من عملية تعسة ! أن يفهم · ولم يكن يسمع سوى أنفاس ماي المبهورة وأخاديش مخالب الكلب الصغير · ان جرحه راجع أولا ( ثمة جروح أخرى ــ وا أسفاه ! كان يشعر بها متوارية داخل نفسه كزملائه الذين يتوارون خلف الأبواب التى مازالت موصدة ) الى تفكيره فى أن الرجل الذى ضاجع « ماى » (لا أستطيع أن أدعوه مع ذلك عشيقها ) يضمر لها الاحتقار · وكان هذا الرجل زميلا من زملاء ماي فيما مضي ، أما هو فلم يكن يعرفه تقريبا ، وانما كان يعرف العداوة

التى يضمرها جل الرجال للنساء • « ان فكرة أن هذا الرجل قد ضاجعها ، ونتيجة لأنه ضاجعها يستطيع أن يقول عنها : « هذه العاهر الصغيرة ••• » هــذه الفكرة تجعلنى أود قتله • أو لن نغار أبدا الا مما نفترض أن الآخر يفترضه ؟ يا لها من انسانية بائسة ! » ولم يكن الجنس بالنسبة اليها ، علامة على ارتباطها بشىء : وهذا ما كان ينبغى أن يعرفه ذلك الشخص • فليضاجعها ـ هــذا شىء مفروغ منه ـ ولكن لا يتخيلن أنه بهذا يملكها • « لقد أصبحت مثارا للرثاء •• » ولكنه كان عاجزا عن مقاومة مشاعره ••• وكان يعلم أن هذا ليس هو الشىء الجوهرى ، فالشىء الجوهرى والذى كان يعذبه الى درجة القلق ، هو أنه قد انفصل عنها فجأة ••• لا بالبغض ••• وان يكن فى نفسه كثير من البغض ـ ولا بالغيرة ( أو لعل هــذه هى الغيرة بعينها ؟ ) وانما شعور لا اسم له •• شــعور يحمل من التدمير ما يحمله الزمان أو الموت : انه لا يستطيع أن يستردها • وفتح عينيه مرة أخرى •• أى كائن بشرى هــذا الجسد الرياضى المألوف ، وهذا الوجه الغائب ؟ عين مسحوبة تبدأ من الصدغ ثم تغوص بين الجبهة السافرة وبين الوجنة •• أهى المرأة التى ضاجعت لتوها رجلا ؟ أو ليست هى أيضا تلك التى كانت تتحمل ضعفاته وآلامه ، وسخطه ، المرأة التى عالجت معه رفاقه الجرحى ، وسهرت معه فى حضرة أصدقائه الموتى •• ان عذوبة صوتها مازالت تشيع فى الجو•• اننا لا ننسى ما نريد نسيانه • ومع ذلك فقد اتخذ هذا الجسد مرة أخرى طابع السر المؤلم لكائن نعرفه لم يلبث أن تحول فجأة •• فبدا لنا أصم ضريرا مخبولا ••• تلك كانت امرأة ، لا نوعا من جنس الرجـــال •• وانما شىء مختلف •••

لقد أفلتت منه تماما • ولعل ذلك ما جعله يشعر بنداء مهتاج الى الاتصال بها اتصالا قويا ، وهذا النداء كان يعمى بصيرته ، ولتكن نتائجه ما تكون • فزع •• صرخات •• ضربات •• فنهض ، واقترب منها • كان يعلم أنه اجتاز أزمة نفسية ، وأنه ربما لم يفهم غدا شيئا مما يعانيه اليوم ، ولكنه كان فى مواجهتها وكأنه ازاء شخص يحتضر •• ولهذا كانت غريزته تدفعه نحوها •• فالمرء يريد أن يلمس وأن يحس ، وأن يحتفظ بأولئك الذين يرحلون عنه ، وأن يتعلق بهم ••• ونظرت اليه فى قلق ، وهو يقف على بعد خطوتين منها• وأخيرا فطن ـ فى ومضة خاطفة ـ الى ما يريده •• انه يريد أن ينالها ، وأن يلوذ بهذا من الدوار الذى يفقدها فيه بأكملها •• وما كان على كل منهما أن

يعرف صاحبه حين يستخدمان كل قواهما فى احتضان جسديهما باذرعهما ٠

واستدارت بغتة ، فقد دق الجرس ٠ لم يحن بعد موعد مجىء كاتوف ٠ فهل افتضح أمر الثورة؟ تلاشى فى عنف كل مادار بينهما من حديث ، وماعاناياه منآلام ، وما أحباه ، وما أبغضاه ٠٠ ودقالجرس من جديد ٠ فتناول مسدسه المدسوس تحت الوسادة ، واجتاز الحديقة ، وفتح الباب وهو يرتدى ( البيجاما ) : لم يكن كاتوف وانما كان « كلابيك » ببذلته السموكنج دائما ٠ ولم يبرحا الحديقة ٠

ــ « ماذا وراءك ؟ »

ــ « أريد ــ قبل كل شىء ــ أن أعيد اليك وثيقتك : هاهى ذى ٠ كل شىء على مايرام ٠٠ السفينة قد رحلت ، وستلقى مرساتها فى مقابل القنصلية الفرنسية ، قريبا من الضفة الأخرى للنهر » ٠

ــ « وهل هناك أية متاعب ؟ »

ــ « لا تتفوه بكلمة ٠٠ الثقة القديمة ، والا ، لأمكن أن نتساءل كيف كان من الممكن أن يحدث ذلك ٠ ففى هذه المسائل تكبر الثقة أيها الشاب بقدر ما تقل دواعيها ٠٠٠ »

ــ « تلميح ؟ »

وأشعل كلابيك لفافة تبغ ، ولم ير « كيو » غير ملفعة الحرير الأسود ، بقعة على وجه مبهم ٠٠ وذهب لاحضار محفظته ٠٠ وكانت ماى تنتظر ٠٠ ثم عاد كيو ودفع للبارون عمولته التى تم الاتفاق عليها٠ ووضع البارونالأوراق النقدية فى جيبه دون أن يعدها ، ثم قال :

ــ « ان الطيبة تجلب الحظ السعيد ٠ وان قصة ليلتى يا صديقى ــ قصة أخلاقية رائعة : بدأت بالاحسان ، وختمت بالثراء ٠ لا تتفوه بكلمة ! »

ومال على أذن كيو ، رافعا سبابته :

ــ « فانتوماس يحييك » ، ثم دار على عقبيه ، وانصرف ٠

وكأنما كان « كيو » يخشى العودة الى الداخل ، فتعقبه ببصره وهو ينصرف وقد راح « الاسموكنج » يترنح بحذاء الحائط الأبيض ، وقال لنفسه : « انه فى الواقع يشبه فانتوماس فى هذه الحلة ٠٠ هل خمن ، أو افترض أن ٠٠٠ »

وتناهى الى كيو صوت سعال ، وسرعان ما عرف صاحب هذا الصوت فقد كان ينتظره : انه كاتوف · الكل يسرعون هذه الليلة ·

كان كاتوف يسـير فى وسـط الطريق ، وربما كان ذلك لكى تصـعب رؤيته · غير أن كيو خمن سترته أكثر من أن يراها ، وهناك فى الظلمة ، كانت أنفه المشرعة فى الهواء ، وقد أحس خاصة بتأرجح ذراعيه · واتجه صوبه ، وسأله كما سأل كلابيك من قبل : « ماذا وراءك ؟ »

ـ « كل شىء على ما يرام ، والسفينة ؟ »

ـ « فى محاذاة القنصلية الفرنسية ، بعيدة عن رصيف الميناء ·· فى بحر نصف ساعة » ·

ـ « ان الزورق البخارى والرجال على بعد أربعمائة متر من ذلك المكان·· هيا بنا » ·

ـ « والملابس ؟ »

ـ « لا تشغل بالك بها · ان الرجال على أهبة الاستعداد تماما » ·

ودخل المنزل ، وارتدى ملابسه فى لحظة قصيرة : سروال وصديرى من الصوف ، وحذاء من المطاط ( فربما أرغمته الظروف على التسلق ) · وصار على أهبة الاستعداد ··· ومدت اليه ماى شفتيها ، وكانت نفس كيو تريد تقبليها ·· أما فمه ـ فلا ، وكأنما قد احتفظ هذا الفم ـ فى استقلال ـ بشىء من الحقد ··· وأخيرا ، قبلها ، قبلة مرتبكة · فنظرت اليه فى حزن بجفنين مسبلين ، وما لبثت عيناها المليئتان بالظلال أن أصبحتا معبرتين تعبيرا قويا حين سيطرت على عضلات وجهها ·· ورحل ·

سار مرة أخرى الى جانب كاتوف ، ومع ذلك ، لم يستطع أن يتخلص من التفكير فيها · « لقد بدت لى منـذ لحظة مجنونة أو عمياء ·· فما كنت أستطيع ان أتعرف عليها · اننى لا أعرفها الا بمقدار ما أحبها والا فى اتجاه حبى لها ؛ وصدق أبى حين قال اننا لا نملك من شخص ما سوى ما استطعنا أن نغيره فيه ··· وماذا بعد ؟ » وغاص فى قرارة نفسه ، كما يغوص فى ذلك الزقاق الذى أخذت عتمته تشتد شيئا فشيئا ، حتى لم تعد عوازل أسلاك البرق تلمع على صفحة السماء · وعاوده القلق ، وتذكر الاسطوانات ! « اننا

تسمع صوت الآخرين بآذاننا ، ونسمع صوت أنفسنا بواسطة حلقنا » أجل ٠٠ وحياتنا أيضا نسمعها عن طريق الحلق ، أما حيـاة الآخرين ؟ ٠٠٠ كانت هناك الوحدة قبل كل شيء ــ الوحدة الثابتة وراء حشد الفنانين ، كالليـل البدائي العظيم الذى يكمن وراء هذه الليلة الكثيفة الواطئة التى تتربص تحتها المدينة الموحشة الحافلة بالأمل والبغض ٠ « فأنا ، بالنسبة لنفسى ، للحديث الذى يسمعه الحلق ، من أكون ؟ ضرب من التوكيد المطلق ، التوكيد صادر عن مجنون ، توتر أعظم من توتر الباقين جميعا ٠ أما بالنسبة للآخرين ، فلست الا ما فعلته » ولم يكن ــ بالنسبة لمـاى وحدها ــ ما قام بفعله ، لقد كان ــ بالنسبة لها وحدها ــ شيئا آخر غير تاريخ حياته ٠ ولم يكن العناق الذى يبقى على العاشقين ملتصقين أحدهما بالآخر فى مواجهة الوحدة ٠٠ لم يكن هذا العناق يحمل الى الرجل فيه أية معونة ، وانما كان يحملها الى المجنون القابع فى نفسه ، الى الوحش الفريد ، المفضل على كل شيء ، والذى يكونه كل انسان بالنسبة الى ذاته ، ويعتز به فى أعماق فؤاده ٠ ومنذ أن توفيت والدته ، أصبحت ماى هى الشخص الوحيد الذى لا ينظر اليه باعتباره كيو جيسور ، وانما الشريك الحميم « وانها لشركة مختارة ، مكتسبة يرضى بهـة الطرفان » ، بهذا حدث كيو نفسه ، وهو فى حالة من الاتفـاق العجيب مع الليـل ، وكأن فكره لم يعد خليقا بأن يعيش فى النور ٠ « النـاس ليسوا أشباهى ، بل هم أولئك الذين ينظرون ويحكمون على ، انما أشباهى أولئك الذين يحبوننى ، ولا ينظرون الى ، يحيوننى على الرغم من كل شيء ، يحبوننى عـلى الرغم من السـقوط ، والخسـة ، والخيانة ٠٠ يحبوننى أنا نفسى ، لا ما صنعته ، أو ما سأصنعه أولئك الذين يحبوننى الى المدى الذى أحب فيه نفسى ٠٠ حتى ولو أشرف بى هذا الحب على الانتحار ، بما فى ذلك الانتحار ٠٠ انها وحدها التى أشاطرها هذا الحب الممزق أو غير الممزق ، كما يشترك الآخرون معا فى الاحساس بأطفالهم المرضى والذين يمكن أن يموتوا ٠٠٠ » لم تكن هذه هى السعادة بكل تأكيد ، وانما كان شيئا بدائيا يتمشى مع الظلمات ، ويشيع فى أوصاله دفئا ينتهى بعناق ساكن ، كما يلاصق الخـد الخد ٠٠٠ الشيء الوحيد فى نفسه الذى يعد قويا كالموت ٠

وعلى أسقف المنازل ، كانت ثمة أطياف قد اتخذت أماكنها ٠

* *

**الساعة الرابعة صباحا**

فرك چيسور العجوز قطعة الورق المهلهلة التى كتب عليها « تشن » اسمه بالقلم الرصاص ، ووضعها فى جيب ردائه المنزلى • كان فى لهفة الى رؤية تلميذه القديم ثانية • وألقى نظرة أخرى على محدثه ، وكان شيخا صينيا له رأس مثقف من أعضاء « جمعية الهند » ، ويرتدى الثوب الفضفاض ، واتجه صوب الباب بخطوات قصيرة رافعا سبابته ، ومتحدثا بالانجليزية : « من المستحسن أن تخضع المرأة خضوعا مطلقا ، وأن يوجد التسرى ، ونظام البغاء •

« اننى سأواصل نشر مقالاتى • ولأن أجدادنا كانوا يفكرون على هذا النحو ، فقد وجدت هذه اللوحات الجميلة ( وأشار بعينيه الى العنقاء الزرقاء دون أن يحرك وجهه ، وكأنه يغمز اليها ) التى تفخر بها ، وأفخر بها أنا أيضا • انما تخضع المرأة للرجل ، كما يخضع الرجل للدولة ، غير أن خدمة الرجل أخف وطأة من خدمة الدولة • فهل نعيش نحن لأنفسنا ؟ اننا لسنا شيئا • وانما نعيش للدولة فى الوقت الحاضر ، ومن أجل الموتى الامجاد عبر الأحقاب المتتابعة ••• »

ألن يرحل ؟ هذا الرجل المتشبث بماضيه ـ حتى فى الوقت الحاضر ( أفلا تكفى صفارات السفن الحربية لملء هذا الليل ؟ ) انه فى مواجهة الصين التى أغرقها طوفان من الدماء كتماثيله البرونزية أثناء تقديم القرابين ، قد اكتسب شاعرية بعض المجانين • الموتى الأمجاد • هياكل عظمية لا حصر لها فى ثياب موشاة ، ضائعة فى أعماق الزمن فى اجتماعات صامتة : وفى مواجهته ، تشن ، ومائتا ألف من عمال النسيج ، وجمهور الكادحين الساحق • خضوع النساء ؟ لقد كانت « ماى » تروى كل ليلة قصص انتحار الفتيات المخطوبات ••• ورحل الشيخ ، رافعا سبابته : « النظام ، ياسيد چيسور •• » ، قال ذلك بعد أن حياه ـ واثبا برأسه وكتفيه ـ تحية أخيرة •

وما أن تناهى الى سمعه صوت اغلاق الباب ، حتى نادى على تشن ، وعاد معه الى قاعة العنقاوات •

أخذ « تشن » يذرع الحجرة جيئة وذهابا • وفى كل مرة كان يعبر امام الأريكة التى جلس عليها چيسور ، كانت صفحة وجهه الجانبية تذكر چيسور

بصقر مصرى من البرونز كان قد احتفظ « كيو » بصورته حبا لتشن ، «بسبب ما بينهما من تشابه » • وكان چيسـور على حق ، رغم ما تعبر عنه هاتان الشفتان الغليظتان من طيبة • وناجى چيسور نفسه قائلا : « وبالاجمال ، انه أشبه بصقر غرس فى قلبه الايمان القديس فرانسوا الأسيسى » •

ووقف « تشن » ازاءه وقال : « أنا الذى قتلت ثان ـ ين ـ تا » •

لقد لح فى نظرة چيسور شيئا يكاد أن يكون حنـانا • وكان يزدرى الحنان ، بل ويخاف منه • وكانت رأسه الغائصة بين كتفيه ، والتى تجعلها مشيته تميل الى الأمام ، وعظمة أنفه المقوسة قد أبرزتا التشابه بين ملامحه وملامح الصقر ، على الرغم من جسده المكتنز ، بل ان عينيه الضيقتين ، اللتين تخلوان تقريبا من الأهداب ، تذكر المرء بطائر من الطيور •

ـ « أعن هذا أتيت لتحدثنى ؟ »

ـ « أجل » •

ـ « وهل يعلم كيو بهذا ؟ »

ـ « نعم » •

وأمعن « چيسور » فى التفكير • ومادام لا يريد أن يجيب بأحكام سابقة تعارف عليها الناس ، فليس فى استطاعته الا أن يؤيده فيما فعـل • ومع ذلك ، فقد كان يجد مشقة فى هذا التأييد ، وناجى نفسه قائلا : « لقـد هرمت » •

وانقطع « تشن » عن المشىء وقال وهو يتفرس أخيرا فى وجه چيسور : « انني وحيد وحدة غير عادية » •

وانتاب « چيسور » شىء من الاضطراب • ولم يكن تعلق « تشن » به هو موضع دهشته • فقد ظل أعواما طويلة أسـتاذه بالمعنى الصينى للكلمة ـ أى أقل من أبيه ، وأكثر من امه ، والحق انه منذ وفاة والديه ، كان چيسور هو الشخص الوحيد الذى يحتاج اليه تشن ، بيد أن الشىء الذى لم يفهمه ، هو أن تشن الذى التقى هذه الليلة ـ بلا شك ـ بقومه من الارهابيين ، مادام قد التقى بكيو ـ كان يبدو بعيدا عنهم كل البعد •

وسأله : « وماذا عن الآخرين ؟ »

ولاحوا مرة أخرى على صفحة ذاكرته ، وهم جالسون فى مؤخرة حانوت

تاجر الاسطوانات ، غارقين فى الظلام ، أو خارجين منه وفقا لتأرجح المصباح. بينما كان الجدجد يغنى ·

ـ « انهم لا يعلمون » ·

ـ « لا يعلمون أنك أنت الذى فعلت ذلك ؟ »

ـ « انهم يعلمون ذلك : غير أن هذا لا أهمية له على الاطلاق » ·

ولاذ بالصمت مرة أخرى · وتحاشى چيسور أن يستجوبه ، وأخيرا استأنف تشن حديثه قائلا : « ·· انهم لا يعلمون أن هذه هى المرة الأولى » ·

وأحس چيسور على حين غرة أنه فهم · وأدرك تشن ذلك فقال :

ـ « كلا ··· انك لم تفهم » ·

وكان يتكلم الفرنسية بلهجة يؤكد فيها حلقه الكلمات ذات المقطع الأنفى الواحد ، ويدهشك أن تمتزج ببعض العبارات المحلية التى أخذها عن كيو · وكان ذراعه الأيمن ممدود بالغريزة الى جانبه ، فأحس من جديد بالجسد المطعون الذى ردته الملة المرنة الى الخنجر · ولم يكن لذلك أية دلالة··فلسوف يعيد الكرة ، ولكنه كان يلتمس ـ فى أثناء ذلك ـ ملاذا يثوب اليه · وقد كان تشن يعرف أن « كيو » هو الشخص الوحيد الذى يحمل له « چيسور » تلك العاطفة العميقة التى لا تحتاج الى أى تفسير · وكيف يمكن أن يشرح ما يعتمل فى نفسه ؟

ـ « انك لم تقتل من قبل أى انسان ، أليس كذلك ؟ »

ـ « انك لتعرف » ·

وكان هذا الأمر يبدو جليا فى نظر « تشن » ، ولكنه كان يرتاب اليوم فى مثل هذه الأمور الجلية · ومع ذلك ، فقد بدا له ـ فجأة ـ أن شيئا ما ينقص چيسور ·· ورفع عينيه · وكان هذا يصعد فيه بصره ، وقد بدا شعره الأبيض أطول مما هو حقيقة بسبب تحرك رأسه الى الوراء ، وأدهشه عجزه عن التلويح بيديه أثناء الحديث · وكان هذا راجعا الى جرحه الذى لم يخبره « تشن » بشىء عنه ، ولم يكن ذلك لأنه يتألم منه ( فقد قام بتطهيره أحد رفاقه المرضين ) ولكنه كان يعوقه عن الحركة · وكان « چيسور » يلف بين

أصابعه لفافة تبغ وهمية كما هى عادته دائما حين يستغرق فى التفكير :

ـ « ربما ٠٠ »

وتوقف عن الـكلام ، وقد سدد عينيه الصافيتين المستقرتين فى قناع فارس حليق من فرسان المعبد ٠٠٠ وانتظر تشن ، وواصل چيسور حديثه فى لهجة تكاد تكون وحشية :

ـ « لا أعتقد أن مجرد ذكر جريمة قتل كاف لأن يشيع الاضطراب فى نفسك على هذا النحو » ٠

وحاول تشن أن يقنع نفسه ، بأن چيسور لا يدرى تماما ما يقول ، غير أن « چيسور » أصاب فى الصميم ٠ وجلس « تشن » وهو ينظر الى قدميه ، ثم قال : « لا أعتقد ٠٠ أنا أيضا ، ان مجرد الذكرى كافلية ٠٠ ثمة شيء آخر ، هو جوهر الموضوع ٠٠ وليتنى أعرف ما هو » ٠

ألأنه يريد أن يعرف هذا الشيء ، أقبل لزيارته ؟

وسأله چيسور : « أول امرأة ضاجعتها ، كانت عاهر ٠٠ طبعا ؟ »

فأجابه « تشن » فى شيء من الحقد : « اننى رجل صينى » ٠

وحدث چيسور نفسه قائلا : « كلا » ٠٠ ان تشن لم يكن صينيا اللهم الا فيما يتعلق بالناحية الجنسية فيه ٠ فقد أثبت المهاجرون الذين تغص بهم شنغهاى من جميع البلاد ٠٠ أثبتوا لچيسور أنهم حين يحاولون الانفصال عن أمتهم فانهم يفعلون ذلك بطريقة قومية ، غير أن تشن لم يعد ينتمى الى الصين حتى فى طريقة تخليه عنها : ذلك أن حرية كاملة قد أسلمته الى فكره تسليما تاما ٠

وسأله چيسور : « وبماذا أحسست بعد ذلك ؟ »

فاطبق تشن أصابعه وقال :

ـ « بالزهو » ٠

ـ « لأنك رجل ؟ »

ـ « لأننى لست امرأة » ٠

ولم يعد صوته معبرا عن الحقد ، وانما عن احتقار معقد ٠

واستطرد قائلا : « أظن أنك تريد أن تقول : انه كان يجب أن اشعر بنفسى ٠٠ منفصلا عنهم ؟ »

وحافظ چيسور على صمته ٠

ـ «٠٠٠أجل ، أحسست بذلك احساسا رهيبا ٠٠ وانت على حق فى حديثك عن النساء ٠ وربما كان المرء يحتقر من يقتله احتقارا شديدا ٠٠ وان يكن ذلك أقل من احتقاره للآخرين ٠٠ »

وبحث چيسور عن المعنى ، دون أن يتأكد من أنه قد فطن اليه . فسأله :

ـ « تقصد احتقاره لأولئك الذين لا يقتلون ؟ »

ـ « أجل ٠٠ لأولئك الذين لا يقتلون ٠٠ صغار البراغيث » ٠

وجعل يذرع الحجرة من جديد ، وكانت الكلمتان الأخيرتان قد سقطتا وكأنهما عبء أزيح عن صدره ، واتسع الصمت حولهما٠٠وبدأ چيسور يشعر بدوره ـ دون أن يكون ذلك مبعثا لحزنه ـ بالانفصال الذى تحدث عنه تشن٠ وتذكر بغتة أن « تشن » قد ذكر له مرة أنه يفزع من صيد الحيوانات ٠

ـ « ألم ينتابك الفزع من منظر الدماء ؟ »

ـ « بلى ٠٠ ولكنه لم يكن الفزع ( فحسب ) » ٠

قال هذه الجملة وهو يبتعد عن چيسور ، ولكنه ، التفت اليه على حين غرة ، وسأله ـ وهو يتأمل العنقاء ، وكأنه يحدق مباشرة فى عينى چيسور :

ـ « وبعد ؟ اننى أعرف كيف أعاملهن حين يردن الاستمرار فى امتلاكك . أن تعيش معهن ٠٠ فهل ينطبق هذا على الموت ؟ »

واستطرد قائلا فى مرارة أشد ، دون أن يحول عينيه عن العنقاء :

ـ « أهذا معاشرة أيضا ؟ »

وكانت طبيعة ذكاء چيسور تدفعه دائما الى المسارعة فى معونة محدثيه ، وكان يحب تشن ، ولكنه بدأ يرى الموقف رؤية واضحة : ان العمل فى جماعات الهجوم لم يعد كافيا بالنسبة لهذا الشاب : فقد أضحى الارهاب بالنسبة اليه غواية مستبدة ٠

قال وهو يلف دائما تلك اللفافة الوهمية ، وقد مال رأسه الى الأمام وكأنه

ينظر الى السجادة ، وخصلة من شعره الأبيض ترف على أنفه النحيف ٠٠ قال مجتهدا فى اعطاء صوته رنة من اللامبالاة :

ـ « أتظن أنك لن تخرج أبدا من هذا المأزق ٠٠٠ »

ولكنه لم يلبث أن فقد السيطرة على أعصابه ، فختم عبارته مستهزئا :

ـ « وخوفك من ٠٠ هذا ٠٠ القلق ٠ هو الذى دفعك الى الاحتماء بى ٠ »

صمت ٠ وأخيرا قال تشن من بين أسنانه : « قلق ؟ كلا ٠٠ أيكون القدر ؟ »

صمت مرة أخرى ٠ وأحس چيسور أنه لا يستطيع الاتيان بأية حركة ، وأنه لا يمكنه أن يتناول يده كما كان يفعل من قبل ، واستقر رأيه هو الآخر ، فقال بصوت مكدود ، وكأنه اكتسب فجأة عادة القلق :

ـ « اذن ، فلابد من التفكير في هذا القدر ، ودفعه الى أقصى غايته ٠٠ واذا أردت أن تعاشره ٠٠٠ »

ـ « سأقتل حالا » ٠

وتساءل چيسور : أليس هذا هو ما يريده بالذات ؟ انه لا يطمع فى أى مجد ، أو أية سعادة ٠ لقد كان قادرا على الانتصار ، ولكنه لا يملك القدرة على الحياة في انتصاره ، فما هذا الذى يسعى اليه ان لم يكن الموت ؟ ليس من شك أنه يريد أن يضفى عليه المعنى الذى يضفيه الآخرون على الحياة ٠ الموت في أسمى صورة ممكنة ٠ نفس طموح ، واضحة الادراك ، منفصلة الى حد ما عن الناس أو لعلها من المرض بحيث تحتقر موضوعات طموحها جميعا ، بل طموحها نفسه ؟

ـ « اذا كنت تريد أن تعاشر ٠٠ هذا القدر ، فليس أمامك غير سبيل واحد لذلك ، هو أن تنقله الى سواك » ٠

وسأله « تشن » ، وهو يصر على أسنانه دائما : « ومن هو الجدير بذلك ؟ »

وثقلت وطأة الجو أكثر فأكثر ، وكأن كل ما استحضرته هذه العبارة من قتل ، كان حاضرا ٠٠ ولم يعد « چيسور » قادرا على أن يقول شيئا : اذ اتخذت كل كلمة رنينا مزيفا ، طائشا ، سخيفا ٠

قال تشن : « شكرا ٠٠ » وانحنى أمامه بنصفه الأعلى كله ٠ على الطريقة

الصينية ( وهذا ما لم يفعله قط ) . وكأنه قد آثر ألا يلمسه ، وانصرف .

وعاد « چيسور » الى مجلسه ، وشرع يلف اللفافة الوهمية من جديد . ولأول مرة ألفى نفسه وجها لوجه لا ازاء الكفاح ــ وانما أمام الدماء . وتذكر كيو كما هي عادته دائما . ان كيو كان خليقا بأن يجد هذا الكون الذى يتحرك فيه تشن خانقا للانفاس .. ولكن ، أكان هذا شيئا مؤكدا ؟ ان « تشن » يمقت الصيد أيضا كما يفزع من منظر الدماء .. كل هـذا كان من قبل . وعند هذا المدى من الأغوار ، ماذا يعرف عن ابنه ؟ حين لا يستطيع حبه ان يقوم بأى دور ، وحين لا يستطيع أن يسترجع كثيرا من الذكريات . كان يعرف حقا أنه قد انقطع عن معرفة كيو . وهزه شوق شديد الى رؤيته .. رغبة شبيهة برغبتنا فى رؤية أمواتنا للمرة الأخيرة ... وكان يعلم أنه قد رحل .

أين ؟ ان حضور « تشن » ما زال يشيع الحياة فى الحجرة . لقد ارتمى « تشن » فى عالم الجريمة ، ولن يخرج منه أبدا ، وانه ليدخل حياة الارهاب ــ بما جبل عليه من عناد ــ وكأنه يدخل سجنا . ولن تنقضى سنوات عشر حتى يؤخذ ــ ليعذب أو ليقتل ، وسيعيش حتى ذلك الحين ، كما يعيش انسان ممسوس عنيد ، فى عالم التصميم والموت . لقد كان يحيا من أجل أفكاره .. والآن ، هذه الأفكار هى التى ستقتله .

وكان هذا ما يتألم بسببه چيسور ، فأن ينغمس كيو فى القتل .. هذا هو دوره .. وان لم يكن الأمر كذلك ، سيان : ان ما يفعله كيو يبرر نفسه . ولكنه كان مفزّعا بهذا الاحساس المفاجىء ، بيقينه من حتمية القتل . وبمفعولها السام ، فى الوقت الذى يدرك فيه قلة حيلته ازاء هذا المفعول . ويشـعر بأنه لم يستجب للمعونة التى طلبها «تشن» كما ينبغى أن تكون الاستجابة ، وبالوحدة التى تحيط بجريمة القتل ــ وبأن كيو قد ابتعد عنه ، نتيجة لهذا القلق . ولأول مرة ارتبطت تلك العبارة التى كان يرددها فى كثير من الأحيان « لا سبيل الى معرفة الكائنات » ــ ارتبطت فى ذهنه بوجه ابنه .

أكان يعرف تشن حقا ؟ انه ما كان يعتقد قط أن الذكريات تسمح بفهم الانسان . هناك التربية الأولى التى تلقاها تشن، وكانت هذه التربية دينية . وحين بدأ يهتم بهذا المراهق اليتيم الذى قتل أباه أثناء نهب مدينة كالجان ــ والذى كانت وقاحته وقاحة صامتة ، كان تشن قد تخرج من الكلية اللوثرية حيث كان تلميذا لمدرس مثقف مصاب بداء الصدر تحول الى قسيس فى سن

متأخرة ، وكان يكافح فى صبر – وهو فى سن الخمسين للتغلب – بأعمال البر والاحسان – على حيرة دينية شديدة · وكان الخجل من الجسد ، ذلك الخجل الذى كان مصدر عذاب القديس أغسطين – قد استبد بهذا الراعى – الخجل من الجسد الساقط الذى لابد من الحياة فيه مع المسيح ، وكذلك الفزع من مدنية الصين الخاضعة للطقوس التى تحيط به ، والتى جعلت نداء الحيـاة الدينية الصحيحة أشد الحاحا ·· واستطاع هذا الراعى – بما يجيش فى نفسه من قلق – أن يصل فى نهاية الأمر الى تفسـير للوثر كان يطلع عليه جيسور من حين الى آخر : « لا حياة الا فى الله ، غير أن الانسان – بارتكابه للخطيئة ، قد بلغ درجة من السقوط ، وتدنس دنسا لا شفاء منه بحيث أصبح الوصول الى الله ضربا من التدنيس · ولهذا جاء السيد المسيح ، وكان صلبه تكفيرا أبديا » · تبقى بعد ذلك مسألة الفضل الالهى ، أى الحب اللامحدود أو الخوف وفقا لقوة الأمل أو ضعفه ، وكان هذا الخوف خطيئة جديدة · ويبقى الاحسان أيضا ، غير أن الاحسان لا يكفى دائما لاستيعاب القلق ·

وكان الراعى متعلقا بـ « تشن » ، ولم يخطر له أن عم تشن المتولى لأمره لم يبعث به الى الارساليات الا لكي يتعلم الانجليزية والفرنسية ، وأنه قد حذره من تعاليمها ، ومن فكرة الجحيم بوجه خاص ، تلك الفكرة التى كان يشك فيها هذا الكونفوشيوسى · أما الطفل الذى التقى بالمسيح ولم يلتق بالشيطان أو بالله ، والذى علمته تجربة الراعى أن الناس لا يهتدون مطلقا الا عن طريق وسطاء – فقد استسلم للحب بتلك الشدة التى يأخذ بها نفسه فى كل شىء · ولكن احترامه لأستاذه – وهو الشىء الوحيـد الذى غرسته الصين فى نفسه غرسا قويا – بلغ به أن يدرك القلق الذى استبد بالراعى – على الرغم من الحب الذى يدعو اليه – هذا القلق بدا لـ « تشن » جحيما أشد هولا واقناعا من ذلك الجحيم الذى حاولوا تحصينه ضده ·

وعاد عمه · فهاله التغيير الذى أصاب ابن أخيه ، ومع ذلك أظهر شيئا من الرضا الرقيق ، وبعث بأشجار صغيرة من حجر اليشب والبللور الى مدير المدرسة والى الراعى ، والى غيرهم وما كادت تنقضى ثمانية أيام، حتى استدعى « تشن » الى منزله ، وفى نهاية الأسبوع التالى ، أرسله الى جامعة بكين ·

وحاول جيسور – وهو يلف سيجارته الوهمية دائما بين ركبتيه ، وقد فغرفاه فى ذهول المستغرق فى التفكير – أن يتذكر المراهق الذى كانه «تشن»

فى تلك الأيام الخوالى • ولكن ، كيف يفصله أو يعزله عما صار اليه الآن ؟ « اننى أفكر فى روحه الدينية لأن كيو لم تكن له هذه الروح قط ، ولأن كل اختلاف عميق بينهما فى هذه اللحظة يبعث فى نفسى شيئا من الارتياح •• لماذا أشعر بأننى أعرفه خيرا مما أعرف ابنى ؟ » ذلك لأنه يرى بصورة أوضح فى حالة « تشن » الجوانب التى استطاع أن يغيره فيها : وهـــذا التغيير الرئيسى ـ الذى هو من صنعه ـ كان دقيقا ، محدودا ، وهو لا يعرف شيئا فى الناس أفضل مما حمله اليهم • ومنذ أن أبصر « تشن » أدرك للوهلة الأولى أن هـــذا المراهق لا يستطيع أن يعيش بأيديولوجية لا تتحول مباشرة الى أفعال • ولما كانت فلسفته تخلو من فكرة الاحسان ، فأن الحياة الدينية لم تكن تستطيع أن تقوده الا الى التأمل أو الى الحياة الباطنة ، ولكنه كان يمقت التأمل ، ولا يحلم الا بأداء رسالة دينية لا تتلاءم مطلقا مع خلوه من الاحسان • وكان ينبغى لكى يعيش ، أن يتحرر أولا من نزعته المسيحية (ويبدو من بعض أحاديثه الخاصة أن معرفته بالعاهرات والطلبة قد مكنت تشن من التغلب على الخطيئة الوحيدة التى كانت أقوى من ارادته دائما ، وهى الاستمناء ، والتغلب معها على الاحساس المتكرر دائما بالقلق والسقوط ) • وحين عارض أستاذه الجديد نزعته المســـيحية لا بالحجج المنطقية وانما بصـــور أخرى للعظمة ، تسرب الايمان من بين أصابع تشن شيئا فشيئا ، دون أن تصيبه أية أزمة • ولما كان هذا الايمان يفصله عن الصين ، ويعزله عن العالم بدلا من أن يخضعه للعالم ، فقد فهم خلال جيسور أن كل شىء قد مضى على نحـو يجعل هذه الفترة من حيـــاته مدخلا الى معنى البطـولة : فماذا يصنع امرؤ بنفسه ، ان لم يكن ثمة وجود لله أو للمسيح ؟

وهنا كان « جيسور » يشعر أن ابنه قد عاد اليه ، لا مباليا بالمسيحية ، وان تكن تربيته اليابانية ( عاش كيو فى اليابان منذ أن كان فى الثمانية من عمره حتى بلغ السابعة عشرة ) قد دفعته الى الاعتقاد بأنه ينبغى الا نفكر فى الأفكار ، بل أن نحياها • وقد اختار « كيو » الفعل بصورة جدية مدبرة ، كما يختار غيره من الشبان الجيش أو البحرية : وكان قد ترك والده ، وعاش فى كانتون وتيينتسين ، حياة المناورات ، واختلط بالعمال الكادحين ممن يجرون العربات لتنظيم النقابات • أما تشن ، الذى أخذ عمه رهينة ، دون أن يستطيع دفع فديته ، وبالتالى أعدم بعد الاستيلاء على سواتاو ـ فقد وجد

نفسه مفلسا ، حائزا على دبلومات لا قيمة لها ، فى مواجهة أربعة وعشرين عاما من عمره ، ووجها لوجه أمام الصين • اشتغل سائق سيارة نقل مادامت طرق الشمال خطرة ، ثم مساعدا كيميائيا ، ثم لا شيء على الاطلاق • كان كل شيء يدفعه الى العمل السياسى : الأمل فى عالم مختلف ، امكانية الحصول على الطعام ولو فى بؤس ( كان تشن متقشفا بطبيعته ، وربما كان ذلك بدافع من كبريائه ) ، ارضاء أحقاده ، وتفكيره ، وشخصيته •• وفضلا عن ذلك فقد كان العمل السياسى يبث فى عزلته معنى • أما بالنسبة لكيو فقد كان كل شيء أبسط من ذلك • فاحساسه البطولى كان بالنسبة اليه بمثابة نظام يفرضه على نفسه ، لا تبريرا للحياة • ولم يكن « كيو » قلقا : فحياته لها معناها الذى يعرفه ، وهو اعطاء كل انسان من أولئك الذين تقتلهم المجاعة فى هذه اللحظة بالذات كالوباء البطىء ، الشعور بكرامته • انه ينتمى اليهم ، وأعداؤهم هم بعينهم أعداؤه • ولم يحاول « كيو » وهو المولد المنبوذ المحتقر من البيض ، ومن البيضاوات على وجه الخصوص ــ أن يخلبهم ، بل لقد بحث عن قومه ، ووجدهم « لا كرامة ، ولا حياة حقيقية لانسان يكدح اثنتى عشرة ساعة فى اليوم دون أن يعرف لأى غرض يكدح » • فلابد من أن يتخذ هذا العمل معنى ، وأن يصبح وطنا • أما المسائل الفردية فلم يكن لها وجود بالنسبة لـ « كيو » الا فى حياته الشخصية •

كان « جيسور » يعلم هذا كله • « ومع ذلك فلو دخل كيو ، وأخبرنى كما أخبرنى تشن منذ لحظة : « أنا الذى قتلت تانج ــ ين ــ تا » ، لو قال هذا لدار فى نفسى : « اننى كنت أعرف ذلك » • ان كل ما هو ممكن فيه يتجاوب مع نفسى بقوة الى درجة أن كل ما يقوله لى ، أعتقد « أننى كنت أعرفه » ونظر عبر النافذة الى الليل الساكن غير المكترث • « ولكن ، لو كنت أعرف حقا ، لا على تلك الصورة الغامضة المروعة ، لأنقذته » يا له من تأكيد مؤلم ، لا يريد أن يصدقه •

انه لم يستخدم فكره منذ انصراف كيو ــ الا لتبرير حركة ابنه ، تلك الحركة الهزيلة التى بدأت فى مكان ما ( لم يكن يعرف فى كثير من الأحيان ــ خلال ثلاثة أشهر ــ أين تجرى تلك الحركة ) ، فى الصين الوسطى ، أو فى مقاطعات الجنوب • واذا كان الطلاب الحائرون قد شعروا بأن هذا العقل

يسارع الى نجدتهم بكل تلك الحرارة والنفاذ ، فان الأمر لم يكن حينذاك كما يعتقد حمقى بكين ، من أنه كان يجد لذة فى مشاركة الطلاب حياتهم التى تفصله عنها سنه ، وانما تفسير ذلك أنه كان يجد فى كل دراما من تلك التى قد تحدث للطلاب ، شيئا يمكن أن يقع لابنه • وحين كان يبين لطلابه ـ كانوا كلهم تقريبا من الطبقة البرجوازية الصغيرة ـ انهم مجبرون على الانضمام اما للرؤساء العسكريين أو للبروليتاريا ( العمال ) ، وحين كان يقول لهؤلاء الذين اختاروا فعلا : ان « الماركسية ليست مذهبا ، ولكنها ارادة •• انها بالنسبة للبروليتاريا أو أنصارها ـ الذين هم أنتم ـ ارادة لمعرفة الذات ، وللاحساس بوضعهمالذى يعيشون فيه ، وللانتصار وفقا لهذا الوعى، ولاينبغى أن تكونوا ماركسيين لكى تكونوا على حق ـ وانما لكى تنتصروا دون خيانة لأنفسكم » ، انما كان يوجه الى كيو هذا الحديث ، ويدافع عنه • واذا كان يعرف آن نفس « كيو » الصارمة لم تكن هى التى تجاوبه حين كان يجد حجرته ـ عقب هذه المحاضرات ، ملأى بالزهور البيضاء التى حملها الطلاب وفقا للتقاليد الصينية ـ فانه كان يعرف على الأقل أن تلك الأيدى التى تتدرب على الاغتيال وهى تحمل اليه فى نفس الوقت زهور الكاميليا ، سوف تصافح غدا يد ابنه الذى سيكون فى حاجة اليها • وهذا هو سبب انجذابه الى قوة الشخصية ، وسبب ارتباطه بـ « تشن » • ولكنه حين أحب « تشن »، أكان يتنبأ بتلك الليلة المطيرة التى أتى اليه فيها الشاب ـ قبل أن تتجمد دماء ضحيته ، ليقول له : « لم أكن أشعر بالفزع فحسب ••• ؟ »

ونهض ، ثم فتح درج المنضدة التى يضع فيها صينية الأفيون ، فوق مجموعة من الصبار الصغير وتحت الصينية ، كانت هناك صورة : صورة « كيو » ـ سحبها ، ثم نظر اليها دون أن يفكر فى شىء واضح ، اذ كان مستغرقا ـ استغراقا تشوبه المرارة ـ فى يقينه بأنه هناك فى العالم الذى يوشك أن يلجه ، لم يعد يعرف أحد أحدا ، بل ان حضور كيو نفسه الذى طالما تمناه منذ لحظة ، لم يغير من الموقف شيئا ، اللهم الا أن يجعل فراقهما أشد يأسا ، وكأنه حضور أصدقاء نعانقهم فى الحلم بعد أن طواهم الموت منذ أعوام • وظل محتفظا بالصورة بين أصابعه : كانت دافئة ، كراحة اليد • فتركها تسقط مرة أخرى فى الدرج ، وسحبالصينية ، وأطفأ نور الكهرباء ، وأشعل المصباح •

غليونان • وكان فى سالف الأيام حين يبدأ نهمه فى الارتواء ينظر الى الناس نظرة عطف ، ويرى العالم زاخرا بامكانيات لا نهائية • أما الآن ، فلم تعد الامكانيات تجد ـ فى قرارة نفسه ـ متسعا : فقد بلغ الستين من عمره وأصبحت ذكرياته مليئة بالقبور • ولم يعد احساسه الرهف بالفن الصينى ، وبتلك الصور المزرقة التى يلقى عليها مصباحه ضوءا خافتا ، وبكل حضارة الصين الموحية التى تحيط به •• تلك الحضارة التى استطاع أن ينتفع بهـا انتفاعا بديعا قبل ثلاثين عاماً مضت ـ لم يعد احساسه بالسعادة غـير غطاء رقيق يستيقظ تحته القلق ووسواس الموت ـ كالكلاب المتلهفة التى تضطرب فى نهاية نومها •

ومع ذلك ، أخذ فكره يتسكع حول العالم ، وحول النـاس ، تصاحبه عاطفة نهمة لم يطفئها تقدم السن • ولقد كان مقتنعا منذ زمن طويل ، بان فى كل انسان ـ وفيه هو على الأخص ـ يكمن مريض بالاضطهاد • وكان يعتقد قديما ـ فى احدى مراحل تطوره الغابرة ـ أنه سيصبح بطلا • كلا ـ ان هذه القوة ، هذا الخيال الثائر الكامن فى أغوار نفسه ( طالمـا قال لنفسه ، لو أصبحت مجنونا ، لبقيت هـــذه القوة وحدها منى ) كانت على استعداد للتشكل بجميع الأشكال مثـل النور • وتذكر ـ كما تذكر كيو من قبل ، وربما لنفس الأسباب ـ الاسطوانات التى حدثه عنها ، وكان يفكر فيها على نحو ما كان يفكر فيها كيو تقريبا ، لأن طرائق تفكير كيو كانت نابعة من طرائق تفكيره • وكما أن كيو لم يتعرف على صوته لأنه سمعه عن طريق حلقه، فكذلك كان وعى چيسور بنفسه لا يمكن أن يرد بلاشك ، الى الوعى الذى يستطيع أن يكتسبه عن شخص آخر ، لأنه ليس مكتسبا بنفس الوسائل • ولم يكن لحواسه دخل فى ذلك • وكان يشعر أنه قد اقتحم بماله من وعى دخيل ـ مجالا ينتمى اليه أكثر من سواه ، وأنه يملك فى قلق ـ عزلة محرمة على غيره من الناس ، لن يلحق به فيها أحد • وأحس فى لحظة خاطفة ـ بأن « هذا » هو ما سيفلت من الموت •• وارتجفت يداه التى كانت تعد كرية جديدة من الأفيون رجفة خفيفة • هذه العزلة التامة • لا يستطيع حتى حبه لـ « كيو » أن ينجيه منها ، ولكنه ان لم يكن يستطيع الهروب فى شخص آخر ، فانه يعرف طريقا آخر للخلاص : الأفيون •

خمس كريات • انه منذ سنوات يقف عند هذا القدر ، رغم ما يجد فى ذلك من عناء ، ومن ألم فى بعض الأحيان • وقام بتنظيف غليونه ، وظل يده يصعد من الحائط الى السقف • وأزاح المصباح بضعة سنتيمترات ، ففقد الظل ملامحه ، وكذلك فقدت الأشياء قسماتها ، وعلى الرغم من أشكالها لم تتغير ، فانها لم تعد متميزة عنه ، بل انضمت اليه فى أعماق عالم مألوف حيث يمتزج بين الأشياء كلهـا عدم اكتراث رفيق ـ عالم أصدق من العالم الآخر لأنه أكثر دواما ، وأشبه بنفسه ، محل ثقة كالصداقة ، متسامحا دائما ، مستعادا دائما : أشكال وذكريات ، وأفكار •• كانت كلها تغوص فى بطء نحو كون متحرر • وتذكر أصيل يوم من أيام سـبتمبر ، هناك خلع لون السماء الرمادى البديع على مياه البحيرة بياض اللبن ، وهى تلوح فى فجوات حقول واسعة من أزهار البشنين الحريرية ، وبدا له العالم بأسره ، ابتداء من الطنف المتآكلة فى ذلك الجناح المهجور ، حتى الأفق الرائع الحزين ـ بدا له العالم وقد تغلغلت فيه كآبة مهيبة • وثمة راهب بوذى قد اتكا على حافة ذلك الجناح دون أن يحرك جرسه الصـغير ، تاركا محرابه للغبار ، ولعطر الأخشاب الشذية التى كانت تحترق ، وكان الفلاحون الذين يجمعون بذور البشنين ينزلقون على صفحة الماء بزوورقهم دون أن يحدثوا صوتا ، وعلى مقربة من الزهور الأخيرة ، تولد من دفة الزورق خطان طويلان من الماء ، لم يلبثا أن تبددا فى الماء الرمادى بلا مبالاة • وفى نفسه أيضا تبددت أفكار، كانت تضم بين ثناياها شقاء العالم ، ولكنه شقاء يخلو من المرارة ، شـقاء حوله الأفيون الى صفاء علوى • وأخذ چيسور يتأمل وحدته ، مغمض العينين ، محمولا على أجنحة ثابتة : وحشة تتصل بالملأ الالهى ، بينما يتسع الى ما لانهاية هذا الأخدود من الطمانينة الذى يغطى فى رفق أعماق الموت •

* *

### الرابعة والنصف صباحا

نزل الرجال واحدا وحدا فى زى جنود الحكومة ، واضعين معاطفهم الواقية من المطر على ظهورهم ، الى الزورق البخارى الذى يتارجح وفقا لحركة نهر « اليانج تسى » •

قال كيو لكاتوف : « ان اثنين من البحارة ينتميان الى الحزب ، ولابد

من سؤالهم ، فهما يعرفان بلاشك مكان الأسلحة » . وكان الزى العسكرى لا يغير الا قليلا من منظر كاتوف ، اذا استثنينا الحذاء ذا الرقبة الطويلة . كما كانت سترته العسكرية غير محكمة الأزرار كالسترة الأخرى . غير أن القبعة الجديدة التى لم يألفها والتى وضعت على رأسه فى وقار ، قد أضفت عليه شيئا من البلاهة . وحدث كيو نفسه قائلا : « يا له من تركيب مدهش ، قبعة ضابط صينى على أنف بهذا الشكل ! » وكانت الظلمة مابرحت جاثمة ...

وقال كيو : « ضع قلنسوة معطفك الواقى من المطر » .

وغادر الرصيف الزورق البخارى وانطلق أخيرا فى مغامرته الليلية ، ولم يلبث أن اختفى وراء احدى السفن الصينية . وتقاطعت كالسيوف تلك الأضواء الكاشفة الصادرة عن الطرادات والتى تكتسح فى هبوطها من السماء كل ما يعج به الميناء من اضطراب ..

ولم يحول « كاتوف » الواقف فى مقدمة الزورق عينيه عن السفينة « شان - تونج » التى بدت وكأنها تقترب شيئا فشيئا . وبينما استولت على حواسه رائحة الماء العطن والسمك والدخان المنبعث من الميناء ( فقد كان قريبا جدا من سطح الماء ) التى طغت رويدا رويدا على رائحة الفحم السائدة فى رصيف الميناء استولت على روحه مرة أخرى تلك الذكرى التى يهيب بها قربه من كل معركة . فى الجبهة اللتوانية ، أسر « البيض » كتيبة ، وكان الرجال الذين جردوا من سلاحهم يقفون صفوفا متراصة فى السهل الجليدى المترامى الأطراف الذى يكاد لا يبين فى ضوء الفجر المائل الى الاخضرار . « - فليخرج الشيوعيون من الصفوف ! » وكانوا يعرفون أن هذا معناه الموت . وتقدم خارج الصفوف ثلثا الكتيبة . « اخلعوا أقمصتكم » ، « احفروا الحفرة » .. وصدعوا بما أمروا به ، فى بطء ، اذ كانت الأرض متجمدة . وكان الحراس البيض ، يقبض كل منهم على مسدس فى كل من يديه ( فقد كان من الممكن استعمال الفئوس كأسلحة ) ، ينتظرون على اليمين وعلى اليسار وقد استبد بهم القلق ونفذ صبرهم ، بينما كانت منطقة الوسط خالية بسبب المدافع الرشاشة المصوبة نحو الأسرى . وكان الصمت بلا حدود ، مترامیا

كهذا الجليد الذى لا تبلغ العين مداه • كانت قطع الأرض المتجمدة هى وحدها التى تتساقط محدثة صوتا مكتوما تتزايد سرعته شيئا فشيئا : فعلى الرغم من الموت الذى ينتظرهم ـ اذا انتهوا من هذا العمل ، فقد كانوا يسرعون فى عملهم ليظفروا بشىء من الدفء • وبدأ كثير منهم يعطسون • « ـ كفى •• توقفوا ! » واستداروا الى الخلف • وهناك ، فيما وراء رفاقهم ، حشد نساء وأطفال وشيوخ القرية ، قبل أن يرتدوا ثيابهم كاملة ، وقد تلفعوا بالاغطية•• حشدوا ليشاهدوا هـــذه العبرة ، وهم يهزون رءوسهم ، وكأنهم يحاولون جاهدين الا ينظروا أمامهم ، غير أن القلق يجتذبهم • « اخلعوا سراويلكم ! » ذلك أن الملابس العســكرية كانت نادرة •• وتردد الاسرى ، بسبب وجود النساء • « ـ اخلعوا سراويلكم ! » • وظهرت الجروح ، واحــدا واحــدا ، معصوبة بأسمال بالية : ذلك أن المدافع الرشاشــة قد أطلقت فى مستوى منخفض فأصيب الجميع بجراح فى سيقانهم ، وكان أغلبهم يطوون سراويلهم ، ولو أنهم ألقوا بمعاطفهم العسكرية جانبا ، واصطفوا من جديد ، أمام حافة الحفرة هذه المرة فى مواجهة المدافع الرشاشة ، واضحين فوق الجليد : هذه أجساد وأقمصة داخليــة بيضاء • وطفقوا يعطسون بلا توقف ، من شــدة البرد ، بعضهم اثر بعض ، وكانت هذه العطسات عميقة انسانية فى ذلك الفجر الذى شــهد اعدامهم الى درجة أن الجنــود الذين يمسكون بالمدافــع الرشــاشة انتظروا بدلا من اطلاق مدافعهم •• انتظروا حتى تخف ضــجة الحياة •• وأخيرا ، استقر عزمهم • وفى مساء اليوم التالى ، استولى الحمر على القرية ، وأنقذ سبعة عشر جريحا لم تكن اصابتهم قاتلة ، ومنهم كاتوف ، هذه الأشباح التى انعكست فى وضوح على جليد الفجر المائل الى الاخضرار ، هذه الأشباح الشفافة التى تهزها تلك العطسات التشنجية فى مواجهة المدافع الرشاشــة ، كانت تصاحبه فى المطر ، وفى ذلك الليــل الصينى ازاء ظل السفينة « شان ـ تونج » •

وكان الزورق البخارى يتقدم باستمرار وفى حركة قوية كافية لأن تجعل طيف السفينة المنخفض المضطرب يبدو متأرجحا فى بطء على صفحة النهر ، وكانت السفينة تكاد تخلو من الأضــواء ولهذا لــم يكن من الممكن تمييزها الا بوصفها كتلة أشــد ظلاما من الســـماء المفتوحة ـ لا مجــال للشك فى أن « شان ـ تونج » محاطة بالحراسة •

والتقى كشاف منبعث من أحد الطرادات بالزورق البخارى ، تعقبه برهة ، ثم تحول عنه • وسار الزورق فى انحناءة عميقة ، واتجه صوب السفينة من المؤخرة ، منحرفا الى يمينها قليلا ، وكأنه متجه الى السفينة المجاورة • كان الرجال جميعا يرتدون معاطف البحارة الواقية من المطر ، وقد تدلت قلنسواتهم على ظهورهم • وكانت أوامر سلطات الميناء تقضى بأن تنزل كل سفينة سلم الركاب ، فنظر كاتوف الى سلم « شان ـ تونج » من خلال نظارته المكبرة التى أخفاها فى معطفه : كان معلقا على بعد متر من سطح الماء ، تضيؤه ثلاثة مصابيح خافتة • اذا طلب القبطان المال ـ الذى لا يملكون منه شيئا ـ قبل أن يأذن لهم بالصعود الى سطح السفينة ، فان على الرحال حينئذ أن يقفزوا واحدا وراء الآخر من الزورق البخارى ، وقد يتعذر ابقاء الزورق تحت سلم السفينة • أما اذا حاول أصحاب السفينة أن يسحبوا سلمها فانه يستطيع أن يطلق النار على من يقومون بهذه العملية : فليس تحت البكرات الجرارة ، ما يصد الرصاص عنهم • غير أن السفينة يمكن أن تعلن حالة الدفاع •

وانحرف الزورق البخارى ٩٠ درجة ، واتجه صوب « شان ـ تونج » فحمل عليها التيار الذى يشتد فى هذه الساعة بالذات ، وكانت السفينة التى بدت مرتفعة ارتفاعا كبيرا فى هذه اللحظة ( وكانوا عند أقدامها ) ـ تلوح وكأنها تنطلق فى الليل بأقصى سرعتها ، أشبه بشبح سفينة • وترك سائق الزورق البخارى للمحرك أقصى قوته : فبدت « شان ـ تونج » كأنما تبطىء من سرعتها ، وتتوقف عن الحركة ، ثم تتراجع • واقترب من سلم السفينة ، وهناك أمسك به كاتوف ، وفى وثبة واحدة ، صعد اليه •

وسأله الرجل الواقف على مدخل السلم : « التصريح ؟ »

سلمه « كاتوف » التصريح ـ فناوله الرجل الى شخص آخر ، وظل فى مكانه قابضا على مسدسه • كان لابد اذن من أن يتعرف القبطان على وثيقته الخاصة : وقد رجح أن الأمر كذلك ، لأن القبطان قد تعرف الوثيقة من قبل ، حين أوصلها اليه كلابيك •• وفى هذه الأثناء ، كان الزورق البخارى المظلم الواقف عند قدم السلم ، يصعد ويهبط مع النهر •

وعاد الرسول قائلا : « تستطيع أن تصعد » ، فلم يتحرك كاتوف دون

مكانه ، وغادر الزورق البخارى رجل من رجاله يحمل على كتفيه شارة الملازم ( وكان هو الوحيد الذى يتكلم الانجليزية ) ، وصعد ، ثم سار فى أعقاب الملاح الرسول الذى قاده الى القبطان ٠

وكان القبطان ، وهو نرويجى حليق الوجه ، منتفخ الأوداج ـ ينتظره فى قمرته وراء مكتبه ٠ وخرج الرسول ٠

قال الملازم بالانجليزية : « لقد جئنا لاستلام الأسلحة ٠ »

فحملق فيه القبطان مذهولا ، دون أن يجيب ٠٠ ذلك أن القواد هم الذين دفعوا ثمن الأسلحة دائما ، وقد تم التفاوض سرا على هذه الصفقة بواسطة ملحق احدى القنصليات ، حتى كان ارسال الوسيط « تانج ـ ين ـ تا » ، وذلك كله نظير نسبة عادلة ٠ فاذا لم يتمسكوا بالتزاماتهم تجاه المستوردين السريين ، فمن يقوم حينئذ بتمويلهم ؟ ولكنه ، ما دام لا يتعامل الا مع حكومة شنغهاى ، فانه يستطيع أن يحاول انقاذ أسلحته ٠

ـ « جميل ! ٠٠٠ هذا هو المفتاح ٠ »

وفتش متظاهرا بالهدوء فى جيب صداره الداخلى ، وعلى حين غرة ، سحب منه مسدسه وصوبه الى صدر الملازم الذى لم يكن يفصله عنه سوى المنضدة ٠ وفى هذه اللحظة نفسها سمع خلفه صوتا يقول : « ارفع يديك! » وكان كاتوف يصوب اليه مسدسه من النافذة المفتوحة المطلة على الدهليز ٠ ولم يفهم القبطان شيئا ، اذ كان « كاتوف » يرتدى بزة بيضاء ، ولكن لم يسعه فى هذه اللحظة الا الاستسلام ، فقد كانت حياته أغلى عنده من صناديق الأسلحة ٠ قال لنفسه : « انها رحلة خاضعة للمكسب والخسارة » ٠ ولسوف يرى ما يمكن أن يحاوله مع بحارته ، فوضع المسدس ، الذى تناوله الملازم ٠

ودخل « كاتوف » ثم قام بتفتيشه : ولم يكن القبطان يحمل سلاحا آخر ٠

قال كاتوف بالانجليزية : « ما فائدة أن تكون لك كل تلك المسدسات على ظهر السفينة ، دون أن تحمل أنت نفسك غير مسدس واحد ٠ » ودخل وراءه ستة من رجاله واحدا اثر الآخر فى صمت ٠ وكانت خطوة كاتوف الثقيلة وهيئته الضخمة ، وأنفه الشرعة ، وشعره الاشقر الفاتح ٠٠ كل هذه

الملامح كانت تدل على أنه روسى ... أو لعله اسكتلندى ؟ ولكن ، هـــذه اللهجة ..

ـ « ولكنك لست من موظفى الحكومة .. أليس كذلك ؟ »
ـ « لا شأن لك بذلك . »

وحملوا مساعد القبطان ، مربوطا كما ينبغى من رأسه وقدميه ، بعد أن باغتوه أثناء نومه . وقيد الرجال القبطان ، وبقى اثنان منهم لحراسته ، ونزل الباقون مع كاتوف . وقادهم البحاران المنتميان الى الحزب الى المكان الذى خبئت فيه الأسلحة ، وكان الاحتياط الوحيد الذى اتخذه مستوردو « ماكاو » هو أنهم كتبوا على الصناديق هذه العبارة : « قطع منفصلة » . وشرع الرجال فى انزال الشحنة . ولم يجدوا فى ذلك أية صعوبة بعد أن خفضوا السلم ، اذ كانت الصناديق صغيرة الحجم . وما أن وضع آخر صندوق فى الزورق البخارى حتى ذهب كاتوف لافساد مركز اللاسلكى فى السفينة ، ثم دخـل حيث يوجد القبطان وقال له : « اذا كنت متعجلا فى النزول الى البر فانى أنذرك بأنك سوف تلقى مصرعك عند أول منعطف فى الشـارع .. نعمت مساء . »

محض خيلاء ، غير أن الحبال التى كانت تحز فى أذرع الأسرى ، كانت تضفى عليه قوة .

وعاد الثوار ، يصحبهم البحاران اللذان أرشداهم الى الزورق البخارى ، الذى انفصل عن السلم ، واتجه صوب الرصيف ، فى خط مستقيم هـذه المرة . وبينما كان الزورق يعلو ويهبط بفعل الأمواج ، شرع الرجال يستبدلون ثيابهم فى غبطة يشوبها ضرب من القلق ، فما زال الخطر ماثلا ، حتى يبلغوا الشاطىء .

وهناك ، كانت تنتظرهم سـيارة نقل ، يجلس فيها « كيو » الى جانب السائق .

ـ « ماذا حدث ؟ »

ـ « لا شيء ... انها مهمة يمكن أن يقوم بها مبتدئون . »

وما أن انتهي نقل الصناديق ، حتي انطلقت السيارة تحمل كيو وكاتوف

وأربعة من الرجال ، احتفظ أحدهم بزيه العسكرى ، بينما تفرق الآخرون .

وقطعت السـيارة شوارع المدينة الصينية فى جلبة شديدة . وكانت جوانبها القريبة من الاطارات مزينة بصفائح البنزين ، وعند كل « مركز » هام سواء أكان حانوتا أم كهفا أم شقة كانت السيارة تتوقف برهة ، لينزل منها صندوق ، قد وضع كيو على أحد جوانبه مذكرة مرقومة تتضمن تعليماته الخاصة بتوزيع الأسلحة ، وكان لابد من توزيع بعضها على منظمات الكفاح الثانوية . ولم تكن المدة التى تقفها السيارة تزيد عن خمس دقائق ، ومع ذلك كان لابد أن تمر على أكثر من عشرين مركزا .

وما كانوا يخشون شيئا سوى الخيانة ! ذلك أن هـذه السيارة ذات الجلبة الشديدة والتى يقودها سائق فى زى الجيش الحكومى ، لم تكن تثير أية ريبة . وصادفوا فى طريقهم دورية من الجنود ، فقال كيو لنفسه : « لقد أصبحت بائع اللبن الذى يقوم بجولته المعتادة . »

وأشرق الفجر .

# الجزء الثـــانى

## ٢٦ مارس

### الساعة الحادية عشرة صباحا

ناجى فيرال نفسه قائلا : « الأمر على غير ما يرام » · كان يقود سيارته بحذاء رصيف الميناء ، وكانت سيارته هى الوحيدة التى تحمل ماركة «فوازان» الفرنسية فى شنغهاى ، اذ لم يكن من المستساغ أن يستخدم رئيس الغرفة التجارية الفرنسية سيارة أمريكية · وعلى اليمين ، تحت الرايات العمودية المغطاة بالشعارات : « يوم العمل لا يزيد عن اثنتى عشرة ساعة » « لا عمل للأطفال دون سن الثامنة · » ·· تحت هذه الرايات كان آلاف من عمال النسيج ، واقفين ، أو جالسين القرفصاء ، أو راقدين على الرصيف فى فوضى شاملة · وجاوزت السيارة جماعة من النسوة احتشدن تحت شعار « حق الجلوس للعاملات » · وكانت الترسانة نفسها خالية ، اذ انضم عمال التعدين أيضا الى الاضراب · وعلى اليسار ، آلاف من الملاحين فى أسمالهم الزرقاء ينتظرون دون أن يحملوا أعلاما ، وقد جلسوا القرفصاء على طول النهر · كان جمهور المتظاهرين يمتد على جانب الرصيف حتى يتلاشى فى أعماق الشوارع المتعامدة عليه ، وعلى شاطىء النهر احتشدت الجموع حتى لم يعد من الممكن رؤية مياه النهر · واجتازت السيارة الرصيف، ودخلت«شارع الجمهوريتين» ، ولكنها لم تستطع أن تتقدم بعد أن اشتبكت الآن فى حركة الجموع الصينية التى اندفعت من كل الشوارع لاجئة الى منطقة الامتيازات الفرنسية · وكما يسبق الجواد جوادا آخر برأسه أو برقبته أو بجزء من صدره ، كانت الجماهير تطغى على السيارة فى بطء ، ولكن باستمرار · وازدحم الطريق بعربات اليد ذات العجلة الواحدة تطل منها رءوس أطفال متدلية بين أوان خزفية ، وعجلات بكينية ، وعربات أطفال ، وجياد صغيرة غزيرة الشعر ، وعربات تجرها أذرع الآدميين ، وسيارات نقل تحمل ستين شخصا ، ومراتب ضخمة تضم أثاث منزل بأكمله ، وقد برزت منها أرجل المناضد ، وعمالقة يحمون بأذرعهم الممدودة الى أقصى ما تستطيع والتى يتدلى منها قفص فيه عصفور أسحم — يحمون نسوة صغيرات يحملن أطفالهن خلف ظهورهن · واستطاع السائق أن ينحرف أخيرا ، فدخل شوارع غاصة بالناس ، ولكن صوت آلة التنبيه كان يزيح الجماهير على بعد أمتار أمام السيارة · وأخيرا وصل الى المباني الضخمة التى يقيم فيها البوليس الفرنسى ·

وصعد « فيرال » درجات السلم ركضا • وعلى الرغم من شعره المرسل الى الوراء ، وحلته الفاقعة اللون التى تكاد تكون حلة رياضية ، وقميصه المصنوع من الحرير الرمادى ، فقد كان وجهه يحتفظ بشىء من ملامح جيل ١٩٠٠ ، حين كان شابا • وكان يسخر من الناس الذين « يتنكرون على هيئة رؤساء الصناعة » ويجعل من ذلك مبررا لكى يتنكر هو على هيئة دبلوماسى : ولم يكن قد تخلى عن شىء سوى المونوكل • وكان شاربه المدلى الذى وخطه الشيب ، والذى يبدو أنه يطيل التجاعيد التى تحيط بشفتيه ، يضفى على صورة وجهه الجانبية وحشية مرهفة ! وكانت قوته تتبدى فى التوافق بين أنفه المعقوف وذقنه البارزة التى لم يحلقها بعناية هذا الصباح : فقد كان موظفو خدمات توزيع المياه مضربين ، والصابون لا يذوب جيدا فى الماء الطباشيرى الذى جلبه الحمالون •• واختفى وسط موجة من التحيات •

وفى مؤخرة مكتب « مارسيال » مدير البوليس ، وقف مخبر صينى هرقلى الجثة ، يسأل قائلا : « أهذا هو كل شىء يا سيدى الرئيس ؟ »

فأجابه مارسيال موليا له ظهره : « حاولوا أيضا أن تفوضوا تنظيمات النقابة ، وخلصونى من ذلك العمل الملتوى • انكم لا تستحقون الا الركل بالأقدام ، فنصف رجالكم خونة ملاعين • وأنا لا أدفع لك ما أدفع لكى تقوم بالترفيه عن ثوريين لا يجرءون على الافصاح عن حقيقتهم • فليس البوليس مصنعا لتزويد الناس بما يثبت براءتهم • تخلص من كل العملاء الذين يتعاونون مع الكومنتانج ، دون أن تكون فى حاجة الى أن آمرك بذلك وحاول أن تفهم ، بدلا من أن تنظر الى فى بلاهة • ولو أننى كنت أجهل نفسية رجالى كما تجهل أنت نفسية رجالك •• لكان فى ذلك دمارى ! »

ــ « سيدى الــ ••• »

ــ « انتهى الأمر •• مفهوم ــــ انصراف ، وليكن ذلك بأسرع ما يمكن•• صباح الخير يا سيد فيرال • »

واستدار ناحيته : كانت له سحنة عسكرية ، وقسمات ضخمة منتظمة لا شخصية وأقل دلالة من كتفيه •

ــ « صباح الخير يا مارسيال •• ما أخبارك ؟ »

ــ « الحكومة مضطرة ــ للمحافظة على السكك الحديدية ــ الى تعبئة آلاف الرجال ·· فليس من الممكن الصمود ــ كما تعلم ــ أمام شعب بأكمله ، الا بالاعتماد على بوليس مثل بوليسنا · والشىء الوحيد الذى تستطيع الحكومة الاعتماد عليه ، هو القطار المشحون بالأسلحة وما يحمله من مرشدين من الروس البيض ··· فالأمر جد خطير · »

ــ « أقلية ولكنها تضم أغلبية من الحمقى ·· أنت على حق فى ذلك · »

ــ « ان كل شىء يتوقف على ما يدور فى جبهة القتال ·· أما هنا ، فسيحاولون اشعال نار الثورة ·· وربما ارتدت هذه المحاولة الى نحرهم ·· لأنهم لا يكادون يملكون أية أسلحة · »

ولم يكن « فيرال » يستطيع الا أن يصغى وينتظر ، وهذا أبغض شىء الى نفسه فى العالم · ولم تكن المفاوضات التى اشترك فيها رؤساء الهيئات الانجلو ــ سكسونية واليابانية ، من أمثاله ، ومن بعض القنصليات ، مع الوسطاء الذين تغص بهم الفنادق الكبرى فى منطقة الامتيازات ·· لم تكن هذه المفاوضات قد أسفرت عن نتيجة حاسمة وربما طرأ بعد الظهر ··

وكان على الكومنتانج ــ اذا وقعت شنغهاى فى أيدى جيش الثورة ــ أن يختار أخيرا بين الديموقراطية والشيوعية · انما الديموقراطيات تقدم دائما زبائن طيبين ، ويستطيع أى مجتمع أن يحصل على منافع دون أن يلجأ بالضرورة الى معاهدات ·· وعلى العكس من ذلك ، اذا أخذت المدنية بالنظام السوفيتى فسوف ينهار الاتحاد الفرنسىالآسيوى ، ومعه التجارة الفرنسية فىشنغهاى· وكان فيرال يعتقد أن الدول الكبرى سوف تتخلى عن مواطنيها ، كما فعلت انجلترا فى هانكاو · ولهذا كان هدفه المباشر هو ألا تسقط المدينة قبل وصول الجيش ، حتى لا يتمكن الشيوعيون من العمل وحدهم ·

ــ « كم عدد الجنود مارسيال ، بالاضافة الى القطار المسلح ؟ »

ــ « ألفا من رجال البوليس ، وفصيلة من المدفعية ، يا سيد فيرال ·»

ــ « وكم عدد الثوار الذين يستطيعون أن يفعلوا غير مجرد الثرثرة ؟ »

ــ « المسلحون منهم ، عدة مئات على أكثر تقدير ··· اما الآخرون فلا أظن أنهم يستحقون عناء الحديث عنهم · انهم لا يعرفون استخدام البندقية نظرا

لعدم وجود نظام الخدمة العسكرية هنا ، لا تنسى ذلك • وقد كان هؤلاء الثوار ـ فى فبراير ـ الفين أو ثلاثة آلاف ـ اذا حسبنا الشيوعيين •• وليس من شك أن عددهم الآن زاد قليلا • »

ولكن ••• لم يكن جيش الحكومة قد تحطم فى فبراير •

واستأنف مارسسيال حديثه قائلا : « وكم منهم سيستمر فى تعضيد الشيوعيين ؟ غير أن هذا كله ، لا يفيدنا كثيرا يا سيد فيرال •• فلابد من معرفة نفسية الزعماء •• أما نفسية الرجال ، فانى ملم بهـا ••• ذلك ان الرجل الصينى ••• »

وكان نمن النادر أن ينظر فيرال الى مدير البوليس كما يفعل فى هـذه اللحظة وهذه النظرة كفيلة باسكاته • نظرة لا تعبر عن الاحتقار والغضب كما تعبر عن لحكم : فلم يقل بصوته القاطع ، الآلى الى حد ما : « هل سيستمر هذا طويلا ؟ » ، وانما أفصح عن ذلك بنظراته • ولم يكن يستطيع أن يحتمل أن يعزو مارسيال الى حصافته المعلومات التى استقاها من جواسيسه •

ولو تجاسر مارسيال لأجابه : « وماذا يعنيك من هذا كله ؟ » غير انه كان خاضـعا تمام الخضوع لفـيرال ، وكانت علاقاته به قائمة على الأوامر التى لا يستطيع الا أن يصدع بها ، بل كان يشعر من الناحية الانسانية ، أن فيرال أقوى منه أيضا ، ولكنه لم يكن يستطيع احتمال هذه الاستهانة الوقحة ، وتلك الطريقة التى تحيله الى مستوى الآلة ، وتنكر وجوده حين يريد أن يتكلم باعتباره فردا ، لا مجرد ناقل للمعلومات • لقد تحدث اليه مبعوثو البرلمـان عن أعمال فيرال ـ قبل سقوطه ـ فى لجان مجلس النواب • كان فـيرال فى الجلسات يطلق العنان لخصاله ـ وهى التى تعطى لخطبه وضوحها وقوتها ـ الى الحد الذى جعل بغض زملائه له يتزايد عاما بعد عام ، فقد كانت له موهبة فريدة فى انكار وجودهم • وبينما كان نائب مثل « جوريس » أو « بريان » يضفى عليهم حياة شخصية طالما حرموا منها ، ويوحى اليهم بأنه يخاطب كلا منهم بالذات ، وبأنه يحـاول اقناعهم ، واشراكهم أو توحيـدهم فى تجربة مشتركة عن الحياة والناس ، كان فيرال يواجههم بصرح من الوقائع ، ويختم خطبته بقوله : « وازاء هذه الظروف ، فلا مندوحة أيها السادة من اعتبار هذا

باطلا ... » فهو اما أن يرغمهم على الأخذ برأيه ، أو يندحر فى هذه المحاولة . ولاحظ مارسيال أن « فيرال » لم يتغير قيد شعرة .

وسأله فيرال : « وهل بلغك شيء من هانكاو ؟ »

ـ « تلقينا معلومات هذه الليلة .. هناك ٢٢٠,٠٠٠ عامل بلا عمل ، أى ما يكفى لتشكيل جيش أحمر جديد ... »

وكانت بضائع ثلاث من الشركات التى يشرف عليها فيرال قد تسرب اليها الفساد ، بعد أن ظلت ملقاة على رصيف الميناء الفخم طيلة أسابيع ، دون أن يقبل الحمالون الصينيون القيام بنقلها .

ـ « وما أنباء الاتصالات بين الشيوعيين وتشانج كاى ـ شيك ؟ »

وأجابه مارسيال : « هذه هى خطبته الأخيرة .. ولكننى ـ كما تعلم ـ قلما أومن بما يقال فى الخطب ... »

ـ « أما أنا فأومن بالخطب .. بما قيل فى هذه الخطبة على الأقل ... ما علينا . »

ودق جرس التليفون ، وتناول مارسيال السماعة ، وقال : « انها لك يا سيد فيرال[*] »

ـ « آلو ؟ .. آلو ، نعم . »

ـ ........[**]

ـ « انه يقدم لك حبلا لتشنق نفسك به ... انه يعارض فى التدخل وهذا أمر مسلم به . والمسألة هى أن نعرف هل من الأفضل أن نتهمه بالشذوذ الجنسى ، أو بأنه مرتش .. هذا كل ما فى الأمر . »

ـ ........[**]

ـ « وبالطبع انه ليس هذا ولا ذاك . وبالاضافة الى ذلك ، لا أحب أن يعتقد أحد أعوانى أننى قادر على مهاجمة رجل بسبب شذوذ جنسى يتصف به حقا .. أتظننى رجل أخلاق ؟ الى اللقاء . »

ولم يكن مارسيال يجرؤ على أن يسأله عن شيء . وكان يبدو له أن امتناع فيرال عن احاطته بخططه ، وما يتوقعه من مفاوضاته مع أنشط أعضاء الغرفة

التجارية الدولية ، ومع رؤساء الهيئات التجارية الصينية الكبرى ٠٠ كان يبدو له ذلك عمـلا مهينا وطائشا فى وقت واحد ٠ ومع ذلك ، اذا كان مما يثير سخط مدير البوليس أن يجهل ما يفعله ، فان أشد من ذلك اثارة لسخطه أن يفقد منصبه ٠ وكان فيرال الذى ولد فى الجمهورية كما يولد فى اجتماع عائلى ، والذى تزدحم ذاكرته بوجوه شخصيات طيبة كرينان وبرتلو وفيكتور هيجو ، ابن المستشار القانونى العظيم والحاصل عـلى درجة الأستاذية فى لتاريخ وهو فى سن السابعة والعشرين ، والمشرف على أول كتاب جماعى عن تاريخ فرنسا العام وهو فى التاسعة والعشرين ، والنائب الصغير جدا ( الذى استغل وجوده فى عصر وصل فيه بوانكاريه وبارتو الى الوزارة قبل أن يبلغا سن الأربعين ) ، ورئيس اتحاد الشركات الفرنسى الآسيوى ٠٠ كان فـيرال هذا يحظى ـ على الرغم من سقوطه السياسى ـ بقوة ومكانة تعادلان على الأقل قوة ومكانة قنصل فرنسا العام الذى كان فضلا عن ذلك صديقا له ٠ ولهذا كان مدير البوليس يظهـر له وداً يتسـم بالاحترام ٠ وناوله الخطبة التى جاء فيها :

« لقد أنفقت ثمانية عشر مليونا من القروش لاغير ، واستوليت على ست مقاطعات فى خمسة شهور ، فليبحث الساخطون ، اذا راق لهم ذلك ، عن قائد آخر ينفق القليل ويحصل على الكثير مثلى ٠٠٠ »

قال فـيرال : « من البين ، أن مسألة المال سوف تحل بالاستيلاء عـلى شنغهاى ، فسوف تعطيه الجمارك ثلاثة ملايين من القروش شهريا ٠٠٠ أى ما يكفى تقريبا لسد العجز الذى يحدثه الجيش ٠٠٠ »

ـ « أجل ٠٠ ولكن يقال : ان موسكو قد أمرت مبعوثيها السياسيين بأن يسمحوا بهزيمة قواتهم أمام شنغهاى ٠٠ ويمكن أن تنتهى الثورة عندنا نهاية سيئة ٠٠٠ »

ـ « ولمـاذا أصدرت موسكو هذه الأوامر ؟ »

ـ « لالحاق الهزيمة بتشانج ـ كاى ـ شيك ، وتحطيم مكانته ، واستبداله بقائد شيوعى ينسب اليه شرف الاستيلاء على شنغهاى ٠ ويكاد يكون مؤكدا أن الحملة على شنغهاى قد تقررت دون موافقة لجنة هانكاو المركزية ٠ ويؤكد الجواسيس أنفسهم أن هيئة أركان الجيش الأحمر تعارض هذا النظام ٠٠

وبدا الاهتمام على فيرال ، وان لم يكن مقتنعا • وواصل قراءة الخطبة :

« وعلى الرغم من خروج عدد كبير من أعضائها ، فان اللجنة المركزية التنفيذية فى هانكاو تعد نفسها ـ وهى فى هذه الحال من النقص ـ السلطة العليا فى حزب الكومنتانج •• وأنا أعلم أن صن ـ يات ـ سن قد سمح للشيوعيين بأن يتعاونوا مع الحزب ، فلم أرتكب أى عمل ضدهم ، بل أعجبت بروحهم فى كثير من الأحيان • ولكنهم بدلا من أن يقنعوا بالتعاون ، يريدون أن يفرضوا الآن أنفسهم سادة للحزب، وأن يتحكموا فيه بالعنف والوقاحة •• ولقد حذرتهم بأننى سأعارض هـذه الادعاءات المسرفة التى تجاوزت حـدود الاتفاق الذى سمح لهم بدخول الحزب ••• »

وهكذا أصبح استخدام ـ تشانج ـ كاى ـ شيك أمرا ممكنا • فلم تعد للحكومة الحالية أية « دلالة » ، الا بما تملـكه من قوة ( وستفقدها بهزيمة الجيش ) ، وبما يبثه الشيوعيون المنضمون الى الجيش من رعب فى قلوب البورجوازيين • ولم يعد يهتم ببقائها سوى نفر قليل من الناس • أما وراء تشانج ، فقد كان يقف جيش ظافر . والبورجوازية الصينية الصغيرة كلها •

وتساءل فيرال بصوت مرتفع .. « أهناك شىء آخر ؟ »

ـ « كلا •• يا سيد فيرال • »

ـ « شكرا • »

والتقى فى نزوله من السلم بحسناء كستنائية الشعر ترتدى تايـيرا رشيقا ، وتتخذ ملامحها هيئة قناع رائع لا يفصح عن أى تعبير • كانت روسية من القوقاز يقال انها تقوم بدور عشيقة مارسيال اذا اقتضت المناسبات • وجال فى خاطره : « كم يطيب لى أن أرى وجهك ، أنت ، حين تستمتعين ! »

ـ « معذرة يا سيدتى • »

وتجاوزها ، وهو ينحنى لها ، ثم استقل سيارته التى بدأت تغوص وسط الحشود ، ضـد التيار هذه المرة • وكانت آلة التنبيه تهدر دون جـدوى ، عاجزة حيال خروج هذه الجحافل ، وازاء ذلك الغليان الأولى الذى تثيره الغزوات أمامها • ووسط صغار الباعة وهم أشبه بالموازين تدلت كفتاها فى الهواء ، واضطربت محاورها ، وبين الهوادج والعربات الجديرة بأباطرة أسرة تانـج ،

وبين العجزة ، والأقفاص ، أخذ فيرال يتقدم وسط عيون جعلها القلق تنظر الى الداخل : •• لو لم يكن بد من أن تنتهى حياته الطفيلية ، فلتنته اذن وسط هذا الضجيج ، وبين هذا اليأس المذعور الذى يرتطم بنوافذ سيارته ! وعلى نحو ما يتأمل معنى حياته ، لو كان جريحا ، دفعه الخطر الذى يهـدد مشروعاته الى أن يتأملها ، والى أن يحس بموطن الضعف فى نفسه • ولم يكن قد اختار هـــذا الصراع بمحض ارادته ، وانما أجبر على الاهتمام بمصالحه الصينية لكى يجد منافذ جديدة لانتاجه فى الهند الصينية ، فكان يقوم هنا بدور المنتظر ، متجها ببصره صوب ما يجرى فى فرنسا ، ولكن لم يعد فى وسعه أن ينتظر أكثر من ذلك •

كان ضعفه الأعظـم يرجع الى غياب الدولة • ذلك أن التوسع فى مثل هذه المشروعات الكبيرة أمر لا ينفصل عن الحكومات • وقد كان منذ شبابه ـ حين لم يكن الا نائبا فى البرلمان ـ يعمل دائما للدولة ، فقد كان رئيسا لجمعية الطاقة الكهربائية والأجهزة التى كانت تنتج المواد الكهربائية للدولة الفرنسية. ثم قام بعد ذلك بالاشراف على اعادة انشاء ميناء بيونس ـ ايرس ـ ولما كان نزيها •• تلك النزاهة الأبية التى ترفض تناول أية عمولة ، ولكنها تتلقى التكليفات ، فقد كان ينتظر أن تمده المستعمرات الآســيوية بالأموال التى احتاج اليها عقب ســقوطه ، ذلك أنه لـم يكن يريد أن يقامر من جديد ، بل أن يغير قواعد اللعب • وقد استطاع بالاستناد على مركز أخيه الشخصى الذى كان يشغل منصبا أهم من منصبه هو كمدير للحركة العامة للخزانة ، وببقائه رئيسا لجماعة قوية من الممولين الفرنسيين •• استطاع فيرال أن يقنع حكومة الهند الصينية بانفاق أربعمائة مليون فرنك على المرافق العامة ـ ولم يغضب خصــومه أنفسهم من امداده بالوسائل التى تمكنه من الخروج من فرنسا • وما كانت الجمهورية تستطيع أن تحول بين شقيق أحد كبار موظفيها وبين تنفيذ برنامجه الذى يهدف الى نشر المدنية فى البلاد الآسيوية • وكان التنفيذ ممتازا وباعثا على الدهشة فى تلك البلاد التى تسود فيها المدجلات دون أى اكتراث • وكان فـيرال حسن التصرف ، والعمل النافع لا يضيع أبدا ، وانتقلت الجمـاعة الى تصنيع الهند الصـينية • وظهرت تدريجيا : مؤسستان للتسليف ( العقارى والزراعى ) ، وأربع شركات زراعية : المطاط والنباتات الاستوائية ، والقطن ، والسكر ، تشرف بنفسها على تحويل موادها

الأوليــة مباشرة الى منتجــات مصنوعة ، وثلاث شركات للتعدين : الفحــم والفوسفات ، ومناجم الذهب ، وجمعية ملحقة « لاستغلال الملاحات » ، وخمس شركات صــناعية : الاضــاءة والطاقة ، والكهرباء ، والزجــاج ، والورق ، والطباعة ، وثلاث شركات للنقل : صنادل السفن ، والمقطورات ، والترام •
وفى المركز ، تسود شركة الأشغال العامة ، كملكة على هذه الشركات جميعا ، أو كأم أو قابلة لهــذه الشركات الشقيقات العاكفة عــلى التزاوج فيما بينها والعيش بروابط النفع المحرمة ، وقد استطاعت هذه الشركة أن تفوز بحقوق انشاء الخط الحديدى فى أنام الوسطى ، وهو الخط الذى يخترق ــ ومن كان يستطيع أن يصدق هذا ؟ ــ الشطر الأكبر من مناطق امتيازات جماعة فيرال •• وكان نائب رئس مجلس الادارة يقول « لا بأس بسير الأمور » لفيرال الذى يصمت وقد استغرقه الاشتغال بتكديس ملايينه حتى تصبح سلما يرتقيه ليشرف على باريس من أعلاه •

ولو وجد مشروع لانشاء شركة صينية جديدة فى كل جيب من جيوبه ، فانه لم يكن يفكر الا فى باريس • أن يعود الى باريس ، وقد بلغ درجة من الثراء تؤهله لشراء وكالة هافاس أو على الأقل للتفاوض معها ، واستئناف لعبة السياسة ، ثم الوصول فى حذر الى كرسى الوزارة ، واستغلال الاتحاد بين الوزارة وبين رأى عام يشتريه بالمال ، ضد البرلمان • هنا تكمن القوة • بيد أن الأمر لم يكن يتعلق اليوم بأحلامه ، ذلك أن تشعب مشروعاته فى الهند الصينية قد شغل جماعته كلها فى التغلغل التجارى فى حوض نهر يانج ــ تسى ، وهــا هو تشانج ــ كاى ــ شــيك يزحف على شــنغهاى بجيش الثورة ••• وضغطت الحشود التي أخذت تتكاثف أكثر فأكثر على أبواب سيارته • ما من شركة فى الصين يملكها أو يشرف عليها الاتحاد الفرنسى الآسيوى قد سلمت من التأثر بهذه الثورة : فشركات الانشاءات الملاحية فى هونج كونج قد تأثرت بعدم استقرار الملاحة ، وكذلك سائرالشركاتالأخرى، المرافق العامة ، الانشاءات ، الكهرباء ، التأمينات ، البنوك ، كلهــا تأثرت بالحرب وبالخطر الشيوعى • وما تستورده هذه الشركات من سلع بقى فى مخازنه فى هونج كونج أو شنغهاى ، وما تصدره بقى فى مخــازن هانكاو ، وأحيانا على رصيف الميناء •

وتوقفت السيارة • وأعلن السكون ــ والجمهور الصيني يعد من أشبه

الجماهير صخبا ــ نهاية العــالم ••• ثم طلقة مدفع • هل اقترب الجيش الثورى بهذه الدرجة ؟ كــلا ، انه مدفع الظهر •• وافسح الجمهــور طريقا للسيارة ، غير أن السيارة لم تتحرك من مكانها •• وأمسك فــيرال بأنبوبة الصوت •• لا جواب : لقد اختفى السائق ، والخادم أيضا •

ولبث ساكنا مذهولا فى تلك السيارة الثابتة التى أحدقت بها الجموع بكل ثقلها من كل جانب • وخرج صاحب أقرب حانوت ، حاملا عــلى كتفه مصراعا ضخما •• واستدار على عقبيه ، فأوشك أن يحطم نوافذ السيارة ، وأوصد حانوته • وعلى اليمين ، وعلى اليسار ، وفى مواجهته ، أصــحاب حوانيت أخرى ، وعمال يخرجون حاملين مصاريع كتب عليها شعارات فوق أكتافهم •• وهكذا بدأ الاضراب العام •

ولم يكن هذا الاضراب شبيها باضراب هونج كونج ، الذى أخذ يتسع فى بطء اتساعا ملحميا حزينا ؛ بل كان مناورة يقوم بهــا الجيش • ومد بصره الى أقصى مداه ، فلم يلمح حانوتا مفتوحا • يجب أن يرحــل بأسرع ما يمكنه ، فنزل من الســيارة ، ونادى عــلى مركبة ، فلم يرد عليه صاحبها الصــينى ، الذى كان يجرى بأقصى سرعته ليحتمى داخل مخزن المركبات ، وألفى نفسه وحيدا فى الشارع مع سيارته المهجورة ، وكانت الحشود قد انحسر مدها ، وتدافعت من جديد صوب الأرصفة • وحدث فــيرال نفسه قائلا : « انهم يخشون المدافع الرشاشة » وكف الأطفال عن اللعب ، وأخذوا يتسللون بين سيقان الناس التى تعج بها الأرصفة • وكان السكون نابضا بحياة بعيــدة ، وقريبة جــدا فى الوقت نفسه ، كسكون الغــابة الزاخرة بالحشرات، ودوت صفارة احدى السفن الحربية ، وسرعان ما ابتلعها الصمت• وسار فيرال متجها الى منزله بكل ما يستطيع من سرعة ، وقد وضع يديه فى جيبيه ، ودفع منكبيه وذقنه الى الأمام • استأنفت صفارتان معا ، من مقام أعلى ، ذلك الصفير الذى تبدد منذ لحظة ، وكأن حيوانا هائلا يلفه هـــذا الصمت قد أعلن عن مقدمه على هذا النحو • لقد كانت المدينة بأسرها مشرئبة تترقب •

**الساعة الواحدة بعد الظهر**

قال تشن : « .. الا خمس دقائق »

وكان أفراد جماعته ينتظرون . انهم جميعا من عمال النسيج ، وقد ارتدوا ثيابا مصنوعة من قماش أزرق سميك ، وكان هو يرتدى زيهم .. كانوا جميعا حليقى الوجوه ، نحاف الأجسام ، أقوياء البنية : وكان الموت قد اصطفاهم ، قبل أن يختارهم تشن . وأمسك اثنان منهم بالبنادق تحت أذرعهم ، وقد نكست فوهاتها نحو الأرض . وحمل سبعة منهم مسدسات من السفينة « شان - تونج » ، وحمل آخر ، قنبلة يدوية ، بينما أخفى آخرون قنابل يدوية أخرى فى جيوبهم . وكان ثلاثون آخرون يقبضون على سكاكين ، وعلى هراوات ، وحراب ، وثمانية أو عشرة بلا أى سلاح ، جلسوا القرفصاء بالقرب من حزمة من الخرق المهلهلة ، وصفائح البنزين وبكرات من الأسلاك . وفحص شاب منهم مسامير ذات رءوس كبيرة أخرجها من أحد الأكياس : « لابد أنها أعلى من ارتفاع حدوة الحصان » .. « بلاط المعجزات » (١) ، ولكن تحت ثوب من الحقد والتصميم .

لم يكن هو واحدا منهم ، على الرغم من جريمة القتل ، وعلى الرغم من وجوده بينهم . ولو مات اليوم ، لمات وحيدا . ذلك أن الأمر بالنسبة اليهم بسيط غاية فى البساطة ، فهو يحاربون من أجل لقمة العيش ، وفى سبيل كرامتهم .. أما هو .. فما كان يعرف أن يتحدث اليهم ، اللهم الا عن ألمهم وكفاحهم المشترك . ولكنه يعلم على الأقل أن الكفاح هو أقوى الروابط .. وها هو الكفاح قد بدأ .

وانتصبوا واقفين ، وقد وضعوا الأكياس على ظهورهم ، وأمسكوا بالصفائح فى أيديهم ، وتأبطوا الأسلاك الحديدية . وكان المطر لم يأخذ بعد فى الانسكاب ، والحزن المخيم على هذا الشارع الخالى الذى عبره كلب فى قفزتين ، وكأنه تنبأ بغريزته بما يدور فى الخفاء - حزنا عميقا كالصمت ..

---

(١) « بلاط المعجزات » La Cour des Miracles مكان فى باريس كان يعيش فيه الشحاذون والخارجون على القانون فى القرون الوسطى .
( المترجم )

ودوت طلقات خمس من البنادق فى شارع مجاور : ثلاث طلقات معا ، ثم طلقة تتلوها أخرى • قال تشن : « هى ذى البداية » • وساد الصمت ثانية ولكنه بدا مختلفا عما كان عليه • ملأه وقع سنابك خيل ، مضت تقترب شيئا فشيئا • وكما يمزق السماء وميض من البرق عقب انطلاق الرعد ( ودون أن يشاهدوا شيئا حتى الآن ) ، عج الشارع فجأة بضجة امتزجت فيها الصيحات المتشابكة ، وطلقات البنادق ، وصهيل الجياد الثائرة ، وسقوط الأجسام على الأرض ، وبينا اختنقت تلك الصيحات اختناقا مكتوما تحت وطأة الصمت الذى لا سبيل الى فنائه ، ارتفعت صرخة أشبه بنباح كلب يحتضر ، ولكنها انقطعت بغتة : رجل تجز رقبته •

وبلغوا جريا بعد بضعة دقائق شارعا أكثر أهمية • كانت الحوانيت جميعا مغلقة • وعلى الأرض رقدت ثلاث جثث ، وفوق أسلاك البرق لاحت سماء قلقة تعبرها سحب سوداء ، وفى أقصى الشارع ، أقبل ما يقرب من عشرين فارسا ( والفرسان نادرون فى شنغهاى ) ، واستداروا فى تردد دون أن يشاهدوا الثوار الملتصقين بالجدران ، ومعهم أدواتهم ، وهم يراقبون حركات الجياد المترددة • ولم يفكر « تشن » فى الهجوم عليهم ، اذ كان رجاله يفتقرون الى الأسلحة • وانعطف الفرسان الى اليمين ، وأخيرا وصلوا الى مركز البوليس • ودخل الحراس فى هدوء وراء تشن •

كان رجال البوليس يلعبون الورق ، وقد وضعت بنادقهم ومسدساتهم على تخشيبة السلاح • وفتح الصول المشرف عليهم ، نافذة ، وصاح فى فناء شديد الظلمة :

ـ « أنتم يا من تسمعوننى جميعا ، أنتم شهود على العنف الذى يرتكب ضدنا • وها أنتم ترون أننا مرغمون ظلما وعدوانا على الخضوع للقوة ! »

وهم بأن يغلق النافذة مرة أخرى ، غير أن « تشن » أبقى عليها مفتوحة ، وأطل منها فلم يجد أحدا فى الفناء • بهذه الصورة أنقذ رجال البوليس ماء وجههم ، وجاءت هذه الحركة المسرحية فى الوقت المناسب • وكان « تشن » يفهم مواطنيه : فما دام هذا الرجل قد « قام بالدور » ، فلن يفعل شيئا بعد ذلك • ووزع تشن الأسلحة وانصرف الثوار ، وقد تسلحوا جميعا هذه المرة : ولم تعد ثمة جدوى من احتلال مراكز صغيرة للبوليس مجردة من السلاح • وتردد رجال البوليس ، ونهض ثلاثة منهم وهموا بالانضمام الى الثوار ،

( فلعلهم سيخرجون الى النهب •• ) ، ووجد « تشن » مشـقة فى التخلص منهم ، أما الآخرون فقد جمعوا أوراق اللعب ، واستأنفوا اللعب •

قال أحدهم : « لو أنهـم انتصروا ، فربما تقاضـينا مرتباتنـا هـذا الشهر ؟ »

فأجاب الصول وهو يوزع أوراق اللعب : « ربما ••• »

ـ « ولكن اذا هزموا ، ربما قيل عنا اننا خائنون ؟ »

ـ « وماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟ لقد خضعنا للقوة • ونحن نشهد جميعا بأننا لم نخن أحدا • »

وأخذوا يتأملون موقفهم ، وقد غاصت رؤوسـهم بين أكتافهم ، كطيور الغاق (١) اذا استغرقها الفكر •

قال أحدهم : « لسنا مسئولين • »

وصدقوا جميعا عـلى قوله ذاك ، ليواصلوا لعبهم فى حانوت مجاور ، لـم يستطع صاحبه أن يطردهم ، ولم يبق وسط مركز البوليس غير كومة وحيدة من ملابس الشرطة •

* *

اتجه « تشن » يتعاوره السرور والحذر ـ صوب أحد المراكز الرئيسية ، وحدث نفسه قائلا : « كل شيء عـلى ما يرام ، غـير أن هـؤلاء بؤساء مثلنا تقريبا ••• » أما الروس البيض وجنود القطار المسلح فسيقاتلون •• وكذلك الضباط • وكانت طلقات بعيدة ، مكتومة كأن السماء الواطئة قد أضعفت من قوتها ، تلطم الهواء متجهة صوب مركز المدينة •

وعند مفرق الطرق ، تردد الرجال لحظة ـ وكانوا جميعا مسلحين الآن حتى حملة الصفائح ـ وأخذوا يدورون بأعينهم باحثين • وكانت الطرادات والبواخر التى لا تستطيع تفريغ بضائعها ترسـل سحبا كثيفة من الدخان ، لا تلبث الريح الثقيلة أن تبددها فى اتجاه مسير الثوار ، وكأن السماء تشارك فى الثورة • وكان المركز الجـديد فندقا قديما مشـيدا من الطوب الأحمر ،

(١) طائر مائي •

ومؤلفا من طابقين ، وعلى كل جانب من جانبى الباب وقف حارس يمسك ببندقية مشرعة الحربة • وكان تشن يعلم أن البوليس الخاص قد أخذ أهبته منذ ثلاثة أيام ، وأن رجاله قد حطمتهم حالة التربص المستمرة • وكان فى هذا المركز عدد من الضباط ، وما يقرب من خمسين جنديا يحملون مسدسات الموزر ، ويتقاضون مرتبات حسنة ، وعشرة من الشرطة • يجب أن أعيش ، أن أعيش ولو الأيام الثمانية القادمة على الأقل ! وتوقف « تشن » عند منعطف الشارع • ان الأسلحة موجودة بلا شك على مشاجبها فى الدور الأرضى ، فى الحجرة القائمة على اليمين ، حجرة الحراسة التى تسبق مكتب الضابط ، والى هـذه الحجرة قد دخل تشن واثنان من رجاله عدة مرات خلال هـذا الأسبوع • واختار تشن عشرة من رجاله بلا بنادق ، وجعلهم يخفون مسدساتهم بين قمصانهم ، وتقدم معهم • وما أن اجتازوا ناصية الشارع ، حتى لمحهم الحارسان وهم يقتربون ، بيد أنهما لارتيابهما فى كل شىء ، لم يعودا يرتابان فى شىء ، ذلك أن مندوبى العمال كانوا يأتون كثيرا ليتفاوضوا مع الضابط النوبتجى ، يحملون اليه الرشاوى ، وهى عملية كانت تستدعى وجود كثير من الضمانات والأشخاص •

قال تشن : « جئنا من أجل الملازم شواى – ثون • »

وبينا كان ثمانية من الرجال يمرون ، تسلل الاثنان الأخيران منهم كأنما قد دفعهما الزحام بين الحارسان والجدار • وما أن وصل الأوائل الى الدهليز حتى أحس الحارسان بفوهات المسدسات فى جنوبهم • وتركا الرجال يجردونهما من أسلحتهما ، فعلى الرغم من أنهما كانا يتقاضيان مرتبات أكبر من مرتبات زملائهما ، الا أنه لم تكن كافية للمجازفة بروحيهما • وأقبل أربعة من رجال تشن لم ينضموا الى الجماعة الأولى ، وانما كانوا يتظاهرون بالسير فى الشارع ، فقادوهما بحذاء الحائط • ولم يكن ثمة شىء يبين من النوافذ •

ومن الدهليز أبصر « تشن » القوائم الخشبية عامرة بالبنادق • ولم يكن فى حجرة الحراسة غير ستة من رجال الشرطة المسلحين بالغدارات الآلية ، وكانوا يضعون هذه الأسلحة حول خصورهم فى قراب مغلقة •

ووثب « تشن » أمام القوائم الخشبية وقد سدد مسدسه الى الأمام •

ولو أوتى رجال البوليس شيئا من العزم ، اذن لباء الهجوم بالفشل • وعلى الرغم من معرفة « تشن » بهذه الأماكن الا أن الوقت لم يتسع له لكى يشير على كل رجل من رجاله بالشخص الذى يجب أن يقوم بتهديده ، وكان من الممكن أن يطلق النار واحد أو اثنان من رجال الشرطة • غير أن الجميع رفعوا أيديهم • وسرعان ما انتزعت منهم أسلحتهم • ودخل فريق آخر من رجال تشن ، فبدأ توزيع جديد للأسلحة •

وقال تشن لنفسه : « يوجد فى هذه اللحظة مائتا فريق يتصرفون مثلنا فى المدينة • فاذا واتاهم مثل هذا الحظ ••• » وما كاد يأخذ البندقية الثالثة حتى تناهت الى سمعه من السلم جلبة شخص متعجل يصعد السلم ركضا • وخرج • وفى هذه اللحظة التى اجتاز فيها الباب ، انطلقت رصاصة من الطابق الأول • ولم يحدث شىء بعدها • كان أحد الضباط قد شاهد الثوار وهو يهبط فأطلق النار من السلم ، ثم انسحب على التوالى الى « البسطة » •

وأوشك القتال أن يبدأ •

وكان هناك باب وسط ردهة الطابق الأول يشرف على درجات السلم • فهل يبعث مندوبا عن رجاله ليتفاوض على الطريقة الآسيوية ؟ وكان « تشن » يمقت كل ما رسب فى نفسه من الحس الصينى السليم • غير أن محاولة الاستيلاء على السلم بطريق الهجوم كان معناها الانتحار : فليس من شك أن رجال البوليس يملكون قنابل يدوية • وكانت تعليمات اللجنة العسكرية التى تقلها « كيو » الى جميع الفرق تقضى فى حالة الفشل الجزئى بإشعال النار واحتلال المنازل المجاورة ، وطلب المعونة من الفرق الخاصة • ولم يكن ثمة مفر من تنفيذ هذه التعليمات الآن •

ـ « اشعلوا النار ! »

وحاول الرجال الذين يحملون الصفائح أن يسكبوا البنزين على الأرض وكأنهم يسكبون الماء من دلو ، غير أن الفتحات الضيقة لم تكن تسمح الا بانسكاب دفعات صغيرة هينة • وكان ينبغى أن يسكبوه متمهلين على الأثاث ، وعلى طول الجدران ونظر «تشن» من النافذة : فشاهد فى مواجهته حوانيت مغلقة ، ونوافذ ضيقة تشرف على مدخل المركز ، وفوقها سقوف المنازل الصينية البالية المحدودبة ، والسكون اللانهائى الذى تنشره سماء رمادية لا يخططها دخان

.. سماء الليفة واطئة تحنو على الشارع المقفر . ان كل صراع عبث لا طائل وراءه ، ولا يمكن أن يصمد شيء في وجه الحياة ، وثاب الى نفسه في اللحظة المناسبة ليرى زجاج النافذة ومصراعيها لتداعى محدثا دويا بالموريا ممتزجا بضجيج طلقة مدفع ؛ لقد كانت النار تطلق عليهم من الخارج .

طلقة مدفع أخرى . كانوا الآن محصورين في تلك الحجرة التي انسكب فيها البنزين بين رجال البوليس المتأهبين المسيطرين على الطابق الأرضى ، والمهاجمين الجدد الذين لا يرونهم ، واستلقى رجال تشن جميعا على بطونهم ، بينما قيد الأسرى من رجال البوليس في أحد الأركان . لو انفجرت قنبلة يدوية ، لاحترقوا جميعا . وغمغم أحد الرجال الراقدين ، وهو يشير باصبعه ناحية : كان على أحد السقوف هداف ، وفي الشمال الأقصى من النافذة تسللت كتف في المؤخرة في مجال البصر ، وظهرت أكتاف أخرى في حذر .. كانوا ثوارا من رجالهم .

حدث تشن نفسه قائلا : « هؤلاء الحمقى يطلقون النار قبل أن يرسلوا طليعة من طلائعهم .. » وكانت في جيبه راية الكومنتانج الزرقاء فأخرجها ، وهرول الى الدهليز . وفي اللحظة التي خرج فيها تلقى على حقويه ضربة غاضبة مكتومة في آن واحد ، وفي الوقت نفسه نفذت فرقعة هائلة من سمعه حتى بطنه . وقذف بذراعيه الى الوراء ، بكل قوته كي يحتفظ بتوازنه ، ولكنه وجد نفسه مطروحا على الأرض ، وقد أوشك أن يفقد وعيه .. لا حس ولا حركة ، ثم سقط جسم معدني ، واقتحمت الدهليز تأوهات يصحبها الدخان . ونهض : لم يكن قد جرح ، وواراب ـ وهو يعرج ـ الباب الذى فتحه الانفجار الغامض ، ومد الراية في الخارج ، بذراعه اليسرى ، في المكان الخالي وهو يتوقع أن تخترق راحته رصاصة بين لحظة وأخرى . ولكن ، كلا ، ها هم يصيحون صيحات الفرح . ومنعه الدخان الذى يخرج بطيئا من النافذة من أن يرى الثوار الواقفين على اليسار ، غير أن الثوار الذين يقفون على اليمين كانوا ينادونه .

وكاد الانفجار الثاني أن يطرحه على الأرض مرة أخرى . وكان رجال الشرطة المحاصرون يقذفون من نوافذ الطابق الأول بالقنابل اليدوية ( كيف استطاعوا أن يفتحوا نوافذهم دون أن يصابوا من الشارع ؟ ) وكان الانفجار

الاول الذى ألقاه على الأرض ، قد حـدث أمام الدار ، ودخلت الشظايا عن طريق الباب المفتوح والنافذة وكأنها انفجرت داخل حجرة الحراسة نفسها ، وأما رجاله الذين لم يلقوا مصرعهم ، فقد أفزعهم الانفجار الى درجة أنهـم قفزوا الى الخارج ، لا يكاد الدخان يحميهم · وأصابت النيران التى يطلقها رجال البوليس من النوافذ ، اثنين منهم ، فسقطا وسط الشارع ، وقد انثنت ركبهما على صدريهما كأنهما أرنبان متكوران ، وسقط ثالث بوجهه فى بقعة حمراء ، فبدا وكأنه ينزف من أنفه · وتعرف المتطوعون على زملائهم ، غير أن الحركة التى صدرت عن بعضهم حين نادوا على « تشن » قد أفهمت الضباط أن شخصا سيخرج ، فالقوا بقنبلتهم اليدوية الثانية ، فانفجرت فى الشارع ، على يسار تشن : وهكذا حماه الجدار ·

ومن الفناء ، أخذ يتفحص حجرة الحرس ، وعاد الدخان الى الهبوط من السقف ، فى حركة منحنية بطيئة · وكانت هناك أجسام ملقاة على الأرض ، والتأوهات تنبعث من الأرض فتملأ جو الحجرة ، كالنبـاح · وفى ركـن الحجرة ، كان أسير طارت ساقه يصرخ فى زملائه طالبا منهم أن يكفوا عن اطلاق النار · وكان يبدو أن صرخاته اللاهثة تثقب الدخان الذى استمر على الرغم من العذاب السـائد فى انتشاره المنحنى لا يبـالى بشىء ، وكأنه قدر مرئى · لم يكن هذا الرجل الذى يعوى بعد أن فقد ساقه ·· لم يكن يستطيع أن يظل « مربوطا » ، فهذا محال · ومع ذلك ، ألن تنفجر بين لحظة أو أخرى قنبلة يدوية جديدة ؟ وقال تشن لنفسه : « هـــذا شىء لا يخصـنى ·· فهو عدوى · » ولكن ·· هـذا الثقب فى الجســم بدلا من الساق ·· وصاحبه مربوط !! ان العاطفة التى يعانيها « تشن » كانت أقوى كثيرا من الشفقة : لقد كان هو نفسه هذا الشخص المربوط · « لو انفجرت القنبلة اليدوية فى الخارج ، فسوف أنطرح على بطنى ، واذا تدحرجت الى هنا ، فيجب أن أقذفها فورا · وحينئذ ستكون فرصة نجاتى واحدا على عشرين · ماذا يخصنى من هذا كله ؟ ماذا يخصنى من هذا كله ؟ » أن أقتل ، هذا شىء قليل الأهميـة وانما كان مصدر قلقه أن يصاب فى بطنه ، غير أن هذا أخف وطأة من منظر هذا الرجل المعذب المربوط ، هذا العجز الانسانى فى أثناء الألم · ودون أن يملك من أمره شيئا ، اندفع صوب الرجل ، وقد شهر سكينه ليقطع الحبال ، وظن الأسير أنه يهم بقتله ، فأراد أن يصرخ ، غير أن صوته أصيب بضعف

مفاجىء ، فخرج من فمه فحيحا · تحسسه تشن ــ وقد استبد به الذعر ــ بيده اليسرى فالتصقت بها ثيابه الملطخة بالدماء اللزجة ، دون أن يستطيع في الوقت نفسه أن يحول عينيه عن النافذة المكسورة التي يمكن أن تسقط منها القنبلة اليدوية · وأحس « تشن » أخيرا بملمس الحبال ، فأدخل السكين تحتها ، وقطع ·· وكف الرجل عن الصراخ : لعله مات ، أو لعله فقد وعيه · وعاد « تشـــن » الى الدهليـــز ، مسددا بصره دائمـــا على النافذة المحطمة ، وأدهشه التغير الذى طرأ على رائحة المكان ، وادرك كذلك أن أنات الجرحى قد تغـــيرت هى أيضا فتحولت الى عواء : وفى الحجرة بدأت بقـــايا الأثاث المشربة بالبنزين ــ وقد أشعلتها القنابل اليدوية ــ فى الاحتراق ·

لم يكن هناك ماء · وعلى هذا سيتحول الجرحى ( لم يعد يحسب الآن حسابا للأسرى ، وانما كان همه متجها الى رجاله ) قبل أن يستولى الثوار على المركز الى عظام محترقة · الخروج ، الخروج ! ولكن لابد من التفكير أولا حتى يقوم بأقل ما يمكن من الحركات : وعلى الرغم من أنه كان يرتجف ، الا أن نفسه التى سيطرت عليها فكرة الفرار لم تكن مفتقرة تماما الى البصيرة : يجب أن يتجه الى اليسار ليحتمى بالرواق · وفتح الباب بيده اليمنى ، وهو يشير بيسراه اشارة الصمت · ولم يكن أعداؤه الموجودون فى الطابق العلوى يستطيعون رؤيته ، وانما يستطيعون أن يستدلوا على حركاته من تصرفات الثوار وحدها · وشعر أن نظرات رجاله جميعا مسددة على هذا الباب المفتوح ، وعلى شبحه المكور ، الذى يبدو أزرق اللون على خلفية الدهليز الداكنة · وشرع يتسلل الى اليسار ، ملتصقا بالجدار ، وقد شبك ذراعيه على صدره كالصليب ، وأمسك بيده اليمنى ، وطفق يتقـــدم خطوة خطوة ، ناظرا الى النوافذ القائمة فوق رأسه : وكانت احداها محصنة ضد الرصاص بلوح من الصلب أشبه بالمظلة · ولهذا كان الثوار يطلقون الرصاص على النوافذ دون جدوى : أما القنـــابل اليدوية فكانت تلقى من تحت تلك المظلة وقال تشن لنفسه اذا حاولوا أن يقذفوا بقنبلة يدوية ، فسوف أراها ، كما ســألمح الذراع التى لابد أن تمتد تحت المظلة لتلقى بالقنبلة فاذا لمحتها ، فلا بد أن أصيدها كاللفافة ، وان ألقى بهـــا الى أبعد مكان ممكن ··· » ولم يتوقف عن تسلله المنحرف · « لن أستطيع أن أقذف بها بعيدا بما فيه الكفاية ، فأتلقى حفنة من الشظايا في أحشائى ·· » واستمر في تقدمه · وأدرك من

رائحة الاحتراق الشديدة ، ومن انتهاء الحائط الذى يستند اليه انتهاء مفاجئا خلفه ( ما كان يلتفت وراءه ) ، أدرك أنه يمر أمام نافذة الطابق الأرضى ٠ « اذا أمسكت بالقنبلة اليدوية ، فسألقيها على حجرة الحرس قبل أن تنفجر٠ وبوجود الحائط السميك خلفى بعد أن اجتاز النافذة ٠٠ سوف أنجو ٠ » وما أهمية ألا تكون غرفة الحرس خالية ، أو أن يكون بها ذلك الرجل الذى قطع حباله ــ أو الجرحى من رجاله أنفسهم ! ولم يتبين الثــوار ، ولو من الفجـوات الموجودة فى الدخان ، اذ لـم يكن يستطيع أن يحول عينيه عن المظلة ؛ ولكنه كان يشعر دائما بالنظرات التى تتعقبه : وعلى الرغم من الرصاص المنهمر عـلى النوافذ والذى كان يضايق رجال الشرطة ، فقد أدهشه أنهم لا يدركون أن شيئا ما يحدث ٠ وخطر له فجأة أنهم لا يملكون غير قليل من القنابل اليدوية ، ولهذا فانهم يترقبون اللحظة المناسبة قبل أن يقذفوا بها ٠ وعلى التو ، كأن هذه الفكرة قد طرأت على عقولهم فى هذه اللحظة نفسها ، ظهرت رأس تحت المظلة ؛ لا يراها الثوار ، ولكنه يراها هو ٠ وفى حركة خاطفة ، تخلى عن وضع الراقص عـلى الحبل ، وأطلق النار ، ثم وثب الى الأمام فاحتمى بالباب وانثال الرصاص من النوافذ وانفجرت قنبلة يدوية فى الموضع الذى تركه منـذ لحظة : وكان رجل البوليس الذى أخطأه حين أطلق النار قد تردد قبل أن يمد يده التى تمسك بالقنبلة تحت الظلة خوفا من رصاصة ثانية ٠ وتلقى « تشن » ضربة فى ذراعه اليسرى : كان مجرد اندفاع للهواء أثر على الجرح الذى أحدثه بالخنجر قبل أن يغتال تانج ــ ين ــ تا ٠ ونزف هــذا الجرح من جديد ، ولكنه لم يعد يؤلمه ٠ وضغط عـلى الضمادة بمنديل ، ثم لحق بالثوار عن طريق الأفنية ٠

وكان المديرون للهجوم مجتمعين فى ممر حالك الظلمة ٠

ــ « أما كنتم تستطيعون ارسال رجال استطلاع ٠٠ ؟ »

ونظر رئيس الجماعة ٠ tchon وهو صينى ضخم حليق ، يرتدى ثوبا قصير الأكمام جدا٠ نظر الى هذا الطيف المقترب، وهز حاجبيه ببطء مستسلما ثم أجاب فى بساطة :

ــ « لقد اتصلت تليفونيا ؛ ونحن ننتظر الآن سيارة مصفحة ٠ »

ــ « لقد استولينا على نصف مراكز الشرطة ٠ »

ـ « ولا شيء أكثر من ذلك ؟ »

ـ « هذه بداية طيبة جدا • »

وكانت الانفجارات البعيدة التى تصل الى أسماعهم ، هى الانفجارات التى يحدثها رجالهم الذين يتقاطرون صوب محطة الشمال •

وكان « تشن » يلهث، وكأنه أخرج من الماء وسط يوم عاصف• واستند على الجدار الذى كان يحميهم جميعا ، وأخذ يسترد أنفاسه شيئا فشيئا ، وهو يفكر فى الأسير الذى قطع أغلاله • « كان ينبغى أن أترك هذا الرجل وشأنه ، فلماذا أقطع حباله ، ما دامت هذه الفعلة لن تغير من أمره شيئا ؟ » وهل يستطيع الآن بعد هذا كله أن يرى هذا الرجل الذى كان يتخبط فى قيوده ، وقد بترت ساقه ؟ وتذكر « تان ـ ين ـ تا » حين أحس بجرحه • كم كان أحمق طيلة تلك الليلة ، وطيلة ذلك الصباح ! لا شيء أبسط من القتل !

وفى مركز الشرطة ، كان الحطام يحترق تماما ، والجرحى يتأوهون دائما عند اقتراب ألسنة اللهب • وكانت صرخاتهم المتكررة المستمرة ترن فى ذلك الممر المنخفض ، وقد زادها قربا بشكل غريب ابتعاد الانفجارات ، وصفارات السفن ، وكل ما تشيعه الحرب من ضجيج لا يلبث أن يبدده الهواء الكثيب • واقترب صوت صليل معدنى بعيد ، حتى طغى على كل شيء •• لقد وصلت سيارة النقل ••• وكان قد تم تصفيحها أثناء الليل بصورة رديئة ، اذ كانت جميع الصفائح غير مستقرة تماما فى أماكنها • وانقطع هذا الصرير بعد استخدام « الفرامل » فتناهت الصرخات الى الأسماع مرة أخرى •

وعرض « تشن » وهو الوحيد الذى كان قد اقتحم المركز ـ الموقف على رئيس فريق النجدة ، وكان طالبا سابقا بالكلية الحربية بـ « وامپو » • وكان « تشن » يفضل على هذا الفريق المكون من الشباب البورجوازى ، احدى جماعات كاتوف • واذا كان لم يستطع أمام هؤلاء الرفاق الذى لقوا مصرعهم وسط الشارع وقد انكمشوا على أنفسهم أن يعبر الهوة التى تفصله عنهم ، فقد كان يعرف أنه يمقت البورجوازية الصينية دائما وأبدا ، وكانت البروليتاريا هى معقد آماله •

وكان الضابط يعرف مهمته ، فقال : « لا جدوى من السيارة ، فليس لها ولو مجرد سقف • ويكفى أن يقذفوا بقنبلة يدوية داخلها لكى يتحطم كل شيء غير أننى أتيت بقنابل يدوية أيضا • » وكان رجال تشن الذى يحملون قنابل يدوية قابعين في غرفة الحرس ، فهل قتلوا ؟ أما رجال الفريق الثانى فلم يستطيعوا أن يحصلوا على قنابل •

ـ « فلنحاول السيطرة عليهم من فوق • »

فقال تشن : « اتفقنا • »

ونظر اليه الضابط فى حنق : انه لم يسأله رأيه ، ولكنه لم يقل شيئا• وأخذ الاثنان يفحصان المركز : الضابط الذى تدل عليه سحنته العسكرية رغم زيه المدنى ، بشعره القصير وشاربه القصير ، وسترته التى يضبطها بحزام يتدلى منه مسدس ، وتشن بجسمه المكتنز الربعة وقميصه الأزرق • ومن يمين الباب ، كان دخان النيران التى تقترب من أجسام زملائهم الجرحى، يخرج فى انتظام آلى ، وفى ايقاع أشبه بايقاع الصرخات التى جعلها انتظامها طفولية ، بعد أن انتزع منها طابعها الوحشى • وعلى اليسار ، لم يكن شيء • وكانت نوافذ الطابق الثانى قد أسدلت عليها مصاريعها ••• ومن حين الى آخر كان أحد المهاجين يطلق النار على احدى النوافذ ، فتتكدس على الرصيف كمية أخرى من الحطام فوق بقايا الجبس والطوب والأخشاب حيث تلمع قطع من الزجاج على الرغم من ذلك اليوم الأغبر • ولم يعد المركز يطلق النار الا حين يغادر أحد الثوار مخبأه •

وسأل تشن من جديد : « ما حال الأقسام الأخرى ؟ »

ـ « لقد تم الاستيلاء على جميع المراكز تقريبا •• وسقط المركز الرئيسى بطريق الهجوم المفاجىء فى الساعة الواحدة والنصف ، وهناك وضعنا أيدينا على ثمانمائة بندقية ونستطيع الآن أن نرسل امدادات ضد المراكز التى ما زالت تبدى شيئا من المقاومة •• انكم ثالث فريق نهرع لنجدته • أما أعداؤنا ، فقد انقطعت عنهم المعونة ، اذ حاصرنا الثكنات ، ومحطة الجنوب، والترسانة • ولكن يجب أن نحسم الأمر هنا • لأننا نحتاج الى أكبر عدد ممكن من الرجال للهجوم ويبقى بعد ذلك القطار المسلح • »

وكانت فكرة قيام مائتى جماعة بعمل شبيه بما تقوم به جماعته تبعث الحماس فى نفس « تشن » ، وتزعجه فى آن واحد • فعلى الرغم من طلقات الرصاص التى كان النسيم الواهن يحملها من كافة أرجاء المدينة ، كان العنف يوحى اليه باحساس العمل المنعزل •

وأخذ رجل دراجة من السيارة ، وركبها ، ومضى • وتعرف عليه تشن فى اللحظة التى امتطى فيها الدراجة •• انه « ما » أحد محركى الثورة الرئيسيين ، وقد رحل ليطلع اللجنة العسكرية على الموقف • وكان « ما » عاملا من عمال الطباعة قد نذر حياته كلها ــ منذ أن كان فى الثانية عشرة من عمره ، لانشاء اتحادات لعمال الطباعة فى كل مكان ، على أمل تجميع عمال الطباعة الصينيين قاطبة ، وتعقبته الحكومة ، وحكم عليه بالاعدام ، وتمكن من الفرار ، دون أن يكف قط عن تنظيم حركته • وانطلقت صيحات الفرح ، ففى الوقت الذى تعرف عليه تشن ، تعرف عليه بقية الثوار ، فأخذوا يهللون له • وتطلع اليهم • ان العالم الذى يعده هؤلاء الرجال معا ، انما يقضى عليه كما يقضى على عالم أعدائه •• فماذا عسى « تشن » أن يفعل فى مصنع المستقبل المحتجب وراء ثيابهم الزرقاء ؟

ووزع الضابط القنابل اليدوية ، ودلف عشرة من الرجال عن طريق أسطح المنازل ليحتلوا مكانا يطل على سطح المركز • وكان لابد لهزيمة رجال البوليس من استخدام أساليبهم نفسها ، وادخال المتفجرات عن طريق النوافذ • وهذه النوافذ تسيطر على الشارع لا على سقف المركز ؛ ولم تكن هناك سوى نافذة واحدة تحميها ظلة • وتقدم الثوار قفزا من سطح الى سطح• ولم يدخل المركز أى تعديل على اتجاه تصويب النيران • ولعل المحتضرين وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون التنبؤ بهذا الاقتراب ، اذ تحولت الصرخات فجأة فصارت تأوهات خافتة لا تكاد تتبينها الأذن ، لقد أصبحت الآن صرخات مكتومة لرجال أقرب الى البكم • وبلغت أطياف الثوار ذروة سقف المركز المنحدر ، ثم هبطت رويدا رويدا ، ولم يعد « تشن » يتبينها بوضوح بعد أن لم تعد صفحة السماء وراءها • وترددت آهة صادرة من حلق امرأة تلد ، فطغت على الأنات التى لم تلبث أن اتصلت كأنها الصدى • ثم انقطعت •

وعلى الرغم من الضجة ، فان انقطاع الصرخات المفاجىء كان له وقع

الصمت المخيف : هل بلغت النيران الجرحى ؟ وتبادل « تشن » والضابط النظرات ، ثم أغمضا أعينهما حتى يتمكنا من الانصات • لا شيء • وفتح كل منهما عينيه ، فالتقى بنظرة الآخر الصامتة •

ومد أحد الرجال وكان يستند على ديكور بارز فى السقف ـ مد ذراعه الخالية فوق الشارع ، وقذف بقنبلته اليدوية صوب نافذة الطابق الثانى التى يعلوها ، ولكن القنبلة وصلت الى مكان منخفض جدا ، فانفجرت على الرصيف •• فقذف بقنبلة أخرى ، فدخلت الى الحجرة التى يوجد بها الجرحى • وانطلقت الصرخات من النافذة المصابة ••• ولم تكن شبيهة بالصرخات التى انطلقت منذ لحظة ، وانما عواء متهدج يسبق الموت ، أو هى طفرة من الألم لم تستنفد بعد • وألقى الرجل بقنبلته اليدوية الثالثة ، فأخطأ النافذة مرة أخرى •

كان هذا الرجل واحدا من الرجال الذين أتت بهم سيارة النقل ••• وكان قد تراجع فى براعة الى الخلف ، خوفا من أن تصيبه الشظايا وانحنى من جديد ، وقد رفع ذراعه المنتهية بقنبلة رابعة • وهبط خلفه أحد رجال تشن • ولم تنخفض ذراعه وانما انجرف جسمه كله كأنه كرة هائلة • ودوى انفجار شديد على الرصيف • وعلى الرغم من الدخان ظهرت على الجدار بقعة من الدماء طولها حوالى متر • وانجلى الدخان ، فبدا الجدار ملطخا بالدم واللحم • كان الثائر الثانى قد فقد توازنه ، فانزلق كله على طول السقف، واكتسح حينئذ الثائر الأول ، وسقط الاثنان على قنبلتيهما المنزوعتي السدادتين •

وعلى الجانب الأيسر من السطح ، وصل فى حذر رجال من الفريقين ، فريق الكومنتانج البورجوازي ، وفريق العمال الشيوعيين • وكانوا قد توقفوا حين حدث ذلك السقوط ، ولكنهما استأنفا النزول من جديد ، ذلك أن اخماد حركة فبراير كلفهم ثمنا باهظا من التعذيب ، وبذلك لم تكن الثورة تفتقر الى رجال حزموا أمرهم على الكفاح • وتقدم من اليمين ، رجال آخرون ، وهنا صاح تشن من أسفل قائلا : « تماسكوا كالسلسلة ! » وأخذ الثوار القريبون من المركز يرددون صيحته • وأمسك الرجال أيدى بعضهم البعض، وأحاط أعلاهم بقوة حلية راسخة زين بها السطح ـ بذراعه اليسرى •

واستأنفوا القاء القنابل اليدوية ، ولم يعد المحاصرون من رجال البوليس يستطيعون الرد عليهم •

وفى خمس دقائق ، نفذت ثلاث قنابل يدوية الى داخل المركز عن طريق نافذتين مقصودتين ، ودمرت قنبلة أخرى الظلة التى كانت تحمى احدى النوافذ ، وكانت النافذة الوسطى وحدها هى التى أفلتت من القنابل • صاح طالب الحربية السابق : « النوافذ الوسطى ! » ونظر اليه تشن ، ان هذا الرجل يشعر بمتعة فى اصدار الأوامر وكأنه يمارس رياضة مثالية • ولم يكن يهتم بحماية نفسه ، انه شجاع بلاشك، ولكنه لم يكن مرتبطا برجاله•• أما « تشن » فقد كان مرتبطا برجاله ، وان يكن ارتباطا غير كاف •

وترك طالب الحربية السابق ، واجتاز الشارع خارج المنطقة التى يطلق عليها المحاصرون النيران • وبلغ سطح المركز • وبدأ الرجل المستند الى الدعامة يتخاذل : فحل « تشن » مكانه • وعلى الرغم من ذراعه الجريحة التى أحاط بها تلك الدعامة المشيدة من الأسمنت والجص ، ويده اليمنى التى يمسك بها أول رجل فى السلسلة ، على الرغم من ذلك ، فانه لم يستطع أن يفلت من احساسه بالعزلة • وكان ثقل الرجال الثلاثة الذين ينزلقون معلقا بذراعه ، ونافذا الى صدره كأنه قضيب حاجز وكانت انفجارات القنابل اليدوية تتوالى داخل المركز الذى انقطع عن اطلاق النار • وقال تشن لنفسه : « ان المخزن من تحت السقف يحمينا ، غير أن هذه الحماية من تستمر طويلا، فسوف يتدمر السطح • » وعلى الرغم من اقتراب الموت منه ذلك الاقتراب الحميم ، وعلى الرغم من ذلك الثقل الأخوى الذى يكاد يشطره شطرين ، فانه لم يكن منهم • « هل معنى ذلك أن الدم نفسه عبث فى عبث ؟ »

وكان طالب الحربية السابق ينظر اليه من أسفل دون أن يفهم شيئا ، وعرض أحد الرجال الذين صعدوا خلف « تشن » ، أن يحل محله •

ــ « فليكن ••• وسأقذف بنفسى • »

سلمه هذه السلسلة من الأجسام • وفى عضلاته المكدودة تمشى يأس لا حدود له • كان وجهه الذى يشبه وجه البوم بعينيه الضيقتين ، متوترا بماكنا تمام السكون ، وأحس بدمعة تسيل على حافة أنفه ، فانتابه الذهول،

وناجى نفسه قائلا : « هذا من تأثير النوبة العصبية » وأخرج قنبلة يدوية من جيبه ، وشرع فى النزول مستندا الى أذرع الرجال المتشابكة فى السلسلة ولكنه بعد عنف المجهود الذى لابد قد بذله لتدعيم الصف ، بدا له أن ذراعيه قد لانتا وأنهما لا تطيعانه • وكانت السلسلة ترتكز على ( الديكور ) الذى ينتهى به السطح على الجانبين • وحين وصل « تشن » الى قاع السطح ، ترك ذراع الشخص الذى كان يقذف بالقنابل ، وتعلق بساقه ، ثم بالمزراب، وهبط عن طريق الأنبــوبة العمودية : لقــد كان بعيدا عن النــافذة بحيث لا يستطيع لمسها ، ولكنه كان قريبا بحيث يستطيع أن يرمى بقنبلته • ولم يعد رفاقه يتحركون • وفوق الطابق الأرضى أتاح له نتوء في الجدار أن يقف لحظة • وأدهشه أن جرحه لا يؤلمه الا ذلك الألم الهين • وأخذ يزن فى يده قنبلته الأولى وقد فتحها ، وهو يمسك بيده اليسرى أحد الخطافات التى تثبت المزراب فى الجدار وقال لنفسه : « اذا سقطت هذه القنبلة فى الشارع تحتى فسأكون من الهالكين • » وقذف بها بأقصى قوة يسمح بها وضعه : فنفذت وانفجرت فى الداخل •

وهناك فى أسفل المركز ، استؤنف اطلاق النار •

ومن باب المركز الذى بقى مفتوحا ، ألقى رجال البوليس ــ الذين طردوا من الحجرة الأخيرة ــ بأنفسهم وهم يطلقون النار جزافا كالعميان المذعورين• ومن الأسطح ، والأروقة ، والنوافذ ، كان الثوار يطلقون بنادقهم • وأخذت الأجسام تتساقط الواحد اثر الآخر ، عديدة عند الباب ، متناثرة فىالأماكن الأخرى •

وتوقف اطلاق النار ، وهبط « تشن » وهو معلق بالمزراب ، دون أن يرى قدميه ، وقفز فوق احدى الجثث •

ودخل طالب الحربية السابق الى المركز ، وتبعه « تشن » وهو يسحب من جيبه القنبلة التى لم يقذف بها بعد • وفى كل خطوة ، كان وعيه يزداد حدة بانقطاع أنين الجرحى • لم تعد حجرة الحرس تضم غير أموات •• أما الجرحى فقد احترقت أجسادهم • وفي الطابق الأول ، كان مزيد من القتلى ، وبعض الجرحى •

قال الضابط : « والآن ، هيا بنا الى محطة الجنوب ، ولنأخذ البنادق كلها فربما احتاجت اليها فرق أخرى • »

ونقلت الأسلحة الى سيارة النقل • وحين تم جمعها كلها ، قفز الرجال الى السيارة ، وظلوا واقفين ، متكتلين ، أو جالسين على غطاء السيارة ، أو ملتصقين بالسلم ، أو متعلقين بالمؤخرة • أما الباقون، فقد شرعوا فى المسير بخطوة رياضية عن طريق الأزقة • وبدت بقعة الدم الكبيرة التى خلفوها وراءهم ، بلا تفسير وسط الشارع المهجور ، واختفت السيارة فى منعطف الشارع ، وقد تكدس فيها الرجال وأخذت تقعقع قعقعة الصفيح ، متجهة صوب الثكنات ومحطة الجنوب •

وكان لابد أن تتوقف : ذلك أن الشارع كان مسدودا بأربعة جياد مقتولة، وثلاث جثث منزوعة السلاح ، وكانت هذه الجثث هى جثث الفرسان الذين شاهدهم « تشن » فى مطلع النهار : فقد وصلت السيارة المصفحة الأولى فى الوقت المناسب • وعلى الأرض تناثر زجاج النوافذ ، ولكن لم يكن ثمة انسان، اللهم الا شيخ صينى ذو لحية مدببة يئن ويتوجع • وما أن اقترب منه تشن ، حتى قال بلهجة واضحة :

ـ « هذا أمر جائز ، ومحزن جدا • أربعة ! اربعة ! أربعة ! وا أسفاه ! »

فقال تشن : « ثلاثة فحسب • »

ـ « أربعة ، وا أسفاه ! »

ونظر تشن من جديد : لم يكن هناك غير ثلاث جثث ، واحدة ترقد على جنبها كأنما ألقيت فى مهب الريح ، واثنتان منكفئتان على بطنهما ، بين المنازل الميتة كذلك ، تحت سماء ثقيلة الوطأة •

قال الشيخ فى لهجة يمتزج فيها الاحتقار بالخوف : « انما أتحدث عن الجياد » وقبض « تشن » على مسدسه •

ـ « أما أنا ، فأتحدث عن الرجال • هل تملك أحد هذه الجياد ؟ »

لم يكن من شك أنها أخذت من أصحابها هذا الصباح •

ـ « كلا ••• ولكنى كنت حوذيا •• والحيوانات ، اننى أعرفها جيدا•• أربعة قتلت ! دونما سبب على الاطلاق ! »

وتدخل السائق فى الحديث :

ـ « دونما سبب ؟ »

فقال تشن : « لا داعى لاضاعة الوقت • »

وساعده اثنان من الرجال على ازاحة الخيول • ومرت السيارة • وفى أقصى الشارع ، أرسل تشن ـ الذى كان يجلس على أحد سلالم العربة ـ بصره الى الوراء ، كان الحوذى العجوز ما زال قابعا بين الجثث ، يتأوه بلاشك، وقد بدا كالشبح الأسود فى الشارع الرمادى •

**الساعة الخامسة**

« لقد سقطت محطة الجنوب • »

ووضع « فيرال » سماعة التلفون مكانها ، وبينما كان يعطى مواعيد ( كان شطر من الغرفة التجارية الدولية معارضا لكل تدخل ، ولكنه كان يسيطر فى الوقت نفسه على أكبر صحيفة فى شنغهاى ) ، كانت أنباء تقدم الثورة تبلغه نبأ وراء الآخر • وكان يريد أن يتصل تليفونيا على انفراد ، فعاد الى حجرة مكتبه حيث كان مارسيال الذى وصل لتوه يناقش مبعوث تشانج ـ كاى ـ شيك : وكان هذا المبعوث قد رفض مقابلة رئيس البوليس سواء فى ادارة الأمن أو فى منزله • وقبل أن يفتح الباب سمع فيرال هذا القول على الرغم من الضجة التى يحدثها اطلاق النيران :

ـ « أنا ، كما تفهم ، ماذا أمثل هنا ؟ المصالح الفرنسية ••• »

فأجابه الرجل الصينى فى لهجة من الالحاح المتراخى : « ولكن أية معونة أستطيع أن أعد بها ؟ ان القنصل العام نفسه أخبرنى بأن انتظر منكم تعليمات محددة • لأنكم تعرفون بلادنا وشعبها •• معرفة جيدة جدا • »

ورن جرس التلفون فى الاستديو •

وقال مارسيال : « لقد سقط المجلس البلدى • » ثم غير لهجته وقال :

ـ « لا أقول انه ليست لدى خبرة نفسية معينة بهذه البلاد ، وبالناس بوجه عام • علم النفس والفعل ، هذان هما مهنتى ، وعليهما ••• »

ـ « غير أن أولئك الأفراد خطرون بالنسبة لبلادكم ، كما هم خطرون

بالنسبة لبلادنا ... بل انهم خطرون على سلام المدنية . ماذا لو اتهم النجأوا — كما يفعلون دائما — الى منطقة الامتيازات ؟ ان البوليس الدولى .. »

وحدث فيرال نفسه قائلا وهو يدخل « ها نحن أولاء .. انه يريد أن يعرف ما اذا كان مارسيال فى حالة قطع العلاقات . سيسمح للزعماء الشيوعيين بالالتجاء الينا . »

— « ... قد وعدنا بكل رعايته ... فماذا سيفعل البوليس الفرنسى؟ »

— « سندبر الأمر .. ولكن ، التفت فقط الى مايلى : لا نريد فضائح مع النساء البيض ، باستثناء الروسيات ، فلدى فيما يتعلق بهذا الأمر تعليمات مشددة . ولكننى أصرح لك ، بأنها ليست رسمية .. ليست رسمية . »

وفى الاستديو العصرى الذى علقت على جدرانه لوحات من رسم بيكاسو فى مرحلته الوردية ، وتخطيط لمنظر غرامى بريشة فراجونار ، كان المتحدثان يقفان كل على جانب من جانبى تمثال ضخم من الحجر الأسود للاله «كوانين» يرجع تاريخه الى أسرة تانج ، أشار بشرائه كلابيك ، بينما كان « چيسور » يعتقد أنه زائف . وكان الرجل الصينى ، وهو كولونيل شاب ، مقوس الأنف ، يرتدى الملابس المدنية ، وقد زر سترته من أعلاها الى أسفلها — كان ينظر الى مارسيال مبتسما ورأسه مائل الى الوراء .

— أشكرك باسم حزبى .. ان الشيوعيين خونة أوغاد : فهم يخدعوننا نحن حلفاءهم الأوفياء . وقد تم الاتفاق على أن نتعاون معا ، على أن تطرح المسألة الاجتماعية حين يتم توحيد الصين . ومع ذلك فانهم يثيرون هذه المسألة الآن . انهم لا يحترمون ما بيننا من اتفاق ، وهم لا يعملون من أجل الصين ، وانما من أجل السوفيت . وأولئك القتلى الذين فقدهم الجيش ، لم يقتلوا من أجل السوفيت ، بل فى سبيل الصين . ان الشيوعيين قادرون على اقتراف كل شيء ، ولهذا ينبغى أن اسألك ، يا سيدى المدير ، هل يعارض البوليس الفرنسى فى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لسلامة الجنرال الشخصية ؟»

وكان من الواضح أنه طلب نفس الخدمة من البوليس الدولى .

وأجاب مارسيال : « كلا .. على الاطلاق .. أرسل لى رئيس شرطتكم . أما زال هو « كونيج » ؟ »

ــ « أجل ، انه هو دائما · أخبرني يا سيدي المدير : هل درست التاريخ الروماني ؟ »

ــ « بالطبع · »

وقال فيرال لنفسه : « في مدرسة مسائية · »

ورن جرس التلفون من جديد ، فتناول مارسيال السماعة ·

قال وهو يعيدها الى مكانها : « استولوا على الكبارى · فى خلال ربع ساعة ، ستكون الثورة قد احتلت المدينة · »

واستطرد الرجل الصينى وكأنه لم يسمع شيئا : « من رأيى أن فساد الأخلاق هو سبب انهيار الامبراطورية الرومانية · ألا تعتقد أن تنظيما فنيا للدعارة ، تنظيما على الطراز الغربى كتنظيم البوليس مثلا ــ يكفى للقضاء على حكام هانكاو ، الذين لا يتساوون بالطبع مع حكام الامبراطورية الرومانية ؟ »

ــ « انها فكرة ·· ولكننى لا أظن أنه من الممكن تطبيقها ·· ولابد من امعان الفكر · »

ــ « لن يفهم الأوروبيون من الصين الا ما يشابههم · »

وساد الصمت · وكان فيرال يستمتع بهذه اللحظة · ان هذا الصينى يثير فضوله : هذه الرأس المائلة الى الوراء ، بما يكاد يرتسم عليها من ازدراء وهذا التحرج فى الوقت نفسه ·· ودار فى ذهنه : « هانكيو تغرقها القطارات المحملة بالعاهرات ·· وانه ليعرف الشيوعيين ! وقد يكون ملما بالاقتصاد السياسى · مدهش ! ··· » وربما كان بعض السوفيت يتأهبون فى المدينة ، بينما يحلم هذا الرجل بالعظات والعبر التى يمكن أن يستخلصها من الامبراطورية الرومانية » ان جيسور على حق ، فهم يبحثون دائما عن الألاعيب · »

ودق التليفون مرة أخرى ·

وقال مارسيال : « الثكنات محاصرة · وامدادات الحكومة لاتصل اليها · »

وسأل فيرال : « ومحطة الشمال ؟ »

ـ « لم يستول عليها الثوار بعد ٠ »

ـ « اذن تستطيع الحكومة أن تعيد بعض قواتها من الجبهة ؟ »

فقال الصيني : « ربما ، ياسيدى ، انها تسحب جنودها ودباباتها وتوجهها الى نانكين ، وتستطيع أن تبعث بها الى هنا ، كما يستطيع القطار المصفح أن يقاتل قتالا جديا ٠ » واستطرد مارسيال قائلا :

ـ « أجل ، حول القطار والمحطة ، يستطيعون الصمود ٠ ان كل مايستولون عليه ينظمونه فى الحال وفقا لخططهم ، وليس من شك أن وراء الثورة روسيا أو أوربيين : والموظفون الثوار فى كل ادارة هم الذين يرشدون الثوار ، وهناك لجنة عسكرية تشرف على كل شىء ٠ والبوليس كله قد جرد الآن من سلاحه ٠ وللحمر مراكز للتجمع يوجه منها الجنود ضد الثكنات ٠ » ـ

قال الضابط : « للصينيين ملكة تنظيم عظيمة ٠ »

ـ « وكيف يحمى تشانج ـ كاى ـ شيك ؟ »

ـ « ان سيارته تسبقها دائما سيارة حرسه الخاص ، كما أن لنا جواسيسنا ٠ »

وأدرك فيرال أخيرا سبب هذا الوضع المتعالى الذى يتخذه رأس هذا الصينى ، والذى بدأ يضايقه ( وكان يخيل اليه فى البداية دائما أن الضابط ينظر من فوق كتفى مارسيال الى تخطيط المنظر الغرامى ) : لقد كانت غشاوة على عين الضابط اليمنى ترغمه على أن ينظر من أعلى الى أسفل ٠

وأجاب مارسيال : « هذا لا يكفى ٠ ولابد من ترتيب الأمور ٠ وكلما أسرعنا كان ذلك أفضل ٠ والآن ، يجب أن أنصرف : فنحن بصدد انتخاب اللجنة التنفيذية التى ستتولى سلطة الحكومة ٠ وهناك ، ربما أستطيع أن أصنع شيئا ٠ كما أن أمامنا أيضا مسألة انتخاب المحافظ ، وهو منصب لا يستهان به ٠٠٠ »

وبقى فيرال والضابط وحدهما ٠٠

قال الصينى ورأسه مطوحة الى الوراء : « اذن نستطيع ياسيدى أن نعتمد عليك من الآن ؟ »

فأجاب فيرال : « ان ليو ــ تى ــ يو ينتظر . »

وكان ليو ــ تى ــ يو هو رئيس رابطة رجال البنوك فى شنغهاى، ورئيس شرف الغرفة التجارية الصينية ، كما كان على اتصال برؤساء المديات جميعا، ولهــذا فانه يستطيع أن يتصرف فى هــذه المدينة الصينية التى بدأت تقع بلا شك فى أيدى الثوار ــ خيرا مما يستطيع فيرال أن يتصرف فى مناطق الامتيازات . وانحنى الضــابط مستأذنا فى الانصراف . وصعد فيرال الى الطابق الأول . وهناك ، فى ركن من حجرة مكتب حديثة الطراز ، مزينة فى أرجائها جميعا بتماثيل من العصور الصينية القديمة ، كان ليو ــ تى ــ يو ــ ينتظر حقا فى رداء من قماش أبيض سميك فوق صديرى بلا ياقة ، أبيض كشعره القصــير ويداه ممسكتان بذراعى مقعده ــ المصنوعتين من أنابيب طليت بالنيكل . وكان وجهه كله مركزا فى فمه وفكيه ، وكأنه ضفدعة عجوز تتوثب نشاطا .

وظل فيرال واقفا :

ــ « أنت مصر على الخلاص من الشيوعيين . » ولم يكن يسأل ، وانما كان يؤكد . « ونحن أيضا ، كما يبدو ذلك بكل جلاء . » وبدأ يذرع الغرفة ، وقد ألقى بكتفيه الى الأمام . « ان تشانج ــ كاى ــ شيك متأهب للقطيعة . »

ولم يكن فيرال قد أبصر قط بالشك ماثلا على وجه رجل صينى . فهل يصدقه هذا الرجل ؟ قدم اليه صندوقا لسجائر . وكان هــذا الصندوق منــذ أن قرر الاقلاع عن التدخــين ، مفتوحا دائمــا على مكتبه ، وكان رؤيته باستمرار تقوى من عزيمته ، وتؤكد تصميمه .

ــ « ينبغى تقديم المساعدة لتشانج ــ كاى ــ شيك . وهذه بالنسبة لكم مسألة حياة أو موت . وليس من الممكن أن يستمر الموقف الحالى على ما هو عليه . ولقد بدأ الشيوعيون فى مؤخرة الجيش تنظيم نقابات الفلاحين فى الأرياف ، وسيكون أول قرار تتخذه هــذه النقابات هو الغاء حق أصحاب القروض فى تحصيل قروضهم ( لم يقل فيرال المرابين ) والشطر الأكبر من

رءوس أموالكم موجود فى الأرياف ، وأفضل ودائع مصارفكم انما تضمنتها العقارات ومجالس السوفيت المؤلفة من الفلاحين ••• »

ـ « لن يجرؤ الشيوعيون على انشاء مجالس ( سوفيت ) فى الصين • »

ـ « لا داعى للتلاعب بالألفاظ يا سيد ليو • فسواء أكانت نقابات أم مجالس فسوف تقوم المنظمات الشيوعية بتأميم الأرض ، ونزع صفة الشرعية عن القروض • وهذان الاجراءان يقضيان على جوهر الضمانات التى بمقتضاها أمكنكم الحصول على قروض أجنبية ، وهى تزيد على مليار من الفرنكات ، اذا أدخلنا في الاعتبار أصدقائى اليابانيين والأمريكيين • ولا سبيل لضمان مثل هذا المبلغ على أساس تجارة راكدة • وحتى دون أن نتحدث عن قروضنا ، فان هذين القرارين كافيان لنسف البنوك الصينية جميعا •• هذا شىء واضح كل الوضوح • »

ـ « لن يسمح الكومنتانج بحدوث شىء من ذلك • »

ـ « لا وجود لشىء اســمه الكومنتانج ، لا يوجد غير زرق وحمر • وقد تفاهموا حتى هذه اللحظة ـ تفاهما سيئا ـ لأن تشانج ـ كاى ـ تشيك ، لم يكن يملك شيئا من المال • فاذا سقطت شنغهاى ـ غدا ـ فان تشانج ـ كاى ـ شيك يستطيع تقريبا أن يدفع مرتبات جنوده من الرسوم الجمركية ، ومع ذلك لن يكون ذلك كافيا ••• انه يعتمد علينا • ولقد نادى الشيوعيون فى كل مكان بالاستيلاء على الأراضى ، ويقال انهم يحاولون ارجاء ذلك ، ولكن فات الأوان ، فقد أنصت الفلاحون الى خطبهم ، وهم ليسوا أعضاء فى حزبهم، ولهذا فسوف يفعلون ما يريدون • »

ـ « لا شىء يمكن أن يقف الفلاحين سوى القوة ، وهـــذا ما أخبرت به القنصل العام لبريطانيا العظمى • »

وحين خيل الى فيرال أن لهجة صوته قد انتقلت الى لهجة محدثه ، أحس بأنه قد كسبه الى جانبه •

ـ « لقد حاولوا فعلا الاستيلاء على الأراضى ، غـير أن تشانج ـ كاى ـ شيك مصر على ألا يسمح لهـم بذلك ، فأصدر أوامره بألا تمس أية أراضى يملكها ضباط أو أقارب ضباط •• اذ يجب ••• »

ـ « اننا جميعا أقارب لضباط » • وابتسم ليو ثم استطرد قائلا : « وهل توجد فى الصين أرض ليس مالكها قريبا لأحد الضباط ؟ ••• »

وكان فيرال محيطا بصلات القرابة فى الأسرة الصينية •

ورن جرس التلفون مرة أخرى ، وقال فيرال :

ـ « لقد حوصرت الترسانة •• وتم الاستيلاء على المنشئات الحكومية جميعا • سيصل جيش الثورة الى شنغهاى غدا ، فلا بد من حل المشكلة الآن •• افهمنى بوضوح ؟ فعلى أثر الدعاية الشيوعية ، انتزعت أراض عديدة من أصحابها ، وعلى تشانج ـ كاى ـ تشيك أن يقبل ذلك ، أو أن يصدر أوامره باعدام من استولوا عليها رميا بالرصاص • ولا يمكن أن تقبل حكومة هانكاو الحمراء مثل هذا الأمر • »

ـ « سيحاول كسب الوقت • »

ـ « أنت تعلم ما حل بأسهم الشركات الانجليزية عقب الاستيلاء على منطقة الامتيازات الانجليزية فى هانكاو ، كما تعلم ما سيئول اليه موقفكم حين تنتزع الأراضى أيا كانت ـ انتزاعا قانونيا ـ من أصحابها • وتشانج ـ كاى ـ شيك يدرك ذلك ، ويقول : انه مرغم على أن يفصم علاقته بالشيوعيين » الآن ، فهل تريدون مساعدته فى ذلك • نعم أم لا ؟ »

وبصق « ليو » وقد غاصت رأسه بين كتفيه • وأغمض عينيه ، ثم فتحهما ، ونظر الى فيرال تلك النظرة الماكرة التى تلتقى بها فى عين المرابى العجوز أيا كانت جنسيته :

ـ « كم ؟ »

ـ « خمسون مليونا من الدولارات • »

وبصق من جديد :

ـ « لنا وحدنا ؟ »

ـ « أجل • »

وأغمض عينيه ثانية • وكان القطار المصفح يطلق مدافعه بين حين وآخر فيطغى صوته على ضجة اطلاق البنادق المتقطعة •

وحتى لو استقر عزم أصدقاء « ليو » على العمل ، فلا مندوحة أيضا عن النضال ، واذا لم يستقر عزمهم ، فان الشيوعية ستنتصر ـ بلا شك ـ فى الصين. وحدث فيرال نفسه قائلا فى زهو يخالطه شىء من الحماس واللامبالاة : « ها هى ذى لحظة من اللحظات التى يتغير فيها مصير العالم .. » ولم يحول نظره عن محدثه ، وكان يبدو أن الشيخ ـ بعينيه المغمضتين ـ قد استسلم للنوم ، غير أن عروقه الزرق المجدولة المنتشرة فى ظهر يديه كانت تختلج كالأعصاب . وقال فيرال لنفسه : « لابد من حجة فردية أيضا » ، ثم قال مخاطبا الشيخ الصينى :

ـ « ان تشانج ـ كاى ـ تشيك ـ لن يسمح بتجريد ضباطه من أملاكهم، كما أن الشيوعيين قد قرروا اغتيانه ، وانه ليعرف ذلك . »

وكانت هذه الشائعة منتشرة منذ أيام ، غير أن فيرال لم يصدقها .

سأل ليو : « كم من الزمن قد تبقى لنا ؟ » ، ثم أردف على الفور ، وقد أغمض احدى عينيه ، وفتح الأخرى ، وكأن شطر وجهه الأيمن يعبر عن المكر، وشطر وجهه الأيسر يعبر عن الخجل :

ـ « وهل أنت واثق من أنه لن يأخذ الأموال دون أن يقوم بتنفيذ وعوده ؟ »

ـ « هناك **أموالنا** أيضا ، والأمر ليس مجرد وعود . ذلك أنه **لا يستطيع** أن يتصرف خلاف ذلك . وافهمنى جيدا : ليس لأنك تدفع له ، ينبغى أن يحطم الشيوعيين ، ولكن لأنه ينبغى أن يحطم الشيوعيين ، فأنت تدفع له . »

ـ « سأذهب للاجتماع بأصدقائى . »

وكان « فيرال » يعرف كيف يتم تدبير الأمور فى الصين ، ويعرف نفوذ الرجل الذى يتكلم .

ـ « وما هى النصيحة التى ستشير بها عليهم ؟ »

ـ « ان من الممكن أن يهزم تشانج ـ كاى ـ شيك على أيدى أهالى هانكيو. فهناك مائتى ألف عامل بلا عمل . »

ـ « ان هزيمته محققة اذا لم نمد له يد المعونة ... »

ـ « خمسون مليونا ٠٠ هذا ٠٠ كثير ٠٠٠ »

وسدد أخيرا عينيه الى وجه فيرال ٠

ـ « أقل مما تجدون أنفسكم مرغمين على اعطائه لحكومة شيوعية ٠ »

ودق التلفون ٠

واستطرد فيرال : « لقد عزل القطار المصفح ٠ وحتى اذا أرادت الحكومة أن ترسل قوات من الجبهة ، فانها لم تعد تستطيع ذلك ٠ »

ومد يده ٠

وصافحه ليو ، ثم غادر الحجرة ٠ ومن النافذة العريضة التى تلوح منها أسمال السحاب ، شاهد « فيرال » السيارة وهى تبتعد ، وقد طغى صوت المحرك لحظة على ضجة الرصاص ٠ حتى فى حالة انتصاره ، قد ترغمه ظروف مشروعاته على طلب المساعدة من الحكومة الفرنسية ، وهو طلب طالما رفضته ، بل رفضته لتوها بالنسبة لبنك الصين الصناعى ، ولكنه أصبح اليوم من الأشخاص الذين يملكون مصير شنغهاى فى أيديهم ٠ وان القوى الاقتصادية كلها ، والقنصليات كلها تقريبا تلعب مثله نفس اللعبة ٠ وسيدفع ليو الثمن ٠ وكان القطار المصفح يطلق نيرانه بلا انقطاع ٠ أجل ، لأول مرة أصبح للجانب الآخر تنظيم يخضع له ٠ وكم كان يود أن يعرف شخصيات أولئك الذين يوجهون هذا التنظيم ! وأن يتمكن من اعدامهم كذلك !

وتلاشى مساء الحرب فى ظلمة الليل ٠ وبدأت الأضواء تنبعث من طوابق المنازل الأرضية ، وأهاب النهر الخفى ـ كما يفعل دائما ـ ببقايا الحياة التى ما زالت أنفاسها تتردد فى المدينة ٠٠٠ كان هذا النهر قادما من هانكيو ٠ ان « ليو » على حق ، وفيرال يعلم ذلك : هناك مكمن الخطر ، وهناك يتكون الجيش الأحمر ، وهناك يسيطر الشيوعيون ٠ ومنذ أن أخذت القوات الثورية تكتسح الشماليين أمامها ككاسحة الثلوج ، بدأت العناصر اليسارية جميعا تحلم بأرض الميعاد هذه ؛ ذلك أن وطن الثورة كان يلوح فى الظلال الخضراء لتلك المسابك والترسانات ، حتى قبل أن يستولوا عليها ٠ والآن ، وقد أصبحت الثورة تملك هذه المسابك والترسانات ، أخذ هؤلاء المشاة التعسا

الذين يبتلعهم الضباب اللزج حيث يزداد عدد المصابيح شيئا فشيئا .. أخذوا يتقدمون في اتجاه النهر ، وكأنهم قد أتوا جميعا من هانكيو أيضا بأفواههم التي ارتسمت عليها الهزائم أشبه بنبوءات يدفعها صوبه الليل المتجهم .

* *

الساعة الحادية عشرة . ومنذ انصراف ليو ، قبل العشاء وبعده ، توافد عليه رؤساء المدمجات ، ورجال البنوك ، ومديرو شركات التأمين والنقل النهري، وبعض المستوردين، ورؤساء صناعة النسيج. وكانوا جميعا يعتمدون بصورة أو بأخرى على جماعة فيرال أو على جماعة من الجماعات الأجنبية التي ربطت سياستها بسياسة الاتحاد الفرنسي الآسيوي : أما فيرال نفسه فلم يكن يعتمد الا على « ليو » .وقد كانت شنغهاي هي قلب الصين الحي الذي ينبض بكل ما يجعلها تحيا . حتى من أعماق الريف ــ ومعظم أصحاب الأراضي يعتمدون على البنوك ــ كانت شرايين الدماء تصب كالقنوات في العاصمة حيث يتقرر مصير الصين . واستمر اطلاق النيران .. والآن ، لابد من الانتظار .

وفي الحجرة المجاورة ، كانت « فاليرى » نائمة . ومع أنها قد أصبحت عشيقته منذ أسبوع ، الا أنه لم يتظاهر بحبها قط ، ولو أنه فعل ، لابتسمت ابتسامتها الماكرة الوقحة . ولم تبح له هي أيضا بشيء ، ربما لنفس السبب. وكانت العقبات التي نسجت منها حياته الحاضرة تدفعها الى المجون ، لا الى الحب . وكان يعلم أنه تخطى الشباب ، وأخذ يحاول اقناع نفسه بأن سمعته الأسطورية يمكن أن تسد في مجال العشق مكان الشباب . كان « فيرال » ، وكان خبيرا بالنساء الى درجة أنه لم يكن يؤمن بكلمة واحدة مما يقال عنهن. وتذكر فيرال صديقا من أصدقائه ، كان ذكيا معتل الصحة ومع ذلك فقد كان يحسده على كثرة عشيقاته . وذات يوم سأل ڤاليرى عن تفسير لهذا التناقض، فأجابته قائلة :« لا يوجد في الرجل ما هو أشد جاذبية من الجمع بين القوة والضعف . » ولما كان مقتنعا بأن أحدا من الناس لا تفسره حياته ، فقد احتفظ بهذه الجملة في ذاكرته أكثر من كل ما أفضت به اليه عن حياتها .

ولم تكن هذه الحائكة الثرية تنظر الى الأمور من وجهة النظر المالية فحسب ( أو أنها لم تصل بعد الى هذه النظرة على الأقل ) . وكانت تؤكد أن العشق يتألف عند الكثيرات من التجرد من ثيابهن أمام رجل مختار ، وأنهن لا يستمتعن استمتاعا كاملا سوى مرة واحدة . فهل كانت تفكر في نفسها

لقد كانت هذه هى المرة الثالثة التى ضاجعته فيها • وقد فطن فيها الى ضرب من الكبرياء شبيه بكبريائه • « للرجال أسفارهم ، وللنساء عشاقهن » هذا ما قالته البارحة • أكان يعجبها ، كما يعجب غيرها من النساء ـ بالتقابل القائم بين شدته وألوان المجاملة التى يظهرها لها ؟ ولم يكن يجهل أنه سيقامر بكبريائه فى هذه اللعبة •• كبريائه التى هى جوهر حياته • ولم يكن هـذا الموقف خاليا من الخطر فى حالة عشيقة تردد دائما : « ما من رجل يستطيع أن يتكلم عن المرأة ياعزيزى ، لأنه ما من رجل يدرك أن كل زينة جديدة ، وكل ثوب جديد ، وكل عشيق جديد ، يوحى بروح جديدة ••• » وكان قولها ذاك تصاحبه الابتسامة المناسبة •

ودخل الحجرة •• كانت راقدة ، وقد انسدل شعرها فى تجويف ذراع غاية فى الاستدارة ، ونظرت اليه باسمة •

ومنحته هـذه الابتسامة الحياة العاتية والمستسلمة فى الوقت نفسه ، الحيـاة التى نهبها اللذة • وكان التعبـير الذى يرتسم عـلى محياها ، أثناء استرخائها ، تعبيرا عن الحزن الرقيق ، وتذكر فيرال انه قال لها فى أول مرة رآها ان لها وجها حائرا •• وجها يناسب ما فى عينيها الرماديتين من عذوبة• ولكن ، ما أن تظهر خلاعتها فى الميدان ، حتى تبدو ابتسامتها التى تنفرج عنها شفتاها نصف انفراجة على هيئة قوس فى الطرفين أكثر منها فى الوسط ـ تبدو موافقة بصورة غير متوقعة مع شعرها القصير المتموج الكثيف ، ومع عينيها اللتين تظهران حينئـذ أقل حنانا ، بحيث تضفى عليها ، رغم انتظام قسماتها انتظاما دقيقا ذلك التعبير المعقد الذى تتخذه قطة فى وضع الاسترخاء وكان فيرال يحب الحيوانات ـ شأنه فى ذلك شأن جميع الرجال الذين يأنفون من التكيف مع غيرهم من الناس ـ ويحب القطط بوجه خاص •

وخلع ملابسه فى الحمام • وكان المصباح الكهربائى محطما ، فبدت أدوات الزينة مائلة الى الاحمرار ، يضيئها وهج الحرائق المشتعلة • وأطل من النافذة : كان فى الطريق جمهور يتحرك ، ملايين من الأسماك تضطرب تحت موجة من الماء الأسود ، وخيل اليه فجأة أن روح هذا الحشد قد غادرته كما يغادر الفكر النائمين الذين يحلمون ، وأنها أخذت تضطرم بنشاط مرح فى ألسنة اللهب العارمة التي تضيء أطراف الأبنية •

وحين عاد ، كانت فاليرى تحلم ، وقد غاضت الابتسامة من شفتيها . ألم يكن يريد الا أن يحظى بحب تلك المرأة ذات الابتسامة التى تفصلها عنه هذه المرأة غير ذات الابتسامة وكأنها امرأة غريبة ؟ وكان القطار المصفح يطلق نيرانه بين دقيقة وأخرى وكأنه يحتفل بانتصاره : انه ما برح فى أيدى رجال الحكومة ، وكذلك الثكنات والترسانة والكنيسة الروسية .

وسألته : « هل رأيت مسيو دى كلاپيك ياعزيزى مرة أخرى ؟ »

وكانت المستعمرة الفرنسية فى شنغهاى بأسرها تعرف كلاپيك ، وقد التقت به ڤاليرى فى حفلة للعشاء منذ يومين ، فسحرتها تهويماته .

ـ « أجل . وقد كلفته بأن يشترى لى بعض لوحات (كاما) الملونة . »

ـ « وهل يوجد منها فى حوانيت العاديات ؟ »

ـ « طبعا لا . ولكن « كاما » سيعود من أوروبا ، وسيمر من هنا فى ظرف أسبوعين . وقد كان كلاپيك مرهقا ، فلم يقص غير حكايتين جميلتين : حكاية عن لص صينى ، أطلق سراحه لما أظهره من براعة فى الدخول من ثقب على هيئة القيثارة فى محل الرهونات الذى حاول سرقته ، وهذه القصة : كان السيد العظيم « فضيلة » يربى الأرانب منذ عشرين عاما ، وعلى أحد جانبى الجمرك الداخلى يقوم منزله ، وعلى الجانب الآخر عشش الأرانب . واستبدل رجال الجمارك بمجموعة أخرى ، فنسوا أن يخطروا الموظفين الجدد باجتيازه اليومى للجمرك . وحين وصل ، حاملا سلته المليئة بالبرسيم استوقفه رجال الجمرك قائلين : دعنا نلق نظرة على ما فى سلتك . » . وتحت البرسيم ، كانت توجد ساعات وسلاسل ذهبية ، ومصابيح كهربائية ، وآلات تصوير «ـ أهذا ما تقدمه لأرانبك من طعام ؟ »

ـ « أجل ياسيدى مدير الجمارك » ثم (بلهجة من يهدد الأرانب المذكورة) « وان لم يعجبهم هذا الطعام فلن يحصلوا على شيء سواه . »

قالت : « هذه قصة علمية .. ولقد فهمت الآن كل شيء . من هناك اذن تأتى تلك الأجراس والطبول الصغيرة المصنوعة على هيئة الأرانب . وكل تلك الحيوانات الصغيرة البديعة التى تحيا حياة سعيدة فى القمر ، وفى الأماكن الشبيهة بذلك ، ولكنها تحيا حياة تعسة فى حجرات الأطفال ...

وانه لظلم صارخ هذا الذى يروى فى تلك القصة الحزينة عن « الفضـــيلة الشهيرة » وسوف تحتج الصحف الثورية كثيرا على ما أعتقد : انك تستطيع أن تكون على يقين من أن هذه الارانب تأكل هذه الأشياء حقا • »

ـ « هل قرأت يا عزيزتى ( أليس فى بلاد العجائب ) ؟ »

كان يحتقر النساء اللواتى لا يستطيع الاستغناء عنهن ، بما يكفى لتذليلهن بقوله « يا عزيزتى • »

ـ « وهل تشك في ذلك ؟ اننى أحفظها عن ظهر قلب •• »

ـ « ان ابتسامتك تجعلنى أفكر فى طيف القطة الذى لا يتجسد مطلقا ، والذى لا نرى منه غير ابتسامة القطة الساحرة تلك ، طافية فى الهواء • آه ! لماذا يريد ذكاء المرأة أن يختار دائما مجالا غير المجال الذى خلق له ؟ »

ـ « وما هو هذا المجال يا عزيزى ؟ »

ـ « فتنة الفهم •• بكل تأكيد • »

واستغرقت فى التفكير •

ـ « ان ما يسميه الرجـال بهذا الاسم ، هو خضـوع الروح ، فانتم لا تعترفون لدى المرأة الا بالذكاء الذى يؤيدكم •• وهذا شيء مريح الى أبعد حد ••• »

ـ « الاستسلام من جانب المـرأة ، والامتلاك من جانب الرجل ، همـا الوسيلتان الوحيدتان اللتان يملكهما البشر لفهم أى شيء ••• »

ـ « ألا تعتقد ياعزيزى ان النساء لا يستسلمن أبدا (أو تقريبا) ، وأن الرجال لا يملكون شيئا ؟ انها لعبة : « انا أعتقد أننى أملكها ، ومن ثم فهى تعتقد أنها مملوكة •• » ولكن هل هذا صحيح ؟ ان ما أريد أن أقوله سيء للغاية • ولكن ألا تعتقد أن هذه هى حكاية السدادة التى خيل اليها أنها أهم من الزجاجة ؟ »

وكان التحرر من التقاليد عند امرأة ـ يجذب فيرال اليها ، أما حرية العقل فكانت تغضبه • وأحس أنه متلهف عـلى بعث العاطفة الوحيدة التى تمنحه السيطرة على المرأة : الخجل المسيحى ، والشكران على الخجل الذى تعانيه • ولم تتكهن بما يدور فى نفسه ، ولكنها تكهنت بأنه ينفصل عنها ،

ولما كانت تتأثر من ناحية أخرى برغبته ، ويروق لها اثبات انها تستطيع أن تستولى عليه وفق ارادتها ، فقد نظرت اليه ، منفرجة الثغر ( ما دام يحب ابتسامتها ٠٠٠ ) نظرة اغراء ، وهى على ثقة أنه ككل الرجال سيفسر هذه الرغبة فى اغرائه على أنها استسلام له ٠٠

وسعى اليها فى السرير ـ وأضفت مداعباته على ڤاليرى تعبيرا مستغلقا ود لو رآه يتبدل ٠ واستحضر التعبير الآخر فى عاطفة قوية بحيث لم يكن بد من الأمل فى أن تثبته اللذة على وجه فاليرى ، معتقدا أنه يحطم بذلك قناعا اتخذه هذا الوجه ، وأن أعمق ما فيها ، وأشد ما فيها استسرارا هو بالضرورة ما يفضله فيها : ولم يكن قد ضاجعها الا فى الظلام ، ولكنه ما كاد يباعد بيده ما بين ساقيها فى لطف حتى اطفأت النور ٠٠ فأضاءه من جديد ٠

وكان يتحسس زر الكهرباء فى صمت ، فخيل اليها أنه لمسه مصادفة ، فأطفأته ثانية ، ولكنه أضاءه على الفور مرة أخرى ٠ ولما كانت أعصابها مرهفة جدا ، فقد أحست بأنها توشك على الضحك والغضب فى آن واحد ٠ ولكنها التقت بنظرته ٠ وكان قد أزاح زر الكهرباء بعيدا ، فتأكدت أنه يريد أن يستمد أصفى متعته من التحول الحسى الذى يطرأ علـى ملامحها ٠ وكانت تعرف أن الشهوة الجنسية لم تكن مسيطرة عليها حقا الا فى بداية علاقتها، وفيما كان ينتظرها من مفاجأة ، وحين شعرت بأنها لن تجد الزر الكهربائى، استولى عليها الدفء الذى تعهده ، وتمشى فى جذعها حتى حلمتى ثدييها ، ثم الى شفتيها اللتين خمنت من نظرة فيرال اليهما ، أنهما قد انتفختا انتفاخا غير محسوس ٠ وآثرت هذا الدفء ، وقد ضمته اليها ، وغاصت على متن نبضات طويلة بعيدا عن شاطىء كانت تعلم أنها ستقذف عليه بعد لحظات ، يصحبها ذلك التصميم بأنها لن تغفر له تصرفه ٠

ونامت فاليرى ٠ وكان التنفس المنتظم وارتخاء النوم قد جعلا شفتيها تنتفخان انتفاخا لطيفا ، وأضفيا عليها ذلك التعبير الضائع الذى تمنحه المتعة ٠ وناجى فيرال نفسه قائلا : « كائن انسانى ٠٠ حياة فردية منعزلة مثل حياتى ٠٠ » وتخيل أنه هى ، وأنه قد سكن جسدها ، ليشعر مكانها بهذه المتعة التى لا يستطيع أن يعانيها الا بوصفها اذلالا ، وتخيل نفسه وقد أذلته هذه اللذة السلبية ، هذا الجنس الأنثوي ٠ « هـذا حمق ، فانها تمارس

وظيفتها الجنسية ، كما أمارسها أنا تماما ، لا أكثر ولا أقل ٠٠٠انها تشعر وكأنها ملتقى للشهوات والحزن والكبرياء ٠٠ وكأنها مصير ٠٠٠ هذا أمر واضح ٠٠» ولكنها لم تكن تشعر بذلك فى هـــذه اللحظة : ذلك أن النوم وشفتيها قد أسلماها الى حسية كاملة ، وكأنها قد قبلت التنازل عن كيانها الحى الحر ، لكى تصبح هذا التعبير عن العرفان بالجميل لما حققته من انتصار جسدى ٠ واستولى عليها ذلك الصمت العظيم الذى يخيم على الليل الصينى، بما ينبعث منه من رائحة الكافور وأوراق الشجر ، والذى يرقد هو أيضـا حتى المحيط الهادى ٠٠ استولى عليها ، خارج الزمان ٠ ما من سفينة تطلق صفارتها ، وما من طلقة بندقية ٠ انها لا تحمل معها فى نومها ذكريات أو آمالا تند عن سطوته : انها ليست شيئا سوى القطب الآخر من متعته ٠ انها لم تعرف الحياة أبدا ، لم تكن صبية صغيرة أبدا ٠

وانطلق المدفع من جديد : وعاود القطار المصفح اطلاق نيرانه ٠

**الساعة الرابعة مساء من اليوم التالى**

أخذ كيو يراقب القطار المصفح من حانوت للساعات ، تحول الى مركز للاسعاف ٠ وعلى بعد مائتى متر الى الأمام والى الخلف ، كان الثوار قد نسفوا القضبان الحديدية ، كما حطموا المزلقان ٠ ومن القطار الذى يسد الشارع ـ كأنه جثة لا حراك بها ـ لم يكن كيو يلمح سوى عربات ، عربة مغلقة كأنهـا عربة الحيوانات ، وأخرى محطمة كأنما سحقها خزان بنزين ، وقد برز من برج صغير فيها مدفع صـغير ٠ ولم يكن يظهر أى رجـال ، سـواء أكانوا المحصورين المختفين خلف نوافذهم المحكمة الاطلاق ، أو من المهاجمين الذين تسللوا الى المنازل المشرفة على الخط الحديدى ٠ ووراء كيو ، استمر اطلاق النار دون انقطاع ، ناحية الكنيسة الروسية ، وناحية « المطبعة التجارية » ٠ وكان الجنود الذين لا يعارضون فى تسليم سلاحهم آمنين ، أما الآخرون فكانوا على وشك أن يلقوا حتفهم ٠ لقد تسلحت الآن جميع وحدات الثوار ، بينما لاذت القوات الحكومية التى تحطمت جبهتها بالفرار نحو نانكين بواسطة القطارات المخربة ، ومن خلال طرقات مليئة بالبرك الموحلة ، وفى جو عاصف مطـير ٠ وكان مقدرا أن يصـل جيش الكومنتانج الى شـنغهاى بعد بضع سـاعات : وكان الرسـل الذين يحملون البرقيات يتعاقبون من لحظة الى أخرى ٠

ودخل « تشن » وهو ما برح مرتديا زى العمال ، وجلس الى جانب كيو ، ثم نظر الى القطار • وكان رجاله يتولون الحراسة بدورهم خلف أحد المتاريس ــ على بعد مائة متر من هذا المكان ، دون أن تكون لديهم أوامر بالهجوم •

وتحرك مدفع القطار الذى كانوا يرونه من جانبه • وانزلقت أمامه أذيال من الدخان هى الرمق الأخير من الحريق الذى خمد ، وكأنها سحب شديدة الانخفاض •

قال تشن : « لا أظن أنه ما زال لديهم الكثير من الذخيرة • »

وبرز المدفع من البرج كأنه منظار المرصد ، وتحرك حركة شاذة ، وعلى الرغم من الدروع التى تحميه ، فان التردد الذى شاب حركته جعلته يبدو هشا •

وقال كيو : « ما أن تصل مدافعنا حتى ••• »

وتوقف ذلك الذى ينظران اليه عن الحركة ، وأطلق النار • وانهمر سيل من الرصاص على الدرع ، ردا على هذه القذيفة • ولاحت فى السماء الرمادية البيضاء ومضة من الشمس فوق القطار مباشرة • وحمل رسول بعض الوثائق الى كيو •

وقال هذا الأخير : « لم نحصل على أغلبية فى اللجنة • »

وكان مجلس المندوبين الذى انعقد سرا بدعوة من حزب الكومنتانج ــ قبل نشوب الثورة ، قد انتخب لجنة مركزية مؤلفة من ستة وعشرين عضوا ، بينهم خمسة عشر عضوا من الشيوعيين ، غير أن هذه اللجنة بدورها قد انتخبت الآن لجنة تنفيذية ستقوم بتشكيل الحكومة البلدية • وفى هذه اللجنة كانت تتركز السلطة الفعالة ، ولكن الشيوعيين لم يعودوا أغلبية فيها •

ودخل رسول ثان ــ بالزى العسكرى ، وتوقف عند عتبة الباب •

ــ « تم الاستيلاء على الترسانة • »

وساله كيو : « والدبابات ؟ »

– « مضت الى نانكين . »

– « وهل أنت من الجيش ؟ »

وكان هـذا الرسـول جنديا من الفرقة الأولى التى تضم أكبر عدد من الشيوعيين • ووجه اليه كيو عـددا من الأسئلة • وكانت تشوب اجابات الجندى لهجة مريرة : فالقوم يتساءلون ما فائدة الدولية الشيوعية ؟ لقـد اعطى كل شيء لبورجوازية الكومنتانج ، وكان أقارب الجنود ، وجلهم من الفلاحين – مرغمين على المساهمة فى نفقات الحرب الباهظة ، فى الوقت الذى لم تكن الأعباء المفروضة على البورجوازية تجاوز حد الاعتدال • واذا أراد هؤلاء الفلاحون أن يستولوا على الأراضي ، منعتهم عن ذلك الأوامر العليا • وقد طاف بخواطر الجنود الشيوعيين أن الاستيلاء على شنغهاى خليق بأن يغير هذا كله ، أما ، هذا الجندى ، فلم يكن واثقا من ذلك كل الثقة • ولمـا كان على احاطة بجانب واحد من الموضوع ، فانه كان يسوق حججا واهية ، وان كان من اليسير استخلاص حجج أقوى منها • وأجابه كيو : بأنه سيتم انشاء الحرس الأحمر ، وميليشيا العمال فى شنغهاى ، فهناك أكثر من مائتى ألف عاطل فى هانكيو • وكان الاثنان يكفان بين حين وآخر عن الحـديث ليرهفا السمع •

قال الجندى : « هانكيو ••• انى أعلم أن هناك هانكيو ••• »

وكان يبدو أن صوتيهما المكتومين باقيان حولهما ، وقد احتفظ بهما الجو المرتعش وكأنه يترقب هو أيضا صوت المدفع • وكان كل منهما يفكر فى « هانكيو » « أكثر المدن تصنيعا فى الصـين بأسرها » • هنـاك كانوا يقومون بتنظيم جيش أحمر جديد ، وفى هذه اللحظة بالذات كانت فرق العمال هناك تتدرب على استخدام البنادق •••

وكان تشن ينظر الى حاملى البرقيـات دون أن يتفوه بشيء ، وقد باعد ما بين ساقيه ، ووضع قبضتيه فوق ركبته ، وفغر فاه •

واستطرد كيو قائلا : « كل شيء يتوقف على من سيكون محافظ شنغهاى • فاذا كان من رجالنا ، لم تعد ثمة أهمية للأغلبية •• واذا كان من اليمين ••»

وألقى « تشن » نظرة عـلى الساعة • وكانت ساعات الحائط ، وعددها ثلاثون على الأقل فى هذا الحانوت ـ منها الدائر ومنها المتوقف ـ تشير الى أوقات مختلفة • وتلاحقت طلقات من الرصاص سريعة كالسبيل المنهمر • وتردد « تشن » فى النظر الى الخارج ، اذ لم يكن يستطيع أن يحول عينيه عن هذا الكون الذى ينبض بحركة الساعات دون اكتراث بالثورة المندلعة فى الخارج • وانتزعته من هذا السحر حركة الرسل الذين رحلوا •• وحزم أمره أخيرا على أن ينظر فى ساعة يده •

ـ « الساعة الرابعة •• من الممكن أن نعرف ••• »

وقام بتشغيل تليفون الميـدان ، ثم أعاد السماعة فى غضب والتفت ناحية « كيو » قائلا :

ـ « المحافظ من اليمينيين • »

فأجاب كيو فى لهجة أشبه بالسؤال منها بالجواب : « توسيع الثورة فى البداية ، ثم العمل على تعميقها • ويبدو أن خطة الدولية هى التخلى عن السلطة هنا للبرجوازية • مؤقتا •• سيسرقوننا • ولقد تحدثت الى رسل من الجبهة ، فعلمت أن كل حركة عمالية ممنوعة فى المؤخرة • وقد أطلق تشانج ـ كاى ـ شيك النار على المضربين بعد أن اتخذ بعض الاحتياطات • »

وتسلل شعاع من الشمس • وفى السماء أخذت البقعة الزرقاء المضيئة فى الاتساع • وامتلأ الشارع بضوء الشمس • وعلى الرغم من طلقات الرصاص المتوالية ، فقد بدا القطار المصفح فى هذا النور ـ مهجورا • وأطلق النـار من جديد • وكان « كيو » و « تشن » يراقبانه هذه المرة فى انتباه أقل : فلربما كان العدو أقرب اليهم من ذلك بين صفوفهم ، وألقى كيو نظرة مضطربة على الرصيف الذى أخذ يلمع تحت أشعة الشمس العابرة ، وقد استبد به قلق شديد • وامتد أمامه ظل عظيم ، ورفع رأسـه فاذا أمامه : كاتوف • واستطرد كيـو قائلا : « وفى ظل أسبوعين ، ستمنع حـكومة الكومنتانج تشكيل فرق الهجوم • لقد قابلت لتوى ضباطا زرق ، أرسلوا من الجبهة للتعرف على نوايانا ، والتلميح لنا فى خبث بأنه من الأفضل أن يحتفظوا هم بالأسلحة ، لا أن نحتفظ بها نحن • فاذا جردوا الحرس العمالى من سلاحه ، فانهم سوف يسيطرون فى هذه الحالة على البوليس وعلى اللجنة وعلى المحافظ ،

وعلى الجيش ، وعلى الأسلحة • وكأننا قمنا بالثورة من أجل هذا • يجب أن نخرج من الكومنتانج • وأن نعزل الحزب الشيوعى ، بل أن نمنحه السلطة اذا كان ذلك ممكنا • وليست المسألة مسألة تدبير المؤامرات ، وانما التفكير جديا في البروليتاريا ، فى كل ما نفعل • فبماذا يجب أن تشير عليهم ؟ »

وتأمل تشن قدميه الدقيقتين القذرتين العاريتين فى نعله •

ــ « العمــال على حق فى القيام بالاضراب • ونحن نأمرهم بالعودة الى العمل ، والفلاحون يريدون الاستيلاء على الأراضى ، وهم على حق فى ذلك أيضا ، ونحن نمنعهم من ذلك • »

ولم تكن لهجته تبرز الألفاظ الطويلة •

واستطرد كيو قائلا : « ان أوامرنا هى نفس أوامر الزرق ، مع مزيد من الوعود • غير أن الزرق يمنحون البورجوازيين ما يعدونهم به ، على حين لا نمنح نحن العمال ما نعدهم به • »

قال تشن دون أن يرفع رأسه : « كفى • لابد أولا من اغتيال تشانج ــ كاى ــ شيك • »

واستمع اليه كاتوف صامتا ، ثم قال أخيرا :

ــ « هذا عمل من أعمال المستقبل ، أما فى الوقت الحاضر ، فنحن نقتل رجالنا • أجل • ومع ذلك ، فلست واثقا من اقتناعى برأيك يا كيو • ففى بداية الثورة ، عندما كنت ثوريا اشتراكيا ، كنا جميعا ضد خطة لينين فى أوكرانيا • فقد ألقى انطونوف قوميسار تلك المنطقة ــ القبض على أصحاب المناجم ، وحكم عليهم بعشرة أعوام من الأشغال الشاقة بتهمة التخريب •• دون محاكمة • وهنأه لينين ، على مسئوليته الخاصة بوصفه قوميسار التشيكا Tchéka واعترضنا جميعا على ذلك • فأنت تعلم أن أصحاب المناجم مستغلون حقيقيون ، وكثير منا كانوا قد دخلوا هذه المناجم دخول المذنبين ، ولهذا كنا نعتقد أن من الواجب أن نتوخى العدل معهم على وجه أخص ــ لنكون أسوة • ومع ذلك ، فلو قد أطلقنا سراحهم ، لما فهمت البروليتاريا شيئا • كان لينين على حق • كانت العدالة الى جانبنا ، ومع ذلك كان لينين على حق • وقد كنا

أيضا ضد السلطات الاستثنائية الممنوحة للـ « تشيكا » • ولابد من الانتباه، والشعار الحالى شعار جيد : « توسيع الثورة ، ثم تعميقها • ولم يقل لينين على الفور : « السلطة كلها للسوفيت • »

ـ « ولكنه لم يقل قط : السلطة كلها للمنشفيك ( الأقلية ) • وما من موقف يمكن أن يرغمنا على اعطاء الأسلحة للزرق •• ما من موقف يستطيع أن يرغمنا على تسليم أسلحتنا للزرق •• ما من موقف على الاطلاق ، لأن هذا معناه حينئذ أن الثورة قد ضاعت ، ولا محال أمامنا الا ••• »

ودخل فى هذه اللحظة ضابط من ضباط الكومنتانج ، وكان قصير القامة، متصلب الحركات كأنه يابانى ، وتبادلوا التحية ، ثم قال :

ـ « سيصل الجيش الى هنا بعد نصف ساعة •• اننا نفتقر الى الأسلحة ، فبكم منها يمكن أن تزودنا ؟ »

وأخذ « تشن » يذرع الغرفة جيئة وذهابا •• بينما انتظر « كاتوف » •

قال كيو : « يجب أن تظل ميليشيا العمال مسلحة • »

فأجاب الضابط : « ان طلبى هذا قد وافقت عليه حكومة هانكيو • »

وابتسم كيو ، وتشن •

فاستأنف الضابط كلامه قائلا : « أرجو أن تتأكدوا من ذلك بأنفسكم • »

ولجأ كيو الى التلفون •

واندفع « تشن » قائلا فى غضب بارد : « وحتى لو كان الأمر ••• »

وصاح كيو : « مفهوم ! »

وأخذ ينصت ، بينما أمسك كاتوف بالسماعة الثانية • ثم وضع كل منهما سماعته •

قال كيو : « حسن ، غير أن الرجال ما زالوا فى مراكزهم • »

فقال الضابط : « ستصل المدفعية الى هناك توا • وسننتهى من هذه الأشياء •• »

وأشار الى القطار المصفح ، القابع بلا حراك تحت أشعة الشمس ٠

ــ « ٠٠ بأنفسنا ٠ هل تستطيعون تزويد الجنود بالأسلحة مساء غد ؟ » اننا فى حاجة ماسة اليها ٠٠ وسنواصل الزحف على نانكين ٠ »

ــ « أشك فى أنه من الممكن الحصول على أكثر من نصف الأسلحة ٠ »

ــ « لماذا ؟ »

ــ « لأن الشيوعيين لن يوافقوا جميعا على تسليم أسلحتهم ٠ »

ــ « حتى بعد صدور الأوامر من هانكيو ؟ »

ــ « حتى بعد صدور الأوامر من موسكو ٠ أو على الأقل ، لن يكون ذلك فورا ٠ »

وأحسوا بما يعتمل فى نفس الضابط من حنق ، وان لم يظهر على وجهه شىء منه ٠

قال : « فكروا فيما يمكن أن تفعلوا ٠٠ وسأبعث بواحد من رجالى حوالى الساعة السابعة ٠ »

وانصرف ٠

وسأل كيو كاتوف : « هل من رأيك أن نقوم بتسليم الأسلحة ؟ »

ــ « اننى أحاول أن أفهم ٠٠ ويجب قبل كل شىء الذهاب الى هانكيو ٠ ماذا تريد الدولية ؟ أولا : استخدام جيش الكومنتانج لتوحيد الصين ، ثم تطوير الثورة بالدعاية وما شاكل ذلك ، بحيث تتحول من تلقاء نفسها من ثورة ديموقراطية الى ثورة اشتراكية ٠ »

قال تشن : « يجب اغتيال تشانج ــ كاى ــ شيك ٠ »

فأجاب كيو : « ان تشانج ــ كاى ــ شك لن يسمح لنا بالذهاب الى هذا الحد ٠ انه لا يستطيع ٠ وهو لا يستطيع أن يحافظ على قوته هنا بالاستناد على الجمارك وعلى اسهامات البورجوازية ، والبورجوازية لا تدفع بلا مقابل : فلابد أن يرد اليها نظير أموالها بعض شيوعيين قتلى ٠ »

قال تشن : « هذا كله مجرت هراء ٠ »

فقال كاتوف : « دعنا فى سلام ٠ هل تعتقد أنك ستحاول اغتيال تشانج

ـ كاى ـ شيك دون موافقة اللجنة المركزية أو على الأقل دون موافقة مندوب الدولية ؟ »

وملأت السكون شيئا فشيئا ـ جلبة بعيدة ·

وسأل تشن كيو : « هل أنت ذاهب الى هانكيو ؟ »

ـ « بكل تأكيد · »

وطفق « تشن » يذرع الحجرة جيئة وذهابا ، بينما استمرت البندولات والوقاويق فى عملها المنتظم ·

وأخيرا استطرد قائلا : « ان ما قلته غاية فى البساطة ·· انه الشىء الجوهرى ·· الشىء الوحيد الذى يجب عمله ·· أنبئهم بقدومى · »

ـ « ألا تنتظر ؟ »

وكان كيو يعرف أن تشن اذا تردد بدلا من أن يجيب ، فليس ذلك معناه أن كاتوف قد أقنعه ، بل معناه أن الأوامر الحالية التى أصدرتها الدولية لا ترضى عاطفته العميقة التى جعلت منه ثوريا، واذا وافق عليها بحكم الخضوع للنظام فانه لن يستطيع التصرف · وتأمل كيو ـ وهو واقف تحت ساعات الحائط تلك ـ هذا الجسم المعادى الذى ضحى بنفسه وبالآخرين من أجل الثورة ، والذى قد تعيده الثورة الى وحدته ، مع ذكريات اغتيالاته · كان معه وضده فى الوقت نفسه ، ولهذا لم يكن يستطيع أن ينضم اليه ، أو ينفصل عنه · لقد جمعت بينهما أخوة السلاح ، وفى اللحظة التى كان ينظر فيها الى هذا القطار المسلح الذى قد يهاجمانه معا ، شعر بما يمكن أن يحدث بينهما من قطيعة ، كما يحس بتهديد نوبة وشيكة الوقوع لصديق مصاب بالصرع أو مجنون فى اللحظة التى يكون فيها عقله أصفى ما يكون ·

وواصل « تشن » سيره ، وهز رأسه كأنه يحتج ، ثم قال أخيرا : « لا بأس » وهو يهز كتفيه ، وكأنما أجاب على هذا النحو لكى يرضى فى كيو رغبة صبيانية ما ·

وعادت الضجة ، أقوى مما كانت ، ولكنها كانت مختلطة الى حد أنهم

أرهفوا آذانهم كل الارهاف ليتبينوا ما تنطوى عليه • كان يبدو أنها تصعد من باطن الأرض • قال كيو : « كلا ••• انها صيحات • »

واقتربت هذه الصيحات ، وأصبحت أكثر تحديدا •

وتساءل كاتوف : « أتراهم يستولون على الكنيسة الروسية ؟ »

وكان عدد كبير من جنود الحكومة معتصما بها • غير أن الصيحاتاقتربت كأنها متجهة من الضواحى صوب مركز المدينة •• وأخذت تشتد ، ومع ذلك كان من المحال تمييز الهتافات • وألقى « كاتوف » نظرة صوب القطار المصفح •

ــ « هل وصلت اليهم الامدادات ؟ »

واقتربت الصيحات أكثر فأكثر ، ولكنها ما برحت غير واضحة الكلمات، وكأنما ثمة نبأ خطير ينتقل من جمهور الى آخر • ونازعت هذه الضجة ضجة أخرى ، حتى حلت محلها ، وأصبح من الممكن تمييزها أخيرا : انها الأرض تهتز اهتزازا منتظما تحت وقع خطوات الجنود •

قال كاتوف : « الجيش •• انهم جنودنا ــ »

وكان على صواب بلاريب • وكانت هذه الصيحات هى صيحات التهليل، ولم يكن من المستحيل تمييزها عن صيحات الفزع ، وكان ما سمعه كيو يقترب على هذا النحو هو أصوات الجماهير التى جرفها الطوفان أمامه • وتحولت دقات الأقدام الى هدير ، ثم عادت من جديد ، كان الجنود قد توقفوا عن المسير ، ثم استأنفوا سيرهم فى اتجاه آخر •

قال كيو : « لقد أخطرونا بأن القطار المصفح موجود هنا • »

ولم يكن من شك أن الجنود القابعين فى القطار كانوا أقل تمييزا للصيحات منهم ، ولكنهم كانوا أكثر تمييزا لوقع الأقدام نتيجة لتأثر الألواح المعدنية بها ، وجودة توصيلها لها •

وباغتت الرجال الثلاثة ضجة هائلة : اذ انطلقت النيران من كل مدفع رشاش ، ومن كل بندقية ، بالقطار • وكان « كاتوف » قد خدم فى أحد القطارات المصفحة بسيبيريا ، فدفعه خياله دفعا الى أن يتابع عذاب الاحتضار الذى يعانيه هذا القطار • لقد أصدر ضباطه أوامرهم باطلاق النار بلا انقطاع،

وماذا كانوا يستطيعون أن يفعلوا وهم محاصرين فى أبراجهم الصغيرة وقد أمسكوا التلفون بيد ، والمسدس باليد الأخرى ؟ ولا ريب أن كل جندى قد تكهن بما تعنيه هـــذه الدقات • أتراهم يستعدون للموت معا ، أم تراهم ينقضون بعضهم على البعض الآخر فى تلك الغواصة الهائلة التى لن تصعد الى السطح أبدا ؟

وأصيب انقطار نفسه بحالة من الهلع الغاضب ، فكان يبدو عليه وهو يطلق نيرانه من كل مكان ، ويهتز بما انتابه من هياج ، كأنه يريد أن يخرج عن قضبانه ، وكأن الهياج اليائس الذى استبد بالرجال الذين يحميهم قد انتقل الى هذه الدرع الأسيرة التى راحت تتخبط هى أيضا فى سبيل التحرر. ولم يكن ما يسحر « كاتوف » فى هذا التحرر هو تلك النشوة القاتلة التى استولت على جنود القطار ، وانما كانت رعشة القضبان التى تمسك بمحاولات هؤلاء الرجال اليائسة كأنها قميص المجانين : وحرك ذراعه الى الأمام لكى يثبت لنفسه أنه لم يصب بالشلل • وانقطعت الضجة بعد ثلاثين ثانية • وطغى على الهزة المكتومة التى أحدثتها خطوات الجنود ، وعلى دقات الساعات التى تملأ الحانوت •• طغى على هذا كله هزيم الأسلحة الثقيلة : انها مدفعية جيش الثورة •

ووراء كل لوح معدنى ، كان جندى فى القطار يصغى الى هذه الضجة كأنها صوت الموت نفسه •

# الجزءُ الثالث

## ٢٩ مارس

كانت « هانكيو » جد قريبة : وكانت حركة السنبان (*) تغطى صفحة النهر أو تكاد ، ومداخن الترسانة البحرية تنفصل شيئا فشيئا عن رابية قائمة فى ذلك المكان ، بعد أن حجبها عن الأنظار الدخان الهائل المنبعث منها ، وظهرت المدينة أخيرا من خلال النور المتسربل بالزرقة فى احدى امسيات الربيع ، ظهرت بضفافها ذات الأعمدة من خلال الثغرات المتناثرة فى الأمامية الأولى الواضحة السوداء المؤلفة من سفن الحرب التى تملكها أمم الغرب ، وقد ظل كيو يذرع النهر ستة أيام دون أن يظفر بأية أنباء من شنغهاى .

وعند قدم السفينة ، أطلق زورق بخارى صفارته . وكانت أوراق كيو جاهزة ، اذ كان قد اعتاد على الأعمال السرية ، ولم ينتقل الى مقدمة السفينة الا على سبيل الحيطة .

وسأل أحد العمال الميكانيكيين : « ماذا يريدون ؟ »

ــ « انهم يريدون أن يعرفوا ما اذا كنا نحمل أرزا أو فحما .. فكلاهما ممنوع . »

ــ « وبأية سلطة ؟ »

ــ « انها مجرد تعلة . فلو أننا كنا نحمل فحما ، لما قالوا شيئا ، كل ما فى الأمر أنهم يجردون الزورق من سلاحه عند الميناء . وقد أصبح من المحـال تموين المدينة . »

وهناك ، كانت المداخن ، والروافع ، والأحواض : حلفاء الثورة . غـير أن شنغهاى قد لقنت كيو ما يعنيه الميناء الزاخر بالنشاط ، أما هذا الميناء الذى يراه الآن ، فلم يكن مليئا الا بالقوارب وزوارق الطوربيد . وتنـاول نظارته المعظمة : فلمح سفينة تجارية .. ثم سفينة ثانية ، فثالثة .. وعدد آخر منها .. وكان زورقه يقترب من الشاطئ ، محاذيا أوشانج ، وكان عليه أن يستقل قاربا (المعدية) للذهاب الى هانكيو .

---

(*) ضرب من السفن الصغيرة المنتشرة فى الصين واليابان (المترجم) .

وهبط من الزورق البخارى ٠٠ وعلى الرصيف كان أحد الضباط يراقب عملية الارســاء ٠ وتساءل كيــو : « لماذا يوجد هــذا العدد الضئيل من السفن ؟ »

ـ « لقد أمرتها شركات الملاحة جميعا بالرحيل ، خوفا من استيلاء الحكومة عليها ٠ »

وكان كل من فى شنغهاى ، يعتقد أن أوامر الاستيلاء قد صدرت منـذ زمن طويل ٠

ـ « متى تتحرك المعدية ؟ »

ـ « كل نصف ساعة٠ »

كان عليه أن ينتظر عشرين دقيقة فأخذ يتجول دونما هدف ٠ وكانت مصابيح الغاز مضاءة فى أعماق الحوانيت : وهنا وهناك ارتفعت ظلال الأشجار وقرون المنازل الى الجهة الغربية من صفحة السماء حيث انبعث ضوء مجهول المصدر ، وكأنه ينبع من رقة الهواء نفسها ، ولا يتبدد فى طمأنينة الليل الا على علو شاهق ٠ وعلى الرغم من انتشار الجنود وعمال النقابات كان الأطباء ـ وعلى لافتاتهم صور الضفادع ـ وتجـار الأعشـاب (العطارون) والأمساخ ، والكتبة العموميون ، والسحرة ، والمنجمون ، وقارئو الغيب ٠٠ كان هؤلاء جميعا يمارســون أسرار مهنهم فى ذلك الضــوء العكر الذى لا تبين فيه بقع الدماء ٠ والظلال تتلاشى على الأرض ، بدلا من أن تمتد سابحة فى اشعاع ضارب الى الزرقة ٠ وأخذ الوهج الأخير لهذا المساء الفريد الذى تجرى أحداثه بعيدا جـدا ، فى مكان ما من العالـين ، والذى انعكس ضوؤه على الأرض ليغمرها ٠٠ أخذ هذا الوهج الأخير يلمع لمعانا خافتا فى مؤخرة قوس قنطرة هائل يعلوه معبد صينى قرضته أشجار اللبلاب التى اسود لونها ٠ وفيما وراء ذلك ، كانت فصيلة من الجنود قد غاصت فى الليل الذى تراكم ضبابا على سطح النهر ، وراء جلبة الأجراس الصغيرة ، والفونوغرافات ، وهبـط «كيو » هو أيضا حتى وصل الى فناء ملىء بالأحجار الضخمة ، هى أحجـار الأسوار التى أزيلت علامة على تحرير الصين ٠ وكانت « المعدية » قريبة جـدا ٠

وانقضت ربع ساعة فوق النهر ، فى النظر الى المدينة وهى تتوغل في نبش المساء • وأخيرا .. ها هى ذى هانكيو •

وكانت عربات « الريكشو » تنتظر على الرصيف ، غير أن القلق الذى استبد بكيو كان من العنف بحيث لم يكن يطيق البقاء بلا حركة ، فآثر المشى: هذه هى منطقة الامتيازات البريطانية التي جلت عنها انجلترا فى يناير الماضى، وهذه هي البنوك الدولية الكبيرة قد أوصدت أبوابها ، وان كانت مهجورة • • • يا له من شعور غريب هذا القلق : يشعر المرء من نبضات قلبه ، بأنه يتنفس تنفسا عسيرا ، وكأنه يتنفس بقلبه • • • » وأصبح القلق أقوى من صفاء ذهنه • وعند منعطف أحد الشوارع ، وفى فجوة رسمتها حديقة مليئة بالأشجار المزدهرة الرمادية فى عتمة المساء ، ظهرت مداخن المصانع الغربية• ولكن لم يكن ينبعث منها دخان •• وكانت مداخن الترسانة البحرية هى وحدها التى تعمل بين المداخن التى رآها جميعا • أمن الممكن أن تكون «هانكيو» ـ تلك المدينة التي ينتظر منها الشيوعيون فى العالم كله خلاص الصين ـ قد أعلنت الاضراب العام ؟ ان الترسانة تعمل فهل يمكن على الأقل الاعتماد على الجيش الأحمر ؟ ولم يعد يجرؤ على الجرى • واذا لم تكن هانكيو علـى الحـالة التى يعتقدها كل منهم ، لكان معنى ذلك المـوت لرفقائه جميعا فى شنغهاى • • • ولمـاى • • • وله هو نفسه •

وأخيرا ، هنا وفد منظمة الشيوعية الدولية •

كانت « الفيللا » مضاءة كلها ، وكان « كيو » يعلم أن « بوروديں » يعمل فى الطابق الأعلى ، أما فى الطابق الأرضى فكانت آلات المطبعة تعمل بملء قوتها فى ضجيج أشبه بضجيج مروحة هائلة قد أصيبت بخلل •

وتفحص أحد الحراس كيـو الذى كان يرتدى صدارا رماديا ذا رقبـة سميكة • واعتقد الحارس أنه يابانى فأشار اليه بأصبعه أن يتجه الى الساعى المكلف بمرافقة الأجانب ، وحينئذ التقت عيناه بالأوراق التى مدها كيو اليه ، فقاده عبر المدخل المزدحم الى قسم الشيوعية الدولية الموكلة بأمر شنغهاى • وكان كيو لا يعلم عن السكرتير الذى استقبله الا أنه الشخص الذى نظـم الثورات الأولى فى فنلندا ، انه رفيق ، يبسط يمناه من فوق مكتبه ليصافحه مقدما نفسه باسم : فولوجين • وكان يبدو بدينا ، أشبه بالمرأة الناضجة

منه بالرجل . أكان ذلك راجعا الى دقة قسماته المرهفة النضرة فى آن واحد، والشرقية الى حد ما رغم بياض بشرته ؟ أم الى خصلات شعره الطويلة التى تكاد تكون رمادية ، والمقصوصة لكى تلقى الى الوراء ، ولكنها تتهدل على وجنتيه كأنها عصابات مشدودة ؟

قال كيو : « ان زمام الأمور يفلت منا فى شنغهاى . »

وأغضبته هذه الجملة التى نطق بها : ذلك أن تفكيره يسبقه ، ومع ذلك فان جملته تعبر عما كان سيقوله فيما بعد : فاذا لم تستطع هانكيو أن تزود الفرق بالمعونة التى تنتظرها ، يصبح القاء السلاح انتحارا .

ودس « فولوجين » يديه فى كمى سترته الكاكى ، وحنى رأسه الى الأمام، وهو متكتل على مقعده ذى المسندين .

وغمغم قائلا : « مرة أخرى ! ... »

ـ « أولا ، ماذا يجرى هنا ؟ »

ـ « استمر : كيف يفلت منا زمام الأمور فى شنغهاى ؟ »

ـ « ولكن لماذا .. لماذا لا تعمل المصانع هنا ؟ »

ـ « مهلا . من يحتج من الرفاق ؟ »

ـ « أعضاء فرق القتال . والارهابيون أيضا . »

ـ « لا أهمية للارهابيين .. أما الآخرون ... »

ونظر الى كيو ثم قال :

ـ « ماذا يريدون ؟ »

ـ « الخروج من الكومنتانج ، وانشاء حزب شيوعى مستقل ، ومنح السلطة للنقابات ، وعدم القاء السلاح على وجه الخصوص ، فوق كل شىء . »

ـ « دائما ، نفس الشىء . »

ونهض فولوجين ، وصوب بصره عبر النافذة الى النهر والتلال دون أن

يظهر على وجهه أدنى تعبير ؛ ولم يكن يضفى الحياة على هذا الوجه المتحجر سوى توتر ثابت شبيه بالتوتر الذى نلمحه على وجوه المتجولين أثناء النوم. وكان قصير القامة ، غير أن ظهره البدين بدانة بطنه ، جعله يبدو كالأحدب تقريبا .

ـ « استمع الى . فلنفترض اننا خرجنا من الكومنتانج ، فماذا سنفعل؟»

ـ « أولا ، سنبدأ بتكوين ميليشيا لكل نقابة ، ولكل اتحاد للعمال . »

ـ « ومن أين لنا بالأسلحة ؟ الترسانة هنا بين أيدى الجنرالات . وتشانج ـ كاى ـ شيك يسيطر الآن على ترسانة شنغهاى . وقد انقطعت المواصلات بيننا وبين منغوليا ، ومن ثم ، لا نستطيع الحصول على أسلحة روسية . »

ـ « لقد استولينا على ترسانة شنغهاى . »

ـ « وجيش الثورة وراءكم .. لا أمامكم . ومن هؤلاء الذين سوف نقوم بتسليحهم هنا ؟ حوالى عشرة آلاف عامل . بالاضافة الى النواة الشيوعية (للجيش الحديدى) : أى عشرة آلاف أخرى . ولكل جندى عشر رصاصات ! وضدهم أكثر من ٧٥،٠٠٠ جندى ، فى هذه المدينة وحدها .. دون أن نذكر أخيرا .. جنود تشانج ـ كاى ـ شيك ، أو غيرهم . وانهم ليشعرون بالسعادة كل السعادة فى التحالف ضدنا عند أول اجراء شيوعى حقيقى . وبماذا أنمون جنودنا ؟ »

ـ « ألا توجد مسابك ، ومصانع ؟ »

ـ « لم تعد المواد الخام تصل الى هنا . »

واستطرد فولوجين ، واقفا بلا حراك أمام النافذة ، وقد اختفت صفحة وجهه الجانبية تحت خصلات شعره ، ومن ورائه غسق الليل :

ـ « ليست هانكيو عاصمة العمال ، ولكنها عاصمة العاطلين . ولا وجود للأسلحة ، وربما كان ذلك أفضل . ثمة لحظات أفكر فيها قائلا لنفسى : لو أننا سلحناهم ، لأطلقوا علينا نيرانهم . ومع ذلك ، هناك كل أولئك الذين يعملون خمسة عشر ساعة يوميا دون أن يلحوا فى المطالبة بحقوقهم ، لأن ( ثورتنا فى خطر ) ! »

واستغرق كيو في التفكير ، كما نغوص في الحلم ، الى أعماق ابعد غورا .

وواصل فولوجين حديثه قائلا : « القوة ليست في أيدينا ، وانما في أيدي قواد ( الكومنتانج اليساري ) كما يقولون . وهم لن يقبلوا السوفيت بأكثر مما يقبلهم تشانج ـ كاي ـ شيك . هذا شيء مؤكد . اننا نستطيع أن ننتفع بهم ، هذا كل ما في الأمر . على أن نكون منهم في غاية الحذر . »

لو أن « هانكيو » مجرد ديكور ملطخ بالدماء ! ... ولم يجرؤ كيو على التفكير أبعد من ذلك . وقال لنفسه : « يجب أن أرى بوسوز . وأنا خارج من هنا » وكان بوسوز هو صديقه الوحيد الذي يستطيع أن يثق به في هانكيو « ـ يجب أن أرى بوسوز ... »

قال فولوجين : « لا تفغر فاك على هذا النحو .. كالمخبول .. فالعالم يعتقد أن هانكيو شيوعية ، وهذا أفضل ، لأنه يشرف دعايتنا ، ولكنه ليس سببا في أن يكون ذلك حقيقيا . »

ـ « ما هي التعليمات الحالية ؟ »

ـ « تدعيم النواة الشيوعية في الجيش الحديدي . فنحن نستطيع أن نرجع كفة من الميزان على الأخرى ، ولكننا لسنا قوة بأنفسنا . والقواد الذين يحاربون معنا هنا ، يبغضون السوفيت والشيوعيين كما يبغضهم تشانج ـ كاي ـ شيك . هذا ما أعلمه ، وأراه ، بالايجاز .. كل يوم . وأقل محاولة لتطبيق الشيوعية ستجعلهم ينقلبون علينا . كما أنها تسوقهم بالطبع الى التحالف مع تشانج . والشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله هو أن نحطم تشانج باستخدامنا لهم . ثم أن نحطم فنج ـ يو ـ شنيانج بنفس الطريقة اذا لزم الأمر ، كما حطمنا من قبل القواد الذين حاربناهم حتى الآن باستخدام تشانج ، وذلك لأن الدعاية تجلب الينا من الأعوان مثل ما يجلبه النصر لهم . وهكذا فنحن نصعد معهم ، ولهذا السبب كان كسب الوقت هو الأمر الجوهري . ومن تستطيع الثورة أن تحافظ في نهاية الأمر ـ على شكلها الديموقراطي ، اذ يجب أن تتحول ـ بطبيعتها نفسها ـ الى الصورة الإشتراكية ، وينبغي أن نتركها لتصنع هذا التحول ، وأن نولدها ولادة

طبيعية ، لا أن ندفعها الى الاجهاض [١] »

ـ « أجل ـ غير أن الماركسية تنطوى على معنى الجبرية ، وعلى اثارة الارادة فى وقت واحد • وفى كل مرة تتقدم الجبرية على الارادة ، ارتاب فى الأمر • »

ـ « ان برنامجا شيوعيا خالصا يطبق اليوم ، سيؤدى مباشرة الى اتحاد جميع القواد ضدنا • مائتا ألف من الرجال ضد عشرين ألفا • ولهذا يجب أن تتفقوا فى شنغهاى مع تشانج ـ كاى ـ شيك • فان لم تكن ثمة وسيلة لمثل هذا الاتفاق •• فمن الخير القاء السلاح • »

ـ « وعلى هذا الأساس ، كان من الخطأ قيام ثورة أكتوبر : كم كان عدد البلاشفة حينذاك ؟ »

ـ « ان اتخاذ كلمة « السلام » شعارا لنا ، جعلنا نظفر بتأييد الجماهير • »

ـ « ثمت شعارات أخرى • »

ـ « لم يحن أوانها •• وما هى تلك الشعارات ؟ »

ـ « القضاء التام المباشر على الايجارات الزراعية وعلى القروض • واعلان الثورة الزراعية بلا حيل أو تحفظات • » .

وكانت الأيام الستة التى قضاها « كيو » فى الملاحة على صفحة النهر قد أكدت له ما ذهب اليه تفكيره : ففى تلك المدن الموحلة القائمة عند ملتقى الأنهار منذ آلاف السنين ، كان الفقراء على استعداد لاتباع الفلاح ، أو العامل على السواء •

قال فولوجين : « ان الفلاح يتبع غيره دائما •• سواء أكان هذا الغير عاملا أم بورجوازيا •• فانه يتبع الآخرين على كل حال • »

ـ « عفوا •• ان حركة الفلاحين لا يمكن أن « تدوم » الا باستنادها على المدن ، ولا يمكن أن تكون اذا قامت وحدها ـ سوى مجرد عبث •• هذا أمر مفروغ منه • ولكن ينبغى ألا نعزلها عن البروليتاريا : والقاء القروض ما هو الا شعار للكفاح ، الشعار الوحيد الذى يمكن أن يعبىء الفلاحين • »

قال فولوجين : « وأخيرا توزيع الأراضى عليهم • »

ـ « وان شئت مزيدا من الواقعية : فان كثيرا من الفلاحين الفقراء جدا هم فى الواقع من الملاك ، ولكنهم يكدحون من أجل المرابى • هذا شىء يعلمه الجميع • وينبغى من ناحية أخرى ـ أن نقوم فى شنغهاى بتدريب حراس النقابات العمالية بأسرع ما يمكن ، وألا نسمح بتجريدهم من السلاح بأية ذريعة كانت ، وأن نجعل منهم « قوتنا » فى مواجهة تشانج ـ كاى ـ شيك ، »

ـ « ما أن يعرف هذا الشعار ، حتى نكون من الهالكين • »

ـ « وسنكون من الهالكين على أية حال • فالشعارات الشيوعية تشق طريقها ، حتى لو تخلينا عنها ، اذ تكفى بضعة خطب لكى يطمع الفلاحون فى امتلاك الأراضى ، ولكن الخطب لن تكفى لكى يتنازلوا عن هذا الطمع ، والا كان علينا أن نقبل الاشتراك فى عملية القمع التى تقوم بها قوات تشانج ـ كاى ـ شيك ، أهذا يرضيك ؟ أى أن نتورط « نهائيا » ، والا فلا بد من أن يسحقونا ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه • »

ـ « انهم متفقون جميعا فى موسكو على أنه لابد من الانفصال عنهم فى النهاية •• ولكن على ألا يكون ذلك مبكرا على هذا النحو • »

ـ « فاذا كان المراد خداعهم قبل كل شىء ، فلا تلقوا السلاح •• لأن القاء السلاح معناه تسليم الرفاق • »

ـ « لو أنهم اتبعوا التعليمات ، لما استطاع تشانج أن يحرك ساكنا • »

ـ « سواء اتبعوها أم لم يتبعوها ، فهذا لا يغير من الأمر شيئا • فاللجنة وكاتوف وأنا ، قد قمنا بتنظيم الحرس العمالى ، فاذا أردتم أن تحلوه ، فسوف تعتقد البروليتاريا كلها فى شنغهاى أن هذا عمل من أعمال الخيانة • »

ـ « اذن ، دعوا هذه الحركة تخمد • »

ـ « ان نقابات العمال تنظم فى كل مكان من تلقاء نفسها فى الأحياء الفقيرة • فهل ستمنعون انشاء النقابات باسم « الدولية » ؟ »

وعاد فولوجين الى النافذة ، وخفض رأسه على صدره ، فبرزت لها ذقن ثانية •• وكان الليل قد هبط مليئا بالنجوم ، التى ما برحت شاحبة •

ـ « القطيعة معناها هزيمة مؤكدة ، ذلك أن موسكو لن تقبل الآن

انشقاقنا على الكومنتانج . والحزب الشيوعي الصيني أميل الى الاتفاق من موسكو . »

ــ « في الجهات العليا فحسب : أما بين صفوف الشعب ، فالرفاق لن يلقوا الأسلحة كلها ، حتى لو أمرتهم بذلك . وفي هذه الحالة تضحون بنا ، دون أن تبعثوا الاطمئنان في نفس تشانج ــ كاي ــ شيك . ويستطيع بورودين أن ينبىء موسكو بذلك . »

ــ « موسكو تعرف هذا : وقد صدر الأمر بتسليم الأسلحة أول أمس . »

واستولى الذهول على « كيو » ، فلم يستطع أن يرد من توه .

ــ « وهل سلمت الأقسام الأسلحة ؟ »

ــ « نصفها . على أكثر تقدير .. »

« أول أمس » .. بينما كان يفكر أو ينام على ظهر المركب .. لقد كان يعلم هو أيضا أن موسكو سوف تتمسك بسياستها . وفجأة ، أضفى الموقف قيمة غامضة على مشروع تشن :

ــ « ثمة شيء آخر ــ وربما لم يكن شيئا جديدا ــ أن تشن ــ تا ــ ايل ، أحد رفاقنا ، يريد اغتيال تشانج . »

ــ « آه .. هذا اذن هو السبب ! »

ــ « ماذا ؟ »

ــ « لقد بعث الى برسالة ، يطلب فيها أن يراني أثناء وجودك . »

وتناول رسالة موضوعة على المنضدة . ولم يكن « كيو » قد لحظ يديه الشبيهتين بأيدي الكهنة ، وسأل كيو نفسه : « لماذا لم يظهر هذه الرسالة على التو ؟ »

ــ « .. مسألة خطيرة ( وكان فولوجين يقرأ الرسالة ) . انهم يقولون جميعا : انها مسألة خطيرة .. »

ــ « أهو موجود هنا ؟ »

ــ « أما كان مقدرا أن يأتي ؟ انهم جميعا سواء . فهم يغيرون رأيهم دائما تقريبا . انه هنا منذ حوالى ساعتين أو ثلاث : لابد أن زورقك قد أوقف كثيرا . »

واتصل بالتلفون لكى يأتى تشن . ولم يكن يحب الحديث مع الارهابيين الذين يعتقد أنهم ضيقو الأفق ، مغرورون ، محرومون من الحس السياسى .

قال : « كانت الأمور أسوأ من ذلك فى لننجراد ، حين كان يودينتش على أبواب المدينة ، ومع ذلك فقد اجتزنا المأزق فى نهاية الأمر .. »

ودخل تشن ، وكان يرتدى صدارا صوفيا هو أيضا ، ومر أمام كيو ، ثم جلس قبالة فولجين . وكانت جلبة المطبعة هى وحدها التى تملأ السكون وفى النافذة الكبيرة المتعامدة على المكتب ، ، كان الليـل الذى اكتمل الآن يفصل بين وجهى الرجلين . أما « تشن » الذى أسند مرفقيه على المكتب ، ووضع ذقنه بين كفيه ، فقد جلس ثابتا ، متوترا – بلا حراك . وقال كيو لنفسه وهو يتأمله : « فى أقصى التوتر الذى يرتسم على وجه انسان مايجعله يبدو لا انسانيا .. أهذا لأننا نشعر فى يسر باتصالنا عن طريق مواطن ضعفنا ؟ .. » وما أن انقضت دهشته ، حتى رأى أنه من المحتم أن يكون تشن ها هنا ، وأن يأتى ليؤكد بنفسه ( اذ لم يكن يظن أنه جاء للمناقشة ) القرار الذى اتخذه . وفى الجانب الآخر من الليل المزدحم بالنجوم ، كان فولوجين منتصبا ، وقد تهدلت خصلات شعره على وجهه ، وشبك يديه على صدره ، منتظرا هو الآخر .

وسأله تشن وهو يشير برأسه الى كيو : « هل أنبأك ؟ »

فأجاب فولوجين : « أنت تعرف رأى « الدولية » فى الأعمال الارهابية . ولا أريد أن ألقى عليك خطبة فى هذه المسألة ؟ »

– « الحالة التى نحن بصددها حالة خاصة .. ذلك أن تشانج – كاى – شيك هو « وحده » المحبوب ، القادر على توحيد البورچوازية ضدنا . فهل تعارض فى هذا الاغتيال .. أجب بنعم أو لا ؟ »

وكان طيلة حديثه ساكنا لا يتحرك ، مسندا مرفقيه الى المكتب ، وذقنه بين راحتيه . وكان كيو يعلم أن المناقشة غير ذات جدوى بالنسبة لتشن ، على الرغم من مجيئه .. فالتدمير هو وحده الذى يجعله على وفاق مع نفسه .

– « ليس » للدولية « أن تقر هذا المشروع » . وكان فولوجين يتحدث

بلهجة من يلقى البديهيات : « ومع ذلك ، اذا أخـذنا بوجهة نظرك نفسـها ( ولم يتحرك تشن قط ) فهل أحسنت اختيار اللحظة التى تقوم فيها بهـذا العمل ؟ »

ــ « وهل تفضل الانتظار حتى يغتال تشانج رجالنا ؟ »

ــ « انه لا يصدر الا قرارات ولا شيء أكثر من ذلك · ولا تنسى أن ابنه فى موسكو · وأخيرا فان بعض ضباط « جالن » الروس لم يستطيعوا مغادرة أركان حربه ، وسيتعرضون للتعذيب اذا قتـل · ولن يوافق « جالن » أو هيئة أركان الحرب الحمراء على ··· »

وقال كيو لنفسه : « اذن فقد نوقشت المسألة حتى هنا · » وكان ثمة شيء قليل الاقناع يزعجه فى هذه المناقشة : فقد وجد فولوجين أشد اصرارا ــ بشكل غريب ــ حين يأمر باعادة الأسلحة منه حين يتحـدث عن اغتيال تشانج ــ كاى ــ شيك ·

قال تشن : « اذا قاموا بتعذيب الضـباط الروس ، فهـذا ما لابد أن يحدث · وأنا أيضا ، سأتعرض للتعذيب ·· وهذا شيء لا أهمية له · لأن ملايين الصينين يساوون خمسة عشر ضابطا روسيا ·· فليكن ، وسيتخلى تشانج عن ابنه · »

ــ « وماذا تعرف عن هذا الأمر ؟ »

ــ « وأنت ؟ وأنت لن تجرؤ بلا شك على اغتياله · »

فقال كيو : « ليس من شك أنه يحب ابنه أقل من حبه لنفسه · واذا لم يحاول أن يسحقنا فسيكون من الهالكين · واذا لم يكبح جماح الفلاحين ، فسوف يتخلى عنه ضباطه أنفسهم · ولهذا أخشى اذن أن يتخلى عن ابنه ، بعد أن يحصل على عدة وعود من القناصل الأوروبيين ، أو على بعض الاجراءات المضحكة الأخرى · والبورجوازية الصـغيرة كلها التى تحاول يا فولوجين أن تضمها الى صفوفنا ستتبعه فى اليوم التالى لقيامه بتجريدنا من السلاح ·· انها ستكون فى جانب القوة ·· انى أعرفها · »

ــ « ليس حتما ·· ثم أن هناك مدنا أخرى غير شنغهاى · »

— « أنت تقول انكم تموتون من الجوع هنا • فاذا سقطت شنغهاى ، فمن الذى سيتولى تموينكم ؟ « فن — يو — شيانج » يعزلكم عن منغوليا ، كما أنه سيخونكم اذا سحقنا • ومن ثم لن يصلكم شيء عن طريق نهر يانجتسى ، أو من الروسيا • أتظن أن الفلاحين الذين تعدهم بتنفيذ برنامج الكومنتانج ( تخفيض ٢٥٪ من ايجارات الأطيان •• دون التواء •• أجل دون التواء ! ) على استعداد للموت جوعا فى سبيل اطعام الجيش الأحمر ؟ انكم لتضعون أنفسكم بين أيدى الكومنتانج أكثر مما أنتم فعلاً • ان محاولة الدخول الآن فى صراع ضد تشانج ، بشعارات ثورية حقيقية ، وبالاعتماد على الفلاحين وعلى البروليتاريا فى شنغهاى •• مخاطرة ، ولكنها ليست شيئا محالا • ان الفرقة الأولى تكاد أن تكون شيوعية كلها ابتداء من قائدها حتى آخر رجل فيها ، وستحارب الى جانبنا • وأنت تقول اننا قد احتفظنا بنصف الأسلحة•• واذا لم نحاول هذه المحاولة ، فهذا معناه أن ننتظر ذبحنا بكل هدوء • »

— « الكومنتانج موجود •• ولسنا نحن الذين صنعناه •• انه قائم ، بل أقوى منا ، مؤقتا • ونستطيع أن نغزوه من القاعدة اذا أدخلنا فيه جميع العناصر الشيوعية التى نملكها • فالغالبية العظمى من أعضائه متطرفون •»

— « وأنت تعرف أيضا كما أعرف أن العدد فى ديمقراطية ما لا يساوى شيئا ضد الجهاز القيادى • »

— سنثبت انه من الممكن استخدام الكومنتانج ، باستخدامه فعلا • لا بمجرد المناقشة • ونحن لم نكف عن استخدامه منذ عامين •• كل شهر ، وكل يوم • »

— « كلما قبلتم أهدافه ، ولكنكم لم تستخدموه ولو مرة واحدة حين كانت المسألة تتعلق بقبوله لأهدافكم • لقد سقتموه الى قبول الهدايا التى كان يتحرق شوقا اليها : الضباط ، والمتطوعين ، والمال ، والدعاية • أما وجود السوفيت فى الجيش ، والنقابات الزراعية ، فهذه مسألة أخرى • ».

— « وماذا عن استبعاد العناصر المعادية للشيوعية ؟ »

— « لم يكن تشانج — كاى — شيك يملك شنغهاى حينذاك • »

— « كنا نستطيع — قبل شهر مضى — أن نحصل من اللجنة المركزية للكومنتانج على قرار يجعله خارجا على القانون • »

— « بعد أن يكون قد سحقنا · وهل يغضب هؤلاء القادة فى اللجنة المركزية لقتل المناضلين الشيوعيين ؟ هذا مزيد من الكسب لهم ! ألا تعتقد حقا أن سيطرة فكرة الحتميات الاقتصادية تمنع الحزب الشيوعى الصينى — وربما موسكو أيضا — من رؤية الضرورة الأولية الواقعة تحت أنوفنا ؟ »

— « هذه انتهازية · »

— « ربما كانت كذلك · واذا تمشينا مع منطق تفكيرك ، لكان من الواجب على لينين ألا يتخذ من تقسيم الأراضى شعارا له ( فقد كان هذا الشعار يمثل حينذاك البرنامج الاشتراكى الثورى أكثر من تمثيله لبرنامج البلاشفة ، وكان تقسيم الأراضى يعنى تكوين الملكيات الصغيرة ، وعلى ذلك ، كان ينبغى عليه ، ألا يأمر بالتقسيم ، بل بانشاء النظام الجماعى المباشر ، أى تكوين المزارع الجماعية (sovkhozes) وحين نجح ، استطعتم أن تدركوا أنها كانت مسألة تكنيك ، وكذلك ، ما نحتاج اليه هو التكنيك ! وانكم لبسبيل فقدان السيطرة على الجماهير ··· »

— « وهل تتخيل أن لينين قد حافظ عليها من فبراير الى أكتوبر ! »

— « كان يفقدها فى لحظات معينة ··· ولكنه كان دائما يسير فى اتجاهها · أما أنتم ، وشعاراتكم ، فانها ضد التيار · ان خيوط سياستكم لا تتلاحم ، وانما يسير كل منها دائما فى اتجاه متباعد عن الخيوط الاخرى ·· ولكى تؤثروا على الجماهير — كما تزعمون — لابد أولا من الحصول على السلطة · وهذه ليست حالتكم · »

قال تشن : « المسألة لا تحتاج الى هذا كله · » ونهض ·

واستطرد كيو قائلا : « لن تستطيعوا كبح جماح حركة الفلاحين · ونحن الشيوعيين ، نعطى للجماهير — حاليا — تعليمات لا يمكن أن ينظروا اليها الا باعتبارها خيانات · وهل تعتقد أن الجماهير ستفهم شعاراتكم الداعية الى الانتظار ؟ »

— « وحتى لو كنت حمالا فى ميناء شنغهاى ، فانى أعتقد أن طاعة الحزب هى الموقف المنطقى الوحيد الذى يمكن أن يتخذه — فى نهاية الأمر — المكافح الشيوعى ، وأنه لابد من تسليم الأسلحة جميعا · »

ونهض تشن قائلا : « ان المرء لا يقتل اطاعة للأوامر ، كما أنه لا يقتل

صدوعا بالأمر ... اللهم سوى الجبناء • »

وهز فولوجين كتفيه •

ـ « ومع ذلك ، ينبغى ألا ننظر الى الاغتيال على أنه الطريق الرئيسى المؤدى الى الحقيقة السياسية • »

وانصرف تشن •

قال كيو مخاطبا العمال : « كلا •• لم نكن نأكل فى ذلك العهد ، وأنا أول اجتماع لها تقسيم الأراضى فورا ، والغاء القروض • »

فأجاب فولوجين وهو يبتسم لأول مرة : « ولن توافق اللجنة على هذين الاقتراحين • »

وكان تشن ينتظر فى الخارج ، وهو كتلة من الظل على الرصيف ، ولحق به كيو بعد أن حصل على عنوان صديقه بوسوز الذى كان مكلفا بادارة الميناء •

وقال تشن : « انصت ... »

كانت رجفات آلة المطبعة المنتظمة المضبوطة كأنها محرك الباخرة تنفذ فيهما من أخمص أقدامها الى قمة رأسيهما ، منتقلة اليهما من خلال الأرض •• وفى المدينة النائمة ، سهرت المفوضية بنوافذها المضاءة جميعا ، تجتازها من حين الى آخر جذوع سود لبعض الأشخاص • وسار الاثنان ، وأمامهما ظلاهما المتشابهان : نفس القامة ، ونفس صورة ياقة الصدار التى تحيط بالرقبة • وكانت الأكواخ المبنية من القش التى يلمحها المرء فى أفق الشوارع ، بأطيافها التى توحى بالمطهر ، تتبدد فى أعماق الليل الهادىء الذى يكاد أن يكون مهيبا ، وفى رائحة السمك والدهون المحترقة • ولن يستطع كيو أن يتخلص من اهتزاز هذه الآلات الذى ينتقل الى عضلاته خلال الأرض وكأن هذه الآلات التى تصنع الحقيقة قد انضمت فى نفسه الى ترددات فولوجين وتأكيداته • ولـم يكن « كيو » قد انقطع ـ أثناء تجـواله فى النهر ـ عن الشعور بتهافت معلوماته ، وبصعوبة تأسيس فعله ، اذا لم يستمر فى اطاعة تعليمات « الدولية » طاعة بسيطة عمياء • غير أن « الدولية » كانت مخطئة ،

اذ لـم يعد كسب الوقت ممكنا ، وقد بلغت الدعاية الشـيوعية الجماهـير كالطوفان ، لأنها كانت دعايتهم • وأيا كان الحذر الذى تصطنعه موسكو فان هذا الطوفان لن يتوقف ، وتشانج يعلم ذلك ، ولابد أن يسحق الشيوعيين من الآن • هنا كان اليقين الوحيد • وربما كان من الممكن أن تسلك الثورة مسلكا آخر ، غير أن الأوان قد فات ، وسيستولى الفلاحون الشيوعيون على الأراضى ، وسيطالب العمـال الشيوعيون بنظام آخر للعمل ، ولن يقاتل الجنود الشيوعيون الا اذا أدركوا لماذا يقاتلون سواء أرضيت موسكو أم لم ترض • وتستطيع موسكو وعواصم الغرب المعادية أن تنظم هناك فى الظلام أهواءها المتعارضة فى محاولة لأن تجعل منها عالمـا • أما الثـورة فهى حبلى فى شهرها الأخير ، ولابد من أن تضع أو تموت • وأحس كيو فى وقت واحد ، بقرب تشن منه فهو رفيق الليل ، وبشعور عظيـم من التبعية يتغلغل فى نفسه ، وقلق من أنه ليس سوى انسان ، ليس سوى ذاته • وتذكر أولئك المسلمين الصينيين الذين شاهدهم فى ليال شبيهة بهذه الليلة ، ساجدين فى سهوب الاستبس التى تفوح منها رائحة الخزامى المحترقة وهم يرددون تلك الأناشيد التى تمزق منذ آلاف السنين ، الانسان المعذب الذى يعلم أنه سيموت • ماذا أتى به الى هانكيو ؟ لكى يطلع « الدولية » على الموقف فى شنغهاى • والدولية قد عقدت عزمها كما عقد هو عزمه • وكان ما استمع اليه ــ فضلا عن مناقشات فولوجين ــ هو صمت المصانع ، ولهفة المدينة التى تموت فى زينة من المجد الثورى ، ولكنها تموت رغم ذلك • وكان من الممكن أن يوصى بهذه الجثة للموجة الثورية القادمة ، بدلا من تركها تتحلل فى ألوان من المكر والخداع • ولم يكن من شك فى أنهم هالكون جميعا ، غير أن الشيء الجوهرى هو ألا يكون هلاكهم عبثا • وقد كان عـلى يقين من أن « تشن » يرتبط به هو أيضـا فى هذه اللحظة برابطة الصـداقة التى تربط بين سجينين •

قال تشن : « عجبا للمرء لا يعرف ! اذا كان الأمر يتعلق باغتيال تشانج ــ كاى ــ شيك ، فانى أعرف • وأعتقد ، أن الأمر على هذا النحو وبالنسبة لهذا الفولجين ، وبدلا من أن تتعلق المسألة بالاغتيال ، فانها فى حالته تتعلق بالطاعة • وحين يحيا الناس كما نحيا نحن ، فلابد لهـم من اليقين • انما تنفيذ الأوامر بالنسبة اليه ، هو على ما أعتقد بكل يقين ــ كالاغتيال بالنسبة

لى • يجب أن يكون ثمة شيء يقينى •• يجب • »

ولزم الصمت ، ولكنه لم يلبث أن استطرد قائلا :

ـ « أتحلم كثيرا ؟ »

ـ « كلا •• أو على الأقل لا أتذكر أحلامى كثيرا • »

ـ « اننى أحلم كل ليلة تقريبا •• وهناك أيضا أحلام اليقظة • وحين أترك لنفسى العنان ، ألمح فى بعض الأحيان ظل قط على الأرض : وانه لأفظع من أى شيء حقيقى ••• ولكن ، لا يوجد شيء أسوأ من الأحلام • »

ـ « أسوأ من أى شيء حقيقى ؟ •• »

ـ « لست من أولئك الأشخاص الذين يخزهم تأنيب الضمير • وليس الشيء العسير فى جريمة القتل ، هو عملية القتل نفسها ، وانما هو عدم السقوط ، وأن يكون المرء أقوى ••• مما يدور فى نفسه فى تلك اللحظة • »

هل تخفى كلماته شيئا من المرارة ؟ ما كانت تنم عن ذلك نبرة صوته ، كما أن كيو لم يكن يتبين ملامحه • وهناك فى وحشة الطريق ، تبددت ضجة مكتومة منبعثة من سيارة بعيدة ، مع الريح التى تركت وراءها أريج الكروم لتختلط بروائح الليل المشبعة بالكافور •

ـ « ••• وليت الأمر مقصور على ذلك ••• كلا • فهناك ما هو أسوأ•• الحيوانات • »

وطفق تشن يكرر هذه العبارة : « حيوانات •• من جنس الأخطبوط بوجه خاص • وانى لأتذكرها دائما •

وأحس كيو ـ على الرغم من رحابة الليل ـ أنه قريب منهما فى حجرة مغلقة •

ـ « وهل بدأ ذلك منذ زمن بعيد ؟ »

ـ « بعيد جدا •• أبعد مما أتذكر •• ولكنه أصبح أقل الماما بى فى الفترة الأخيرة • ولم أعد أتذكر الا •• هذه الأشياء •• اننى أمقت التذكر بوجه عام • وهذا ما لا يحدث لى ، فان حياتى ليست فى الماضى ، انها تمتد أمامى • »

وساد الصمت بينهما .

ـ « ... والشيء الوحيد الذى أخاف منه ... أخاف منه ، هو أن أنام .. وهأنذا أنام كل يوم . »

ودقت الساعة العاشرة . وهنـاك فى أعماق الليـل ، كان ثمة أناس يتنافشون ، نقاشا صينيا فى عبارات قصيرة أشبه بنباح الكلاب .

ـ « ... أو أن أصبح مجنونا : تلك الحيوانات الأخطبوطية ، بالليـل والنهار .. حياة بأكملها . والمجـانين لا ينتحرون قط ، عـلى ما يظهر .. مطلقا .. »

ـ « وهل يغير القتل من أحلامك ؟ »

ـ « لم أعد أعرف ... سأخبرك فيما بعد ، يا تشانج . »

وكان « كيو » قد وطن نفسه على أن يحيا حياته الخاصة ، وأن يعيش بين أناس يعلمون أن حياتهم مهددة فى كل يوم : ولهذا لم تكن الشـجاعة تدهشه . غير أن هذه كانت المرة الأولى التى يلتقي فيها باغراء الموت ، مجسما فى هذا الصديق الذى لا يكاد يراه ، والذى يتحدث بصـوت شارد ، وكأن عباراته مستوحاة من قوة الليل نفسها التى أوحت اليه بالقلق ، ومن ذلك الطابع الحميم الطاغى الذى يتسم به القلق ، والصمت ، والتعب .. بيد أن شيئا من التغير قد طرأ الآن على صوته .

ـ « هل تفكر فى هذا الأمر .. بقلق ؟ »

ـ « كلا . ولكن بـ ... »

وتردد ، ثم قال :

ـ « اننى أبحث عن كلمة أقوى من الفرح ، فلا أجد ، حتى فى اللغـة الصينية . انه شيء أشبه بالتهدئة التامة .. نوع من .. كيف أعبر لك عن ذلك ؟ .. من .. شيء لا أعرفه . لا يوجد سوى شيء واحد أعمق من ذلك .. انه يأخذ المرء بعيدا عن نفسه ، ليجعله قريبا من ... هل تعرف الأفيون ؟ »

ـ « لا أكاد أعرفه . »

ـ « من الصعب اذن أن أشرح لك ما يدور فى نفسى .. انه أقرب الى

مما تسمونه ... النشوة . أجل ... ولكنها نشوة كثيفة .. عميقة .. تخلو من الخفة .. نشوة تتجه الى .. الى أسفل . »

— « وهل هناك فكرة تعطيك هذا الشعور ؟ »

— « أجل .. فكرة موتى الخاص . »

انه ما برح يتحدث بهذا الصوت الشارد . وقال كيو لنفسه : « سينتهى به الأمر الى الانتحار . » وكان قد استمع الى والده بما فيه الكفاية ليعلم أن من يبحث عن المطلق بهذا الحماس ، لن يجده الا فى الاحساس . تعطشى الى المطلق ، وتعطشى الى الخلود ، وبالتالى خوف من الموت : وقد كان ينبغى أن يكون تشن جبانا ، ولكنه يشعر — ككل متصوف — أن مطلقه لا يمكن بلوغه الا فى « اللحظة » . ومن هنا كان احتقاره — بلا شك — لكل ما لا يؤدى به الى اللحظة التى تربطه بنفسه فى حالة من الامتلاك الذى يبعث الدوار . ومن هذه الصورة الانسانية التى لا يكاد يتبينها كيو ، تنبع قوة عمياء تسيطر عليها ، انها المادة — غير ذات الشكل — التى تصنع منها الحتمية . وقد كان فى هذا الرفيق الصامت الذى يجتر رؤاه المألوفة المفزعة شيء من الجنون ، ولكن كان فيه أيضا شيء مقدس — ذلك الشيء المقدس الذى يوجد دائما فى حضرة اللاانسانى . لعله لا يريد اغتيال تشانج الا ليقتل نفسه . وأحس « كيو » وهو يسعى فى الظلام الى رؤية هذا الوجه الحاد ذى الشفتين الطيبتين — أحس فى نفسه باختلاجة ذلك القلق البدائى الذى يلقى بـ « تشن » الى حيوانات النوم الأخطبوطية والى الموت فى آن واحد .

وقال كيو متمهلا : « يعتقد أبى أن الانسان فى قرارة نفسه عبارة عن قلق ، وعن وعى بمصيره الحتمى الخاص ، ومن هذا تتولد المخاوف جميعا ، حتى الخوف من الموت .. غير أن الأفيون يخلص الانسان من هذه المخاوف ، وهذا هو معناه . »

— « الرعب كان دائما فى الذات . ولا يحتاج الأمر الى أكثر من التفتيش بعمق كاف : ولحسن الحظ ، يستطيع الانسان أن يعمل : واذا كانت موسكو تؤيدنى ، فالأمر يستوى لدى ، واذا كانت لا تؤيدنى ، فان أبسط شيء هو أن أتجاهل عدم التأييد هذا . سأرحل الآن ، وأنت ، هل تريد البقاء ؟ »

ـ « أريد أن أرى بوسـوز ، قبل كل شيء . وأما انت فلن تسـتطيع الرحيل : لأنك لم تحصل على تأشيرة الخروج . »

ـ « انى راحل ، بكل تأكيد . »

ـ « كيف ؟ »

ـ « لا أعرف .. ولكننى سـأرحل .. انى على يقين من ذلك . كان « ينبغى » على أن أقتل « تنج ـ ين ـ تا » ، والآن ينبغى أن أرحل.. وسأرحل بكل تأكيد . »

والواقع أن كيو كان يشعر بأن ارادة « تشن » تلعب دورا ضئيلا جدا فى مجرى الحوادث . ولو أن القدر كان يحيا فى مكان ما ، لكان هناك الى جواره فى تلك الليلة .

ـ « هل تعتقد أنه من المهم أن تكون « أنت » الذى يدبر اغتيال تشانج؟ ».

ـ « كلا .. ومع ذلك ، فأنا لا أريد أن يرتكب غيرى هذا العمل . »

ـ « ألأنك لا تثق بأحد ؟ »

ـ « لأننى لا أحب أن يقبل الآخرون النساء اللواتى أحبهن . »

وبعثت هذه العبارة فى نفس « كيو » كل العذاب الذى نسيه : وأحس فجأة أنه منفصل عن تشن . وكانا قد بلغا النهر . وقطع تشن حبل أحـد القوارب الراسية وابتعد عن الشاطىء . وسرعان ما غاب عن بصر « كيو » الذى لم يعد يسمع سوى صوت ارتطام المجاديف المنتظم يدفع بالمـاء دفعا خفيفا الى ضفة النهر . لقد عرف كثيرا من الارهابيين ، وكانوا لا يطرحون أية أسئلة ، وانما كانوا يؤلفون جزءا من جماعة : حشرات قاتلة ، تسـتمد العيش من ارتباطها الوثيق بعش زنابير ضيق . أما تشن .. واتجه كيو صوب ادارة الميناء ، مواصلا التفكير دون أن يغير من سرعة خطاه . « سيوقف قاربه منذ البداية ... »

ووصل الى أبنية ضـخمة يحرسها الجيش ، وتكاد تكون خاليـة اذا قيست بمبانى « الدولية » . وفى الممرات ، كان الجنود نائمين أو يلعبون الورق . ووجد صـديقه دون عناء . وكانت له رأس مستديرة كالتفاحة ،

ووجه تماؤه بثور حمر ، وشارب رمادى شبيه بشوارب الغاليين ، ويرتدى حلة كاكية اللون ــ وكان « بوسوز » عاملا قديما ونقابيا فوضويا فى مدينة « لاشوديفون » ثم رحل الى روسيا عقب الحرب ، وأصبح من البلاشفة . وكان كيو قد تعرف عليه فى بكين ، وأولاه ثقته • وتصافحا فى هدوء : ففى هانكيو ، كان أى شبح من الأموات يعد زائرا طبيعيا •

قال أحد الجنود : « لقد وصل عمال التفريغ هناك • »

ـ « أرسلهم • »

وخرج الجندى ، والتفت « بوسوز » الى كيو :

ـ « أتلاحظ يا عزيزى أننى لا أفعل شيئا ؟ كنا نتوقع أن تعبر الميناء ثلاثمائة سفينة : وهنا أقل من عشر ••• »

كان الميناء هامدا تحت النوافذ المفتوحة : لا صفارات ، ولا شىء سوى ارتطام الماء المستمر بالضفاف والركائز • وعبر وهج عظيم شاحب اللون جدران الحجرة : انها كشافات زوارق المدفعية البعيدة تمسح هذا الشطر من النهر • وأعقب ذلك جلبة أحدثها وقع خطوات •

وسحب بوسوز مسدسه من غمده ، ووضعه فوق مكتبه ، وقال موجها حديثه الى كيو : « لقد هاجموا الحرس الأحمر بقضبان من الحديد • »

ـ « الحرس الأحمر مسلح • »

ـ « لم يكن الخطر يا عزيزى فى التغلب على الحراس ، وانما كان الخطر فى أن ينضم الحراس اليهم • »

وعاد ضوء المنارة ملقيا بظلالهما الضخمة على الحائط الخلفى الأبيض ، ثم غاب فى حنايا الليل فى اللحظة التى دخل فيها عمال التفريغ : أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة • وكانوا يرتدون حلل العمل الزرقاء ، بينما تعرى أحدهم حتى خصره • وفى أيديهم قيود حديدية • وجوه مختلفة ، تكاد لاتظهر فى الظلام ، وان ارتسم عليها جميعا حقد عنيف ، يحرسهم اثنان من الصينيين، فى جنب كل منهما غدارة من طراز ناجان • ووقف عمال التفريغ ملتصقين

كأنهم كتلة واحدة . أجل ، كان الحقد ماثلا فى عيونهم ، والخوف أيضا .

قال « بوسوز » باللغة الصينية : « انما الحراس الحمر من فئة العمال.»

صمت .

ـ « واذا كانوا قد تحولوا الى حراس ، فذلك من أجل الثورة ، لا من أجلهم هم . »

وقال أحد العمال : « ولكى يأكلوا أيضا . »

ـ « من العدل أن تذهب الأطعمة الى أولئك الذين يحاربون . ماذا تريدنا أن نفعل بها ؟ أن نراهن بها فى لعب الورق ؟ »

ـ « اعطاؤها للجميع . »

ـ « لا يوجد منها الا ما يكفى البعض فحسب ـ ولقد عزمت الحكومة على أن تولى البروليتاريا أعظم رعاية ممكنة ، حتى ولو أخطأوا . ولئن قتل الحرس الأحمر فى كل مكان ، فسوف يستولى قواد الجيش والأجانب على السلطة كسابق عهدهم ، وهذا ما تعلمونه جيدا .. فماذا بكم اذن ؟ هل هذا هو ما تريدونه ؟ »

ـ « كنا نأكل ... فى ذلك العهد . »

قال كيو مخاطبا العمال : « كلا .. لم نكن نأكل فى ذلك العهد ، وأنا أعرف ذلك ، لأننى كنت من عمال الشحن . واذا كان لابد من الموت جوعا ، فليكن ذلك فى سبيل أن نصبح آدميين . »

واتسع بياض تلك العيون التى انعكس فيها الضوء الخافت ـ اتساعا غير ملحوظ ، وكانوا يودون أن يجتلوا ذلك الشخص الذى يشبه اليابانيين فى مظهره بصداره الصوفى ، والذى يتحدث بلهجة أهل الشمال ، ومع ذلك يدعى أنه من العمال الكادحين .

أجاب أحدهم بصوت واهن : « مجرد وعود . »

وقال آخر : « أجل ... ولنا الحق على الأخص فى أن نضرب عن العمل، وأن نموت جوعا . ان أخى جندى فى الجيش فلماذا طردوا من فرقته أولئك

الذين طلبوا تشكيل نقابات للجنود ؟ »

وارتفعت لهجة الصوت ٠

وهنا تساءل برسوز : « وهل تعتقدون أن الثورة الروسية تمت فى يوم واحد ؟ »

ـ « لقد أنجز الروس ما أرادوه ٠ »

لم تكن ثمة جدوى من المناقشة : وأصبح الأمر الواجب هو تعرف مدى خطورة هذا التمرد ٠

ـ « ان مهاجمة الحرس الأحمر تعد عملا معاديا للثورة ، جزاؤه الموت ٠ وأنتم تعلمون ذلك ٠ »

وانقضت برهة ٠

ـ « واذا أطلقنا سراحكم ، فماذا أنتم صانعون ؟ »

وتبادلوا النظرات ٠ لم يكن الظلام يسمح برؤية التعبير المرتسم على وجوههم ٠ وعلى الرغم من الغدارات ، والقيود الحديدية ، فقد أحس « كيو » بأن جو المساومة الصينى الذى التقى به كثيرا أثناء الثورة ـ أحس بأن هذا الجو آخذ فى التهيؤ ٠

فسأل أحد الأسرى : « هل تمنحوننا عملا ؟ »

ـ « اذا وجد ٠ »

ـ « اذن ، فى فترة الانتظار ، ان حال الحرس الأحمر بيننا وبين الطعام ، فسنهاجم الحرس الأحمر ٠ اننى لم أكن قد أكلت منذ ثلاثة أيام ٠٠ شيئا على الاطلاق ٠ »

وتساءل أحد أولئك الذين لم يتكلموا حتى الآن : « أمن الحق أن المساجين يأكلون فى السجن ؟ »

ـ « ستری ذلك بنفسك ٠ »

وضغط « بوسوز » على الجرس دون أن يضيف شيئا ، واصطحب الخفر السجناء .

واستأنف بوسوز حديثه قائلا باللغة الفرنسية هذه المرة : « هذا هو مصـــدر المتاعب : لقد بدأوا يعتقدون أننا نطعمهم فى السجن كما نطعم الديكة . »

ــ « لماذا لم تحاول بذل المزيد من الجهد فى اقناعهم ، ما دمت قد طلبت احضارهم ؟ »

فهز « بوسوز » كتفيه هزة شخص مرهق وقال :

ــ « لقد طلبت احضارهم لأننى آمل دائما ــ يا عزيزى ــ فى أن يقولوا لى شيئا آخر . ومع ذلك ، فهناك الآخرون ، أولئك الذين يعملون خمس عشرة ساعة وست عشرة ساعة يوميا دون أن يقدموا مطلبا واحدا.. وسيواصلون هذا العمل حتى تصبح مطمئنين .. وليحدث بعد ذلك ما يحدث . »

وأدهش كيو هذا التعبير السويسرى ، وابتسم كيو ، فلمعت أسنانه فى الضوء الشاحب تحت حاجز شاربه المشعث ، كما لمعت منذ لحظة عيون عمال التفريغ .

ــ « انك محظوظ فى احتفاظك بمثل هذه الأسنان رغم الحياة التى يحياها الناس فى المعركة . »

ــ « كلا .. يا عزيزى .. مطلقا ، فهذا « طقم » وضعته فى تشانج ــ تشا . ويبدو أن أطباء الأسنان لم يتأثروا أقل تأثر بالثورة . وأنت ؟ هل أنت مندوب ؟ وماذا تصنع هنا بحق الجحيم ؟ »

وشرح له كيو الأمر ، دون أن يشير الى تشن . وأصغى اليه «بوسوز» ، وقلقه يشتد شيئا فشيئا .

ــ « كل هذا ممكن ياعزيزى ، كما أنه بالاضافة الى ذلك خسارة كبيرة . لقد اشتغلت فى صـــناعة الساعات خمسة عشر عاما : وأعرف معنى اعتماد بعض التروس على بعضها الآخر . فاذا لم يؤمن المرء « بالدولية » ، فأولى به ألا يكون عضوا فى الحزب . »

ـ « ان نصف أعضاء الدولية يحبذون تكوين مجالس السوفيت هنا ٠ »

ـ « هناك سياسة عامة توجهنا ، ولابد من اتباعها ٠ »

ـ « وتسليم الأسلحة ٠ ان سياسة تؤدى بنا الى اطلاق النار على البروليتاريا هى قطعا سياسة فاسدة ٠ وحين يستولى الفلاحون على الأراضى، فسوف يدبر القواد الأمر بحيث يشركون عددا من القوات الشيوعية فى اخماد حركتهم ، أجب بكلا أو نعم : هل تقبل اطلاق النار على الفلاحين ؟ »

ـ « يا عزيزى ٠٠ نحن لسنا كاملين : سأطلق النار فى الهواء ، وهذا ما لابد سيفعله بقية الرفاق ٠ وانى لأوثر ألا يحدث ذلك ، غير أنه ليس الشىء الرئيسى ٠ »

ـ « أفهم ، أيها العجوز ، ذلك أشبه برؤيتى لشخص يصوب اليك مسدسه فى الوقت الذى نتجادل فيه عن خطورة رصاص المسدس ٠٠ ان تشانج ـ كاى ـ شيك ـ لا يستطيع سوى إبادتنا ٠ وسيكون الأمر على هذا النحو فيما بعد بالنسبة للقواد الموجودين هنا ٠ أعنى « حلفاءنا » وسيكونون منطقيين ٠ اننا س أنفسنا للمجزرة ، دون أن نحافظ حتى على كرامة الحزب التى نصحبها كل يوم الى ماخور ، مع حزمة من القواد ، وكأن هذا هو مكانها ٠٠٠ »

ـ « لئن تصرف كل حسب هواه ٠٠ لانهار كل شىء ٠ ولو نجحت « الدولية » فستهتف قائلة : مرحى ! ولن نكون حينذاك مخطئين ٠ ولكن اذا وضعنا العراقيل فى طريقها ، فسوف تفشل بكل تأكيد ، والمهم هو أن تنجح ٠٠ أما فيما يتعلق باصدار الأوامر الى الشيوعيين ليطلقوا النار على الفلاحين ، فانى أعرف أن هذا ما يقال ، ولكن هل أنت على يقين من أنه قد حدث ؟ انك لم تشاهد ذلك بنفسك ، وعلى الرغم من كل شىء ـ وأنا أعلم أنك لا تفعل ذلك متعمدا ٠٠ ومع ذلك ٠٠ فان هذا لا يتلاءم مع نظريتك ، أن تعتقد أن هذا قد حدث ٠٠ »

ـ « يكفى أن يقال فيما بيننا ٠ فليس هذا وقت القيام بتحقيقات تستغرق ستة أشهر ٠ »

وفيم الجدل ؟ ان كيو لا يريد اقناع بوسوز ، ولكنه يريد اقناع الرفاق فى شنغهاى ، وليس من شك فى أنهم مقتنعون الآن ، كما تأكد عزمه هو

فى شنغهاى ، وليس من شك فى أنهم مقتنعون الآن ، كما تأكد عزمه هو

بزيارة « هانكيو » نفسها ، وبالمشهد الذى رآه منذ وهلة . ولم تكن به غير رغبة واحدة : هى أن يرحل .

ودخل صف ضابط صينى ، وكانت ملامح وجهه كلها ممطوطة ، وجسده منحنيا انحناءة خفيفة الى الأمام ، وكأنه تمثال من العاج من تلك التماثيل التى تتخذ انحناءات المادة المنحوتة منها .

ـ « لقد ألقوا القبض على رجل كان يبحر خلسة . »

وكف كيو عن التنفس .

ـ « وهو يدعى أنه تلقى منك تصريحا بمغادرة هانكيو .. انه تاجر اسمه دونج تيون . »

والتقط كيو أنفاسه مرة أخرى .

قال بوسوز : « لم أعط أى تصريح .. فهذا ليس من شأنى . أرسله الى البوليس . »

وكان الأثرياء الذين يلقى القبض عليهم يدعون أنهم أقارب بعض الموظفين ويسعون أحيانا الى مقابلة الموظف المذكور على انفراد ، ليعرضوا عليه مبلغا من المال . وهذا التصرف أحكم من أن يعدموا دون أن يحاولوا شيئا .

ـ « انتظر ! »

وسحب بوسوز قائمة من مذكرته ، وتمتم ببعض الأسماء .

ـ « حسن .. ان اسمه هناك .. فى القائمة .. فليتصرف البوليس معه ! »

وخرج صف الضابط ، وبقيت القائمة ـ وهى ورقة مقطوعة من كراسة ـ على « النشافة » وكان « كيو » يفكر دائما فى « تشن » .

قال بوسوز : « انها قائمة الأشخاص المطلوبين . » وكان بوسوز قد لمح نظرة كيو المثبتة على الورقة . « والأسماء الأخيرة قد أضيفت بالتلفون قبل رحيل السفن ـ وحين ترحل البواخر ... »

ـ « هل أستطيع أن ألقى عليها نظرة ؟ »

وناوله بوسوز القائمة : كانت تضم أربعة عشر اسما . ولم يكن تشن من بينها . وكان من المستحيل ألا يفهم فولوجين أن « تشن » سيحاول مغادرة هانكيو بأسرع ما يمكن . ومع ذلك ، فان تسجيل رحيله باعتباره شيئا ممكنا لا يزيد عن كونه مجرد احتياط بسيط . وقال كيو لنفسه : « ان الدولية لاتريد أن تأخذ على عاتقها مسئولية اغتيال تشانج ـ كاى ـ شيك ، ولكنها ربما قبلت دون يأس وقوع هذا الشر .. ألهذا السبب كانت اجابات فولوجين تبدو غير قاطعة ؟ .. »

وأعاد القائمة الى بوسوز .

لقد قال تشن « سأرحل » . وقد كان من اليسير تفسير هذا الرحيل ، غير أن التفسير لم يكن كافيا . ان وصول تشن غير المتوقع ، وتحفظات فولوجين ، والقائمة .. كل هذا يستطيع أن يفهمه كيو ، بيد أن كل حركة من حركات تشن كانت تقربه من جديد الى جريمة القتل ، وكان يبدو أن الأشياء نفسها انما يسوقها قدره . ثمة فراشات تحوم حول المصباح الصغير . « لعل تشن هو الآخر فراشة تفرز ضوءها الخاص بها ، والذى فى شعاعه سوف تحترق .. وربما كان الانسان نفسه .. » ألا نستطيع أن نرى أبدا سوى قدر الآخرين ؟ ألم يكن هو أيضا كالفراشة يتعجل الآن الرحيل الى شنغهاى، ولمساعدة الأقسام بأى ثمن ؟ وعاد الضابط ، فأتاح له ذلك أن يفارق بوسوز .

ووجد طمأنينة الليل مرة أخرى ، لا يقطعها صفير باخرة ، لا شىء سوى خرير الماء . وعلى طول الشاطىء ، وعلى مقربة من مصابيح الشارع التى تطن حولها الحشرات ، رقد العمال كمن أصابهم الطاعون . وهنا وهناك على الأرصفة تناثرت اعلانات صغيرة حمراء مستديرة كأغطية المجارى ، وقد كتبت عليها جميعا هذه الكلمة : « المجاعة » . وأحس بنفس الاحساس الذى ساوره مع تشن منذ لحظة ، بأنه فى هذه الليلة ذاتها ، وفى الصين بأسرها ، وعبر الغرب حتى منتصف أوروبا ، قد بات رجال يترددون مثل تردده ، يمزقهم نفس العذاب بين الخضوع للنظام ، أو تذبيح أهلهم . لقد كان أولئك العمال الذين احتجوا لا يفهمون . وحتى لو أنهم فهموا ، كيف يمكن لهم أن يختاروا

التضحية ، هنا ، في هذه المدينة التي ينتظر الغرب منها قدر أربعمائة مليون من الناس — وربما أسفر فيها قدره أيضا — هذه المدينة النائمة على ضفاف النهر نوما قلقا كنوم رجــل جائع — المدينة الغــارقة فى العجــز والبؤس والحقد ؟

# الجزء الرابع

## ١١ أبريل

### منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر

كان كلابيك بمفرده تقريبا في مشرب فندق « جروسفنور » الصغير ـ بخشبه الجوزى اللامع ، وزجاجاته ، ونيكله ، وراياته ـ وقد جعل يدير منفضة للسجاير على سبابته الممدودة · ودخل الكونت « شبيلفسكى » الذى كان كلابيك ينتظره ، وطوى هذا الأخير ورقة كان يقدم عليها لكل صديق من أصدقائه هدية وهمية :

ـ « كيف تجرى أمورك فى هـــذه القرية المشمسة الصغيرة يا صديقى العزيز ؟ »

ـ « ليست على ما يرام · ولكنها ربما سارت سـيرا حسنا فى نهـاية الشـهر · انى أوزع موادا غذائيـة ، وأودعها لدى الأوروبيين وحدهـم ، بالطبع · »

وعلى الرغم من ثيابه البيض البسيطة جدا ، فان أنف شبيلفسكى المعقوف النحيف وجبهته الصلعاء ، وشـعره الرمادى الممشط الى الوراء ، ووجنتيه البارزتين ·· كانت تضفى عليه دائما مظهر المتنكر فى صورة نسر · وكان « المونوكل » يبرز هذه الصورة الكاريكاتورية ·

ـ « المسألة كما ترى يا عزيزى ـ هى أن يجد المرء بالطبع حوالى عشرين ألفا من الفرنكات ·· وبهذا المبلغ ، يستطيع أن يجعل لنفسه مكانا محترما جدا فى تجارة المواد الغذائية · »

ـ « هـــذا هو الكلام الذى أحب أن أسمعه يا عزيزى · انت لا تريد مكانا صغيرا ، بل تريد مكانا « محترما » فى تجارة الأغذية ؟ مرحى ··· »

ـ « لم أكن أعرف أنك ·· ضيق الأفق الى هذا الحد ·· »

ونظر « كلابيك » الى النسر بطرف عينه ، دون أن ينسى أنه بطل قديم فى لعبة الشيش بكراكوفى بقسم صغار الضباط ·

ـ « أنا ؟ ضيق الأفق ! تصور ، لو أننى كنت أملك هذا المبلغ من المال ،

اذن لاستخدمته فى تقليد موظف هولندى كبير من سومطره كان يمر كل عام فى عودته الى زهور السوسن التى يزرعها فى بلاده ـ كان يمر على شاطىء بلاد العرب ، وقد خطر له حينذاك خاطر ( حدث هذا حوالى سنة ١٨٦٠ ) وهو أن ينهب كنوز مكة • وكان يبدو له أن هذه الكنوز نفيسة ، وأنها مطعمة كلها بالذهب ، ومخبأة فى كهوف سوداء واسعة ، هناك حيث يلقى بها الحجاج دائما وأبدا • انما فى مثل هذه الكهوف ، أود ان أعيش •• أنا •• واخيرا ، ورث عاشق السوسن ميراثا ورحل الى جزر الهند الغربية ليجمع عصابة من القراصنة يغزو بها مكة على حين غرة ، بعد أن سلحهم بأسلحة حديثة ، وبنادق تطلق رصاصتين فى المرة الواحدة ، وحراب يمكن تركيبها وتفكيكها • الخ ••• وأخذهم الى ظهر السفينة ـ لا تنبس بكلمة ! ـ وصحبهم الى تلك الجهة ••• »

ووضع سبابته على شفتيه ، مستمتعا بالفضول الذى استولى على الرجل البولندى وقد بدا أشبه بالتواطؤ •

ـ « حسن • لقد تمردوا عليه ، وذبحوه بكل دقة ، واستخدموا السفينة فى قرصنة خلت من أية دعابة ، فى بحر ما • هذه قصة حقيقية ، وفضلا عن ذلك ، فانها قصة أخلاقية • ولكننى أقول لك •• اذا كنت تعتمد على فى الحصول على العشرين ألفا من الفرنكات •• فأنت مجنون •• مجنون • أما اذا كنت تريد أن أتوسط بينك وبين كبار الشخصيات أو شيئا من هذا القبيل، فلا مانع لدى • ومن ناحية أخرى ، مادام لابد أن أدفع لأى شخص آخر • ولكن فى الوقت الذى تحترق فيه البيوت ، لا يهتم الناس أدنىاهتمام بالأفيون والكوكايين • »

وعاد من جديد الى ادارة منفضة السجاير فوق سبابته •

وقال شبيلفسكى : « لقد تحدثت اليك عن ذلك ، لأننى اذا كنت أريد أن أنجح ، فمن الواجب على بالطبع أن أتحدث الى كل من اعرفه • وكان من الأفضل على الأقل أن أنتظر • ولكننى أردت أن اسدى اليك خدمة ، عندما رجوتك أن تقدم لى هذه الخمر ( وهى خمر مقلدة ) • واليك هذه الخدمة : غادر شنغهاى غدا • »

قال كلابيك بصوت آخذ فى الارتفاع : « آه ٠ آه ٠ آه » وتردد فى الخارج كالصدى نفير سيارة يرجع جملة من الأنغام « لأن ؟ »

— « لسبب وجيه جدا ٠٠٠ لأن بوليسي — كما تقول — يؤدى واجبه فى كفاءة ٠٠ ارحل عن هذا المكان ٠ »

وكان كلابيك يعرف أنه لن يستطيع الاصرار ٠ وتساءل لحظة فيما بينه وبين نفسه : ألا يمكن أن تكون هذه مناورة ٠٠ للحصول على العشرين ألفا من الفرنكات ؟ ولكن ٠٠٠ يا له من جنون !

— « ولابد من أن أرحل غدا ؟ »

وتأمل المشرب ، وأجهزة خلط الكوكتيل ، والقضيب النيكلى ، وكأنه يتأمل أشياء قديمة عزيزة على النفس ٠

— « على أكثر تقدير ٠٠ ولكنك لن ترحل ٠٠ هذا ما أراه ٠٠ وعلى أية حال ، فقد كان من واجبى أن أحذرك ٠ »

وأحس كلابيك بعرفان متردد للجميل ( وهذا التردد لا يرجع الى ارتيابه بقدر ما يرجع الى طبيعة النصيحة التى أسديت اليه ، والى جهله بما يتهدده ٠)

واستطرد الرجل البولندى قائلا : ألدى من الحظ أكثر مما كنت أعتقد؟ » وأمسك بذراعه : « ارحل ٠٠٠ ثمة حادث وقع لسفينة ٠٠٠ »

— « ولكن ، ليس لى دخل فى هذا الموضوع ٠ »

— « ارحل ٠ »

— « هل تستطيع أن تقول لى ان الأب چيسور مشبوه ؟ »

— « لا أظن ٠٠ الأولى أن يكون چيسور الابن ٠ ارحل ٠ »

كان من الجلى أن البولندى قد استقى معلوماته من مصدر وثيق ٠٠ ووضع كلابيك راحته على يد البولندى ٠

— « يؤسفنى أشد الأسف أننى لا أملك من المال ما تحتاج اليه فى بقالتك ، يا عزيزى : وربما كنت تحاول انقاذ حياتى ٠٠٠ ولكننى ما زلت

لأملك بضعة أنقاض ، تمثالين أو ثلاثة ٠٠ خذها ٠ »

ــ « كلا ٠٠٠ »

ــ « لمـاذا ؟ »

ــ « كلا ٠٠٠ »

ــ « آه ٠٠٠ لا كلمة ؟ فليكن ٠ ومع ذلك أحب أن أعلم لماذا لا تريد أن تأخذ تماثيلي ؟ »

وحملق فيه شبيلفسكي ٠

ــ « بالنسبة لمن يعيش مثلي ، كيف يمكن الاقدام على هذا الشيء ٠٠ على هذه المهنة ، اذا لم يعوض نفسه أحيانا ؟ »

ــ « انني أشك في وجود كثير من المهن التي لا ترغم أصحابها على طلب شيء من التعويض ٠٠٠ »

ــ « أجل ٠٠٠ فأنت لا تستطيع أن تتصـور ــ مثلا ــ الى أي حـد قد ساءت حراسة المحلات التجارية ٠ »

وما العلاقة بين هذا وذاك ؟ أوشك كلابيك أن يوجه هـذا السؤال ٠ ولكنه كان يعرف بخبرته أن الجمل المرسلة على هذا النحو طريفة دائما ، كما كان يريد فضلا عن ذلك أن يؤدي أية خدمة لمحدثه حتى ولو كان ذلك بأن يدعه يتكلم ٠ ومع كل هذا كان يشعر بالحرج الى حد الارتباك ٠

ــ « وهل أنت تراقب المحلات ؟ »

وكان « كلابيك » ينظر الى البوليس بوصفه خليطا من عصابات التلاعب وابتزاز أموال الناس ، وهيئة مكلفة بفرض الاتاوات الخفية على الأفيون ودور الميسر ٠ وقد كان رجال البوليس الذي تعامل معهم (وعلى الأخص شبيلفسكي) أعـداء وشركاء في الوقت نفسـه ٠ ولكنه كان يشمئز ويخشى من افشـاء المعلومات الى البوليس ٠ غير أن شبيلفسكي أجاب :

ــ « أراقبها ؟ كلا ٠٠ ليس تماما ٠٠ وانما العكس هو الذي يحدث ٠

ــ « وكيف ٠ غنائم فردية ؟ »

ـ « الأمر لا يحدث الا بالنسبة للعب الأطفال ·· أفاهم أنت ؟ فلست أملك الآن ما يكفى من المال لشراء لعب لطفل الصغير ·· وهـذا أمر شاق على النفس ·· والحقيقة أننى لا أحب هذا الطفل الا حين أقدم له شيئا يبعث السرور فى نفسه ·· ولا أستطيع أن أفعل ذلك الا بهذه الطريقة ·· وهذا شيء صعب للغاية · »

ـ « ولهذا ، أرجو أن تأخذ تماثيلى ·· لا تأخذها كلها ، ان شئت · »

ـ « أرجوك ·· أرجوك ·· اننى أذهب اذن الى الحوانيت وأقول ·· ( وألقى برأســه الى الخلف ، وشد عضـلات جبهته ووجنته اليسرى حول مونوكله دون أن تبدو عليه السخرية · ) اننى مخترع ، ومنشيء بالطبع ·· وأريد أن أشـاهد نماذجكم · » ويتركوننى أتفرج · فآخذ نموذجـا ·· لا أكثر ·· وأحيانا يراقبوننى ، ولكن هذا شيء نادر · »

ـ « ولكن ماذا تفعل لو أنهم اكتشفوا أمرك ؟ »

وأخرج محفظته من جيبه ، وفتحها نصف فتحة أمام كلابيك لتبدو بطاقته البوليسية ، ثم أغلقها ، وأشار بيده اشارة مغرقة فى الغموض :

ـ « اننى أملك المال أحيانا ·· فمن الممكن أن أطارد انا ايضا ·· ولكن·· كل شيء يحدث ·· »

وكانت دهشة « كلابيك » بالغة ، حين اكتشف فى نفسه على حين غرة رجلا جادا ، له وزنه ، وعلى الأخص لأنه لم يكن يحكم على نفسه مطلقا بأنه مسئول عن تصرفاته ·

وحدث نفسه قائلا : « ينبغى أن أحذر جيسور الابن · »

**الساعة الواحدة**

كان تشن يسير قدما ، على طول الرصيف ، وقد تأبط حقيبة جلدية ملتقيا فى طريقه ببعض الأوروبيين الذين يعرف وجوههم ، واحدا اثر واحد : ففى مثل هذه الساعة كان الجميع تقريبا يذهبون لاحتساء الخمر ، والتلاقى بمشرب نادى شنغهاى ، أو بالفنادق المجاورة · وأحس بيد توضع على كتفه ـ

من الخلف ــ برفق · فأوشك أن يقفز من مكانه ، وتحسس جيبه الداخلي الذى كان يخفى فيه مسدسه ·

ــ « لقد انقضى زمن طويل منذ أن التقينا يا تشن ·· هل تريد ·· »

واستدار ، فرأى الراعى سمتسون ، أستاذه الأول · وتعرف فى الحال على وجهه الأمريكى الوسيم الذى تشوبه الملامح الهندية الى حد ما . وقد خط عليه الزمن أسطره ·

ــ « ·· أن نسير معا ؟ »

ــ « نعم · »

وكان « تشن » يؤثر أن يسير فى صحبة رجل أبيض ، لكى يكون أشد اطمئنانا ، ولكى يرضى نزعة التهكم فى نفســه : اذ كان يحمل قنبلة فى حافظته الجلدية · وكانت سترته المتأنقة التى يرتديها هذا الصباح تضفى عليه هيئة رجل مقيد الفكر ، وأكمل حضور هذا الرفيق التنكر الذى يرمى اليه ــ وفضلا عن ذلك ، وبسبب نوع من التطير الغامض ، لم يكن يريد أن يجرح شعور الراعى · فقد أخذ يحسب عدد العربات برهة من الزمن هذا الصــباح لكى يستطيع ( حسبما كان العدد زوجيــا أو فرديا ) هل تراه سيصيب التوفيق : وكانت الاجابة مشجعة · ولكنه كان ساخطا على نفسه، فلماذا لا يتحدث الى « سميتسون » ، ليتخلص من هذا السخط ؟

ولم يفت الراعى أن يلمح هذه الحالة ، ولكنه لم يدرك أسبابها فقال :

ــ « أنت تتألم ، يا تشن ؟ »

ــ « كلا · »

انه ما برح يحتفظ لأستاذه القديم بشىء من الحب ، ولكنه كان حبــا لا يخلو من حقد ·

ووضع الشيخ ذراعه تحت ذراع تشن :

ــ « اننى أصلى كل يوم من أجلك يا تشن · ماذا وجدت عوضا عن الايمان الذى هجرته ؟ »

وكان ينظر اليه فى حب عميق ، لا ينطوى مع ذلك على شىء من حدب الابوة ، وكأنه يريد أن يكون معه على قدم المساواة . وتردد تشن :

ـ « ... لست من أولئك الناس الذين تهتم بأمرهم السعادة .. »

ـ « ثمة أشياء أخرى غير السعادة .. يا تشن ، هناك السلام ، ـ وأحيانا الحب .. »

ـ « كلا .. لا وجود لهما بالنسبة لى . »

ـ « انهما للجميع .. »

وأغمض الراعى عينيه ، وأحس تشن وكأنه يمسك تحت ابطه بذراع رجل أعمى .

ـ « اننى لا أبحث عن السلام .. وانما أبحث عن .. العكس . »

فنظر اليه « سميتسون » ، دون أن يكف عن المسير :

ـ « حاذر من الغرور . »

ـ « من قال لك اننى لم أجد ايمانى ؟ »

ـ « وأى ايمان سياسى عساه أن يتحمل مسئولية ما يعانيه العالم من عذاب ؟ »

ـ « اننى أفضل أن أقلل من هذا العذاب على ان أؤدى عنه حسابا . ان نبرة صوتك مفعمة بـ .. بالانسانية ، وأنا لا أحب الانسانية التى قوامها تأمل العذاب . »

ـ « وهل أنت على ثقة من أن هناك انسانية أخرى .. يا تشن ؟ »

ـ « انتظر .. هذا شىء من العسير شرحه .. هناك على الأقل انسانية لا تتألف من هذا فحسب .. »

ـ « أى ايمان سياسى يستطيع أن يبيد الموت ؟ .. »

ولم تكن لهجة الراعى لهجة استفهام ، بل كانت لهجة حزن . وتذكر تشن حديثه مع جيسور ، الذى لم يره منذ ذلك الحين . لقد وضع جيسور ذكاءه فى خدمته ، لا فى خدمة الله .

ـ « قلت لك اننى لا أبحث عن السلام • »

ـ « السلام •• »

وأخلد الراعى الى الصمت •• وظلا سائرين •

واستطرد الراعى أخيرا : « يا صغيرى •• كل منا لا يعرف سوى المه الخاص • »

وكان ذراعه يضغط على ذراع تشن • « ألا تعتقد أن الحياة الدينية الحقة ليست الا ايمانا جديدا نعتنقه كل يوم ؟ •• »

وكان الاثنان ينظران الى الرصيف ، ولا يبدو أنهما على أى اتصال الا عن طريق ذراعيهما •

ـ « ••• كل يوم » •• أعاد الراعى هذه العبارة فى قوة مكدودة ، وكأن أقواله ليست الا صدى فكرة مسيطرة • ولم يجب تشن • هـــذا الرجل يتحدث عن نفسه ويقول الحقيقة •• انه مثله أيضا، يحيا فكرته ، ولم يكن مجرد قوبة منفوخة • تحت ذراعه اليسرى الحافظة والقنبلة ، وتحت ذراعه اليمنى، هذه الذراع المضمومة : « ايمان جديد نعتنقه كل يوم •• » هذه الثقة التى بلغت حد التناجى بالأسرار قد أضفت على الراعى عمقا مباغتا مؤثرا • وكان تشن سريع الاستجابة لكل قلق ، لأنه كان قريبا كل القرب من جريمة القتل التى أزمع ارتكابها •

ـ « سأصلى كل ليلة ـ يا تشن ـ لكى ينزع الله الغرور من نفسك (اننى أصلى بالليل على الأخص ، لأنه أنسب للصلاة) • فاذا منحك التواضع، كنت من الناجين • وها أنذا الآن أجد نظرتك وأتابعها •• تلك النظرة التى كانت تند عنى منذ برهة ••• »

ولم يتواصل « تشن » مع هذا الراعى بتأثير أقواله ، بل بتأثير ما يعانيه من عذاب : وهذه الجملة الأخيرة ـ التى تشبه جملة الصياد الذى يحس بما اقتنصته شباكه من أسماك أثارت فى نفسه غضبا أخذ يشتد فى عناء دون أن يطرد من نفسه تماما ما ألم به من شفقة عابرة • ولم يعد يفهم مشاعره • قال : « اصغ الى جيدا ••• بعد ساعتين ، سأقتل • »

وسدد نظرته ـ هذه المرة ـ فى عينى رفيقه · ورفع الى وجهه ـ دونما سبب ـ يده اليمنى التى كانت ترتجف ، وتشبث بقلابة سترته الأنيقة :

ـ « أتفهم دائما ما تعنيه نظرتى ؟ »

كلا ·· لقد كان وحيدا ·· وحيدا مرة أخرى · وتخلت يده عن سترته ، وتعلق بقلابة سترة الراعى ، وكأنه يريد أن يهزه · فوضع هذا الأخير راحته على راحة تشن · وبقيا على هذه الحال ، بلا حراك ، وكأنهما يتأهبان للنزال، وتوقف أحد المارة · كان رجلا من البيض ، ظن أن هناك مشاجرة ·

قال الراعى بصوت خافت : « هذه أكذوبة شنيعة ! »

وسقطت ذراع تشن الى جانبه ، ولم يكن يستطيع حتى أن يضحك ، فصرخ فى وجه الشخص المار : « أكذوبة · » فهز المار كتفيه ، ومضى فى طريقه · ودار تشن برمته على عقبيه ، وانصرف مسرعا كأنه يجرى ·

ووجد رفيقيه أخيرا على بعد ميل أو يزيد · وكانت هيئتهما تبعث على الاقتناع بقبعتيهما المشقوقتين ، وثيابهما التى تشبه ثياب الموظفين ، والتى اختاراها ليبررا الحافظتين اللتين حملاها ، وتحتوى احداهما علـى قنبلة ، والثانية على قنابل يدوية صغيرة · أما « سوين » ذو الأنف المعقوف ، الصينى الذى يشبه الهنود الحمر ، فكان مستغرقا فى التفكير ، بحيث لم يكن ينظر الى أى شىء ، وأما « پى » ، فلم يلحظ تشن من قبل أن له وجها يشبه وجه الفتى المراهق الى هذا الحد · وربما ساعدت نظارته المستديرة المصنوعة من البلاستيك على تصغير سنه · وشرعوا فى المسير حتى بلغوا شـارع الجمهوريتين ، وكانت الحوانيت جميعا مفتوحة ، فعادت الحيـاة الى هـذا الشارع تحت سماء ملبدة بالغيوم ·

وكان من المتوقع أن تصل سيارة « تشانج ـ كاى ـ شيك » الى الشارع عن طريق درب ضيق متعامد عليه وأن تخفف من سرعتها لكى تنعطف · وكان عليهم أن يرونها آتية ، وأن يقذفوا بالقنبلة حين تبطىء · وكانت السيارة تمر كل يوم بين الساعة الواحدة والواحدة والربع ، فقد كان الجنرال يتناول غداءه فى الموعد الذى يتناول فيه الأوروبيين غداءهم · وهكذا كان ينبغى على من سيراقب الشارع الصغير أن يشير الى الاثنين الآخرين فى اللحظة التى

يلمح فيها السيارة ، وسيعينه فى هذه المهمة وجود تاجر من تجار العاديات ، يقوم حانوته في مواجهة الشارع تماما ، هذا ان لم يكن الرجل من العاملين لحساب الشرطة • وأراد « تشن » أن يقوم شخصيا بمهمة المراقبة • فوضع « پى » فى الشارع ، على مقربة من المكان الذى تنتهى فيه السيارة من منحناها قبل أن تستأنف سرعتها ، أما « سوين » فوضعه فى مكان أبعد قليلا • وأما هو ، فكان عليه أن يشير اليهما ، وأن يلقى القنبلة الأولى • فاذا لم تقف السيارة ، سواء أصيبت أم لم تصب ، فعلى الآخرين أن يقذفا قنابلهما بدورهما • فاذا توقفت ، كان عليهما أن يتجها نحوها ، ذلك أن الشارع أضيق من أن يتيح لها الدوران • وهنا كان الفشل ممكنا : لأنهما لو أخطآ الهدف ، فسيطلق الحراس الذين يحفون بالسيارة نيرانهم لكى يذودوا عنها كل من يحاول الاقتراب •

وكان على « تشن » أن يفترق الآن عن رفاقه • فمن المؤكد أن المخبرين منبثون بين الجمهور على طول الطريق الذى تسلكه السيارة • ودلف « پى » الى مشرب صينى صغير يستطيع أن يلتقط منه اشارة تشن ، وعلى مسافة أبعد ، كان « سوين » ينتظر خروج « پى » • ومن المحتمل أن يقتل واحد من الثلاثة على الأقل ، وانه « تشن » بلا شك • ولم يجرؤ أحدهم على أن يقول شيئا لصاحبه ، وانما افترقوا دون أن يتصافحوا •

ودخل « تشن » حانوت تاجر العاديات ، وطلب منه أن يريه بعض التحف البرونزية ، الصغيرة التى تم العثور عليها فى الحفائر • فأخرج التاجر من أحد الأدراج حفنة كبيرة من الصناديق الصغيرة المكسوة بالساتان البنفسجى ، وأفرغ محتوياتها من المكعبات على المنضدة ثم شرع في ترتيبها • ولم يكن التاجر من أهالى شنغهاى ، وانما كان صينيا من الشمال ، أو من التركستان: اذ كان شاربه ولحيته الخفيفان ــ المنتشران على الرغم من ذلك ــ وعيناه المشقوقتان ، تنم عن أنه مسلم من الطبقة الوضيعة ، وكذلك فمه المتزلف ، ولا كذلك بقية ملامح وجهه الخالية من العظام التى تشبه وجه كبش مفرطح الأنف • ان من يشى برجل يعترض الجنرال حاملا قنبلة ، يتلقى مبلغا كبيرا من المال ، ويحظى بمكانة عظيمة بين قومه • وربما كان هذا البورجوازى الثرى واحدا من أنصار تشانج ــ كاى ــ شيك الأوفياء •

وسأل تشن قائلا : « هل قضيت وقتا طويلا فى شنغهاى ؟ »

من يكون هذا العميل الغريب ؟ ان ارتباكه ، وتوتره ، وعدم تطلعه الى التحف التى يعرضها عليه ، امارات تبعث على القلق · وربما لم يكن هـــذا الشاب معتادا على ارتداء الثياب الأوروبية · غير أن شفتى تشن الغليظتين، عـلى الرغم من منظر وجهه الجانبى الحاد ، تبعثان عـلى التعاطف · لعله ابن فلاح غنى من المناطق الداخلية ؟ غـير أن الفلاحين الأغنياء لا يجمعون التحف البرونزية القديمة · فهـل جاء يشتريها لشخص أوروبى ؟ ولكنه ليس خادما ، كمـا أنه ليس تاجرا ــ واذا كان هـاويا ، فلماذا ينظر الى الأشياء التى أعرضها عليه نظرة خالية من الحب : انما يبدو عليه أنه يفكر فى شىء آخر ··

ذلك أن « تشن » كان يراقب الطريق فعلا · ومن هذا الحانوت ، كان يستطيع أن يرى على بعد مائتين من الأمتار · كم من الوقت يستطيع أن يتتبع فيه السيارة بعينيه ؟ ولكن ، كيف يحسب وهذا الرجل الأبله يراقبه فى فضول ؟ ينبغى عليه أن يجيب ، قبل أى شىء آخر ، فان بقاءه صامتا على هذا النحو أمر يتسم بالغباء ، قال :

ــ « كنت أعيش فى المناطق الداخلية ، وطردت منها بسبب الحرب · »

وهم الآخر بتوجيه سؤال جديد ·· وأحس تشن أنه يستريب فيه · وكان التاجر يسائل نفسه الآن : لعله لص جاء يفحص متجره الآن لكى ينهبه عند أول انتشار للفوضى ، ومع ذلك ، فان هـــذا الشاب لا يود رؤية أجمل التحف ، وانما يكتفى بالتحف البرونزية ، أو تماثيل الثعالب ذات الأثمان المعتدلة · ان اليابانيين يحبون الثعالب غير أن الطارق ليس يابانيا · لابد من مواصلة استجوابه بمهارة ·

ــ « لاشك أنك تعيش فى « هوپى » ؟ والحيـاة ــ على ما يقال ــ قـد أصبحت شاقة فى الأقاليم الوسطى · »

وسأل تشن نفسه : ألا يحسن به أن يتظاهر بالصمم ؟ ولكنه لم يجرؤ على ذلك ، خوفا من أن يبدو أغرب مما كان ·

فأجاب قائلا : « لم أعد أقطن هناك · » وكانت لهجته ، وتركيب جمله

حتى باللغة الصينية ـ تتسم بشيء من الايجاز : فقد كان يعبر مباشرة عن فكره ، دون استعمال الأساليب التقليدية ·· وخطر له أن يلجأ الى المساومة. فسأل التاجر وهو يشير بأصبعه الى رأس ثعلب يوجد بكثرة فى المقابر :

ـ « كم ثمنه ؟ »

ـ « خمسة عشر دولارا · »

ـ « ثمانية دولارات تبدو لى ثمنا معقولا ··· »

ـ « لمثل هذه التحفة ؟ كيف يمكن أن يخطر لك ذلك ؟ لقد دفعت فيها عشرة ··· وحدد مكسبي فيها بنفسك · »

وبدلا من أن يجيب ، أرسل « تشن » بصره الى « پى » الجالس الى منضدة صغيرة فى ذلك المشرب المفتوح ، وقد أخذت الأضـواء تتراقص على زجاج نظارته · ولم يكن « پى » يراه بلاشك ، بسبب الواجهة الزجاجية لحانوت العاديات ، ولكنه يستطيع أن يراه حين يخرج من هذا الحانوت ·

قال أخيرا وكأنه يعبر عن قرار اتخذه بعد تأمل طويل : « لا أستطيع أن أدفع أكثر من تسعة دولارات ··· وأكون بذلك خاسرا · »

كانت الصيغ المحفوظة فى هذا المجال أشبه بالطقوس ، ولهذا فقد كانت تجرى على لسانه دون عناء ·

أجاب تاجر العاديات : « انها أول صفقة لى اليوم · وربما كان ينبغى عـلى أن أقبـل خسـارة دولار ، لأن اتمـام أول صـفقة فأل حسن يجلب الرزق ··· »

الشارع مقفر ·· وثمة عربة من عربات « الريكشو » تجتازه على بعد ، تتلوها عربة أخرى ·· وخرج رجلان ، وكلب ، ودراجة ·· انعطف الرجلان يمينا ، واجتازت العربة الشارع ·· الطريق مقفر مرة أخرى ، بقى الكلب وحده ··

ـ « ألا تستطيع أن تدفع ـ مع ذلك ـ تسعة دولارات ونصف ؟ »

ـ « للاعراب عن استلطافى اياك · »

نعلب آخر من الخزف · ومساومة جديدة · وكان « تشن » يوحي بمزيد من الثقة بعد أن اشترى القطعة الأولى ، واكتسب بذلك حق التروى : انه يقدر الآن الثمن الذى سيعرضه ، والذى يعادل بالتدقيق قيمة السلعة ، وأصبح من الواجب ألا يزعج تأمله الجليل شيء · « السيارة تتقدم فى هذا الشارع بسرعة أربعين كيلو مترا فى الساعة ، أى أكثر من كيلو متر كل دقيقتين · سأراها برهة تقل عن دقيقة ·· هذا قليل · وينبغى على « پى » ألا تتحول عيناه عن هذا الباب ··· » ولم تمر أية عربة فى هذا الشارع ، اللهم الا بضع دراجات ·· وأخذ يساوم على محبك حزام ( توكة ) من حجر اليشب ، فرفض الثمن الذى عرضه التاجر ، وقال انه سيعود الى هذه المناقشة فيما بعد · وحمل أحد المساعدين الشاى ، وابتاع « تشن » رأس ثعلب صغير من البللور لم يطلب لقاءها التاجر سوى ثلاثة دولارات · ومع ذلك لم تختف ريبة صاحب الحانوت تمام الاختفاء ·

ــ « ان لدى قطعا أخرى غاية فى الجمال والأصالة ، وثعالب جميلة جدا ··· ولكنها تحف عظيمة القيمة ، ولهذا لا أحتفظ بها فى متجرى ·· ويمكن أن نتفق على موعد ··· »

ولم يقل تشن شيئا ·

ــ « ··· واذا اقتضى الأمر ، أستطيع أن أرسل أحد مساعدى للاتيان بها ··· »

ــ « أنا لا أهتم بالقطع الثمينة ·· فلست للأسف ، من الأثرياء · »

انه ليس لصا اذن ، فهو لا يطلب حتى أن يراها · وعرض عليه التاجر مرة أخرى محبك الحزام المصنوع من حجر اليشب ، فى ترفق من يعرض مومياء هشة ــ ولكن على الرغم من الأقوال التى راحت تمر لفظا لفظا بين شفتيه المخمليتين الهلاميتين ، وعلى الرغم من عينيه الشهوانيتين ، فقد ظل « زبونه » غير مبال ، متباعدا ·· ومع ذلك ، فقد كان هو الذى اختار هذا المحبك · انما المساومة تعاون ·· كالحب ؛ ولكن التاجر كان يمارس الحب مع لوح من الخشب · لماذا يشترى هذا الرجل ما يشتريه ؟ وفجأة ، خمن السبب : انه واحد من أولئك الشبان المساكين الذين استسلموا استسلاما صبيانيا لغواية المومسات اليابانيات فى « تشاپاى » فهن يعبدن الثعالب ·

وهذا « الزبون » يبتاعها من أجل خادمة أو فتاة من فتيات الجيشا الزائفات. واذا كان لا يبالى بما يشتريه ، فذلك لأنه لا يشتريه لنفسه (( لم يكف تشن عن تصور وصول السيارة ، والسرعة التى يجب أن يفتح بها حافظته ، لينتزع القنبلة ، ويقذف بها ) • بيد أن فتيات الجيشا لا يحببن الأشياء التى توجد فى الحفريات ••• ربما خرجن على هذه القاعدة اذا تعلق الأمر بالثعالب الصغيرة ؟ ولقد اشترى الشاب أيضا تحفة من البللور ، وأخرى من الخزف •••

وبقيت العلب الصغيرة الأحجام ـ مفتوحة ومغلقة ـ مرصوصة على المنضدة • وكان المساعدان ينظران ، وقد استندا على مرفقيهما • أما أحدهما ـ وكان حدثا ـ فقد اتكأ على حافظة تشن ، واذ راح يبدل فى وقفته ساقا بالأخرى ، فقد سحب الحافظة خارج المنضدة • وكانت القنبلة فى الجزء الأيمن ، على بعد ثلاثة سنتيمترات من الحافة •

ولم يستطع تشن أن يبدى حراكا •• وأخيرا ، مد ذراعه ، وأعاد الحافظة اليه ، دون أدنى عناء • ان أحدا من هؤلاء الناس لم يراوده الشعور بالموت ، أو بفشل مؤامرة اغتيال •• لا لشىء ، مجرد حافظة يؤرجحها موظف فى متجر ، ثم يجذبها صاحبها اليه • وفجأة ، بدا كل شىء يسيرا يسرا غير مألوف فى نظر تشن •• ولم يعد للأشياء •• بل للأفعال نفسها أى وجود ، وأصبحت جميعا مجرد أحلام تضغط علينا لاننا نحن الذين نمنحها هذه القوة ، ولكننا نستطيع أيضا انكارها •• وفى هذه اللحظة ، سمع صوت نفير سيارة : تشانج ـ كاى ـ شيك •

وحمل حافظته ، كما يحمل سلاحا ، ودفع ثمن ما اشتراه ، وألقى بالربطتين الصغيرتين فى جيبه ، وخرج •

وتبعه التاجر ، وقد أمسك بيده مجبك الحزام الذى رفض تشن شراءه :

ـ « انها تحف من حجر اليشب تحبها السيدات اليابانيات بوجه خاص • »

ألا يريد هذا الأحمق أن يتركه وشأنه •

ـ « سأعود • »

وأى تاجر لا يعرف معنى هذه العبارة ؟ وبدا لتشن أنّ السيارة تقترب أسرع من المعتاد ، تتقدمها سيارة فورد تحمل الحرس •

ـ « اذهب ! »

وأقبلت السيارة كأنها تنقض عليهم ، وهى تهز المخبرين المتعلقين بجنبيها • ومرت السيارة الفورد • وتوقف تشن ، ثم فتح حافظته ، ووضع يده على القنبلة الملفوفة فى جريدة • ودس التاجر ـ وهو يبتسم ـ مجبك الحزام داخل الجيب الخالى من الحافظة المفتوحة ـ وكان أبعد الجيوب اليه • وبهذه الحركة عاق ذراعى تشن عن الحركة :

ـ « ادفع ما تريد • »

ـ « اغرب عنى • »

وأذهلته هذه الصرخة ، فنظر الى « تشن » فاغر الفم هو أيضا •

ـ « ألست مريضا ؟ » ولم يعد تشن يرى شيئا ، وأحس بأنه على وشك الاغماء : ومرت السيارة •

ولم يستطع أن يتخلص من حركة التاجر فى الوقت المناسب • وقال هذا لنفسه : « هذا الزبون سيصاب بالاغماء » ، وهم بسنده وبحركة واحدة ، ضرب تشن الذراعين الممدودتين أمامه ، وانطلق الى الأمام • وأوقف الألم التاجر ، وكان « تشن » يعدو تقريبا •

وصاح التاجر : « مجبكى ! مجبكى ! »

ذلك أن مجبك الحزام كان فى الحافظة دائما • ولم يفهم ذلك تشن ، اذ كانت كل عضلة فيه ، وكل عصب مرهف من أعصابه ، ينتظر انفجارا يملأ الشارع ليتبدد متثاقلا تحت السماء الواطئة •• ولكن ، لا شىء • انعطفت السيارة ، بل لقد اجتازت « سوين » الآن بلا أدنى شك • وما برح ذلك التاجر الغبى فى مكانه • لم يعد ثمة خطر ، ما دام لم يتم أى شىء • ماذا فعل الآخران ؟ وشرع « تشن » يعدو وصرخ التاجر : « اللص ! » وظهر تجارا آخرون • وفهم تشن • وود من غضبه أن يهرب بهذا المجبك ، وأن يرمى به فى أى مكان • غير أن حمقى آخرين اقتربوا منه ، فالقى به فى وجه التاجر ،

ولكنه لاحظ أنه لم يغلق الحافظة ، وكانت مفتوحة ، منذ أن مرت السيارة ، نهبا لعيني ذلك المأفون ، ولعيون المارة ، والقنبلة ظاهرة بعد أن انزلق من عليها الورق الذى كان يغطيها • وأخيرا ، أغلق الحافظة فى حذر ( وكان هذا هو كل ما يستطيع أن يفعله ليمنع نفسه من خبطها ) ، وكان يناضل للسيطرة على أعصابه • وعاد التاجر بأسرع ما يستطيع الى حانوته • واستأنف « تشن » سيره •

قال مخاطبا « پى » عندما لحق به : « ماذا فعلت ؟ »

ــ « وأنت ؟ »

وتبادلا النظر لاهثين ، وكلاهما يريد أن يستمع ــ أولا ــ الى الآخر • ورآهما « سوين » ــ الذى اقترب منهما ــ على هذه الحال من الجمود الملىء بالتردد وعدم الاستقرار ، وقد سقطت ظلالهما على المنازل الغائمة • وكان النور القوى على الرغم من وجود السحب ــ يظهر فى وضوح المنظر الجانبى لوجه تشن الشبيه بالصقر ، ورأس « پى » المستديرة ، ويعزل هذين الشخصين اللذين ترتجف أيديهما ، المنصوبين على ظليهما القصيرين فى ذلك الوقت من بعد الظهيرة بين سابلة مهمومة قلقة • وكان ثلاثتهم يحملون حوافظهم دائما ، ولهذا لم يكن من الحكمة أن يبقوا فى مكانهم طويلا • أما المطاعم فلم تكن مأمونة •• لقد اجتمعوا وافترقوا فى هذا الشارع فعلا أكثر من اللازم • لماذا ؟ لم يحدث شىء ••

قال تشن : « فلنذهب لدى هملريش ! »

وساروا فى الأزقة •

وتساءل سوين : « ماذا حدث ؟ »

فشرح له « تشن » الأمر • أما « پى » فقد ارتبك حين رأى أن تشن لم يغادر بمفرده حانوت العاديات ، وكان قد توجه الى الموضع المتفق عليه لالقاء القنبلة ، على بعد بضعة أمتار من الناصية • والقاعدة المتبعة فى شنغهاى هى قيادة السيارة على اليسار • وكانت السيارة تنعطف فى العادة انعطافا حادا، وكان « پى » واقفا على الرصيف الأيسر لالقاء القنبلة عن كثب • غير أن السيارة كانت منطلقة بسرعة ، اذ لم يكن ثمة عربات فى شارع الجمهوريتين

في هذه اللحظة ، ودارت في المنعطف دورة واسعة وصلت فيها الى الرصيف الآخر ، ووجد « پى » نفسه بعيدا عنها ، تحول بينه وبينها عربة من عربات « الريكشو » •

قال تشن : « فلتذهب عربة الريكشو الى الجحيم ، فهناك آلاف من الكادحين الآخرين الذين لا يستطيعون أن يعيشوا الا من موت تشانج ـ كاى ـ شيك • »

ـ « كنت سأخطىء الهدف • »

أما « سوين » فلم يلق قنابله ، لأن احجام رفيقيه جعله يظن أن الجنرال لم يكن موجودا فى السيارة •

وتقدموا فى سيرهم صامتين بين جدران جعلتها السماء المصفرة المثقلة بالضباب حائلة اللون ، غارقين فى عزلة بائسة تحوطها النفايات تحت أقدامهم ، والأسلاك التلغرافية فوق رءوسهم •

قال تشن بصوت خفيض : « ما زالت القنابل سليمة •• فلنحاول مرة أخرى • »

غير أن رفيقيه كانا محطمين ، ذلك أن من يفشل مرة فى الانتحار لايعاود الكرة الا نادرا • وتوتر أعصابهما ـ الذى بلغ أقصاه ـ قد هبط الآن • وكلما تقدما فى طريقهما حل اليأس مكان الذهول •

قال سوين : « انها غلطتى • »

وردد پى : « انها غلطتى • »

قال تشن نافد الصبر : « كفى • » واستغرق فى التفكير ، مواصلا هذا السير الكئيب • ينبغى ألا تكون المحاولة الثانية بنفس الطريقة • لقد كانت هذه الخطة رديئة ، غير أنه قد كان من العسير تخيل خطة أخرى •• فقد ظن أن •• ووصلوا الى هملريش •

* *

وترامى الى هملريش ـ فى مؤخرة حانوته ـ صوت يتحدث باللغة الصينية ، وصوتان آخران يردان عليه • واسترعت انتباهه نبرة الأصوات،

وايقاعها الذى يشوبه القلق • فقال لنفسه : « بالأمس فقط لمحت شخصين يتسكعان هنا وكأنهما يعانيان من بواسير شديدة ، ولم يكونا بكل تأكيد يتسكعان لمجرد الاستمتاع •• » وكان من العسير عليه أن ينصت في وضوح: ففى الطابق العلوى كان الطفل يبكى بلا انقطاع • غير أن الأصوات سكتت ، ودلت الظلال القصيرة السارية على الرصيف على أن هنـاك ثلاثة أجسام • البوليس ؟ ونهض هملريش ، وهو يفكر فى قلة الخوف الذى يستثيره فى نفوس المداهمين أنفه الأفطس وكتفاه البارزان الى الأمام وكأنه ملاكم مضروب، ومشى نحو الباب • وقبل أن تصل يده الى جيبه ، تعرف تشن ، فمد اليه يده ، بدلا من أن يسحب مسدسه •

قال تشن : « فلنذهب الى مؤخرة الحانوت • »

وسار الثلاثة أمام هملريش الذى أخذ يتفحصهم • ان كلا منهم يمسك حافظة ، وكلا منهم لا يمسكها فى اهمال ، بل يضغط عليها بعضلات ذراعه المتوترة •

قال تشن حالما أغلق الباب : « أصغ •• هل تستطيع أن تستضيفنا بضع ساعات ؟ نحن وما تضمه حوافظنا ؟ »

ــ « قنابل ؟ »

ــ « أجل • »

ــ « كلا • »

وفى الطابق العلوى ، واصل الطفـل صياحه ، واستحالت صرخاته المؤلمة الى شهقات ، وأحيانا كانت تتحول الى نقيق ، وكأنه يبكى ليسرى عن نفسه ، وهو أمر أشد ايلاما ، وكانت الاسطوانات ، والمقاعد ، والجدجد ، على حالها لم تتغير عن الليلة التى أتى فيها تشن عقب اغتياله « تانج ــ ين ــ تا » الى درجة أنه وهملريش قد تذكرا هذه الليلة فى لحظة معا • ولم يقل « تشن » شيئا ، غـير أن هملريش تكهن بما يدور فى خلده ، فاستأنف كلامه قائلا :

ــ « لا أستطيع أن أتحمل وجود قنابل هنا فى هذه اللحظة • فلو أنهم عثروا عليها هنا ، لقتلوا المرأة والطفل • »

ـ « فليكن ٠٠ هيا بنا لدى شيا ٠ »

و « شيا » هو تاجر المصابيح الذى زاره كيو فى الليلة السابقة على الثورة ٠ « لن نجد فى هذا الوقت من النهار ، غير الصبى ٠ »

ـ « افهمنى يا تشن : الطفل مريض جدا ، والأم ليست بخير ٠٠ »

وتطلع الى تشن ، مرتجف اليدين :

ـ « انك لا تستطيع أن تدرك يا تشن ٠٠ انك لا تستطيع أن تدرك السعادة التى أنت فيها وأنت تنعم بحريتك ! ٠٠ »

ـ « بلى ، اننى أدركها ٠ »

وخرج الصينيون الثلاثة ٠

وناجى هملريش نفسه ساخطا : « لعنة الله ! لعنة الله ! لعنة الله ! ألا يمكن أن أوضع أبدا فى مكانه ؟ » وكان يلقى اللعنات فى نفسه بهدوء ، كأنه فى حالة استرخاء ٠ وصعد السلم متمهلا صوب الغرفة ٠ كانت امرأته الصينية جالسة ، وقد سددت بصرها على السرير ، ولم تلتفت اليه ٠

قال الصبى : « لقد كانت السيدة لطيفة اليوم ٠٠ فلم توجعنى تقريبا ٠٠ »

وكانت السيدة التى يتحدث عنها هى « ماى » ٠ وتذكر هملريش ما قالته : « ماستوايديت ٠٠٠ يا صديقى المسكين ، ينبغى كسر العظام ٠٠ » ان هذا الصبى الذى لم يزل طفلا لم يكن يملك بعد من الحياة فى جسده الا ما يكفى لكى يجعله يتألم ٠ وكان لابد من أن « تشرح له المسألة ٠٠ » أية مسألة ؟ انه من المفيد كسر عظام وجهه حتى لا يموت ، وحتى يكافأ بحياة ثمينة مرهفة كحياة أبيه ؟ وقد ظل يقول لنفسه طيلة عشرين عاما « يا لعهر الشباب ! » ترى كم سينقضى من الزمن قبل أن يقول: «يا لعهر الشيخوخة؟» وقبل أن ينقل الى هذا الصبى البائس هذين التعبيرين الكاملين عن الحياة !؟ فى الشهر السابق كانت القطة قد انزلق مخلب لها عن مكانه وكان لابد من الامساك بها الى أن يتم الطبيب البيطرى الصينى تثبيت المخلب فى مكانه ، فكانت القطة تئن وتقاوم ، اذ لم تكن تدرك شيئا ، ولكنه أحس بأنها تعتقد أنها تعذب ٠ ولم تكن القطة طفلا ، فلم تكن تقول : « انها لم توجعنى تقريبا ٠٠ » ونزل ٠ واقتحمت رائحة الجثث التى تناهبتها الكلاب بلاشك ،

الحانوت من الأزقة القريبة ، يصحبها شعاع حائر من أشعة الشمس . فقال لنفسه : « ليس الألم هو ما ينقص هذا العالم . »

ولم يغتفر لنفسه الرفض الذى تلقى به طلب تشن . وكان يعلم شأنه فى ذلك شأن رجل اعترف بأسراره تحت ضغط التعذيب — أنه سيتصرف فى المستقبل على النحو الذى تصرف به ، ومع ذلك فانه لا يغتفر لنفسه هذا التصرف . لقد خان شبابه ، وخان مطامحه وأحلامه . فكيف لايخونهم ؟ « المهم هو أن يريد المرء ما يقدر عليه ... » ولم يكن يريد ما لا يستطيعه ، وهو أن يقدم لتشن المأوى ، وأن يخرج معه .. أجل ... الخروج . التعويض بأى عنف كان ، بواسطة القنابل ، تلك الحياة القاسية التى تسممه منذ أن ولده ، بل التى تسمم أطفاله ، وأطفاله على الأخص . أما عذابه ، فكان من الممكن أن يتقبله : فقد اعتاد عليه .. وأما عذاب أطفاله فهذا ما لايستطيع أن يتحمله . « لقد أصبح ذكيا جدا منذ أن أصيب بالمرض » هذا ما قالته ماى ، وكأنما كان ذلك عن طريق المصادفة .

ليته يخرج مع تشن ، ويتناول قنبلة من القنابل المخبأة فى الحوائط ، ويلقيها . هـذا هو المعقول ، بل الشىء الوحيد الذى له معنى فى حياته الحاضرة . سبعة وثلاثون عاما .. وربما بقيت أمامه فى الحياة ثلاثون سنة أخرى . ولكن كيف يحياها ؟ أيعيش على هـذه الاسطوانات الراقدة فى المخزن والتى يتقاسم بؤسها مع لو — يو — شوين ، والتى لا تمكن الواحد أو الآخر من أن يعيش ، ثم ، حين ينحدر الى الشيخوخة .. سبعة وثلاثون عاما ، الى أبعد ما تستطيع أن تعود به الذاكرة ، كما يقولون ، غير أن ذاكرته لا تستطيع أن تعود به الى شىء : فهى من أولها الى آخرها بؤس فى بؤس .

كان تلميذا فاشلا فى المدرسة ، يتغيب يوما كل يومين — وكانت أمه تدفعه الى أن يقوم بعملها لكى تستطيع أن تتعاطى الخمر فى هـدوء . فى مصنع : فاعل ومشاغب ، فقد كان فى الجيش ، محبوسا دائما . وفى الحرب، استنشق الغازات السامة .. لحساب من ؟ ولماذا ؟ أفى سبيل وطنه ؟ انه لم يكن بلجيكيا ، بل كان بائسا . ولكن الجنود يأكلون فى الحرب ، دون القيام بعمل كثير . ثم سرح من الجيش ، وأخيرا ، ذهب الى الهند الصينية على سطح سفينة . « الجو لا يسمح ها هنا بممارسة الحرف اليدوية .. »

ولكنه يسمح للمرء بأن يموت بالدوسنطاريا ، وعلى الأخص للأشخاص المعروفين بالشغب • ولقد أخفق فى شنغهاى •• القنابل ، يا رحمة الله ، •• القنابل !

وكانت لديه زوجة ، وهى الشيء الوحيد الذى منحته الحيـاة اياه •• لقد بيعت باثني عشر دولارا • ولمـا هجرها الشارى لأنها لـم تعد تعجبه ، لجأت اليه مذعورة لكى تأكل وتنام • ولكنها لم تكن تنام فى بداية الأمر ، متوقعة منه أن يعاملها معاملة الأوروبيين الشريرة التى سمعت عنها دائما • ولكنه كان طيبا معها ، فتخلصت شيئا فشيئا من ذعرها ، وأخذت تعتنى به أثناء مرضه ، وتعمل من أجله ، وتحتمل أزمات الحقـد العاجز التى كانت تنتابه • كانت متعلقة به تعلق الكلب الأعمى المضطهد ، وهى تظن فى أعماق نفسها أنه كلب أعمى مضطهد آخر • والآن ، قد أنجب طفلا • ماذا يستطيع أن يصنع من أجله ؟ بالكاد أن يقوته • لم يبق له من القوة الا ما يمكنه من تعذيب الآخرين ، وفى العالم من الآلام ما يزيد على عدد نجوم السماء ، بيد أن أشد هذه الآلام نكرا هو ذلك الألم الذى يستطيع أن يفرضه على زوجته ، اذا مات وتركها وحدها • انه لأشبه بجاره ذلك الروسى الجائع الذى كان يعمل فاعلا فى مصنع ، فانتحر ذات يوم لاشتداد بؤسه عليه ، ولم يكن من زوجته التى جنت من الغضب الا أن صفعت جثة الرجل الذى تركها مع أربعة من الأطفال كانوا يقفون فى أركان الغرفة • وقد سألهـا أحدهم : « لمـاذا تتضاربان ؟ » أما زوجته وولده ، فانه يمنعهما من الموت •• وليس هـــذا بالشيء القليل •• انه على كل حال أقل من لا شيء • ولو كان يملك شيئا من المـال يستطيع أن يتركه لهما ، اذن لكان حرا فى قتل نفسه • وكأن العالم لم يكتف بأن عامله طيلة حياته تلك المعاملة القاسية التى تشبه الركل فى البطن ، فهو يضن عليه بالكرامة الوحيدة التى يستطيع أن يملكها •• ألا وهى موته • وراح يتنفس – مع ثورة كل شيء حى – فيستنشق بعمق ، رغم تعوده ، رائحة الجثث المنتنة التى تسوقها كل هبـة ريح على أشـعة الشمس الساكنة ، فتنفذ الى صدره فى رعب يشوبه الرضا ، وقد استولت عليه ذكرى « تشن » وكأنه صديق يحتضر ، وهو يبحث – كما لو كانت لذلك أهمية – عما يسيطر على نفسه : هو الخجل أم هى الأخوة أم هو الحسد الضارى •

* *

وغادر « تشن » ورفاقه الشارع الكبير مرة أخرى • ولم تكن الأزقة والحارات خاضعة لرقابة كافية ، لأن سيارة الجنرال لا تمر فيها • وحدث « تشن » نفسه قائلا وهو خافض الرأس ، ناظرا الى حذاءيه الوثيدين اللذين يتقدمان أمام ناظريه الواحد اثر الآخر : « يجب تغيير الخطة • » أمن الممكن صدم سيارة تشانج ـ كاى ـ شيك بسيارة أخرى قادمة من الاتجاه المضاد ؟ غير أن الجيش كان خليقا بالاستيلاء على كل سيارة • أما محاولة استخدام راية احدى المفوضيات لحماية السيارة التى سوف يستخدمونها فأمر مشكوك فيه ، لأن البوليس يعرف سائقى الوزراء الأجانب • واذا سددنا الطريق بعربة من عربات الجر ؟ ان تشانج ـ كاى ـ شيك تسبقه دائما السيارة الفورد التى تقل حرسه الشخصى • وازاء هذا الاعتراض المريب ، سيطلق الحراس والبوليس المعلق على جانبى السيارة ـ الرصاص على كل من يحاول الاقتراب • وأصغى تشن : فقد كان رفاقه يتحدثون منذ لحظات •

قال پى : « سوف يتخلى كثير من القواد عن تشانج ـ كاى ـ شيك اذا علموا أنهم معرضون حقا للاغتيال •• فنحن وحدنا الذين نؤمن بما نفعل • »

وقال سوين : « أجل ••• ان أبناء الذين أعدموا يصبحون ارهابيين ممتازين • » وكان الاثنان كذلك •

وأضاف پى : « أما بالنسبة للقواد الذين يبقون ، فحتى لو أنهم أقاموا الصين ضد مبادئنا ، فقد جعلوها دولة عظيمة ، لأنهم سيقيمونها على دمائهم • » وهنا قال تشن وسوين فى صوت واحد : « كلا • » فكل منهما كان يعلم كيف ارتفع عدد الوطنيين فى صفوف الشيوعيين ، وبين المثقفين بوجه أخص • كان « پى » يكتب فى مجلات ـ سرعان ما تصادر ـ قصصا تشيع فيها مرارة راضية بأمرها فى أسى ، ومقالات استهل أحدثها بهذه العبارة : « وما دامت الامبريالية تعانى ضائقة ، فان الصين تفكر فى أن تهيب بأريحتها مرة أخيرة ، وأن تطلب منها أن تضع فى أنفها مكان الحلقة الذهبية حلقة من النيكل •• » وكان يعد من جهة أخرى ايديولوجية للارهاب • وقد كانت الشيوعية فى نظره ـ هى الوسيلة الحقيقية الوحيدة لاحياء الصين •

قال سوين : « اننى لا أريد أن أصنع الصين • وانما أريد ان انقذ اهلى

قال سوين : « اننى لا أريد أن أصنع الصين • وانما أريد ان انقذ اهلى

أقتل ‥ من أجلهم فحسب ‥ »

فأجابه تشن : « مادمنا نحاول القاء القنبلة ، لن تستقيم لنا الأمور · فما أكثر فرص الاخفاق ‥ لابد اذن من الانتهاء من هذه العملية اليوم · »

قال پی : « ان تصرفنا على نحو آخر لن يكون أشد يسرا · »

ـ « ثمة وسيلة · »

وكانت السحب الواطئة الثقيلة تتقدم فى اتجاه مسيرهم ، من تحت الضوء المصفر وفى حركة المصائر المترددة ، المستبدة معا · وأغمض « تشن » عينيه لكى يستغرق فى التفكير ، دون أن يتوقف عن السير قط ، وكان رفاقه ينتظرون ، وهم ينظرون الى صورة وجهه الجانبية المقوسة التى تتقدم كالعادة على طول الجدران ·

ـ « ثمة وسيلة ، وأعتقد انه لا يوجد سواها : ينبغى ألا نلقى القنبلة ، بل أن يرمى حاملها بنفسه معها تحت السيارة · »

واتصل المسير عبر أفنية خربة لم يعد يلعب فيها الأطفال ‥ وكان الثلاثة غارقين فى التفكير ·

وأخيرا وصلوا ‥ فقادهم مساعد « شيا » الى مؤخرة الحانوت ، وظلوا واقفين وسط المصابيح ، وقد تأبطوا حوافظهم : وانتهى بهم الأمر الى وضعها فى حذر ، وجلس « سوين » و « پی » القرفصاء على الطريقة الصينية ·

ـ « لماذا تضحك يا تشن ؟ »

ولم يكن « تشن » يضحك ، بل يبتسم ، ابتسامة بعيدة عن السخرية التى أضفاها عليها قلق « پی » · وندهشته البالغة استولى عليه ضرب من البشر ، وأصبح كل شىء بسيطا · وتبدد قلقه · وكان يعرف أى جزع يقلق رفاقه ، على الرغم من شجاعتهم ، اذ أن القاء القنابل ، حتى ولو كان بأخطر طريقة ، معناها المغامرة ، أما التصميم على الموت فكان شيئا آخر ، وربما كان العكس تماما · وشرع يذرع المكان جيئة وذهابا · ولم تكن مؤخرة الحانوت مضاءة الا بنور النهار الذى ينفذ عبر المتجر · ولما كانت السماء رمادية ، فقد ساد هناك ضوء ثقيل كالرصاص أشبه بالضوء الذى يسبق العواصف ·

وفى تلك العتمة القذرة أخذت تلمع على بطون (الفوانيس) أشكال من الضوء ، أشبه بعلامات استفهام مقلوبة ومتوازية • وكان ظل تشن المختلط اختلاطا لا يسمح له بأن يكون طيفا ـ كان يتقدم فوق عيون الآخرين القلقة •

ـ « كيو على حق • فان اشد ما نفتقر اليه هو احساس « الهاراكيرى » غير أن اليابانى الذى يقتل نفسه ، قد يصبح الها ، وهذه هى بداية الشعوذة • كلا • ينبغى أن يسقط الدم على الناس ـ وأن يظل هناك • »

قال سوين : « اننى أوثر أن أحاول النجاح ـ النجاح فى عدة محاولات بدلا من أن أقرر القيام بمحاولة واحدة ، لأننى سأموت بعدها • »

ومع ذلك سرى تحت كلمات « تشن » تيار صادر من نبرتها أكثر من أن يكون صادرا من معناها ـ وذلك حين عبر عن عاطفته باللغة الصينية ، فاتخذ صـــوته قوة هائلة ـ تيار اجتذب ســوين ، دون أن يعرف مصدر هـــذا الانجذاب •

وأجاب تشن : « يجب أن ألقى بنفسى تحت السيارة • »

وتابعوه بنظراتهم ، دون أن يحركوا رقابهم ، بينما أخذ يبتعد ثم يقترب، أما هو ، فلم يعد ينظر اليهم • واصطدم بمصباح من المصابيح الموضوعة على الأرض ، فاسترد توازنه عند الجدار • وسقط المصباح ، وتحطم وهو يرن • بيد أنه لم يكن ثمة مجال للضحك • وبرز ظله الذى اســتعاد توازنه بروزا مختلطا فوق رءوسهم ، على الصفوف الأخيرة من المصابيح • وبدأ « سوين » يفهم ما ينتظره منه تشن ، ومع ذلك قال بدافع من عدم الثقة بنفسه ، أو دفاعا ضد ما يتوقعه :

ـ « ماذا تريد ؟ »

ولاحظ تشن أنه لا يعرف ماذا يريد • وبدا له أنه يناضل ـ لا ضـد سوين ـ ولكن ضد فكره الذى يفر منه ، وأخيرا قال :

ـ « ألا يضيع ذلك ؟ »

ـ « أتريد أن يتعهد « پى » وأن أتعهد انا بتقليدك ؟ اهذا ما تريد ؟ »

ــ « ليس وعدا ما أنتظر ‥ انه حاجة . »

وكانت الانعكاسات تتلاشى على المصابيح ، وأخذ نور النهار يضمحل في هذه الحجرة الخالية من النوافذ ، ولم يكن من شك أن السحب تتراكم في الخارج . وتذكر تشن چيسور : « حين يقترب المرء من الموت ، فان مثل هــــذه العاطفة تتطلع الى أن تنتقل الى لغير ‥‥ وفجأة ، فهم ما تعنيه هــذه الكلمات . كما فهم سوين أيضا :

ــ « أنت تريد أن تجعل من الارهاب نوعا من الدين ؟ »

وأخذ حماس « تشن » يتضخم ، وأصبحت الكلمات جميعا جوفاء لا معنى لهــا ، وأضعف من أن تستطيع التعبير عمايريده .

ــ « لا أعنى أن يكون دينا ‥ بل معنى الحياة ‥ والــ ‥ »

وأشار بيده اشارة تشنجية وكأنه يعجن ، وبدا فكره لاهثا كالتنفس .

ــ « امتلاك الذات امتلاكا كاملاً ‥ تاما ‥ مطلقا . الشيء الوحيد ‥ الغرفة . التوقف عن البحث ‥ البحث كل الوقت عن أفكار وواجبات . منذ ساعة لم أعد أشعر بما يثقل على نفسى ‥ أتسمعون ؟ لا شيء . »

وكانت نشوته قد بلغت حدا لم يعد يحاول معه أن يقنعهم الا بأن يتحدث عن نفسه :

ــ « انني أملك نفسى . ولكن دون أي تهديد أو قلق كما كان الحـال دائما ، وأضغط عليها ، كما تضغط هذه اليد عـلى اليد الأخرى ــ ( وضغط على يده بكل قوته ) ولكن هذا لا يكفى ‥ كما ‥ »

وتناول شظية من زجاج المصباح المحطم ، شظية كبيرة مثلثة الشكل ، مليئة بالانعكاسات ‥ وبضربة واحدة ، غرسها فى فخذه . وكان صـوته المتهدج ممتلئا بثقة وحشية ، غير أنه كان يبدو مسيطرا على نشوته ، أكثر مما تسيطر نشوته عليه ‥ ولم يكن مجنونا بحال من الأحوال . وكان الاثنان الآخران يريانه فى مشقة ، ومع ذلك فقد كان ملء الحجرة . وبدأ «سوين» يشعر بالخوف :

ــ « انني أقل منك ذكاء يا تشن ، ولكن ‥ بالنسبة لى أنا ‥ هــذا

شيء لا يناسبني · لقد شاهدت أبى معلقا من يديه ، وهو يضرب على بطنه بعصا من خيزران ، لكى يعترف بالمكان الذى خبأ فيه سيده الأموال التى لا يملكها ·· انني أناضل من أجل قومى ··· لا من أجل نفسى · »

ـ « من أجل أهلنا ، لا يمكنك أن تفعل أفضل من ان تقرر الموت ·· ولا يمكن لتأثير أى انسان أن يقارن بتأثير الرجل الذى اختار هذا السبيل · ولو كنا قد قررنا ذلك ، لما أخفقنا فى اغتيال تشانج ـ كاى ـ شيك منذ لحظة ·· وأنت تعرف ذلك · »

ـ « ربما كنت أنت فى حاجة الى ذلك ·· لست أدرى ·· » وكان يتخبط لتوضيح ما يريد أن يقول : « ولو كنت متفقا مع هذا الرأى ـ أتفهمنى ؟ ـ لبدا لى أننى لا أقتل من أجل الجميع ، وانما ·· »

ـ « وانما ؟ »

ولبث ضوء ذلك الأصيل الكدر ، مع أنه كاد يعتم تماما ـ هناك لا يريم، وكأنه باق الى الأبد ·

ـ « من أجلك · »

وأعادت رائحة البترول القوية الى ذاكرة تشن صفائح البنزين التى أشعلوا بها حريق مركز البوليس فى اليوم الأول من الثورة · غير أن كل شيء كان يغوص فى الماضى ، حتى سوين ، ما دام لا يريد أن يتبعه · ومع ذلك فان الارادة الوحيدة التى كان فكره يتمثلها فى الحاضر دون أن تتحول الى عدم ، هى أن يخلق هؤلاء « القضاة » المقضى عليهم ، هذا الجنس من الآخذين بالثأر · وكان مولد هذا الجنس يتم داخل نفسه كما تتم كل ولادة ـ فى حالة من التمزق والنشوة لا يستطيع أن يسيطر عليها · ولم يعد يحتمل أى تحضر ، فنهض ·

قال موجها كلامه الى پى : « أنت يا من تكتب ، عليك بالشرح · »

وتناولوا حوافظهم ، ومسح پى نظارته ، ورفع تشن سرواله ، وربط فخذه بمنديل دون أن يغسل الجرح ·· ولماذا يغسله ؟ ان الوقت لن يتاح له لكى يتلوث ـ قبل الخروج · وقال لنفسه فى شيء من القلق : « اننا نصنع دائما نفس الشيء » ، وكان يفكر فى السكين التى أغمدها فى ذراعه ·

قال : « سأرحل وحدى ·· وسأكون وحدى كافيا هذا المساء · »

فأجابه سوين : « سأحاول أن أضع خطة ما على الرغم من ذلك · »

ـ « سيكون قد فات الأوان · »

وأمام الحانوت ، تقدم « تشن » خطوة متجها صوب اليسار ، وتبعه « بى » بينما ظل « سوين » بلا حراك ·· ثم تقدم خطوة أخرى ، وتبعه « بى » أيضا · ولاحظ تشن أن هـذا المراهق الذى يمسك نظارته بيده ، والذى يبدو وجهه الشبيه بوجه الأطفال دون نظارات أشد انسانية ــ لاحظ أنه يبكى فى صمت ·

ـ « الى أين تذهب ؟ »

ـ « آت معك · »

وتوقف تشن ــ لقد كان يعتقد دائما أنه يتبع رأى سوين ، فنبهه باشارة من أصبعه الى أن هذا الأخير قد بقى أمام الباب ·

فردد بى : « سآتى معك · »

كان يجاهد نفسه لكى لا يتفوه الا بأقل كلام ممكن ، وكان صوته غير صوته ، وتفاحة آدم تهتز بسبب زفراته الصامتة ·

ـ « لا · اليوم ، أشهد ·· »

وغرز أصابعه فى ذراع « بى »

وردد قائلا : « شهادة · »

وابتعد ·· بينما بقى « بى » على الرصيف ، فاغر الفم ، وهو يمسح نظارته دائما فبدت هيئته مضـحكة · انه لم يظن أبدا أن الانسان يمكن أن يكون وحيدا الى هذا الحد ·

**الساعة الثالثة**

كان « كلابيك » يتوقع أن يجد كيو فى منزله · ولكنه كان مخطئا : ففى الحجرة الكبيرة كانت على السجادة رسومات أخذ يجمعها تلميذ من تلاميذ

چيسور يرتدى الكيمونو ، وكان چيسور يتحدث الى صهره : المصور « كاما » ٠

ـ « صباح الخير يا عزيزى ٠ تعال بين أحضانى ٠ »

وجلس فى هدوء ٠

ـ « من المؤسف ألا يكون ابنك موجودا ٠ »

ـ « أتريد أن ننتظره ؟ »

ـ « فلنحاول ٠٠ اننى فى حاجة شيطانية الى رؤيته ٠ ما هذه الصبارة الصغيرة الجديدة الموضوعة تحت منضدة الأفيون ؟ لقد أصبحت المجموعة جديرة بالاحترام ، بديعة ٠٠ يا صديقى العزيز ٠٠ بد ٠٠ ديعة ٠ يجب أن أشترى واحدة منها ٠ أين عثرت عليها ؟ »

ـ « انها هدية ٠٠ وقد أرسلت الى منذ أقل من ساعة ٠ »

وطالع كلابيك الحروف الصينية المنقوشة على الحامل المسطح للنبات : كلمة « الوفاء » بحروف ضخمة ، وثلاث كلمات صغيرة ، وتوقيع : « تشن ـ تا ـ يل ايل ٠ »

ـ « تشن ـ تا ـ ايل ٠٠ تشن » ٠ـ لا أعرفه ٠٠ يا للخسارة ٠٠ انه فتى خبير فى أنواع الصبار ٠ »

وتذكر أنه يجب أن يرحل غدا ٠٠ ولابد أن يحصل على نفقات الرحيل ، لا أن يشترى صبارا ٠٠ ومن المحال أن يبيع التحف الفنية على عجل فى مدينة محتلة عسكرية ٠٠ وقد كان أصدقاؤه فقراء ، ولن يسمح فيرال باقراضه لو تقدم اليه بأية ذريعة ٠٠ وكان قد كلفه بأن يشترى له بعض لوحات « كاما » الملونة ، حين يصل المصور اليابانى ٠ وهذا لا يعنى أكثر من بضع عشرات من الدولارات هى قيمة هذا التكليف ٠٠

قال چيسور : « كان ينبغى أن يكون كيو هنا ٠٠ لقد أعطى مواعيد كثيرة اليوم ٠٠ أليس كذلك ؟ ٠٠ »

فزمجر كلابيك قائلا : « ربما كان من الأفضل أن يخلفها جميعا ٠ »

ولم يجرؤ على أن يضيف شيئا ، فقد كان يجهل ما يعرفه چيسور عن نشاط كيو · غير أن امتناع چيسور عن القاء أى سؤال كان بمثابة اهانة له :

ـ « انك تعلم أن الأمر جد خطير · »

ـ « ان كل ما يمس كيو خطير بالنسبة الى · »

ـ « أليست لديك أية فكرة عن الوسائل التى يستطيع بها المرء أن يكسب أو أن يجد فورا أربعمائة أو خمسمائة من الدولارات ؟ »

وابتسم چيسور فى حزن · وكان كلابيك يعرف أنه فقير ، وحتى لو قيل أن يبيع تحفه الفنية ، فانها ··

وقال البارون لنفسه : « فلنكسب اذن دراهمنا القليلة · » واقترب ، ونظر الى اللوحات المتناثرة على المتكأ · وعلى الرغم من أنه كان من رهافة الحس بحيث لا يحكم على الفن اليابانى التقليدى بمقارنته بسيزان أو بيكاسو ، فانه كان اليوم بغيضا الى نفسه : ذلك أن السكينة فى الفن لايكاد يتذوقها الأشخاص المطاردون · هذه مناظر النيران الضائعة فى الجبل ، وطرقات القرية التى تذيبها الأمطار ، وتحليق طائر البشروش على الجليد ، وكل هذا العالم الذى فيه تمهد الكآبة للسعادة ·· وتخيل كلابيك ·· وا آسفاه ! تخيل دون عناء ، الفراديس التى كان عليه أن يقف عند أبوابها ، ولكنه كان ساخطا على وجودها ·

قال : « ان أجمل امرأة فى العالم عارية ، منفعلة ، ولكن مع حزام العفة ·· انها لفيرال ، وليست لى أنا ·· فلنعد الى ما تحت الأرض · »

وانتقى أربع لوحات ، وأملى عنوانه على تلميذ الرسام · قال چيسور : « مادمت تفكر فى فننا ، انما هذا الفن لا يؤدى نفس الغرض · »

ـ « لماذا ترسم يا كاما ـ سان ؟ »

ونظر الأستاذ العجوز الى كلابيك فى فضول، وقد سطع النور على رأسه الصلعاء ، وهو فى رداء الكيمونو كتلميذه ، اذ يؤثر دائما أن يكون بالروب ذى شامبر ، وبهذا كان كلابيك هو وحده الذى يرتدى سروالا ·

وترك التلميذ الرسم التخطيطى ، وترجم ثم أجاب :

ـ « يقول الأســتاذ : اننى أرسم أولا من أجـل زوجتى ٠ ٠ ٠ لأننى أحبها ٠٠ »

ـ « لم أسألك لمن ترسم ، وانما لماذا ترسم ؟ »

ـ « يقول الأستاذ : أن هذا أمر يصعب شرحه لك ٠ ويقول : عندما ذهبت الى أوروبا ، شاهدت المتاحف ٠ وكلما رسم مصــوروكم تفاحا ، بل خطوطا لا تمثل أشــياء ، فانهم يتحدثون عن أنفســهم ٠ أما بالنسبة لى ، فالعالم هو المهم ٠ »

وأضاف « كاما » جملة أخرى ، وكان التعبير الذى ارتسم على وجهه يوشك أن يكون تعبيرا عذبا أشبه بتعبير المرأة العجوز المتسامحة ٠

ـ « والأستاذ يقول : ان التصوير عندنا هو ما يمكن أن يسمى عندكم بالاحسان ٠ »

ودخل تلميذ آخر ـ يعمل طباخا ـ حاملا سلطانيات مليئة « بانسانى » ثم انسحب ٠

ـ « ويقول الاستاذ انه اذا توقف عن الرسم بداله أنه قد أصبح أعمى ٠٠ بل أكثر من أعمى ٠٠ أصبح وحيدا ٠ »

فقال البارون وقد فتح احدى عينيه وأغمض الأخرى ورفع سبابته : « دقيقة واحدة ٠٠ اذا قال لك طبيب : « أنت مصاب بمرض لا عــلاج له ، وستموت فى ظرف ثلاثة شهور » فهل تواصل الرسم ؟ »

ـ « يقول الأســتاذ انه لو علم أنه يوشك أن يموت ، فانه يعتقــد أنه سيرسم أفضل ولكن على النحو نفسه ٠ »

وتساءل چيسور : « ولماذا أفضل ؟ »

انه لايكف عن التفكير فى كيو ٠ وان ما قاله كلابيك حين دخوله يكفى لاقلاقه : ان السكينة اليوم تكاد أن تكون اهانة ٠

وأجابه كاما ، بينا أخذ چيسور يترجم بنفسه :

ـ « انه يقول : هناك ابتسامتان : ابتسامة زوجتى ، وابتسامة ابنتى ، فيهما أفكر حينما أعتقد اننى لن أراهما بعد أبدا ، واذ ذاك سيزداد حبى للحزن • ان العالم أشبه بحروفنا الأبجدية • ان ما تمثله الكلمة المرسومة بالنسبة للزهرة ، تمثله الزهرة نفسها ( وأشار الى احدى اللوحات ) بالنسبة لشيء ما •• كل شيء علامة •• والاتجاه من العلامة الى الشيء المدلول ، معناه تعمق العالم ، والاتجاه صوب الله • انه يعتقد أن اقتراب الموت •• ولكن انتظر ••• »

وسأل كاما من جديد ، ثم استأنف الترجمة :

ـ « أجل •• هذا صحيح • انه يعتقد ان اقتراب الموت ربما سمح له بأن يضع فى الأشياء جميعا لونا من الشغف والحزن ، لكى تصبح جميع الأشكال التى يرسمها علامات مفهومة ، وحتى يتكشف ما تعنيه ، وماتحجبه أيضا • »

وكان يسرى فى كلابيك احساس بالعذاب ازاء كائن ينكر الألم ، فأنصت فى انتباه ، دون أن يتحول نظره عن وجه كاما الزاهد المتسامح ، بينما جيسور يترجم ؛ لقد ضم مرفقيه الى جسمه وضم راحتيه ، وما أن يعبر وجه كلابيك عن الفهم حتى يتخذ هيئة قرد حزين يرتجف من البرد •

قال جيسور : « لعلك لم تصغ السؤال صياغة سليمة جدا • »

وقال باللغة اليابانية جملة قصيرة جدا •• وكان « كاما » يرد حتىالآن على الفور ، ولكنه أطال التفكير قبل أن يرد هذه المرة •

فسأله كلابيك بصوت هامس : « ما السؤال الذى وجهته اليه الآن ؟ »

ـ « ماذا يفعل لو أنبأه الطبيب بأن زوجته ستموت بعد قليل • »

ـ « يقول الأستاذ : انه فى هذه الحالة لن يصدق الطبيب • »

وعاد التلميذ الطباخ وحمل السلطانية على صينية •• وكانت حلته الأوروبية ، وابتسامته ، وحركاته التى جعلها السرور أقرب الى المبالغة ، بل حفاوته أيضا •• كان كل ما فيه يبدو غريبا حتى فى نظر جيسور نفسه• وقال كاما بصوت هامس جملة لم يترجمها التلميذ الآخر •

قال جيسور : « هؤلاء الشبان لا يشربون الخمر مطلقا فى اليابان ، وقد استاء الأستاذ لأن تلميذه مخمور • »

وشردت نظرته ، فقد فتح البـاب الخارجى ، وتلا ذلك وقع أقدام •• ولكنه لم يكن كيو •• وصارت نظرته محدودة مرة أخرى ، واستقرت فى حزم على عينى كاما :

ـ « واذا ماتت ؟ »

أكان من الممكن أن يتابع هذا الحوار مع شخص أوروبى؟ انما ينتمى هذا المصور العجوز الى عالم آخر • وقبل أن يجيب ارتسمت على جفنيه ـ لا على شفتيه ـ ابتسامة طويلة حزينة •

ـ « يستطيع المرء أن يتواصل حتى مع الموت •• وهذا أصعب الأشياء ، ولكن ، قد يكون هذا هو معنى الحياة •• »

واستأذن فى الانصراف، وعاد الى حجرته يتبعه تلميذه ، وجلس كلابيك•

ـ « لا كلمة •• عظيـم •• يا عزيزى •• ء •• عظيم • لقد انصرف كشبح مهذب جدا • هل تعلم ان الأشباح الشابة تفتقر الى التهذيب ، وأن الأشباح الشيوخ يجدون أشد العناء فى تعليمها طريقة تخويف الناس ، ذلك أن الأشـباح الشابة تجهل كل لغة •• ولا تسـتطيع أن تقول الا ثرب ـ ثرب •• وهذا ••• »

وتوقف عن الكلام •• مطرقة الباب مرة ثانية • وبدأت ترن فى هـذا السكون نغمات قيثارة لم تلبث أن انتظمت ، وأخذت تتساقط فى بطء ، وهى تتفتح فى هذا السقوط حتى بلغت النغمات الغليظة فاستقرت هنـاك طويلا ، ثم تبددت أخيرا فى سكينة مهيبة •

ـ « ما هذا ••• معنى هذا ؟ »

ـ « انه يعزف على الشاميزان • وهو يعزفه دائما حين يكدره شىء •• وهذا دفاعه عن نفسه حين يكون خارج اليابان • وقد قال لى بعد عودته من أوربا : وأعرف الآن أننى أستطيع ان اجد فى اى مكان سكونى الباطنى •••»

ـ « ادعـاء ؟ »

كان كلابيك قد ألقى سؤاله وهو شـارد الذهن ، اذ كان يصغى • ففى هذه الساعة التى ربما كانت حياته فيها مهددة بالخطر ( وان يكن من النادر أن يهتم بنفسه اهتماما يكفى لكى يشعر بأنه مهدد حقا ) أقلقته هو أيضا هذه النغمات الخالصه التى ردته الى نفسه ، والى حبه للموسيقى الذى عاش معه فى شبابه ، ذلك الشباب وكل ما تحطم معه من سعادة •

وقع أقدام مرة أخرى : لقد دخل كيوفعلا •

وصحب كيو كلابيك الى حجرته •• ولم يكن بها سوى متكأ ، ومقعد ، ومكتب وجدران بيض •• فكل مافيها ينم عن تقشف مقصود • وكان الجو حارا •• فألقى كيو بسترته على المتكأ وظل بصداره الصوفى •

قال كلابيك : « اليك هذا •• لقـد أبلغونى بمعلومات سرية ، تخطىء لو أنك لم تحسب لها أعظم الحساب : اذا لم نرحل عن هذا المكان قبل مساء غد ، فنحن من الهالكين • »

ــ « من أى مصدر استقيت هذه المعلومات ؟ من البوليس ؟ »

ــ « مرحى • من العبث أن أقول لك : اننى لا أستطيع أن اخبرك بأكثر من ذلك • غير أن هذا أمر جدى • ان قصة الزورق قد عرفت • التزم الهدوء ، واهرب قبل ثمان وأربعين ساعة • »

وكان كيو يوشك أن يقـول : « لـم يعد فى الأمر جريمة مادمنا قـد انتصرنا » ولكنه ظل صامتا • ولشدة توقعه قمع حركة العمال ، لم يندهش • وأصبح الأمر أمر الانشقاق ، وهذا ما لم يكن كلابيك يستطيع أن يتكهن به ، واذا كانوا يطاردون كلابيك ، فذلك لأن الشيوعيين قد استولوا عـلى « شان ــ تونج » ولأنهم يعتقدون أنه مرتبط بهم •

واستطرد كلابيك : « ماذا أنت صانع ؟ »

ــ « التفكير أولا • »

ــ « يا لها من فكرة ثاقبة ! وهل لديك شىء من المال للهرب ؟ » فهز كيو كتفيه وهو يبتسم •

ــ « لا أنتوى الهرب • » ثم استأنف كلامه بعد برهة :

ـ « وليس معنى ذلك أن معلوماتك ليست على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة لى • »

ـ « أليست لديك نية الهرب • أنت تفضل أن يقطعوا رقبتك ؟ »

ـ « ربما • ولكنك تريد الرحيل •• أنت ؟ »

ـ « ولماذا أبقى ؟ »

ـ « كم يلزمك ؟ »

ـ « ثلاثمائة ، أربعمائة •• »

ـ « ربما استطعت أن أعطى لك جزءا منها • اننى أود أن اساعدك • ولا تعتقد أننى أتخيل بذلك رد الخدمة التى تسديها لى •• »

وابتسم كلابيك فى حزن • انه لم يخطىء فهم رقة كيو، ولكنه تأثر بها • وواصل كيو كلامه قائلا : « أين ستكون هذا المساء ؟ »

ـ « حيثما تشاء • »

ـ « كلا • »

ـ « فلنقل اذن فى « القط الأسود » •• اذ يجب أن أبحث عن أموالى القليلة بطرق شتى • »

ـ « فليكن •• فهذا المنتدى الليلى يقع فى منطقة الامتيازات ، ومن ثم لا وجود فيه للبوليس الصينى • وخطر الخطف هناك أقل منه هنا : اذ يوجد عدد كبير من الناس •• وسأمر هناك بين الساعة الحادية عشرة ، والحادية عشرة والنصف ، ولكننى لن أتأخر عن ذلك ، لأن لدى موعدا بعد ذلك •• »

وحول كلابيك نظرته بعيدا •

ـ « •• مصمم على ألا أخلفه •• هل أنت واثق من أن « القط الأسود » لن يكون مغلقا ؟ »

ـ « جنون • انه سيكون مليئا بضباط تشانج ـ كاى ـ شـيك • • • وستكون حللهم الرسـمية المظفرة معقودة أثناء الرقص بأجساد الغوانى كأجمل ما تكون العقود • سأنتظر اذن وأنا أتأمل فى انتباه هـذا المشهد المحتوم الى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف • »

ـ « هل تعتقد أنك تستطيع الحصـول على مزيد من المعلومات هـذا المساء ؟ »

ـ « سأحاول • »

ـ « ولعلك تسدى لى بذلك خـدمة عظيمة •• خدمة أعظم مما تستطيع أن تتصور • وهل ذكرونى بالاسم ؟ »

ـ « أجل • »

ـ « ووالدى ؟ »

ـ « كـلا •• والا كنت قد أبلغته •• فلم يكن له شأن اطلاقا بمسألة شان ـ تونج •• »

وكان كيو يعلم أنه لا داعى للتفـكير فى شـان ـ تونج ، وانما ينبغى التفكير فيما يبيت من قمع الثورة •• وماى ؟ لقد كان دورها من قلة الأهمية بحيث لم يجد ثمة داع لأن يسأل عنها كلابيك • أما بالنسبة لرفاقه ، فانه اذا كان مهددا ، فانهم بالتالى مهددون جميعًا • »

ـ « شكرا • »

وعادا معا • وفى غرفة العنقاء كانت « ماى » تقول لجيسور :

ـ « هذا أمر صعب للغاية : فلو منح الاتحاد النسائى حق الطلاق للنسوة اللواتى تساء معاملتهن ، لترك أزواجهن الاتحاد الثورى ، واذا لم نمنحهن هذا الحق ، فانهن يفقدن كل ثقة بنا •• ولن يكن حينذاك على خطأ •• »

قال كيو : « فيما يتعلق بالتنظيم أخشى ألا يكون الوقت مبكرا جدا أو قد فات أوانه • »

وانصرف كلابيك ، دون أن يسمع شيئا •

وقال لجيسور : « كن كريما كعادتك ، واعطنى صبارتك • »

ـ « اننى أحب الفتى الذى بعث بها الى •• ولك أن تأخذ أية واحـدة سواها ، بكل سرور • »

وكانت صبارة صغيرة غزيرة الشعر •

ـ « لا فائدة اذن • »

ـ « الى لقاء قريب • »

ـ « الى لقاء •• كلا •• ربما •• الى اللقاء يا عزيزى •• الرجل الوحيد الذى لا وجود له فى شنغهاى •• لا كلمة ـ الذى لا وجود له على الاطلاق ! ـ يحييك • »

وخرج •

وكانت ماى وچيسور ينظران الى كيو فى قلق ، فشرح لهما الأمر على الفور :

ـ « لقد علم من البوليس أننى موجود فى القائمة ، فأشار على بألا أتحرك من هذا المكان ، الا للهروب قبل مضى يومين •• ومن جهة أخرى ، أصبح قمع الثورة وشيكا •• وقد غادرت المدينة آخر كتائب الفيلق الأول • »

وكان هذا هو الفيلق الوحيد الذى يستطيع الشيوعيون الاعتماد عليه • وكان « تشانج ـ كاى ـ شيك » يعرف ذلك ، فقد أمر قائده أن ينضم الى الجبهة بجنوده •• فاقترح هذا الأخير على اللجنة المركزية الشيوعية أن تلقى القبض على تشانج ـ كاى ـ شيك وأشاروا عليه بأن يكسب الوقت ، وأن يتظاهر بالمرض ـ ولكنه سرعان ما وجد نفسه أمام انذار نهائى • ولما كان لا يجرؤ على القتال دون موافقة الحزب ، فقد غادر المدينة محاولا أن يترك بعض الجنود فقط ، والآن قد غادر هؤلاء المدينة بدورهم • »

واستطرد كيو قائلا : « ولكنهم لم يبتعدوا كثيرا عن المدينة ، بل ان الفيلق نفسه يستطيع أن يعود ، لو احتفظنا بالمدينة فى أيدينا وقتا كافيا • »

وفتح الباب مرة أخرى ، وأطل أنف ، وقال صوت ـ كأنه صادر عن كهف : « البارون كلابيك لا وجود له • »

وأغلق الباب من جديد • وتساءل كيو :

ـ « ألم تصل أنباء عن هنكيو ؟ »

ـ « لا شىء • »

وكان كيو قد قام سرا منــذ عودته بتنظيم فرق القتال ضد تشانج ــ كاي ــ شيك ، كما سبق أن نظمها ضد الشماليين • وكانت « الدولية » قد رفضت كل شــــعارات المعارضـــة ، ولكنها قبلت الاحتفاظ بفرق الهجــوم الشيوعية • ومن فرق المجاهدين الجديدة كان كيو ورفاقه يريدون أن يصنعوا منظمي الجماهير التي أخذت تتجه كل يوم الآن نحو النقابات ، غير أن الخطب الرسمية التي كانت تصدر عن الحزب الشيوعي الصيني ، وكل ما تروجه الدعاية عن الاتحاد مع الكومنتانج ، كان يشل حركتهم ، ولم تؤيدها سوى اللجنة العسكرية وحدها • ولم يتم تسليم الأسلحة كلها ، غير أن تشانج ــ كاي ــ شيك ــ قد اشترط في هـــذا اليوم بالذات تسليم الأسلحة التي ما زال الشيوعيون محتفظين بها • وأبرق كيو واللجنة العسكرية بنداء أخير الى هانكيو •

كان جيسور الشيخ قلقا ، لأنه كان متتبعا للأحداث هذه المرة • كان على يقين ــ شأنه في ذلك شأن « كيو » ــ من أن تشانج ــ كاي ــ شيك سيحاول تحطيم الشيوعيين ، وكذلك كان يعتقد مثله أن اغتيال الجنرال سيصيب من الرجعية مقتلا • ولكنه كان يمقت طابع التآمر الذي تتسم به حركتهم الحالية • ذلك أن موت تشانج ــ كاي ــ شيك ، بل الاستيلاء على حكومة شنغهاي •• لن يؤدي الا الى المغامرة • وكان يحبذ ، مع بعض أعضاء « الدوليـــة » الآخرين ، عودة الجيش الحـــديدي والجناح الشـــيوعي من الكومنتانج الى كانتون : فهناك يستطيع الشيوعيون بالاعتماد على مدينة ثورية وعلى ترسانة نشطة مجهزة ــ يستطيعون الاستقرار وانتظار اللحظة المناسبة للقيام بحملة جديدة على الشـــمال ، وهي اللحظة التي يعدها في عمق رد الفعل الوشيك • وقد كان قواد هنكيو متعطشين الى غزو الأراضي ، ولكنهم لم يكونوا كذلك بالنسبة لجنوب الصـــين ، حيث النقابات المخلصة لهؤلاء الذين يمثلون ذكرى « صن ــ يات ــ سن » خليقة بأن ترغمهم عـــلى حرب عصابات دائمة وقليلة الجدوى • وبدلا من أن يقع على الجيش الأحمر واجب محاربة الشماليين ، ثم تشانج ــ كاي ــ شيك ، فان تشانج ــ كاي ــ شيك هو الذي سيتولى على هـــذا النحو مهمة محاربة الشماليين • وأيا كان العدو الذي سوف يلتقي به الجيش الأحمر بعد ذلك في كانتون ، فانه لن يلقى الا عدوا قد ضعف • وكان جيسور يقول عن قواد الجيش : « ان الحمير مفتونة بجزرها بحيث أنهـــا لن تقـــدم على عضنا اذا لـــم نضع أنفســـنا بينها وبين

الجزر .. » ومع ذلك ، فقد كانت الغالبية العظمى من الحزب الشيوعى الصينى ، وربما موسكو أيضا ـ تصف هذا الرأى بأنه نزعة الى «التصفية» .

وكان كيو يعتقد ـ كما يعتقد والده ـ أن أفضل سياسة هى العودة الى كانتون . بل كان يود فضلا عن ذلك لو مهد بدعاية واسعة النطاق لهجرة العمال بأجمعهم ( وهو لا يملكون شيئا يأسفون على فراقه ) من شنغهاى الى كانتون .. كانت خطة صعبة جدا ، ولكنها ليست مستحيلة : فاذا كان من الممكن ضمان أسواق المقاطعات الجنوبية ، فان جماهير العمال تستطيع أن تقوم بتصنيع كانتون تصنيعا سريعا . بيد أنها سياسية خطرة بالنسبة لشنغهاى : ذلك أن عمال النسيج على حظ من الدربة ، أما تدريب عمال جدد فمعناه تكوين ثوريين جدد ، اللهم الا اذا رفعت الأجور ، ولابد أن يقول فيرال : « ان هـذا الافتراض مستبعد نظرا للحالة الحاضرة التى تعانيها الصناعات الصينية . » وهذا معاه تخريب شنغهاى لتعمير كانتون ، كما حدث فى هونج كونج سنة ١٩٢٥ . وهونج كونج على بعد خمس ساعات من كانتون ، أما شنغهاى فعلى بعد خمسة أيام .. انه مشروع صعب ولعله أصعب من أن يجابهوا الموت ، ولكنه أقل غباء .

وكان مقتنعا ـ منذ عودته من هانكيو ـ أن الرجعية تستعد . ولو لم يخطره كلابيك ، فقد كان ينظر الى الموقف فى حالة هجوم جيش تشانج ـ كاى ـ شيك على الشيوعيين بأنه باعث على اليأس الى درجة أن كل حدث حتى ولو كان اغتيال الجنرال ( أيا كانت العواقب ) قد أصبح مفيدا . وان تم تسليح النقابات ، استطاعت أن تحاول فى جهد محاربة جيش غير منظم .

ودق جرس الباب مرة أخرى ، فجرى كيو الى الباب : انه ساعى البريد يحمل أخيرا رد هانكيو . ونظر اليه أبوه « وماى » عائدا ، دون أن يقولا شيئا .

قال : « أمر بدفن الأسلحة . »

وتحولت الرسالة الممزقة الى كرة موضوعة فى تجويف يده ، وتناول قطع الورق ، ونشرها على منضدة الأفيون ، وأخذ يقرب بينها ، ثم هز كتفيه ساخرا من صبيانيته .. لقد كان الأمر واضحا باخفاء الأسلحة أو دفنها .

ـ « يجب أن أذهب على الفور الى هناك ٠ »

وكانت « هناك » تعنى « اللجنة المركزية » ٠ كان لابد اذن من مغادرة مناطق الامتيازات ٠٠ وكان جيسور يعلم أنه لا يستطيع أن يقول شيئا ٠ ربما كان ابنه ذاهبا لملاقاة الموت ٠٠ غير أنها لم تكن المرة الأولى ٠٠ فقد كانت هذه الطريقة هى التى تضفى على حياته معناها ٠ وعلى هذا لم يكن أمام جيسور الشيخ الا أن يتألم ويصمت ٠ وكان قد أخذ معلومات كلابيك مأخذ الجد ٠٠ ففى بكين أنقذ كلابيك ذات مرة ذلك الألمانى الذى يشرف الآن على بوليس تشانج ـ كاى ـ شيك واسمه « كونيج » بأن حذره من المذبحة التى سوف يذهب ضحيتها أصحاب القيادة ، وكان كونيج أحدهم ٠ ولم يكن جيسور يعرف « تشبيلفسكى » واذ التقت نظرة كيو بنظرته ، حاول أن يبتسم ، فحاول كيو أيضا أن يبتسم ، ولم تفترق نظراتهما فلقد كان الاثنان يعلمان أنهما يكذبان ، وان هذا الكذب ربما كان أرق اتصال روحى بينهما ٠

وعاد كيو الى حجرته ، حيث كان قد ترك سترته ٠٠ وكانت « ماى » ترتدى معطفها :

ـ « الى أى تذهبين ؟ »

ـ « معك ، يا كيو ٠ »

ـ « ولماذا ؟ »

قال : « أسهل عليهم أن يتعرفونا معا من أن يتعرفونا منفصلين ٠ »

ـ « كلا ، لماذا ؟ اذا استدلوا عليك ، فهذا نفس الشيء ٠٠ »

ـ « لن يكون لمخاطرتك أى نفع ٠ »

ـ « وما نفعى هنا خلال هذا الوقت ؟ ان الرجال لا يعرفون ما يعنيه الانتظار ٠٠ »

فتقدم بضع خطوات ، ثم توقف ، واستدار اليها :

ـ « أصغى الىّ يا ماى : عندما كان الأمر يتعلق بحريتك ٠٠ اعترفت بها ٠ »

وفهمت الام يقصد بهذا التلميح ؛ وشعرت بالخوف : وكانت قد نسيته

هذا الموضوع •• والواقع ، أنه أضاف بلهجة أشد اختناقا :

ــ « •• وقد عرفت كيف تأخذينها •• والأمر يتعلق الآن بحريتي أنا • »

ــ « ولكن •• أي علاقة بين هذا وذاك ياكيو ؟ »

ــ « الاعتراف بحرية شخص آخر ، معناه تأييده ضد ألمه الخاص ، وانني أعرف ذلك بالتجربة • »

ــ « وهل أنا شخص آخر يا كيو ؟ »

والتزم الصمت من جديد ، أجل ، لقد كانت في هذه اللحظة شخصا آخر • شيء ما قد تغير بينهما •

واستطردت قائلة : « اذن ، فلأنني قد •• أخيرا ، وبسبب ذلك ، لا نستطيع الآن أن نواجه الخطر معا ؟ •• أمعن الفكر يا كيو •• يكاد المرء يعتقد أن تصرفك هذا نوع من الانتقام •• »

ــ « ألا نستطيع ذلك الآن ، وأن نلتمس الخطر حين لا يجدي التماس الخطر ، هذان أمران مختلفان • »

ــ « ولكن ، اذا كنت تحقد علي الى هذا الحد ،ف ما كان عليك الا أن تتخذ لك عشيقة •• ولكن كلا ؟ لماذا أقول ذلك ، انه ليس حقا •• فأنا لم أتخذ حبيبا وانما ضاجعت شخصا ، وهذا شيء مختلف ، وأنت تعلم جيدا أنك تستطيع أن تضاجع من تشاء •• »

فأجاب في مرارة : « أنت تكفينني • »

وأدهشت ماي نظرته ، التي امتزجت فيها العواطف جميعا ، ولعل أشدها اثارة على وجهه كان ذلك التعبير القلق الذي ينم عن لذة يجهلها هو نفسه •

واستأنف حديثه قائلا : « ان مشاعري في هذه اللحظة هي نفسها منذ أسبوعين •• ان ما أريده ليس ان أضاجع • ولم أقل انك مخطئة ، وانما قلت انني أريد أن أرحل وحدي • والحرية التي تعرفينها في هي حريتك •• حرية أن تفعلي ما يعجبك أنت • الحرية ليست تبادلا •• ولكنها الحرية • »

ــ « هذا هجران •• »

صمت •

ـ « لماذا يقف شخصان متحابان أمام الموت ـ أى كيو ـ ان لم يكن ذلك لكى يواجهاه معا ؟ »

وخمنت أنه سيرحل دون مناقشة فحالت بينه وبين الباب ٠

قالت : « ما كان ينبغى أن تمنحنى هــذه الحرية ، اذا كانت ستفرق بيننا الآن ٠ »

ـ « انك لم تطلبيها ٠ »

ـ « لقد اعترفت بها الى أولا ٠ »

وقال لنفسه : « كان ينبغى ألا تصدقينى ٠٠ » وكان هــذا حقا ، فلقد اعترف بحريتها دائما ، غير أن مناقشتها فى هذه اللحظة عن حقوقها أبعدها عنه أكثر فأكثر ٠

قالت فى مرارة : « ثمة حقوق لا تمنح الا لكى لا تستخدم ٠ »

ـ « لو أن هذه الحقوق لم تمنح الا لكى تتعلقى بها فى هــذه اللحظة ، فليس ذلك بالأمر السىء ٠٠ »

وفرقت بينهما هذه اللحظة أكثر مما يفعل الموت : هذه الجفون ، وهذا الفم ، وهذان الخدان ٠٠ وموضع الملاطفات جميعا ظاهر على وجه ميتة ، وهاتان الوجنتان العاليتان ، وهذان الجفنان المسحوبان ٠٠ أصبحت جميعا تنتمى الى عالم غريب ٠ وجراح الحب العميق تكفى لخلق حقد عنيف ٠ فهل تتراجع وهى القريبة هذا القرب من الموت ـ هل تتراجع الى عتبة عالم العداوة هــذا الذى اكتشفته ؟ قالت :

ـ « أنا لا أتعلق بشىء ـ أى كيو ، فلنقل اننى مخطئة ، أو كنت مخطئة ، اذا كان هذا هو ما تريده ، ولكن ، الآن وفى هذه اللحظة أريد أن أرحل معك فورا ٠٠ أرجوك ٠٠ »

وظل صامتا ٠

فواصلت كلامها قائلة : « اذا كنت لا تحبنى ، فلن يهمك أن تتركنى أرحل معك ٠٠ فماذا اذن ؟ لماذا نعذب أنفسنا ؟ »

وأضـافت وهى منهكة القوى : « وكان هـــذه هى اللحظة المناسـبة للاختيار • • »

وأحس كيو أن شـياطين مألوفة له تتحرك داخل نفسه . وتبعث فيها التقزز • وود لو يضربها ، وأن يضربها فى حبها له بالذات • انها على حق : فلو أنه يحبها ، ماذا يهمه لو أنها ماتت ؟ ولعل ارغامها له علىّ أن يفهم هذا المعنى فى هذه اللحظة ، هو أشد ما كان يثير عداءه لها •

أكانت تريد ان تبكي ؟ لقد أغمضت عينيها ، وبدا ارتعاد كتفيها المستمر الصامت ، فى تناقضه مع قناع وجهها الجامد ، بدا أبلغ تعبـيرَ عن الكرب الانسانى • ولم تعد ارادته وحدها هى التى تفرق بينهما ، بل كان يفرق بينهما الألم • ولكن ، اذا كان الألم يفرق فان مشهد الألم يقرب ، ولهذا فقد وجد نفسه منجذبا نحوها من جديد مدفوعا برؤية هذا الوجه الذى أخذت أهـدابه ترتفع شـيئا فشيئا ، وكأنها مأخوذة بالاعجاب •• وفوق عينيها المغمضتين ، توقفت حركة الجبين ، وعلى حين بغتة استحال هـــذا الوجه المتوتر الذى ظل جفناه مسبلين •• الى وجه امرأة فارقتها الحياة •

وكان كثير من التعبيرات التى تعترى وجه « ماى » لا تأثير له عليه ، فقد كان يألفها ، وكان يبدو له أنها تحاكى نفسها دائما ، ولكنه لم يشاهد قط قناع الموت هذا ــ الألم لا النوم ــ مرتسما على عينين مغمضتين ، وكان الموت من القرب بحيث بث فى هذا الوهم قوة نذير الشؤم • وفتحت عينيها من جديد دون أن تنظر اليه ، وظلت نظرتها ضائعة على حائط الحجرة الأبيض ، ودون أن تتحرك عضلة واحدة من عضلاتها ، انسابت دمعة على طول أنفها وبقيت معلقة عند ركن فمها ، واشـية بحياتها الخرساء ، الثاقبة كألـم الحيوان ــ عن ذلك القناع اللاانسانى ، الميت كما كان منذ لحظة •

ــ « افتحى عينيك • »

وتطلعت اليه •

ــ « انهما مفتوحتان • »

ــ « لقد خيل الى أنك ميتة • »

ــ « ثم ماذا ؟ »

وهزت كتفيها ، واستطردت قائلة بصوت ملء بالتعب والأسى :

ـ « اذا كنت سأموت ، أنا ، فاننى أرى أنك تستطيع أن تموت ٠٠ »

وادرك الآن ما العاطفة الحقيقية التى كانت تدفعه : لقد كان يريد أن يعزيها ٠ ولكنه لم يكن يستطيع أن يعزيها الا بقبول رحيلها معه ٠

وكانت قد أغمضت عينيها ثانية ، فاحتضنها بين ذراعيه ، ولثم جفنيها٠٠ وحين افترق جسداهما سألته :

ـ « هل نحن راحلان ؟ »

ـ « كلا ٠ »

ولما كانت شديدة الاخلاص الى درجة لا تستطيع معها اخفاء غريزتها فقد رجعت الى رغباتها فى عناد القطة ، وهو عناد كثيرا ما أثار ثائرة كيو ٠٠ وكانت قد تنحت عن الباب ، ولكنه لاحظ أنه لم يرد أن يجتاز الباب الا طوال ما كان واثقا من أنه لن يجتازه !

ـ « ماى ٠٠ هل سنفترق هكذا على حين بغتة ؟ »

ـ « وهل عشت كامرأة فى حاجة الى حماية الغير ؟٠٠ »

ووقف أحدهما فى مواجهة الآخر ، دون أن يجدا ما يقولانه ، ودون أن يقبلا فى الوقت نفسه هذا الصمت ، اذ كان كل منهما يعرف أن هذه اللحظة، التى تعد من أخطر لحظات حياتهما ، يفسدها الزمن الذى يمضى : ان مكان كيو لم يعد هنا ، بل فى اللجنة ، وكان نفاد الصبر كامنا تحت أفكاره جميعا ٠

وأومأت له الى الباب بوجهها ٠

ونظر اليها ، ثم تناول رأسها بين يديه ، وضغط عليها برفق ، دون أن يقبلها ، وكأنه يستطيع أن يضع فى هذه الضغطة على الوجه كل ما تنطوى عليه حركات الحب الرجولية من رقة وعنف ممتزجين ٠٠ وأخيرا تباعدت يداه ٠

وأغلق البابان وراءه ، واستمرت « ماى » فى الانصات ، وكأنما تنتظر

أن يغلق باب آخر لاوجود له • وكان فمها فاغرا متهدلا. وهي سكرى من الأسى، يكتشف أنها حين أشارت اليه أن يرحل بمفرده ، فذلك لأنها كانت تعتقد أنها قد أتت على هذا النحو بالحركة الأخيرة الوحيـدة التي يمكن أن تقنعه باصطحابها •

وما كاد كيو يخطو مائة خطوة حتى التقى بـ « كاتوف » •

ـ « أليس تشن هناك ؟ »

وأشار بأصبعه الى منزل كيو •

ـ « كلا • »

ـ « ألا تعرف مطلقا أين يوجد ؟ »

ـ « كلا •• لماذا ؟

وكان كاتوف هادئا ، غير أن وجهه كان يدل على أنه يعاني من صداع ••

ـ « هناك عدد كبير من السيارات التي يستقلها تشانج ـ كاي ـ شيك، وتشن لا يعرف ذلك • فاما أن يكون البوليس قد أخطر بالمحاولة ، أو أنه يرتاب في الأمر • فاذا لم يحط تشن بهذه المسألة ، فسوف يخطيء السيارة المنشودة ، ويلقى قنابله عبثا •• وها أنذا أجرى وراءه منذ مدة طويلة ، كما ترى •• كان الموعد المقرر لالقاء القنابل هو الساعة الواحدة •• ولم يحدث شيء ، والا كان الخبر قد بلغنا • »

ـ « كان مقدرا أن يقوم بهذه المحاولة في شارع الجمهوريتين •• ولعل أحكم ما نستطيع أن نفعله الآن ، هو أن نمر على هملريش • »

وشرع كاتوف في المسير على الفور •

وسأله كيـو في اللحظة التي استدار فيهـا : « أما زلت تحتفـظ بالسيانور ؟ »

ـ « أجل • »

وكان كل منهما ، وكذلك كثير من الزعماء الثوريين الآخرين ـ يحملون السيانور في مشبك ( توكة ) الحزام المسطح الذي يفتح كما يفتح الصندوق،

ولم يخلص الفراق « كيو » من شعوره بالحزن ٠٠ بل على العكس، كانت ماى أقوى فى هذا الشارع المهجور ، بعد أن رضخت له ٠٠ منها حين كانت تعارضه وجها لوجه ٠ ودخل المدينة الصينية ـ ولم يفته أن يلحظ ذلك ـ ولكن فى شىء من عدم الاكتراث ٠ « هل عشت كامرأة فى حاجة الى حماية الغير ؟ ٠٠ » بأى حق فرض حمايته السخيفة علـى امرأة وافقت حتى عـلى رحيله ؟ وفى سبيل أى مبدأ يهجرها ؟ أواثق هو من أن فعلته هذه لاتشوبها الرغبة فى الانتقام ؟ لاشك أن « ماى » ما زالت جالسة على السرير ، وقد حطمها الألم الذى يتجاوز كل تحليل نفسى ٠٠

وعاد على أعقابه ركضا ٠

كانت حجرة العنقاوات خالية ، وقد خرج والده ٠٠ أما ماى فلم تغادر الحجرة ٠ وقبل أن يفتح الباب ، توقف ، وقد طغى عليه شعور بما ينطوى عليه الموت من اخاء ، مكتشفا الى أى حد يظل الجسد شيئا تافها ـ مع ما فيه من اغراء ـ ازاء هذا التواصل ٠ وأدرك الآن أن تقبلنا سياق الشـخص الذى نحبه الى الموت ، ربما كان هو الصورة الكاملة للحب ، الصورة التى لا يمكن تجاوزها ٠

وفتح الباب ٠

فالقت بمعطفها فى عجلة على كتفيها ، وتبعته دون أن تقول شيئا ٠

**الساعة الثالثة والنصف ٠**

ظل هملريش وقتا طويلا ينظر الى اسطواناته التى لا يجد لها شاريا ٠٠ وطرق الباب وفقا للاشارة المتفق عليها ، ففتح الباب ، ووجد أمامه كاتوف ٠

ـ « هل رأيت تشن ؟ »

فزجر هملريش قائلا : « أيها الندم المتجول ! »

ـ « ماذا تقول ؟ »

ـ « لا شىء ٠ أجل ، رأيته حوالى الساعة الواحدة أو الثانية ٠٠ هـل يعنيك هذا ؟ »

ـ « اننى فى حاجة ماسة الى رؤيته • ماذا قال ؟ »

ومن حجرة أخرى ، تناهت الى أسماعهما صرخة الطفل ، وأعقبتها أقوال مختلطة من الأم التى تجتهد فى تهدئته •

ـ « لقد جاء مع زميلين آخرين ، أحدهما سوين ، أما الآخر فلا أعرفه • انه يضع على عينيه نظارات ، ككل الناس • وتبدو عليه مسحة من النبل وكانوا يتأبطون حوافظ جلدية : هل فهمت ؟ »

ـ « ولهذا السبب ينبغى أن أعثر عليه •• أفاهم أنت • »

ـ « لقد طلب منى أن يمكث عندنا ثلاث ساعات • »

ـ « حسن • أين هو الآن ؟ »

ـ « أغلق فمك ، واستمع الى ما يقال لك •• لقد طلب منى أن يمكث هنا •• ولكننى لم أوافق • أسامع أنت ؟ »

صمت •

ـ « قلت لك اننى لم أوافق • »

ـ « أين يمكن أن يذهب ؟ »

ـ « لم يقل شيئا •• انه مثلك •• الصمت ينتشر ، اليوم •• »

وكان هملريش يقف منتصبا وسط الحجرة ، وقد تجمع جسده وكادت نظرته تعبر عن الحقد •• فقال كاتوف فى هدوء ، دون أن ينظر اليه :

ـ « انما أنت تسرف فى شتمى •• وكأنك تريد أن تنال نصيبا من الشتائم ، لكى تستطيع الدفاع عن نفسك • »

ـ « وماذا تستطيع أن تفهم من أمرى ؟ وماذا يعنيك من هذا كله ؟ » لا تنظر الى هكذا بخصلة شعرك المنتصبة كعرف الديك الصغير ، ويديك المفتوحتين ، كأنك يسوع المسيح ينتظر الصلب ••• »

ودون أن يضم كاتوف قبضته ، وضعها على كتف هملريش •

ـ « لا تزال الحال سيئة هناك فى الطابق العلوى • »

ـ « انها أقل سوءا الآن ·· ولكن ، هذا يكفي على النحو الذى هو عليه · يا للصبى المسكين ! انه بجسده الهزيل ، ورأسه الضخم ، يشبه أرنبا مسلوخا ·· دعنا من ذلك ··· »

وتخلص البلجيكى من قبضة كاتوف فى عنف ، وتوقف ثم اتجه الى أقصى أطراف الحجرة فى حركة صبيانية غريبة ، وكأنه يظهر الجفاء ·

قال : « ان شر ما فى الأمر لم يحدث بعد · كلا ·· لا تفعل كمن يعانى من الحكة ، ويتلوى فى تحرج ·· أنا لم أش بتشن الى البوليس ·· اطمئن·· لم أفعل بعد ، على الأقل ·· »

وهز كاتوف كتفيه فى أسى ·

ـ « من الأفضل أن توضح ما تعنيه · »

ـ « كنت أريد أن أرحل معه · »

ـ « مع تشن ؟ »

وتأكد كاتوف من أنه الآن لن يعثر عليه · وكان يتكلم بصوت هادىء كليل أشبه بصوت من حلت بهم الهزيمة · ان شانج ـ كاى ـ شيك لن يعود الا فى الليل ، ولن يتمكن تشن من الاقدام على أية محاولة قبل ذلك ·

وأشار هملريش بابهامه ، من فوق كتفه ، الى الاتجاه الذى صدرت منه صرخة الطفل ·

ـ « هذا ما فى الأمر · هو ذاك · ماذا تريدنى أن أفعل ؟ »

ـ « الانتظار ·· »

ـ « لأن الولد سيموت ، أليس كذلك ؟ انصت الى جيدا ·· ان هذا ما أتمناه نصف يومى ·· ولكن اذا حدث ذلك ، فاننى أتمنى أن يبقى ، وألا يموت ، ولو ظل مريضا ·· عاجزا ·· »

ـ « انى أعرف ··· »

فقال هملريش وقد أحس أن التأثير الذى يريده قد فسد : « ماذا ؟ ماذا تعرف ؟ وأنت لم تتزوج ! »

ـ « كنت متزوجا . »

ـ « ليتنى رأيتك حينذاك .. بهذه الهيئة التى تتبدى عليها .. كلا .. ليس هذا من أجلنا .. كل هذه الشطائر الصغيرة التى تتجول فى الشارع .. » وأحس أن « كاتوف » يفكر فى المرأة الساهرة على الطفل فى الطابق العلوى .

ـ « انه تفان . أجل .. وهى تفعل كل ما تستطيعه . والباقى ، أى ما لا تملكه ، فهو ما يملكه الأغنياء .. وحين أشاهد أناسا يبدو عليهم أنهم متحابون ، أود لو هشمت وجوههم . »

ـ « التفانى .. هـذا كثـير .. الشىء الضرورى الوحيد هو ألا يكون المرء وحيدا . »

ـ « ولأجل هذا تبقى هنا ، أليس كذلك ؟ لتساعدنى ؟ »

ـ « أجـل . »

ـ « بدافع الشفقة ؟ »

ـ « ليس بدافع الشفقة ، وانما بدافع ... »

غير أن كاتوف لم يجد الكلمة التى تعبر عما يريد .. وربما لم يكن لمثل هذه الكلمة وجود ، فحاول أن يشرح ما يقصد بطريق غير مباشر :

ـ « لقد عرفت ذلك ، أو ما يقاربه .. وكذلك هذا النوع الذى تبديه من السخط .. كيف تريد أن يفهم الناس الأشياء الا عن طريق الذكريات .. ولهذا السبب لم تغضبنى . »

وكان قـد اقترب منه ، وهو يتحدث ـ وقـد غاصت رأسه بين كتفيه ، بصوته الذى يأكل المقاطع ، ناظرا اليه من طرف عينيه ، وكان كل منهما وهو يقف على هذا النحو خافضا رأسه كمن يتأهب لدخول معركة بين الاسطوانات .. غير أن كاتوف ، كان يعرف أنه الأقوى ، وان لم يكن يدرى على أى نحو كان هو الأقوى . ربما كان صوته ، أو هدوءه ، بل ومودته هى التى تمنحه هذا التفوق .

ـ « حين يلتقى رجل لا يهمه أى شىء ، بهذا التفانى الحقيقى ، أو بهذه التضحية الصادقة أو بشىء من هذا القبيل .. فانه يكون فى حكم المنتهى . »

ـ « لا تبالغ . وماذا يصنع حينئذ ؟ »

فأجابه كاتوف وهو ينظر اليه فى هدوء : « يمارس السادية • »
وأطلق الجدجد صفيره •• وفى الشارع ، تبددت خطوات رويدا رويدا••

وأردف كاتوف قائلا : « السادية بالدبابيس ، أمر نادر •• أما السادية بالأقوال فأبعد من أن تكون شيئا نادرا • ولكن اذا استسلمت المرأة استسلاما مطلقا ، واذا كانت قادرة على أن تتجاوز ذلك •• لقد عرفت شخصا أخذ النقود التى أدخرتها امرأته سنوات طوالا للذهاب الى المصحة وقامر بها •• مسألة حياة أو موت •• ولكنه خسرها ( فى مثل هذه الأحوال نخسر دائما )، وقد عاد ممزقا محطما تماما ، مثلك فى هـــذه اللحظة ، ونظرت اليه وهـو يقترب من فراشها ، ففهمت كل شىء على الفور ، أترى؟ ثم ماذا ؟ لقد حاولت أن تعزيه •• »

قال هملريش متمهلا : « ســهل على المرء أن يعزى سواه من أن يعزى نفسه •• »

ورفع عينيه بغتة ثم قال : « هل كنت أنت ، ذلك الشخص ؟ »

ــ « كفى • » وضرب كاتوف بقبضته منضدة الحســاب ، واســتطرد قائلا :

ــ « لو كنت أنا ، لقلت انه أنا ، لا سواى • » غير أن غضبه انفثأ فجأة • « أنا لم أفعل كل هذا •• وليس من الضرورى أن يفعل الانسان مثل هذا•• واذا كان المرء لا يؤمن بشىء ، وخاصة اذا كان لا يؤمن بشىء ، فانه مرغم على احترام العواطف القلبية الصادقة حين يلتقى بها •• هذا أمر مفروغ منه •• وهذا ما تفعله أنت •• ولو كنت بمفردك دون المرأة والطفل لرحلت، أنا واثق من ذلك •• أجل • »

ــ « ولمــا كنت لا تعيش الا من أجل هـــذه العواطف القلبية ، فانهــا تلتهمك •• واذا لــم يكن بد من أن تؤكل دائما ، فلماذا لا تأكلك هـــذه العواطف ؟ • ولكن هذا كله ســفاهات •• وليست المسألة أن تكون عـلى صواب • اننى لا أستطيع أن أحتمل أننى طردت تشن من الباب ، وما كنت أستطيع أن أطيق ابقاءه • »

ــ « ينبغى ألا يطلب المرء من رفاقه الا ما يستطيعون القيام به •• اننى

أريد رفاقا لا قديسين • فأنا لا أثق فى القديسين ••• »

ـ « أحقا أنك رافقت رجال منجم الرصاص طواعية واختيارا ؟ »

قال كاتوف محرجا : « كنت فى معسكر الاعتقال •• والمناجم والمعسكر سيان ••• »

ـ « سيان • هذا غير صحيح • »

ـ « وماذا تعرف عن ذلك ؟ »

ـ « هذا غير صحيح • ولو كنت فى مكانى لاحتفظت بتشن • »

ـ « أنا ليس لدى أطفال •• »

ـ « يبدو لى أن هذا كان خليقا بأن يهون الأمر على ، وحتى فكرة أن يقتلوه لى ، لو لم يكن مريضا •• انى غبى •• صحيح أننى غبى •• بل ربما لم أكن عاملا • ثم ماذا ؟ اننى أبدو لنفسى كعامود النور ، الذى يتبول عنده كل من هب ودب من الناس • »

وأومأ بوجهه المفرطح من جديد الى الطابق العلوى ، اذ طفق الطفل يصرخ مرة أخرى • ولم يجسر كاتوف على أن يقول : « سيحمل الموت اليك الخلاص » ، فقد كان الموت هو الذى حمل اليه هو الخلاص • ومنذ أن شرع هملريش فى الكلام ، حضرت بينهما ذكرى زوجته •• كان عائدا من سيبيريا دون أمل ، منهزما ، وقد تحطمت دراساته للطب ، وأصبح عاملا فى مصنع ، موقنا أنه سيموت قبل أن يشهد الثورة ، ولكنه اكتشف فى أسى انه مازال مرتبطا بالحياة لأنه كان يعذب عاملة صغيرة تحبه • ولكنها ماكادت تتقبل الآلام التى يكيلها لها ، حتى سيطرت عليه تلك الرقة المحيرة التى يبديها الشخص المعذب لمن يسومه العذاب ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يحيا الا من أجلها ، مواصلا بحكم العادة عمله الثورى ، وقد استبدت به تلك الرقة التى لا حدود لها ، الكامنة فى قلب تلك الفتاة الساذجة •• فكان يقضى الساعات الطوال يداعب شعرها ، وكانا يمضيان اليوم كله فى الفراش •• ولكنها ماتت ••• ومنذ ذلك الحين •• غير أن هذا كان بينه وبين هملريش •

ولم يكن يستطيع بالأقوال ، أن يفعل شيئا • ولكن فيما وراء الأقوال•• كان يملك ما تستطيع الاشارات والنظرات ، ومجرد الحضور ، التعبير عنه •

وكان يعرف بالتجربة أن أسوأ ما فى الألم هو الوحدة التى تصاحبه • والتعبير عن الألم نوع من الخلاص أيضا •• غير أن الانسان يجهل الكلمات التى تعبر عن آلامه العميقة •• فاذا أساء التعبير ، أو التجأ الى الكذب ، فان هملريش سيجد مبررا آخر لاحتقار نفسه •• ذلك أنه يتالم على الأخص من نفسه • ونظر اليه كاتوف فى أسى دون أن يحدد نظرته ، وقد أدهشه مرة أخرى أن يلاحظ ندرة وارتباك الحركات التى يستطيع بهـا لرجل أن يعبر عن محبته •

قال : « يجب أن تفهم دون آن أقول شيئا •• فليس ثمة ما يقال • »

ورفع هملريش يده ، وتركها تسقط فى تثاقل وكأنه لا يستطيع أن يختار الا بين التعاسة وعبث الحياة •• ولكنه ظل فى مواجهة كاتوف ، غارقا فى شجونه •

وكان يجول فى خاطر كاتوف : « سوف أستطيع أن انصرف حالا بحثا عن تشن • »

**الساعة السادسة**

قل فيرال للكولونيل الذى كان يرتدى حلته الرسمية هذه المرة : « لقد دفعت النقود أمس ، فما موقفنا الآن ؟ »

ـ « لقد بعث الحـاكم العسـكرى الى الجنرال تشانج ـ كاى ـ شيك بمذكرة طويلة جدا يطلب منه فيها ماينبغى أن يفعله فى حالة قيام الشغب• »

ـ « يريد أن يغطى مسئوليته ؟ »

ونظر الكولونيل الى فيرال من فوق الغشاوة التى ترين على عينيه ، وأجاب فحسب : « هذه هى الترجمة • »

وقرأ فيرال المذكرة •

قال الكولونيل : « ولدى الرد أيضا • »

وناوله صورة : وكان فيها نقشان فوق توقيع تشانج ـ كاى ـ شيك

ـ « وهذا معناه ؟ »

ـ « أطلقوا الرصاص • »

وتطلع فيرال الى خريطة شنغهاى المعلقة على الحائط ، بما فيها من بقع حمراء كبيرة تشير الى جماهير العمال والبؤساء ٠٠ وهم شيء واحد ــ وهمس في نفسه : « ثلاثة آلاف رجـل من الحرس النقابى ، وربما كان وراءهـم ثلاثمائة ألف رجل ٠٠ ولكن هل يجرؤون على التحرك ؟ وفى الجهة الأخرى، تشانج ــ كاى ــ شيك والجيش ٠٠ »

وسأل : « هل سيبدأ باعدام الزعماء الشيوعيين رميا بالرصاص قبل قيام أى شغب ؟ »

ــ « بكل تأكيد ٠٠ وحينئذ لن يكون ثمة شغب ، فالشيوعيون مجردون من السلاح تقريبا ، ووراء تشانج ــ كاى ــ شيك تقف قواته ٠٠ والفرقة الأولى فى الجبهة ، وقد كانت هى الخطر الوحيد ٠ »

ــ « شكرا ، والى اللقاء ٠ »

كان فيرال ذاهبا لزيارة فاليرى ٠ وكان خادم ينتظره الى جوار السائق، وقد وضع على ركبتيه عندليبا فى قفص كبير مذهب ٠ وكانت « فاليرى » قد رجت فيرال أن يقدم لها هذه الهدية ٠٠ وما كادت سيارته تشرع فى المسير حتى أخرج من جيبه رسالة ، وأخذ يعيد قراءتها : ان ما كان يخشاه منـذ شهر قد وقع : سوف تنقطع القروض الأمريكية عنه ٠

لم تعد طلبات حكومة الهند الصينية تكفى لكى تواصل المصانع نشاطها ، تلك المصانع التى أنشئت من أجل سوق كان ينبغى أن تتسع شـهرا اثر شهر ، ولكنها الآن تنكمش يوما بعد يوم : ولحقت الخسائر بمشروعات اتحاد الشركات الصناعية ٠٠ وكانت أسعار الأسهم التى تحافظ عليها فى باريس بنوك فيرال والجماعات المالية الفرنسية المرتبطة بها ، يحافظ عليها التضخم بوجه خاص ، قد راحت تهبط دون توقف منذ تثبيت الفرنك ٠ غير أن بنوك الاتحاد لم تكن تستمد قوتها الا من أرباح مزارعها ــ ولا سيما من شركات المطاط ٠ وقد رفع مشروع ستيفنسون (*) سعر المطاط من ١٦ سنتا

---

(*) مشروع يهدف الى الحد من انتاج المطاط داخل الامبراطورية البريطانية كلها ( وهى المنتج العالمى الرئيسى ) وذلك حتى يمكن رفع سعر هذه السلعة التي انخفضت الى أقل من تكاليف الانتاج ٠

الى ١١٢ • وانتفع فيرال الذى يشرف على مزارع المطاط فى الهند الصينية من هذا الرفع دون أن يجد ما يجبره على تحديد انتاجه ، اذ لم تكن مزارعه واقعة داخل الأراضى البريطانيـــة • وكذلك كانت البنوك الأمريكية تعرف بالتجربة كم يكلف أمريكا هذا المشروع ـ وهى المستهلك الرئيسى ـ فقبلت من تلقاء نفسها اعطاء القروض بضمان المزارع • غير أن زيادة الانتاج الوطنى فى جزر الهند الشرقية الهولندية والتهديد بانشاء مزارع أمريكية منافسة فى الفلبين والبرازيل وليبـيريا ، قد أفضى الآن الى تدهور فى الأســعار ، فقطعت البنوك الأمريكية قروضها لنفس الأسباب التى دفعتها الى منح هذه القروض ، وهكذا أصيب فيرال بثلاث نكبات فى وقت واحد : تدهور قيمة المادة الأولية الوحيدة التى تستند اليها أعماله ـ وكان قد تمكن من الحصول على قروض بنوع من المضـــاربة ، لا على قيمة انتاجه ، بل على قيمة مزارعه نفسها ـ وتثبيت قيمة الفرنك الذى أدى الى تخفيض سنداته كلها ( وكان كثير منها تملكه بنوكه التى كانت مصرة على السيطرة على السوق ) ، وأخيرا سحب القروض الأمريكية •• ولم يكن يجهل انتشار خبر هــــذا السحب سيدفع الانتهازيين فى أسواق باريس ونيويورك الى اتخاذ موقف من تخفيض سنداته •• وهو موقف مضمون تماما • وهكذا لم يكن من الممكن انقاذه الا على أساس دوافع أخلاقية ، أى بوساطة الحكومة الفرنسية •

---

ان اقتراب الافلاس يحمل الى الجماعات المالية فى طياته وعيا شـــديدا بالأمة التى تنتمى اليها • ولما كانت الحـــكومات قد ألفت أن ترى « سرقة الادخـــار » فانها لا تحب أن ترى أصحاب الادخـــار مجردين من كل أمل فى استرداد أموالهم والمستثمر الذى يمكن أن يفكر ـ بأمل المقامر العنيد ـ فى استرجاع أمواله المفقودة فى يوم من الأيام ـ هذا المستثمر يكون فى حالة لا تخلو من عزاء • وهكذا كان من العسير على حكومة فرنسا أن تتخلى عن الاتحاد ، بعد أن تخلت عن بنك الصين الصناعى •• ولكن كان لابد لفيرال ، لكى يطلب منها المعونة ـ ألا يكون بلا أمل ، فلابد قبـــل كل شىء أن يتم تحطيم الشيوعية فى الصين • فمن الممكن تشييد خطوط السكك الحديدية الصينية ، اذا كان تشانج ـ كاى ـ شيك مسيطرا على الأقاليم الصينية ، وكان القرض المطلوب لذلك هو ثلاثة آلاف مليون من الفرنكات الذهبية ، وهذا معناه ملايين كثيرة من الفرنكات الورقية • وبالطبع ، لم يكن هو الذى

سيتسلم وحده طلبيات المواد المستخدمة في المشروع ، كما أنه ليس وحده الذي يدافع اليوم عن تشانج ـ كاى ـ شـيك ... بيد أنه مشـترك فى المقامرة . وفضلا عن ذلك فان البنوك الأمريكية تخشى انتصار الشيوعية الصينية ، وسقوطها يؤدى الى اجراء تعديل فى سياسة تلك البنوك . وكان فيرال ـ بوصفه فرنسيا ـ يتمتع ببعض الامتيازات فى الصين ، « ولم يكن ثمة شك فى اشتراك الاتحاد فى انشاء السكك الحديدية . » وكان يستطيع ـ وله في ذلك مبرراته ـ أن يطلب من الحكومة معونة لتوطيد مركزه ، وسوف تفضل الحكومة تقديم هذه المعونة على وقوع كارثة جديدة : فاذا كانت قروضه أمريكية ، فان ودائعه وأسهمه فرنسية . لقد كانت أوراقه لا تستطيع أن تربح جميعا ابان أزمة صينية حادة ، ولكن ، كما أن مشروع ستفنسون قد ضمن فى حينه حياة الاتحاد فكذلك سيضمن حياته اليوم انتصار الكومنتانج . واذا كان تثبيت الفرنك قد لعب ضده ، فان سقوط الشيوعية الصينية سيلعب فى مصلحته ...

ألن يفعل شيئا طوال حياته سوى أن يتربص لهذه الدفعات فى الاقتصاد العالمى ، لكى ينتفع بقوتها ، وهى الدفعات التى تبدأ كأنها عطايا ثم تنتهى كأنها ضربات بالرأس فى بطنه ؟ وفى هـذه الليلة سواء أدت المقاومة الى الانتصار أم الى الهزيمة ، كان يشعر بنفسه معتمدا على قوى العالم جميعا .. أن هناك تلك المرأة التى لا يعتمد عليها ، والتى ستعتمد عليه بعد لحظة . والاعتراف بالاستسلام المرتسم فوق هذا الوجه المملوك سوف يحجب عنه ضروب القسر المتشابكة التى تخضع لها حياته ـ وكأن هـذا الاستسلام يد موضوعة فوق عينيه . وكان قد رآها من جديد فى عدة صالونات ( لم تكن قد عادت من كيوتو الا منذ ثلاثة أيام ) ، فتماسك عنها مغضبا فى كل مرة بسبب تدللها الذى تسرى الوقاحة فى رقته ، مما كان يثير رغبته ، ثم قبلت أن تلقاه تلك الليلة . وكان فى حاجته غير المحـدودة الى أن يكون موضـع التفضيل ـ والاعجاب أيسر وأشمل اذا صدر لجنس عن جنس آخر ـ يهيب بالاثارة لاذكاء الاعجاب ، حين يصبح الاعجاب غير مؤكد . وكأن ما تبديه من مقاومة له هو أشد ما يثير شهوته . غير أنه لم يكن يرى كل هذا فى وضوح. ذلك أن حاجته الى أن يتخيل نفسه مكانها منذ أن يبدأ فى لس جسدها ، هى التي كان يستمد منها احساسه الحاد بالامتلاك . وكان يستشعر مقدما ما فى

الجسد الذى يأخذه غلابا طعما ألذ من الجسد المستسلم له ٠٠ طعما ألذ من اى جسد آخر ٠

وغادر سيارته ، ودخل محل « آستور » يتبعه خادمه الذى كان يحمل قفصه على طرف ذراعه فى وقار ٠ كانت الدنيا تعج بملايين من الأشباح : النسوة اللواتى لايحفل بحبهن ـ وغريم حى هو المرأة التى يريدها أن تحبه٠ واستولت عليه فكرة الامتلاك التام ، وأصبحت ثابتة فى نفسه ، واستحضر غروره غرورا معاديا كالمقامر المتحمس الذى يستدعى مقامرا آخر ليباريه ، بدلا من أن ينشد السلام ٠ وقد كان استهلال اللعبة على الأقل طيبا هـــذا المساء ، اذ كانا سيبدآن بالاضطجاع معا ٠

وما كاد يدخل القاعة حتى اقترب منه خادم أوروبى ٠

ـ « مدام سرجى تبلغ مسيو فيرال أنها لن تعود هذه الليلة ، وان هـذا السيد سيشرح له الأمر ٠ »

ونظر فيرال ـ مندهلا ـ الى « هذا السيد » الجالس الى جانب الستار الحاجز (لبارافان) موليا ظهره واستدار الرجل ، انه مدير أحد البنـوك الانجليزية الذى دأب على مغازلة فاليرى منذ شهر ، والى جواره ، وراء البارافان كان ثمة خادم يمسك فى وقار لا يقل عن وقار خادم فيرال ـ عندليبا فى قفص ٠ ونهض الانجليزى مرتبكا ، وصافح فيرال قائلا :

ـ « عليك أن تفسر لى ٠٠ يا سيدى ٠٠٠ »

وفهما معا أنهما ضـحية « مقلب » ٠ فتبادلا النظر وسط ابتسامات الخادمين الصينيين المـاكرة ، ووقار الخـدم البيض الذى تنم شـدته عن التكلف ٠ وكانت هذه الساعة هى ساعة الكوكتيل ، وشنغهاى كلها مجتمعة فى هذا المكان ٠ وأحس فيرال أن موقفه أدعى الى السخرية ، لأن الانجليزى كان شابا تقريبا ٠

وفى الحال ساوره احتقار لا يقل عنفا عن الغضب الذى استبد به وكان فى هذا الاحتقار تعويض فورى عن المهانة التى فرضت عليه ٠ وشعر بالحماقة الانسانية الحقيقية تكتنفه ، تلك الحماقة التى تلتصق بالانسان وتثقل على كاهليه : وهؤلاء الخلق الذين ينظرون اليه انما هم أبغض أغبياء على الأرض ٠

ومع ذلك فقد افترض ، لانه كان يجهل ما يعرفونه ، أنهم على علم بكل شيء ، وأحس ازاء تهكمهم ، أنه تحت وطأة شلل ساحق ربضت فيه الكراهية •

وسأل خادمه الخادم الآخر : « أهذا من أجل مسابقة ؟ »

ـ « لا أدرى • »

ـ « ان عصفورى ••• ذكر • »

ـ « أجل •• وعصفورى أنثى • »

ـ « لابد أن هذا ما يقصدونه • »

وانحنى الانجليزى أمام فيرال ، واتجه صوب البواب ، فناوله هـذا رسالة ، وقرأها ، ثم نادى خادمه ، وأخرج بطاقة زيارة من محفظته ، وثبتها على القفص ، وقال للبواب : « لمدام سرجى » وخرج •

وأمعن فيرال الفكر ، دفاعا عن نفسه • لقد أصابته فى أشد مواطن نفسه حساسية ، وكأنها فقأت عينيه أثناء نومه : لقد أنكرت وجوده • والذى يستطيع أن يفكر فيه ، أن يفعله ، أن يريده ، لم يعد له وجود • لقد وقع هذا المشهد المضحك ، وليس فى الامكان ألا يكون قد وقع • انه وحده الذى يوجد فى عالم من الأشباح ، ولقد كان هو ، هو بالذات ، موضع الاستهزاء • وفضلا عن ذلك ـ اذ أنه لم يكن يفكر فى عاقبة ما ، ولكن فى مسلسلة متلاحقة من الهزائم ، وكأن الغضب قد جعل منه مازوخيا ( محبا للعذاب ) ـ فضلا عن ذلك لن يضطجع معها • وأخذ تعطشه للانتقام من هـذا الجسد الساخر يزداد شيئا فشيئا ، فظل هناك وحده ، فى مواجهة هؤلاء البلهاء ، وخادمه غير المكترث ، بقفصه الموضوع فوق طرف ذراعه • وكان هذا العصفور اهانة مستمرة له •• ولكن ، عليه قبل كل شيء أن يبقى • فطلب كأسا من الكوكتيل ، وأشعل لفافة تبغ ، ثم ظل بلا حراك ، منشغلا بتكسير عود الثقاب بين أصابعه داخل جيب سترته • والتقت نظرته بزوجين • كان بالرجل شيء من الجاذبية أضفاه عليه التلاف شعره الأشيب بوجه غض الشباب ، أما المرأة ، وهى لطيفة ، ولكنها سوقية قليلا ، فكانت تتطلع اليه فى شعور من شكران العاشقة هو مزيج من الحنان والشهوانية • وناجى فيرال نفسه قائلا فى جبيد : « انها تحبه •• وليس من شك أنه صعلوك

أبله وربما كان من أولئك الذين يعتمدون فى معاشهم على عمل من أعمالى ٠٠»
وأرسل فى استدعاء البواب ٠

ـ « لديك رسالة من أجلى ٠٠ أعطنيها ٠ »

وظهرت الدهشة على البواب ، ولكنه لم يتخل عن جديته ، وناوله الرسالة ٠

ـ « هل تعلم ـ ياعزيزى أن النساء الفارسيات ، حين يستولى عليهن الغضب ـ يضربن أزواجهن بنعالهن ذات المسامير؟ انهن لايشعرن بالمسئولية ٠٠ ولكنهن سرعان ما يعدن بعد ذلك الى الحياة العادية تلك الحياة التى لاتلتزم فيها المرأة بشىء حين تسكب الدمع بين يدى رجل ما ، وانما حين تضاجعه ـ هل تصدق ذلك ؟ ـ الحياة التى يتملك فيها الرجال النساء ٠ ولست امرأة من أولئك اللواتى يمكن امتلاكهن ، لست جسدا أحمق تقضى منه وطرك وأنت تلقى بأكاذيب كتلك التى تلقيها للأطفال والمرضى ٠ أنت تعرف كثيرا من الأمور ياعزيزى ، ولكن ، ربما وافاك الأجل دون أن تلحظ أن المرأة كائن انسانى هى « أيضا » ولقد التقيت دائما ( وربما لن التقى أبدا الا بهذا الصنف ، ولكن هذا مما يؤسف له ، ولن تستطيع أن تعرفه كم من المرات سأقول وا أسفاه ! ) برجال وجدوا فى شيئا من السحر ، وكلفوا أنفسهم مشقة مؤثرة لابراز حماقاتى ، ولكنهم كانوا يعرفون كيف يلحقون بأصدقائهم فى اللحظة التى يتعلق فيها الأمر بالأشياء الانسانية الحقيقية ( اللهم الا اذا كانوا يبحثون ـ بالطبع ـ عن العزاء ) ٠ ونزواتى شىء لازم لى ، لا لكى أروقك فحسب ، بل لكى تنصت الى حين أتكلم ، وحماقتى الفاتنة ألا فاعرف قيمتها : انها تشبه رقتك ٠ واذا كان من الممكن للألم أن يتولد عن السيطرة التى تريدها أن تكون لك على ، فما أنت بفاطن اليه ٠٠٠

ولقد التقيت بما يكفى من الرجال لكى أعرف كيف ينبغى أن يكون رأيى فى العلاقات العابرة : وما من شىء يمكن أن يخلو من الأهمية بالنسبة للرجل منذ يتعلق هذا الشىء بكبريائه ، والمتعة كلمة تسمح له بارضاء كبريائه بأسرع ما يمكن ، وفى أغلب الأحيان ٠ وانى لأرفض أن أكون مجرد جسد ، كما ترفض أنت أن تكون مجرد دفتر شيكات ، وانك لتتصرف معى كما تتصرف العاهرات معك : « تكلم ٠٠ ولكن ادفع ٠٠٠ » ٠٠٠ اننى «أيضا»

ذلك الجسد الذى تريدنى أن أكونه (فقط) وأنا أعلم ذلك • وليس من اليسير على دائما أن أدافع عن نفسى ضد الفكرة التى تدور فى أذهان الآخرين عنى • وحضورك يقربنى من جسـدى ، فى اغتباط ، كما يقربنى منه الربيع فى ابتهاج • وبمناسبة الربيع ، أرجو أن تسرى عن نفسك بالعصافير •• كما أرجو أن تترك مفاتيح الكهرباء « فى حالها » فى المرة القادمة • »

وأكد لنفسه أنه شق طرقا ، وحول بلادا بأكملها ، وانتزع آلاف الفلاحين من أكواخهم المصنوعة من القش وأسكنهم حول مصانعه فى حجرات صغيرة من الصاج المعرج ـ تماما كأمراء الاقطاع ، وممثلى الامبراطورية ، ومع ذلك فقد كان العصفور الأسود فى قفصه يهزأ به • وكانت قوة فيرال ، وصفاء ذهنه والجرأة التى حولت الهند الصينية من حال الى حال ، والتى جعله الخطاب الذى تسلمه من أمريكا يشعر بثقلها الساحق •• كل هذا قد انتهى الى هذا العصفور المضحك ، وكأنه الكون كله ، هذا العصفور الذى لا يأبه به بلا أدنى جدال • « أتمنح كل هذه الأهمية لامرأة ؟ » • ولم يكن الأمر يتعلق بالمرأة ، فما هى الا مجرد حجاب قد انتزع : وانما المسألة أنه قد رمى بنفسه بكل قوته ضد حدود ارادته •• وكان انفعاله الجنسى الخائب يغذى غضبه ويلقى به فى حال من التخدير يهيب فيه المضحك بالندم • والانتقام لا يكون سريعا الا من الجسد • وكان كلابيك قد قص عليه قصة وحشية عن زعيم قبيلة أفغانى ، اعتدى زعيم مجاور على امرأته وعادت اليه تحمل خطابا جاء فيه : « أعيد اليك امرأتك ، بعد أن تأكدت أنها ليست ممتعة كما يقال عنها »، لما أسر هذا الزعيم المعتدى على امرأته أوثقه أمامها وهى عارية وانتزع عينيه وهو يقول له : « لقد رأيتها واحتقرتها ، والآن تستطيع أن تقسم انك لن تراها أبدا • » وتخيل نفسـه فى حجرة ڤـاليرى وهى موثقة الى السرير ، صارخة صرخات أقرب الى صيحات اللذة ، مغلولة ، وهى تتلوى تحت سيطرة الألم ، ما دامت لا تفعل ذلك تحت سيطرة الجنس ••• وكان البواب ينتظر • « ينبغى أن أبقى جامدا بلا حراك كهذا الأبله ، الذى أتلهف ـ مع ذلك ـ الى صفعه صفعتين • » ، غير أن هذا الابله لـم يبد عليه أى أثر لابتسامة ما ، لعله سيضحك فيما بعد • وقال فيرال : « سأعود بعد لحظة » ، ولم يدفع ثمن الكوكتيل ، وترك قبعته ، وخرج •

قال للسائق : « الى أكبر تاجر للعصافير • »

وكان هذا التاجر قريبا جدا ، غير أن الحانوت كان مغلقا ٠

قال السائق : « هناك فى المدينة الصينية شارع لتجار العصافير ٠ »

ـ « هيا اليه ٠ »

وبينا كانت السيارة تتقدم فى طريقها ، استقر فكر فيرال على اعتراف نقرأه فى أحد كتب الطب ـ أدلت به امرأة مجنونة بالرغبة فى ان تضرب بالسياط ، وكانت قد ضربت موعدا لرجل مجهول بخطاب بعثت به اليه ، ثم اكتشفت فى ذعر أنها تريد الفرار فى اللحظة التى كانت فيها راقدة على سرير الفندق وقد تسلح الرجل بالسوط وشل حركة ذراعيها تماما تحت ملابسها التي رفعها عن ساقيها ٠٠ وكان الوجه مختفيا ، ولكنه كان وجه فاليرى ٠٠ هل يقف عند أول ماخور صينى فى طريقه ؟ كلا ٠٠ ما من جسد يستطيع أن يخلصه من كبريائه الجنسية الثائرة التى أمسى نهبا لها ٠

وتوقفت السيارة أمام الأسوار الشائكة ٠ كانت قبالته المدينة الصينية ، سوداء ، غير مامونة ٠ فليكن ٠ وغادر فيرال السيارة ، ووضع مسدسه فى جيب سترته ، آملا أن يهاجم : فالمرء يقتل حين تعرض له الفرصة ٠

وكان شارع تجار الحيوانات نائما ، فطرق الخادم فى هدوء على أول مصراع ، صائحا : « مشتر » ذلك أن التجار يخشون الجنود ٠ وفتح الباب بعد خمس دقائق ، وهناك فى الظلال الحمراء الداكنة الفخمة التى تخيم على الحوانيت الصينية ، وتحيط بمشكاة ، أعلنت بعض قفزات القطط أو القرود المكتومة ورفيف الأجنحة استيقاظ الحيوانات ٠ وفى الظلام ، كانت بقع مستطيلة ذات لون وردى خافت : انها ببغاوات مربوطة الى عصى ٠

ـ « كم ثمن هذه العصافير جميعا ؟ »

ـ « العصافير فقط ؟ ثمانمائة من الدولارات ٠ »

كان تاجرا صغيرا لا يملك طيورا نادرة ٠ وأخرج فيرال دفتر شيكاته وتردد قليلا : ان هذا التاجر يريد نقودا ٠ وفهم الخادم فقال : « هذا هو مسيو فيرال ، والسيارة تنتظر هناك ٠ » وخرج التاجر ، فشاهد مصابيح السيارة ، مشتبكة بالأسوار الشائكة ٠

ــ « هذا حسن • »

وكانت هذه الثقة التى تدل على ما يتمتع به من نفوذ ، سببا فى اثارة ثائرة فيرال ، ذلك أن قوته الواضحة ، بدليل معرفة هــذا التاجر الصغير باسمه ــ كانت خالية من كل معنى ، مادام لا يستطيع أن يستخدمها • ومع ذلك ، فقد هرعت لنجدته كبرياؤه ، تدعمها العملية التى يقوم بها وأنعشه هواء الليل البارد فأخذ الغضب وأخذت الأخيلة السادية تتحال الى ضرب من التقزز ، وان كان يعلم أنه لم ينته منها تماما •

قال التاجر : « ان لدى قنغرا أيضا • »

فهز فيرال كتفيه • غير أن صبيا ــ قد استيقظ كذلك ــ كان قد وصل فعلا حاملا القنغر بين ذراعيه • وكان القنغر حيوانا ضئيل القامة ، يكسوه جلد كالفراء ، وجعل ينظر الى فيرال بعينين أشبه بعينى غزال مذعور •

ــ « جميل • »

وكتب شيكا آخر •

وعاد فيرال متمهلا صوب السيارة • ينبغى قبل كل شيء ــ اذا حكت ڤاليرى حكاية القفصين ــ ولن يفوتها أن تحكيها ــ فيكفى أن يحكى نهــاية القصة لكى يتجنب الاستهزاء • وحمل التاجر والصبى والخــادم الأقفاص الصغيرة ، ووضعوها فى السيارة ، وعادوا لحمل أقفاص أخرى ، وفى النهاية حملوا القنغر والببغاوات فى أقفاص صــغيرة مستديرة وهنــاك ، فيما وراء المدينة الصينية ، دوت بضع طلقات • حسن جدا •• كلما تقاتلوا ، كان ذلك أفضل • وواصلت السيارة سيرها تحت أعين الحراس المبهورة •

وفى محل « آستور » • ، استدعى فيرال المدير •

ــ « أرجو أن تتكرم بالصعود الى حجرة مدام سرجى •• انها غائبــة ، وأريد أن أعد لها مفاجأة • »

وأخفى المدير دهشته ، بل استنكاره أيضا : فقد كان محل « آستور » يعتمد على أموال الاتحاد • وكان مجرد وجود رجل أبيض يتحدث اليه فيرال ، قد انتزعه من عالــم المهانة التى لحقت به ، وأعانه عــلى أن يعود وســط « الآخرين » • وكان التاجر الصينى والليل قد تركاه بين أفكاره المسيطرة

عليه . وهو وان لم يكن قد تخلص منها تماما الآن . فانها على الأقل لم تعد مسيطرة عليه وحدها •

ولم تكد تمضى خمس دقائق . حتى كان قد وضع الأقفاص فى الحجرة • وكانت الأشياء الثمينة كلها مرتبة فى الدواليب ، وكان أحدها غير مغلق ، وتناول « بيجاما » منشورة على السرير ليرميها داخل الدولاب ، ولكنه ماكاد يلمس الحرير الدافىء حتى بدا له أن هـذا الدفء قد سرى عبر ذراعه الى جسده كله ، وأن هذا الحرير الذى يضمه قد غطى نهدها تماما : وكانت الأثواب والبيچامات المعلقة فى الدولاب المنفرج تحتفظ بشىء أكثر حسية من جسد ڤاليرى نفسها • وكاد يمزق هـذه الثياب التى ما زالت مشبعة بحضورهما • ولو كان يستطيع أن يحمل البيچاما معه ، لحملها •• ولكنه ألقى بها فى الدولاب ، الذى أغلق الخادم بابه • وفى اللحظة التى فارقت فيها البيچاما يده ، غزت خياله فجأة أسطورة هرقل وأومفال ، وتبدى له هرقل مرتديا ثوب امرأة ، ثوبا لينا دافئا كهذه البيچاما ، مهينا راضـيا بهوانه • وعبثا حـاول أن يستحضر المشاهد السادية التى سـيطرت عليه منذ لحظة : غير أن الرجـل الذى ضربته أومفال وديچانير ظل جاثما عـلى تفكيره كله ، مغرقا اياه فى تلذذ ذليل • واقترب من سمعه وقع خطوات •• فوضع يده على مسدسه القابع فى جيبه ، فلو أنها دخلت هـذه اللحظة ، لقتلها بلا شك • غير أن وقع الخطوات ضعف ، متجـاوزا الباب ، فأخرج فيرال يده من جيبه ، ووضعها فى جيب آخر تناول منه منديله فى عصبية •• كان لابد أن ينصرف ـ على أى نحو كان ـ حتى يتخلص من هذه المشاعر : فأطلق الببغاوات ، بيد أن الطيور المذعورة لاذت بالأركان وبالستائر • وقفز القنغر على السرير ، ومكث هناك • وأطفأ فيرال المصباح الرئيسى ، ولم يترك سوى المصـباح الساهر • فشرعت الببغاوات فى الطيران بألوانها الوردية والبيضاء ، وهى تحرك أجنحتها المقوسة المزركشة حركات رائعة فبدتأشبه بعنقاوات شركة الهند الشرقية ، محدثة ضجة خشنة قلقة •

وكانت هذه الأقفاص الممتلئة بالطيور المضطربة ، والموضوعة بلا نظام على قطع الأثاث كلها ، وعلى الأرض ، وعلى المدفأة ، تضايقه • وحاول أن يقرر أمرا بشأنها ، ولكنه لم يصل الى شىء فانصرف • ثم عاد ، فادرك فى الحال : أن الحجرة تبدو كالمنهوبة •• هل ينجو من ارتكاب الحماقات هذه الليلة ؟

لقد ترك ، على الرغم منه ، صورة ساطعة لغضبه فى هذه الحجرة ٠

قال للخادم : « افتح الأقفاص » ٠ فقال المدير :

ـ « سوف تتسخ الحجرة يا مسيو فيرال ٠ »

ـ « تستطيع مدام سرجى أن تغيرها ٠ اهدأ ٠٠ فلن يحدث ذلك الليلة ٠٠ وابعث الى بحسابها ٠ »

ـ « هل تريد زهورا يا مسيو فيرال ؟ »

ـ « لا شيء سوى الطيـور ٠٠ ولا تدع أى شخص يدخل هنا ٠٠ حتى الخدم ٠ »

وكان على النافذة ، لدرء البعوض ، ستار معدنى ، فلن تستطيع الطيور الفرار ٠٠ وفتـح المـدير مصراعى النـافذة حتى لا تمتلىء الحجرة برائحة الحيوان ٠

والآن ، أخذت طيور الجزائر تحوم على قطع الأثاث والستائر وفى أركان السقف ، منطفئة اللون فى هـذا النور الخافت وكأنها طيور الفريسكات الصينية ٠ وهكذا قدم لڤاليرى ـ بدافع من الحقد ـ أجمل هداياه ٠ وأطفأ النور ، ثم أضاءه ، وأطفأه ، ثم أضاءه مرة أخرى ، واستخدم لذلك مفتاح أباجورة السرير ، وتذكر الليلة الأخيرة التى قضاها مع ڤاليرى فى منزله ٠ وود لو ينتزع هذا المفتاح حتى لا تستطيع استخدامه بعد ذلك أبدا ٠٠ مع أى شخص آخر ٠ ولكنه لم يكن يريد أن يترك وراءه أى أثر ينم عن الغضب ٠

قال للخادم : « احمل الأقفاص الخالية ٠٠ واحرقها ٠ »

وتساءل المدير وهو ينظر الى فيرال فى اعجاب : « واذا سألت مدام سرچى عمن بعث هذه الطيور ، فهل أخبرها ؟ »

ـ « انها لن تسأل ٠٠ لأنها ستتعرف على التوقيع ٠ »

وانصرف ٠٠ ينبغى أن يضاجع الليلة أية امرأة ٠٠ ومع ذلك ، لم يشعر برغبة فى أن يذهب مباشرة الى المطعم الصينى ٠٠ وكان يكفيه ـ مؤقتا ـ أنه على يقين من وجود أجساد تحت تصرفه ٠ وقد كان يحدث فى كثير من الأحيان أن يوقظه كابوس من نومه قفزا من السرير ، ولكن كانت تستولى

عليه رغبة فى أن يعود الى النوم على الرغم من الكابوس الذى يجده ثانية ، كما تستولى عليه فى الوقت نفسه رغبة فى التحرر من هذا الكابوس بأن يصحو تماما ، فالنوم معناه الكابوس ، ولكن الكابوس يعنى أيضا العودة الى نفسه ، واليقظة معناها السلام ، ولكنها تعنى أيضا الرجوع الى العالم • وكان الجنس فى هذه الليلة هو الكابوس • واستقر عزمه أخيرا على الاستيقاظ فطلب من السائق أن يتوجه به الى المنتدى الفرنسى : الكلام وانشاء علاقات مع انسان ، حتى ولو كان ذلك عن طريق الحديث ، هو أشد ضروب اليقظة يقينا •

وكان المشرب زاخرا بالناس : وهذا ما يحدث دائما فى أوقات الاضطرابات• وعلى مقربة من النافذة المواربة ، جلس جيسور وحيدا منعزلا أمام كأس من الكوكتيل الحلو ، وقد وضع عباءة من الصوف البنى الفاتح فوق كتفيه : وكان كيو قد اتصل تليفونيا ليخبره أن كل شىء يسير على ما يرام ، فسعى أبوه الى المشرب بحثا عن الشائعات المنتشرة ، التى غالبا ما تكون سخيفة ، ولكنها لا تخلو فى بعض الأحيان من الدلالة •• ولكنها لم تكن اليوم كذلك• واتجه اليه فيرال وسط ما يلقاه من تحيات • وكان يعرف طبيعة محاضراته ، ولكنه لم يكن يعيرها أية أهميــة ، كما كان يجهل وجود كيــو حاليــا فى شنغهاى • وكان يعتقد أن من الوضاعة أن يسأل مارسيال عن أشــخاص معينين ، وفضلا عن ذلك ، لم يكن للدور الذى يقوم به كيو أى طابع عام •

ان هــؤلاء الحمقى جميعا ، الذين ينظرون اليه فى استهجان وجــل ، يعتقدون أن الأفيون هو معقد الصلة بينه وبين جيسور العجوز • وهم فى ذلك مخطئون • وتظاهر فيرال بأنه يدخن غليونا أو غليونين ، أى أقل دائما من الأنفاس اللازمة لكى يشعر بتأثير الأفيون ـ وذلك لأنه كان يرى فى جو قاعة التدخين ، وفى الغليون الذى ينتقل من فم الى آخر ، وسيلة للتأثير على النساء • وكان يجزع من عملية الغزل التى ينبغى أن يقوم بها ، ومن المساومة التى تجعل من الاهتمام الذى يبديه بامرأة ، ثمنا لما تقدمه له من متعة ، ولهذه فقد كان يقبل متلهفا أية فرصة تغنيه عن هذه الضرورة •

أما المزاج الذى كان يدفعه للذهاب أحيانا الى بكين لمشاركة جيســور العجــوز فى التمدد على أريكته ، فكان أشــد من ذلك تعقيدا • ويأتى حبه

للفضيحة فى المرتبة الأولى ، ثم رغبته فى ألا يكون مجرد رئيس للاتحاد فحسب ، بل أن يكون متميزا بأفعاله عن هذا المنصب ، وهى وسيلة للاعتقاد بأنه أعلى منه • وقد كان تذوقه الذى يكاد يكون عدوانيا للفن والفكر ، والاستهتار الذى يسميه صفاء فى الفكر •• كان هذا كله مجرد دفاع ؟ فهو لم ينحدر من « الأسر » المهيمنة على المؤسسات المالية الكبيرة ، أو على الحركة العامة للأموال ، أو على التفتيش على أموال الدولة • وكانت أسرة « فيرال » مرتبطة أشد الارتباط بتاريخ الجمهورية بحيث لا يمكن أن يدرجه القوم فى عداد الانتهازيين ، ومع ذلك فانه ما برح هاويا ، أيا كان نفوذه • ولما كان أبرع من أن يحاول ردم الفجوة التى تحيط به ، فانه يعمل على توسيعها • وكانت ثقافة چيسور الواسعة ، وذكاؤه الذى يضعه دائما فى خدمة محدثه ، وازدراؤه للتقاليد ، ووجهات نظره الفريدة دائما التى لا يتوانى فيرال عن أن ينسبها الى نفسه حين يغادره •• كانت هذه الأشياء جميعا تعمل على التقريب بينهما ، أكثر مما تعمل بقية العناصر الأخرى على التفرقة بينهما • وكان چيسور لا يتكلم فى السياسة مع فيرال الا على مستوى الفلسفة ، وقد اعتاد فيرال أن يقول انه فى حاجة الى الذكاء ، وكان هذا صحيحا ما لم يصدمه هذا الذكاء •

ونظر حواليه : ففى اللحظة التى جلس فيها ، اتجهت اليه الأنظار كلها تقريبا • وقد كان على استعداد لأن يتزوج من طاهيته هذا المساء لمجرد أن يفرضها على هذا الجمع • وكان يثيره أن يحكم على هؤلاء الحمقى على ما يفعل ، وكلما قلت رؤيته لهم ، كان ذلك أفضل : ولهذا اقترح چيسور أن يشربا فى الشرفة ، التى تطل على الحديقة •• وكان الخدم قد أخرجوا بضع مناضد على الرغم من برودة الجو •

وسأل چيسور : « هل تعتقد أنه من الممكن أن نعرف •• نعرف كائنا حيا ؟ »

وكانا قد استقرا بجوار مصباح صغير ، تتبدد هالته فى ظلمة الليل التى أخذ الضباب يملؤها شيئا فشيئا •

ونظر اليه چيسور وقال لنفسه : « انه ما كان يجد فى نفسه هذا الميل الى علم النفس لو كان يستطيع أن يفرض ارادته • »

وسأله : « امرأة ؟ »

ـ « وما أهمية ذلك ؟ »

ـ « ان الفكر الذى يجتهد لفهم امرأة ينطوى على شىء من العشق .. والرغبة فى أن تعرفه امرأة ما هى الا طريقة لامتلاكها أو للانتقام منها .. »

وكانت عاهر صغيرة تقول لأخرى ، حول المائدة المجاورة : « انها لا تستطيع أن تفعل ذلك بهذه السهولة .. اننى أقول لك ، انها امرأة تغار من فتنتى .. »

واستأنف چيسور كلامه قائلا : « انى أعتقد أن اللجوء الى الذكاء يحاول تعويض هذا : فان معرفة كائن ما عاطفة سلبية ، والعاطفة الايجابية ، الواقع ، هى الشعور بأن المرء غريب دائما عمن يحبه . »

ـ « وهل من الممكن أن نحب يوما ؟ »

ـ « الزمن يخفى أحيانا هذا القلق .. الزمن وحده . اننا لانعرف أبدا كائنا ما ، ولكن قد يزايلنا أحيانا الشعور بأننا نجهله ( اننى أفكر فى ابنى .. أليس كذلك .. وفى صبى آخر أيضا . ) المعرفة بواسطة العقل هى المحاولة الباطلة للتغاضى عن الزمان . . »

ـ « ليست وظيفة العقل أن يتغاضى عن الأشياء . »

فتطلع اليه چيسور : « ماذا تعنى : بالعقل ؟ »

ـ « بوجه عام ؟ »

ـ « أجل . »

وفكر فيرال ، ثم قال :

ـ « امتلاك الوسائل لقهر الأشياء أو الناس . »

وابتسم « چيسور » ابتسامة غير ملحوظة ، ففى كل مرة يطرح هذا السؤال ، يجيب محدثه ـ أيا كان ـ اجابة هى صورة رغبته الحقيقية ، أو صورته فى نظر نفسه . غير أن نظرة فيرال أصبحت أشد غزارة .

وسأل : « هل تعرف العقاب الذى كان يوقع على المرأة التى تسوء سيدها ، هنا ، فى عهد الامبراطوريات الأولى ؟ »

ـ « كانت هنـاك عقوبات كثيرة .. أليس كذلك ؟ ويبدو أن العقاب الرئيسى كان تقييد المرأة الى رمث ، بعد قطع أيديها ، وانتزاع عينيها ، على ما أعتقد ، ثم ... »

وفى أثناء كلامه ، كان چيسور يلاحظ الانتباه المتزايد ، بل الرضا الذى كان فيرال ينصت به :

ـ « ... ثم تركها تطفو فوق تلك الأنهار التى لا تنتهى حتى تموت جوعا أو تعبا ، وقد قيد عشيقها الى جانبها فوق الرمث نفسه ... »

ـ « عشيقها ؟ »

كيف يمكن التوفيق بين هذه اللامبالاة التى ألقى بها السؤال ، وبين هذا الانتباه ، وهذه النظرة ؟ ولم يكن چيسور يستطيع أن يخمن ـ خلو ذهن فيرال من العاشق ، ولكنه كان قد استدرك نفسه فعلا .

واستطرد قائلا : « وأغرب ما فى الأمر هو أن هذه العقوبات الوحشية قد صاغ نصوصها حتى القرن الرابع فيما يبدو ـ حكماء انسانيون طيبون، وفقا لما نعرفه عن حياتهم الخاصة ... »

ـ « أجل .. لاشك أنهم كانوا حكماء . »

وتطلع چيسور الى هذا الوجه الحاد ذى العينين المغمضتين ، يضيئه من أسفل المصباح الصغير ، وقد تعلق شعاع من النـور بشاربه . طلقات الرصاص تدوى من بعيد .. كم من حيوات يتقرر مصيرها فى هذا الضباب الليلى ؟ ونظر الى هذا الوجه المتوتر فى مرارة بسبب مهانة صادرة من أعماق الجسد والروح ، وهو يدافع عن نفسه ضد هذه المهانة بكل ما أوتى من قوة زهيدة هى الحقد الانسانى ! وكان فوق الحقد ذلك البغض الذى يضمره كل من الجنسين للآخر كما لو كان على أقدم أنواع الكراهية أن تتولد من جديد عن هذه الدماء التى ما برحت تسيل فوق هذه الأرض التى غصت .

١

طلقات رصاص من جديد ، قريبة جدا هذه المرة بحيث جعلت الأكواب تهتز على المائدة .

وكان « چيسور » قد اعتاد سماع طلقات الرصاص هذه التى تاتى كل يوم من المدينة الصينية . وعلى الرغم من مكالمة « كيو » التلفونية ، فان هذه

الطلقات أقلقته فجأة • وكان يجهل مدى الدور السياسى الذى يلعبه فيرال ، بيد أن هذا الدور لا يمكن الا أن يكون فى خدمة تشانج ـ كاى ـ شيك • ورأى من الطبيعى أن يكون جالسا الى جـواره فلم يكن يجد نفسه متواطئا أبدا ، حتى مع نفسه ـ ولكن رغبته فى معاونته قد انقطعت • طلقات رصاص من جديد ، أبعد هذه المرة •

وسأل : « ماذا يجرى ؟ »

ـ « لا أدرى •• بيد أن الزعماء الزرق والحمر قد أصدروا معا اعلانا عظيما بالاتحاد • ويبدو أنه يسير على ما يرام • »

وقال جيسور : « انه يكذب : فلابد أن يكون على علم بما أعلمه أنا على الأقل • »

وأردف فيرال : « وسواء أكانوا من الحمر أم من البيض ، فان الكادحين سيظلون كادحين •• اللهم الا اذا ماتوا • ألا ترى أن من الغباوة التى يتسم بها الجنس البشرى أن يفقد الانسان الذى لا يملك سوى حياة واحدة ـ هذه الحياة من أجل فكرة ؟ »

ـ « من النـادر أن يستطيع انسان •• كيف أعبر ؟ احتمـال وضعه كانسان ••• »

وجال بخاطره رأى من آراء كيو : فكل ما يقبل الناس أن يموتوا فى سبيله ، متجاوزين الانتفاع ، يتجه فى غموض ـ قل أو كثر ـ الى تبرير ذلك الوضع بتأسيسه على الكرامة ، وهكذا كانت المسيحية بالنسبة للعبد ، والأمة بالنسبة للمواطن ، والشيوعية بالنسبة للعامل •

ولكنه لم يكن يود أن يناقش أفكار كيو مع فيرال • وعاد مرة أخرى الى جليسه فقال :

ـ « لابد أن يتعاطى الانسان مخدرا دائما : الأفيون فى هـذه البلاد ، والحشيش فى بلاد الاسلام ، والمرأة فى الغرب ••• وربما كان الحب هو على وجه الخصـوص الوسـيلة التى يستخدمها الغربى للتحرر من وضعه كانسان ••• »

وتحت أقواله ، كان يتسرب تيار مضاد ، تختلط فيه الوجوه وتحتجب :

« تشن » وجريمة القتل ، كلابيك وجنونه ، كاتوف والثورة . ماى والحب، هو والأفيون .. أما كيو .. فكان وحده الذى يقاوم هذه المجالات .

وأجاب فيرال : « لن ينام سوى عدد أقل كثيرا من النســاء ، لو أنهم استطعن الحصول وهن واقفات في وضع رأسى على عبارات الاعجاب التى يحتجن اليها ، والتى تقضى عليهن بالذهاب الى الفراش . »

ــ « وكم من الرجال يصدق عليهم أيضا هذا القول ؟ »

ــ « ولكن الرجل يستطيع ــ بل يجب عليه ــ أن يستغنى عن المرأة : الفعل ، والفعل وحده هو الذى يبرر الحياة ، ويرضى الرجل الأبيض . ماذا نظن اذا حدثونا عن مصور عظيم لا يصنع لوحات ؟ انما الرجل بمجموع أفعاله ، بمجموع ما أتى من أفعــال ، وما يستطيع أن يفعل . ولاشيء خــلاف ذلك . ولست ما يصوغه من حياتي هذا اللقاء بتلك المرأة أو بذلك الرجل . اننى سبلى ... و ... »

ــ « ينبغى أن تكون السبل موجودة من قبل .. »

وكان چيسور قد اعتزم ــ منذ أن تناهت اليه طلقات الرصاص الأخيرة ــ أن يكف عن القيام بدور المبرر .

ــ « ان لم يكن بيدك ، فسيكون ذلك بيد غيرك ... والأمر أشبه بقائد يقول : بجنودى أستطيع أن أضرب المدينة .. ولكنه ، لو كان قادرا عــلى ضربها ، لما كان قائدا .. وفضلا عن ذلك ، فربما كان الرجال لا يكترثون بالسلطان .. وما يفتنهم فى هذه الفكرة ، ليس هو القدرة الحقيقية ، بل ما يتوهمون أنه سيجلب لهم سرور التصرف على هواهم . ان قوة الملك هو أن يحكم ، أليس كذلك ؟ غير أن الانسان لا يتوق الى أن يحكم ، وانما يود أن يقهر كما قلت أنت .. أى أن يكون أكثر من انسان .. فى عالم الناس . انه الافلات من الوضع الانسانى كما قلت لك .. أى ألا يكون قويا فحسب، بل قادرا على كل شيء . والمرض الوهمى الذى ليست ارادة القوة غير تبريره العقلى هو ارادة الألوهية .. فكل انسان يحلم بأن يكون الها . »

وكان ما يقوله « چيسور » يزعج فيرال ، غير أن روحه لم تكن مهيأة لاستقباله . واذا لم يعمل الشيخ على تبريره ، فلن يجد خلاصا من فكرته المسيطرة عليه :

ـ « لماذا اذن لا ينال الآلهة ـ فى رأيك ـ النسوة الغانيات الا اذا اتخذوا صورا انسانية أو حيرانية ؟ »

وأحس چيسور ـ وكأنه رأى رؤية العين ـ بأن ظلا قد استقر الى جوارهما ، وكان فيرال قد نهض ٠

قال چيسور دون أن ينظر اليه : « أنت فى حاجة الى استخدام ما هو جوهرى فى نفسك ، لكى تشعر شعورا أعنف بالوجود ٠ »

ولم يكن فيرال يصل فى تخمينه الى أن نفاذ رأى چيسور يأتى من أنه يتعرف فى محدثيه على أجزاء من شخصيته هو ، وأنه من الممكن تكوين أدق صورة عنه بجمع تلك النماذج من فهمه الثاقب ٠

واستطرد الشيخ قائلا بابتسامة واعية : « الاله يستطيع أن يملك : ولكنه لا يستطيع أن يقهر ٠ والمثل الأعلى لاله ما ، هو أن يصبح انسانا مع علمه بأنه يستطيع الرجوع الى قدرته ، وحلم الانسان هو أن يصبح الها دون أن يفقد شخصيته ٠٠ »

ينبغى ـ بكل تأكيد ـ أن يضاجع امرأة ٠٠ وانصرف فيرال ٠

وقال چيسور لنفسه : « حالة غريبة من خداع الذات المتواصل ٠٠ ولعله يتصور نفسه هذا المساء ـ من حيث الجنس ـ كما يتصور أى بورچوازى رومانتيكى صغير ٠ » وحين اتصل چيسور ـ بعد الحرب بقليل ـ بالقوى الاقتصادية فى شنغهاى ، لم يكن اندهاشه قليلا اذ رأى أن فكرته التى كونها عن الرجل الرأسمالى لا تطابق أى شيء ٠٠ ذلك أن جل من التقى بهم حينئذ كانوا قد حددوا حياتهم العاطفية بصورة أو بأخرى ، وكانت هذه الصورة دائما هى صورة الزواج : فالفكرة المسيطرة التى تصنع رجل الأعمال الكبير ، حين لا يكون وريثا قابلا للاستبدال ، لا تتلاءم مع التشتت الغرامى ٠ وكان يشرح هذه المسألة لطلابه قائلا : « ان الرأسمالية الحديثة ارادة تنظيم أكثر منها ارادة قدرة ٠٠٠ »

وكان فيرال يفكر ـ وهو فى سيارته ـ فى أن علاقاته بالنساء كانت دائما واحدة ، ولا معنى لها ٠٠٠ وربما ، كان قد أحب ، ذات يوم ٠٠ فى الزمان الغابر ٠ من هو هذا العالم النفسانى المخمور الغافل الذى اخترع

تسمية العاطفة التى تسمم حياته الآن بالحب ؟ الحب ، فكرة مستبدة مبالغ فيها ، ان نساءه يسيطرن عليه ٠٠ أجل ـ سيطرة الرغبة فى الانتقام ٠ انه يلجأ الى النساء للحكم عليه ٠٠ وهو الذى لا يقبل أى حكم ٠ والمرأة التى تعبر عن اعجابها به بأن تمنحه نفسها ، ودون أن يناضلها ، لا وجود لها بالنسبة له ٠٠ ولم يكن أمامه سوى المومسات والعاهرات ٠ ولحسن الحظ ، كانت ثمة أجساد ٠٠ والا ٠٠ « ستموت ياعزيزى دون أن تفطن الى أن المرأة كائن انسانى ٠٠ » ربما كان ذلك بالنسبة لها ٠٠ لا بالنسبة له ٠ المرأة ، كائن انسانى ٠ انها مجرد راحة ، رحلة ، عدو ٠٠٠

وأخذ ـ فى طريقه ـ غانية من أحد بيوت طريق نانكين : فتاة ذات وجه رشيق عذب ٠٠ وجلست الى جواره فى السيارة ، وقد أسندت يديها فى رزانة على قيثارتها ، فبدت كتمثال صغير من تماثيل « تانج » ٠ ووصلا أخيرا الى منزله ٠ وصعد درجات السلم أمامها ، وقد تحولت خطوته الطويلة المعتادة الى خطوة متثاقلة ٠ وحدث نفسه قائلا : « هيا ٠٠ الى النوم » ٠ النوم ، هو السلام ٠ لقد عاش ، وناضل ، وخلق ٠٠ وتحت هذه المظاهر كلها ، فى أعمق أعماق نفسه ، كان يجد هذه الحقيقة الوحيدة ، بهجة الانسلاخ والتخلى على الشاطىء ـ كما يتخلى المرء عن جسد رفيق غريق ـ عن هذا الكائن الذى هو نفسه والذى عليه أن يبعث فيه حياة جديدة كل يوم ٠ « انما النوم هو الشىء الوحيد الذى تمنيته دائما ، فى الواقع ، منذ سنين عديدة ٠٠ »

وماذا ينتظر أفضل من هـذا المنوم الذى تحمله له تلك المرأة الشابة ذات النعل الرنان من خلفه فى كل خطوة تخطوها على درجات السلم ؟ ودخلا حجرة التدخين : حجرة صغيرة ذات متكئات مغطاة بسجاجيد من منغوليا ، صنعت للاغراء الحسى أكثر منها للاسترسال فى الأحلام ٠ وعلى الجدران ، لوحة كبيرة من المرحلة الأولى للمصور « كاما » وراية من التبت ٠ ووضعت المرأة قيثارتها على أريكة ٠ وكانت هناك على الصينية آلات تدخين الأفيون القديمة ، ذات مقابض من اليشب ، محلاة ولكنها غير عملية ، فان صاحبها يقتنيها ولا يستخدمها ٠ ومدت يدها نحوها ، فأوقفها بحركة منه ٠ وانبعثت من بعيد طلقة رصاص جعلت الابر تهتز فوق الصينية ٠

ـ « هل تريد أن أغنى ؟ »

ـ « ليس الآن ٠ »

ونظر الى جسدها الذى يخفيه وينم عنه فى آن واحد  ذلك الثوب الضيق المصنوع من الحرير البنفسجي الذى كانت ترتديه • وكان يعرف أنها مندهلة : فقد جرت العادة ألا يضاجع المرء غانية الا اذا غنت ، وتحدثت ، وقدمت الطعام ، أو أعدت الغليون • والا ، فلماذا لم يلجأ الى المومسات ؟

ـ « ألا تريد أن تدخن أيضا ؟ »

ـ « كلا •• اخلعي ملابسك • »

وكان يعلم أنه ينكر كرامتها ، وكان يود أن تتجرد من ملابسها فى الحال ، ولكنه كان يعلم أنها سترفض • ولم يترك مضيئا سوى مصباح ساهر واحد • وناجى نفسه قائلا : « العشق ، هو مذلة للذات أو للآخر ، أو ربما للاثنين معا •• انه فكرة ، بكل وضوح •• » ومهما يكن من أمر ، فهى أشد اثارة على هذا النحو ، بهذا القميص الصينى الملتصق بجسدها • ولكنها لم تكن بالبكاء تثيره ، أو لعله لا ينفعل الا بخضوع هذا الجسد الذى ينتظره ، على حين لا يحرك هو ساكنا •• كانت لذته تنبثق من أنه يضع نفسه مكان « الأخرى » •• هذا واضح : مكان الأخرى •• المقهورة ، المقهورة بواسطته • والخلاصة ، أنه لا يضاجع أبدا الا نفسه ، ولكنه لا يستطيع أن يصل الى هذه النتيجة الا بشرط ألا يكون بمفرده • وفهم الآن ما ذهب اليه ظن چيسور : أجل ان ارادة القدرة عنده لا تبلغ موضعها أبدا ولاتعيش الا على تجديده ولو أنه يمتلك فى حياته امرأة واحدة قط ، فقد امتلك ، وسيمتلك من خلال هذه المرأة الصينية التى تنتظره الشيء الوحيد الذى يتحرق شوقا اليه ، وهو نفسه • انه فى حاجة الى عيون الآخرين لكى ينظر الى نفسه ، والى حواس امرأة أخرى لكى يحس بنفسه • وتطلع الى الصور التبتية ، وثبت نظره عندها دون أن يعرف لماذا : على عالم لا لون له يضرب فيه جماعة من المسافرين ، كان هيكلان من العظام متشابهان تماما ، يتعانقان فى تشنج •

واقترب من المرأة •

**الساعة العاشرة والنصف**

قال تشن لنفسه : « حبذا لو لم تتأخر السيارة أكثر من ذلك • » •• ففى العتمة الكاملة لن يكون واثقا من تسديد ضربته ، وستطفأ مصابيح الشارع الأخيرة بعد لحظات • وكان ليل الصين الموحش ـ الصين المليئة بحقول الأرز والمستنقعات ـ قد استولى على الشارع شبه المهجور ، وأخذت

الأضواء الخافتة المنبعثة من شقوق المصاريع المواربة ، عبر الزجاج المغلق ـ تنطفيء واحدا اثر الآخر ، كما تعلقت الأشعة الأخيرة بالقضبان المبللة ، وبعوازل التلغراف ، وجعلت تضعف دقيقة بعد أخرى ، ولم يعد تشن يراها الا على الاعلانات العمودية المغطاة بحروف مذهبة • وكانت هذه الليلة التى يغشاها الضباب هى ليلته الأخيرة ، وكان بها راضيا • لقد اعتزم أن ينفجر مع العربة ، فى لمحة كالبرق تضيء لحظة هذا الشارع البغيض ، وتغطى جدارا برشاش من الدماء • وخطرت له أقدم أسطورة صينية ومؤداها أن الناس هم ديدان الأرض •• ينبغى أن يصبح الارهاب نزعة صوفية • العزلة أولا ، وليتخذ الارهابى قراره بمفرده ، وينفذه بمفرده ، فان قوة البوليس مصدرها الخيانة ، والقاتل الذى يتصرف وحده لا يخاطر بافشاء سره والعزلة أخيرا، وان كان من الصعب على من يعيش خارج العالم ألا يبحث عن أقرانه • وكان تشن يعرف الاعتراضات التى تقوم فى وجه الارهاب : وتتلخص فى الاضطهاد البوليسى للعمال ، واللجوء الى الفاشية • بيد أن الاضطهاد لا يمكن أن يكون أعنف مما هو الآن ، والفاشية لا يمكن أن تكون أوضح • وربما كان هو وكيو يفكران فى فئتين مختلفتين من الناس • فما الأمر أمر الابقاء على أفضل الناس المسحوقين فى طبقتهم لتخليصها مما هى فيه ، وانما اعطاء معنى لانسحاقهم هذا نفسه : بأن يكون كل منهم مسئولا وقاضيا على حياة سيد من السادة • اعطاء معنى مباشر للفرد الذى يعيش بلا أمل ، ومضاعفة الاغتيالات لابوساطة تنظيم ، ولكن بوساطة فكرة : أى الاستكثار من الشهداء • وسوف ينصت الناس لـ « بى » حين يكتب ، لأنه ـ أى تشن ـ سوف يموت : انه يعرف الوزن الذى تكتسبه فكرة ما نتيجة للدماء المبذولة فى سبيلها • وكل ما كان عدا فكرته المصممة كان يتحلل فى الليل الذى يخفى وراءه تلك السيارة التى لن تلبث أن تصل بعد قليل •• وكان الضباب ـ يغذيه الدخان المنبعث من البواخر ـ يحطم فى أعماق الشارع شيئا فشيئا ـ الأرصفة التى لم تخل تماما ، فقد كان ثمة بعض السابلة المتعجلين يسير الواحد منهم وراء الآخر دون أن يتجاوزه الا نادرا ، وكأن الحرب قد فرضت على المدينة نظاما صارما. وكان الصمت العام الذى يخيم على مسيرهم يضفى على اضطرابهم طابعا يكاد يكون خياليا •• ما كانوا يحملون متاعا أو سلالا ، أو يدفعون أمامهم عربات صغيرة ، فلعل نشاطهم هذه الليلة كان بلا هدف • ونظر « تشن » الى جميع هذه الظلال التى تسرى دون جلبة صوب النهر ، فى حركة دائمة لا تفسير

لها ، أليس هذا هو القدر بعينه ، هذه القوة التى تدفعهم الى الطرف الآخر من الطريق ، هناك حيث يبدو القوس المضىء باللافتات التى توشك ألا تظهر امام ظلمات النهر — كأنه باب الموت نفسه ؟ وكانت تلك الحروف الضخمة الغائصة في أفق مضطرب ، تضيع فى ذلك العالم الفاجع الغائم كما تضيع فى حقب الزمان ، وكأنما كان النفير العسكرى لسيارة تشانج — كاى — شيك الذى بدأ يتردد فى صوت مكتوم فى مؤخرة الشارع شبه المهجور — آتيا هو أيضا من الأزمنة البوذية ، لا من هيئة أركان الحرب • وضغط تشن على القنبلة تحت ذراعه فى شىء من العرفان بالجميل • وكانت المنارات وحدها هى التى تخترق الضباب • وفى الحال ، ظهرت السيارة كلها فجأة ، تتقدمها السيارة الفورد المخصصة للحراسة ، وخيل الى تشن للمرة الثانية أن السيارة تتقدم بسرعة غير عادية • وفجأة سدت الشارع ثلاث من عربات الجر ، فهدأت السيارتان من سرعتهما • وحاول تشن أن يعاود السيطرة على تنفسه • وكان ارتباكه قد تشتت فعلا • ومرت الفورد ، ووصلت السيارة : سيارة أمريكية ضخمة ، تعلق بسلميها رجلان من البوليس • وكانت تبدو من القوة بحيث أحس تشن أنه لو لم يتقدم وانتظر ، فسوف يتنحى عن طريقها على الرغم منه • وتناول قنبلته من مقبضها كأنها زجاجة لبن ، وكانت سيارة الجنرال ضخمة ، على بعد خمسة أمتار •• وجرها نحوها فى سرور منتش ، وقذف بنفسه تحتها ، مغمض العينين •

وعاد الى صوابه بعد عدة لحظات ، لم يحس ولم يسمع قرقعة العظام التى كان ينتظرها ، ولكنه غاص فى كرة باهرة الضوء • ولم تعد تغطيه سترته • وبيده اليمنى كان يمسك قطعة من غطاء السيارة مليئة بالوحل والدماء •• وعلى بعد بضعة أمتار كومة من الرماد الأحمر ، طبقة من الزجاج المسحوق يتألق فيها شعاع أخير من النور •• ومن •• ولم يعد يميز شيئا : وأحس بألم ، سرعان ما تجاوز فى ظرف ثانية منطقة الوعى • ولم تعد رؤيته واضحة ، ومع ذلك ، شعر بأن المكان ما برح مهجورا ، هل يخشى رجال البوليس قنبلة ثانية ؟ كان يتألم بجسده كله ، ألما لا سبيل الى تحديد موضعه : وأصبح كله ألما • ثمة شخص يقترب • وتذكر أنه ينبغى عليه أن يخرج مسدسه • وحاول أن يبلغ جيب سرواله •• لا جيب ، ولا سروال ، ولا ساق ، وانما لحم مفرى • المسدس الآخر ، فى جيب قميصه • لقد طارت

فتحته ، فأمسك بالسلاح من فوهته ، وأداره دون أن يعرف كيف أداره ، ورفع بالغريزة ترس الأمان بسبابته • وأخـيرا فتح عينيه ، كان كل شيء يدور بطريقة متمهلة قاهرة وفقا لدائرة واسعر ، ومع ذلك لـم يكن لشيء وجود سوى الألم • وكان رجل من رجال البوليس قريبا منه •• وأراد تشن أن يسأل عما اذا كان تشانج ـ كاى ـ شيك قد مات ، ولكنه كان يريد ذلك فى عالم آخر ، ففى هذا العالم ، لم يعد ذلك الموت يعنيه فى شيء •

وبكل قوته ، ركله رجل البوليس فى جنبيه ركلة ، أدارته • فصرخ تشن ، وأطلق مسدسه الى الأمام جزافا ، وضاعفت هذه الهزة من أله الذى كان يعتقد أنه لا قرار له • وكان على وشك أن يفقد صوابه أو أن يموت • وبذل أقصى مجهود فى حياته ، بأن توصل الى ادخال فوهة المسدس في فمه• وتوقع أن تكون الهزة الجديدة أشد ألما من الأولى، فلم يبد حراكا • وانقبضت عضلاته جميعا نتيجة لركلة غاضبة من كعب رجل آخر من رجال البوليس ، فأطلق النار دون أن يلحظ شيئا •

# الجزء الخامس

**الساعة الحادية عشرة والربع**

سارت السيارة - عبر الضباب - فى الممشى الرملى الطويل الذى يؤدى الى بيت من بيوت الميسر . وقال « كلابيك » لنفسه : « لدى وقت للصعود ، قبل أن أذهب الى « القط الأسود » . وكان مصرا على ألا يفوته كيو ، بسبب النقود التى كان ينتظرها منه ، ولأنه ربما لم يكن مقبلا هذه المرة على تنبيهه الى خطر فحسب ، بل على انقاذه . وكان قد حصل دون عناء على المعلومات التى طلبها منه كيو : فقد كان المخبرون يعلمون أن الأوامر قد صدرت الى قوات تشانج - كاى - شيك الخاصة بالتحرك فى الساعة الحادية عشرة ، وأن اللجان الشيوعية ستحاصر جميعا . ولم يعد الأمر مقصورا على ترديد : « رد الفعل وشيك الوقوع » ، بل كان « لا تذهب هذا المساء الى أية لجنة » . ولم ينس أن كيو يجب أن يرحل قبـل الساعة الحادية عشرة والنصف . فهناك الليلة اذن اجتماع شـيوعى ما ، ينوى تشانج - كاى - شـيك أن يسحقه . وقد يكون ما يعلمه رجال البوليس كاذبا فى بعض الأحيان ، غير أن وقوع هذين الأمرين فى وقت واحد كان جليا كل الجلاء ، ويستطيع كيو - اذا أخطر - أن يرجىء الاجتمـاع ، أو ألا يذهب اليه - اذا كان قد فات أوان الارجاء . « واذا أعطانى مائة دولار ، فربما أصبح معى ما يكفى من النقود : مائة ، ومائة وسبعة عشر حصلت عليها بعد الظهر بطرقى اللطيفة وغير المشروعة على السواء ، أى مائتين وسبعة عشر دولارا .. ولكن ، ربما ، لم يكن معه شىء : فلا توجد هذه المرة أسلحة تحت تصرفه . فلنحاول اذن أن نتخلص بمفردنا ، من هذه الورطة » ووقفت السيارة .. وأعطى كلابيك وكان يرتدى السموكنج - دولارين للسائق . وشكره السائق - العارى الرأس - بابتسامة عريضة : اذ كان يستحق على المسافة التى قطعها دولارا واحدا .

- « هذه الزيادة بقصد أن تسمح لك بشراء قبعة صغيرة سوداء . »

ثم أردف قائلا ، وقد رفع سبابته ، كمن يعلن الحقيقة :

- « قلت : قبعة صغيرة سوداء . »

وانصرف السائق .

واستطرد كلابيك قائلا وهو واقف وسط الحصباء : «لأن هذه الشخصية

من وجهة النظر الجمالية ـ التى هى وجهة نظر النفوس العظيمة ـ تتطلب قبعة صغيرة سوداء • »

وكانت السيارة قد رحلت •• وعلى هـذا كان يوجه كلامه الى الليل ، وانبعثت من الحديقة رائحة البقس والأفنوم البلبلين ، وكأن الليـل يرد عليه • وكانت هذه الرائحة المريرة تذكره بأوروبا • وتحسس البارون جيبه الأيمن ، وبدلا من أن يشعر بالمحفظة ، أحس بالمسدس ، فقد كانت المحفظة فى الجيب الأيسر • وتطلـع الى النوافـذ غـير المضـاءة التى لا تـكاد تبين : « فلنفكر ••• » وكان يعلم أنه يطيل هذه اللحظة لأن اللعبة لم تكن قد بدأت بعد ، ولأن الفرار ما زال ممكنا • « اذا أمطرت السماء ـ بعد غد ـ فسوف تتبعث هذه الرائحة : وربما أكون حينذاك ميتا •• ميتا ؟ ماذا أقول ؟ حماقة• لا كلمة : اننى خالد • » ودخل ، ثم صعد الى الطابق الأول • وكان يبدو وكأن جلبة أحجار اللعب ( الفيش ) وصوت المشرف على القمار ترتفع وتنخفض مع حلقات الدخان •• وكان الخدم نائمين ، أما المخبرون الروسيون من رجال البولبس الخصوصى ، فقد وضعوا أيديهم داخل جيوب ستراتهم وأمسكوا بهراوات قصيرة فى آياديهم اليمنى ) ، واستندوا على أفاريز النوافذ ، أو أخذوا يتجولون فى لا مبـالاة ، دون أن يناموا • وبلغ كلابيك الصـالون الكبير : وفى ضـباب التبغ حيث كانت حصباء الجـدار تلمع لمعانا مختلطا ، أخذت بقع السموكنج السوداء ، والأكتاف البيضاء تميل ـ بالتبادل ـ على المائدة الخضراء •

وهتفت أصوات : « مرحى •• يا توتو • »

وكثيرا ما كان البارون يسمى « توتو » فى شنغهاى • ومع ذلك ، لم يسبق له أن أتى الى هذا المكان الا مصادفة ، فى صحبة بعض أصدقائه ، اذ أنه لـم يكن مقامرا ••• وفتـح ذراعيه ، كالأب الطيب الذى يفرح بلقـاء أطفاله :

ـ « مرحى •• اننى شديد التأثر لاستطاعتى الانضمام الى هذا الحفل العائلى الصغير ••• »

غير أن المشرف ألقى كرته : فتحول الانتباه عن كلابيك •• ها هنا يفقد

قيمته : لأن هؤلاء ليسوا بحاجة الى التلهى • كانت وجوههم مركزة بجمعها في النظر الى هذه الكرة ، في نظام مطلق •

انه يملك مائة وسبعة عشر دولارا •• واللعب على الأرقام شديد الخطورة ••• ولكنه كان قد اختار سلفا •• زوجى أو فردى •

قال للمشرف : « ناولنى عددا من « الفيش » الصغيرة اللطيفة • »

ـ « من أية فئة ؟ »

ـ « عشرين • »

وقرر أن يلعب بفيشة واحدة في كل مرة : وأن يلتزم الأرقام الزوجية دائما •• لابد أن يربح على الأقل ثلاثمائة دولار •

وراهن •• وكان الرقم الرابح خمسة •• خسارة••لا أهمية ولا اهتمام• وراهن من جديد ، على رقم زوجى دائما •• اثنان •• رابح • من جديد ، الرقم ٧ خسارة • ثم الرقم ٩ : خسارة •• ٤ ، رابح • ثلاثة : خسران ٧ و ١ : خسارة •• وفقد ثمانين دولارا •• ولم تبق غير فيشة واحدة •

رهانه الأخير •

ألقاها بيده اليسرى ، ولم يعد يحرك اليد اليسرى ، وكان ثبات الكرة قد ثبت هذه اليد المرتبطة بها • ومع ذلك ، فقد كانت هذه اليد تجتذبه نحو نفسه • وتذكر فجأة : لم تكن هذه اليد هى التى تضايقه ، بل الساعة التى يحملها فى معصمه • الحادية عشرة وخمسة وعشرين دقيقة •• لم تبق له سوى خمس دقائق لكى يلحق بـ « كيو » •

وكان على ثقة من الفوز ، فى الرهان قبل الأخير : واذا كان لابد من أن يخسر ، فانه لا يمكن أن يخسر بهذه السرعة • انه لمخطىء حين لم يعلق أية أهمية على خسارته الأولى ، فقد كانت بلا شك نذير شؤم • بيد أننا نكاد نربح دائما فى الرهان الأخير ••• وقد ربح الفردى ثلاث مرات متعاقبة • ومع ذلك ، فقد كان الفردى هو الذى يربح ـ منذ وصوله ـ أكثر من الزوجى ، بدليل خسارته • هل يغير ••• ويلعب على الفردى ؟ غير أن شيئا كان يدفعه الآن الى أن يظل سلبيا ، وأن يذعن : وخيل اليه أنه قد أتى لهذا • كل

حركة عبارة عن طقس من الطقوس المقدسة يتحرج فى أن يخل به • وترك رهانه على الزوجى •

وقذف المشرف بالكرة •• فاندفعت فى استرخاء ـ كالعادة ، وبدت كأنها تتردد • ولم يكن كلابيك قد رأى منذ البداية خروج الأحمر أو الأسود رابحا • وعلى هـذا تكون لهما الآن أكبر الفرص للربح • واستمرت الكرة فى تجوالها •• لماذا لم يلعب على الأحمر ؟ وأبطأت الكرة فى سيرها ووقفت عند رقم ٢ • رابح •

لابد أن يضع الآن الأربعين دولارا على رقم ٧ ، وأن يراهن على هـذا الرقم •• هذا واضح ؛ وعليه بعد ذلك أن يغادر هذه العصبة • ووضع فيشته ، وربح • وحين دفع المشرف نحوه بأربعة عشرة فيشة ـ وحين لمسها اكتشف منذهلا أنه يستطيع أن يكسب : لم يكن ذلك خيالا ، « يانصيبا » خياليا يكسبه رابحون مجهولون • وخيل اليه فجأة أن البنك مدين له بهـذا المبلغ لا لأنه راهن على الرقم الرابح ، أو لأنه خسر فى البداية ، وانما من الأزل بسبب خياله وحرية فكره ، وأن هذه الكرة قد وضعت المصادفة فى خدمته لكى يدفع كل ديون حظه • ومع ذلك ، لو أنه راهن من جديد على رقم آخر ، فسوف يخسر • وترك مائتين من الدولارات على رقم فردى ـ وكانت الخسارة من نصيبه •

وترك المائدة لحظة ، وهو ثائر ، واقترب من النافذة •

هناك الليل فى الخارج ، وتحت الأشجار كانت تنبعث الأضواء الحمراء من المصابيح الخلفية للسيارات • وعلى الرغم من زجاج النوافذ ، تناهت الى سمعه جلبة عظيمة من الأصوات ، والضحكات • وفجأة ، انطلقت جملة قيلت بلهجة غاضبة ، دون أن يميز كلامها •• انفعالات •• هؤلاء الناس جميعا الذين يمرون خلال الضباب •• أى حياة حمقاء خاملة تلك التى يحيونها ؟ لم يكن يلمح أشباحا ، بل تلك مجرد أصوات فى الليل • أما فى هذه القاعة ، فكانت الدماء تسرى فى عروق حية •• وهؤلاء الذين لا يلعبون • ليسـوا بشرا • ألم يكن ماضيه سوى حماقة طويلة ؟ وعاد الى المائدة •

ووضع ستين دولارا على رقم زوجى ، من جديد • هـذه الكرة التى

ستهدأ حركتها كانت مصيرا ٠٠ ومصيره « هو » قبل كل شيء ٠٠ انه لايناضل مخلوقا ، وانما يناضل نوعا من الاله ، وهذا الاله ، كان فى الوقت نفسه ، هو ذاته نفسها ٠٠ وانطلقت الكرة ٠

وأحس على الفور بتلك الحيرة السلبية التى كان يبحث عنها : وخيل اليه من جديد أنه يتمضى على حياته ، وأنه يعلقها على هذه الكرة العابرة ٠ وبفضلها كان يرتنى، لأول مرة معا ، الشخصتين اللتين يتألف منهما : كلابيك الذى يريد أن يعيش ، وكلابيك الذى يريد أن يتحطم ٠ ولماذا ينظر فى الساعة ؟ لقد ألقى بـ « كيو » فى عالم من الأحلام ، وخيل اليه أنه يغذى هذه الكرة ، لا بما يقدم عليه من رهان ، بل بحياته نفسها ــ فانه اذ لا يرى «كيو» فقد أضاع كل فرصة للحصول على المـال ــ كما كان يغذيها بحياة شخص آخر ، وكان جهل هذا الآخر بذلك يبث فى الكرة ، التى بدأت انحناءاتها ترتخى ، حياة ارتباطات النجوم ، والأمراض المميتة ، وكل ما يعتقد الناس أن مصائرهم معلقة به ٠ وأية علاقة بين النقود وبين هذه الكرة التى تتردد على حافة الثقوب كأنها خطم الحيوان، والتى يعانق بوساطتها مصيره الخاص؟ انها الوسيلة الوحيدة التى وجدها لامتلاك ذاته ٠ وهو يحرص الآن عـلى الربح ، لا لكى يهرب ، بل لكى يبقى ، ولكى يخاطر من جديد ، حتى تجعل المقامرة بهذه الحرية التى ظفر بها ــ حركته تلك أمعن فى العبث ! واكتشف وهو مستند على مقدم ساعده ، ودون أن يواصل النظر الى الكرة التى تابعت سيرها المتباطىء شيئا فشيئا ، وقد انتابت عضلات ساقه وكتفيه قشعريرة ــ اكتشف معنى اللعب ، ونشوة الخسارة ٠ خمسة ٠

وكانت خسارة للجميع تقريبا ٠٠ وملأ الدخان القاعدة ، كما ملأها فى الوقت نفسه ارتخاء يائس فى الأعصاب ، وجلبة أحجار اللعب التى يحصدها بدولاراته السبعة عشر ؟ وأخرج الورقة المالية ذاتالدولاراتالعشرة ووضعها على رقم زوجى ٠

وبلغ من شدة ايقانه بالخسارة أنه لم يلعب بالمبلغ كله ، وكأنه يريد أن يشعر بأنه يخسر لأطول وقت ممكن ٠ وما أن شرعت الكرة فى التردد ، حتى تبعتها يده اليمنى ، بينما ظلت يده اليسرى مثبتة الى المائدة وأدرك الآن الحياة المليئة التى تحياها أدوات اللعب : فهذه الكرة ليست كغيرها من

الكرات ، أى تلك التى لا تستخدم فى اللعب ، بل ان تردد حركتها نفسه تردد حي : فهذه الحركة المحتومة الرخوة فى آن واحد ترتجف على هذا النحو لأن حيوات كثيرة مرتبطة بها • وفى أثناء دورانها ، لا يجرؤ لاعب على أن يسحب نفسا من سيجارته المشتعلة •• ودخلت الكرة فى خلية حمراء ، وخرجت منها ، ثم تجولت مرة أخرى ودخلت فى رقم ٩ • وحاول كلابيك أن ينتزعها من مكانها بحركة غير ملحوظة من يده اليسرى الموضوعة على المائدة •• لقد خسر هذه المرة أيضا •

خمسة دولارات على الزوجي •• آخر فيشة •• من جديد •

وقطعت الكرة المقذوفة دوائر واسعة ، غير أن الحياة لم تتردد فيها بعد، واستأثرت الساعة دونها ـ على الرغم من ذلك ـ بنظرة كلابيك • ولم يكن كلابيك يشدها الى ظهر معصمه ، وانما الى بطن المعصم ، عند الموضع الذى يقاس فيه النبض • وبسط يده على المائدة فلم يعد يرى سوى الكرة • واكتشف أن اللعب انتحار بلا موت : كان يكفيه أن يضع نقوده هناك ، وأن يتطلع الى هذه الكرة ، وينتظر ، وكأنه ينتظر بعد أن تجرع سما •• سما متجددا بلا انقطاع ، مضافا اليه الكبرياء التى دفعته الى تناوله •• ووقفت الكرة على رقم ٤ •• رابح •

وجعله المكسب أقرب ما يكون الى اللامبالاة •• ومع ذلك ، فلو أنه خسر ! •• وربح مرة أخرى ، وخسر مرة أخرى • وتبقى معه من جديد أربعون دولارا • ولكنه كان يريد أن يستعيد لهفة الرهان الأخير •• وكانت « الفيش » قد تكدست على الأحمر الذى لم يكسب منذ مدة طويلة • وخلب بصره هو أيضا ذلك اللون الذى التقت عنده أنظار اللاعبين جميعا • ولكن خيل اليه أنه اذا تخلى عن الزوجي ، فقد تخلى عن القتال • فاحتفظ بالزوجي، ووضع عليه الدولارات الأربعين • ما من مجازفة يمكن أن تعادل هذا أبدا : ولعل كيو لم يرحل بعد : ومن المؤكد أنه بعد انقضاء عشر دقائق ـ لن يستطيع اللحاق به ، ولكنه ، ربما كان يستطيع الآن •• الآن •• الآن ، انه يلعب بآخر درهم يملكه •• بحياته ، وبحياة شخص آخر ، وعلى الأخص بحياة شخص آخر •• كان يعرف أنه يسلم كيو ، وأن « كيو » هو الذى كان مقيدا

الى هذه الكرة ، الى هذه المائدة ، انه هو ، كلابيك ، قد بات هـــذه الكرة المسيطرة على الجميع ، وعليه ــ عليه هو الذى ينظر اليها ·· حيا ، حياة لم يشعر بها من قبــل ·· حياة خــارج نفسه ، وقد أرهقه خجل يبعث عــلى الدوار ·

وخرج فى الساعة الواحدة بعد أن أغلقت « الحلقة » ، وقد تبقى له أربعة وعشرون دولارا · وهدأ هواء الخارج من ثائرته ، وكأنه هواء غابة · وكان الضــباب أضعف كثــيرا منه فى الساعة الحــادية عشرة · لعل السماء قد أمطرت : فكل شىء مبتل · ومع أنه لم ير فى ظلمة الليل البقس أو الأقنوم ، فانه خمن موقع أوراقهما الخضراء القاتمة من رائحتهما المريرة · وحدث نفسه قائلا : من الغريب أن يقال ان احساس المقامر يتولد عن الأمل فى الربح ! وهذا أشبه بأن نقول ان الرجال يتبارزون لكى يصبحوا أبطالا فى لعبــة الشيش ·· » ولكن ، يبدو أن سكون الليل قد طرد مع الضباب كل ألوان القلق ، وكل الآلام التى تنتاب البشر · ومع ذلك ، ثمة طلقات نارية ، تدوى بعيدا · « لقد عادوا الى اطلاق النار ··· »

وغادر الحديقة ، مجتهدا فى ألا يفكر فى « كيو » ، وشرع فى المسير ·· وأصبح وجود الأشجار نادرا · وفجأة من خلال ما تبقى من الضباب ، بزغ على سطح الأشياء ضوء القمر الباهت · ورفع كلابيك عينيه · لقد انبثق القمر لتوه من ضفة ممزقة شكلتها سحب ميتة ، وأخذ يتسلل وئيدا من ثقب واسع ، قاتم وشفاف ، كأنه بحيرة بأعماقها الزاخرة بالنجــوم · وأضفى نوره ــ الذى يشتد رويدا رويدا ــ على المنازل المغلقة ، والمدينة المهجورة ، حياة من عالم آخر لا تنتمى الى هذه الأرض ، وكأن جو القمر قد جاء ليستقر بصفاته فجأة فى هذا السكون العظيم ، ومع ذلك كان الناس يعيشون خلف هذا « الديكور » الذى ينشره كوكب خلا من الحياة · وجميع الناس تقريبــا نيام ، وحياة النوم القلقة تتلاءم مع هذا الخواء الذى يخيم على مدينة ابتلعتها الأرض ، وكأنها أيضا حياة كوكب آخر · « فى « ألف ليلة وليلة » مدن صغيرة مليئة بالنائمين ، مدن مهجورة منذ قرون ، بمساجدها القابعة تحت القمر ·· مدن كأنها الحسان النائمات فى الصحراء ·· ولكن هذا لا ينفى أننى قد أموت · » ولم يكن الموت ، وخاصة موته ، حقيقيا جدا فى هــــذا الجو

اللاانسانى الى درجة اشعاره بأنه متطفل عليه • وأولئك الذين لم يناموا ؟ « هناك الذين يقرءون •• الذين يتآكلون بين الهموم ( يا له من تعبير جميل ! ) والذين يباشرون الحب • » ان حياة المستقبل تنبض وراء كل هذا السكون • انسانية هائجة ، لا يستطيع شيء أن يخلصها من نفســها ! ومرت رائحة الجثث من المدينة الصينية مع الرياح التى هبت من جديد •• وبذل كلابيك مجهودا لكى يلتقط أنفاسه : لقــد عاوده القلق • انه يتحمل فى يسر فكرة الموت ، ولكنه لا يتحمل رائحته • أخذت هذه الرائحة تسيطر شيئا فشيئا على المنظر ( الديكور ) الذى يخفى جنون العالم تحت هدوء الأبدية ، وطفقت الريح تهب دون أن ينبعث منها أدنى صفير ، حتى بلغ القمر الشاطىء المقابل من السحب ، وغرق كل شيء من جديد فى غياهب الظلمات • « أهذا حلم ؟ » غير أن الرائحة الفظيعة قذفت به الى الحياة ، الى الليل القلق ، حيث راحت مصابيح الشارع ــ التى كانت مختلطة الضوء منذ وقت قريب تلقى دوائر واسعة من النور على الرصيف الذى مسح المطر كل ما كان عليه من خطوات •

أين يذهب ؟ لقد انتابه التردد • لن يستطيع أن ينسى كيو ، لو أنه حاول أن ينام • وكان يسير الآن فى شارع ملىء بالحانات الصغيرة ، والمواخير المتواضعة ، التى تحمل لافتات مكتوبة بكل لغات الأمم البحرية • ودخل أول حانة صادفته •

وجلس على مقربة من النافذة • وكانت الخــادمات الثلاث ــ احداهن مولدة والاثنتان الأخريان من البيض ــ جالسات مع زبائن ، وقد هم أحدهم بالرحيل • وانتظر كلابيك ، وتطلع الى الخارج • لا شيء ، ولو ملاح واحد •• ومن بعيد ، طلقات بنادق • ووثب ، متعمدا : اذ جلست الى جانبه خادمة شقراء ممتلئة ، لا عمل لها • وقال لنفسه : « كأنها واحدة من نماذج روبنز ، ولكنها ليست نموذجا كاملا : وكان ينبغى أن تكون نموذجا لجوردان •• لا كلمة ••• » وأخذ يدير قبعته عــلى سبابته بسرعة عظيمة •• ثم جعلها تقفز ، والتقطها من الحافة فى رفق ، ووضعها على ركبتى المرأة •

ــ « اعتنى ، يا صديقتى العزيزة ، بهذه القبعة الصغيرة •• انها الوحيدة من نوعها فى شنغهاى •• وفضلا عن ذلك ، فانها أليفة ••• »

وانفرجت أسارير المرأة : ها هو أحد المهرجين • وأضفى المرح حيــاة

مفاجئة على وجهها الذى ظل جامدا حتى تلك اللحظة .

سألته : « هل نشرب ، أم نصعد ؟ »

ـ « الاثنان . »

وحملت اليه ـ كاسا من الشيدام Schiedam قائلة : « انه مشروب تخصصت فيه هذه الدار . »

وسألها كلابيك : « دون مقالب ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « ماذا يعنينى من هذا كله ؟ »

ـ « ألديك متاعب ؟ »

ونظرت اليه .. ينبغى أن تلزم جانب الحذر مع المهرجين .. ومع ذلك، فقد كان وحيدا ، وليس معه من يريد تلهيته ، انه حقا لا يسخر منها .

ـ « وهل يمكن أن يكون لدى شىء سواها .. فى مثل هذه الحياة ؟ »

ـ « هل تدخنين ؟ »

ـ « الأفيون غال جدا . ومن الممكن أن أحقن ، طبعا ، ولكننى أخاف ، لأن الابر التى يحقنون بها قذرة ، ومن الممكن أن تحدث الخراريج واذا أصبت بالخراريج ، فانهم يطردوننى خارج الدار .. وهناك عشرة نساء على استعداد لاحتلال مكانى .. ثم ... »

ولاحظ لهجتها ، فقال فى نفسه : « انها فلمنكية .. » وقاطعها :

ـ « من الممكن الحصول على الأفيون بثمن ليس مرتفعا جدا .. اننى أدفع دولارين وخمسة وسبعين سنتا لهذا الصنف . »

ـ « وهل أنت من الشمال أيضا ؟ »

وناولها علبة دون أن يجيبها وبدا عليها الاعتراف بالجميل .. لأنها التقت بأحد مواطنيها ، ولأنه منحها هذه الهدية .

ـ « مازال ذلك الثمن غاليا بالنسبة الى .. غير أن هذا لم يكن ليكلفنى شيئا كثيرا . سامضغ شيئا منه الليلة . »

ـ « ألا تحبين التدخين ؟ »

ـ « أفتعتقد أن لدى غليونا ؟ ماذا تتصور ؟ »

وابتسمت فى مرارة ، وهى سعيدة على الرغم من ذلك • غير أن الارتياب المعتاد عاودها :

ـ « لمــاذا أعطيتنى اياه ؟ »

ـ « دعك من ذلك ••• فهذا يبعث السرور الى نفسى •• لقد كنت من هذا ( الوسط ) ••• »

وفى الواقع ، لم يكن يبدو عليه أنه مدمن ، ولكنه لم يكن بكل تأكيد من ذلك « الوسط » منذ مدة طويلة ( كان يحتاج أحيانا الى أن يبتكر لنفسه سيراً كاملة ، ولكنه قلما كان يلجأ الى ذلك ) واقتربت منه ، على المقعد •

ـ « كل ما فى الأمر •• حاولى أن تكونى لطيفة : فستكون هذه هى المرة الأخيرة التى أضاجع فيها امرأة ••• »

ـ « ولمــاذا ؟ »

كان ذكاؤها بطيئا ، ولـكنها لم تكن غبية ، وبعد أن أجابت ، فهمت ما يرمى اليه :

ـ « أتريد أن تنتحر ؟ »

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تسمع فيها مثل هذه القصة ، وتناولت بين راحتيها يد كلابيك الموضوعة على المائدة ، ولثمتها ، بحركة مرتبكة ، توشك أن تكون أموية •

ـ « يا للخسارة ! •• »

ـ « أتريدين أن تصعدى الآن ؟ »

وكانت قد سمعت الناس تقول : ان هذه الرغبة تأتى أحيانا الى الرجال قبل الموت • ولكنها لم تكن تجرؤ على أن تكون البادئة بالنهوض : فقد خيل اليها أنها لو فعلت ذلك ، فكأنما تتعجل انتحاره • واحتفظت بيده بين يديها• ونظر اليها من بعيد جدا ، رغم اتصال جسديهما ، وقد أرخى جسده عـلى المقعد ، وشبك ساقيه ، وألصق ذراعيه بجسمه كحشرة تشعر بالبرد ، ودفع

أنفه الى الأمام • وعلى الرغم من أنه لم يكن قد احتسى الا قليلا من الخمر ، فقد كان ثملا بهذه الكذبة ، بهذا الدفء ، وبهذا العالم الخيالى الذى اختلقه • حين قال انه سينتحر ، لم يكن يصدق نفسه ، ولكنها ما دامت قد صدقته ، فقد ولج عالما لا وجود فيه للحقيقة •• انه عالم لا يقال عنه انه صادق أو زائف ، بل معاش • ومادام لا وجود للماضى الذى اخترعه الآن ، ولا لتلك الحركة البدائية ، التى يفترض أنها حركة حميمة وعليها تأسست علاقته بهذه المرأة ، فلا وجود لشىء• ولم يعد العالم يضغط بثقله على كاهله • اذ قد تحرر، فانه لا يعيش الا فى العالم الخيالى الذى خلقه ، قويا بالرابطة التى تقيمها كل شفقة انسانية ازاء الموت • وبلغ من شدة انتشائه أن ارتجفت يده • وشعرت المرأة بهذه الرجفة ، فظنت أن مصدرها القلق :

ـ « ألا توجد وسيلة لتدبير •• هذا الموقف ؟ »

ـ « كلا • »

وبدا كأن القبعة الموضوعة على ركن المائدة ـ تنظر اليه فى سخرية • فألقى بها على المقعد حتى لا يراها •

وسألته قائلة : « حكاية حب ؟ »

وانطلق مدفع من بعيد ، فقالت لنفسها : « كأن عدد من سيموتون الليلة غير كاف ! »

ونهض دون أن يجيب عليها ، فاعتقدت أن سؤالها قد أثار فى نفسه الذكريات • وعلى الرغم من فضولها ، فقد ودت أن تسأله المعذرة ، ولكنها لم تجرؤ ، فنهضت هى أيضا • وصعدا •

وعنـدما خرج ـ ولم يكن يلتفت وراءه ، ولكنه كان يعلم أنها تتابعه بنظراتها من وراء زجاج النافذة ـ لم تكن نفسه قد شبعت ولا شهوته ، وكان الضباب قد عاد • وبعد مسير ربع ساعة ( لم يستطع هواء الليل المنعش أن يهدىء أعصابه ) ، توقف أمام مشرب برتغالى ، كان زجاج نوافذه شفافا، فرأى بمنأى عن الزبائن امرأة سمراء نحيفة ذات عينين واسعتين جدا ، قد وقفت تتأمل الليل ، وقد وضعت يديها على نهديها كأنما لتحميهما • وتطلع اليها « كلابيك » دون حراك • « انني كالنساء اللواتى لا يعلمن ما يستنبطه منهن عاشق جديد •• هيا بنا ننتحر مع هذه المرأة ! »

## الحادية عشرة والنصف

انتظر كيو وماى في صخب « القط الأسود » • الدقائق الخمس الأخيرة • من المفروض أن يكونا الآن قد غادرا المكان فعلا • وكان تخلف « كلابيك » عن الحضور مثارا لدهشة كيو ( لقد جمع له ما يقرب من مائتى دولار ) ، بيد أن هذه الدهشة لم تبلغ أقصاها : فكلما تصرف كلابيك على هذا النحو ، بدا مشابها لنفسه ، لدرجة أنه لم يكن يدهش أولئك الذين يعرفونه غير نصف دهشة • وكان كيو ينظر اليه بوصفه شخصا غريب الأطوار جديرا بأن يوصف في قصة ، ولكنه كان معترفا له بالجميل لأنه قام بتحذيره ، وبدأ يشعر نحوه شيئا فشيئا بتعاطف حقيقى • ومع ذلك ، فقد بدأ الشك يساوره فى قيمة المعلومات التى أفضى بها البارون اليه ، وزاد من تشككه هذا الموعد الذى أخلفه •

ومع أن رقصة « الفوكس تروت » لم تكن قد انتهت بعد ، الا أن حركة شديدة اتجهت صوب ضابط من ضباط تشانج ــ كاى ــ شيك دخل فى هذه اللحظة • وانصرف عن الرقص أزواج من الراقصين ، واقتربوا ، وعلى الرغم من أن كيو لم يسمع شيئا ، الا أنه أدرك أن الأمر يتعلق بحدث على جانب كبير من الأهمية • وكانت « ماى » قد اتجهت فعلا نحو هذه الجماعة : ففى « القط الأسود » كانت أى امرأة محلا لجميع الشبهات ومن ثم بريئة من كل شبهة وسرعان ما عادت اليه •

قالت له بصوت منخفض : « لقد ألقيت قنبلة تحت سيارة تشانج ــ كاى ــ شيك • ولكنه لم يكن فى السيارة • »

وسألها كيو : « والقاتل ؟ »

وعادت الى الجماعة مرة أخرى ، ثم رجعت يتبعها رجل يريد أن تراقصه بالقوة ، ولكنه لم يلبث أن تخلى عنها حين رأى أنها لم تكن وحدها •

قالت : « لقد هرب • »

ــ « فلنأمل ذلك ••• »

وكان كيو يعلم الى أى مدى تخلو مثل هذه المعلومات من الدقة فى معظم الأحيان • ولكن ، لم يكن محتملا أن تشانج ــ كاى ــ شيك قد قتل : فان

مقتله من الأهمية بحيث لا يمكن أن يجهله الضابط . وقال كيو : « سنعرف ذلك من اللجنة العسكرية .. هلمي بنا الى هناك على الفور . »

وكان من فرط ما يتمنى أن يكون تشن قد أفلت ، يشك في ذلك شكا تاما . وسواء أكان تشانج ـ كاى ـ شيك مازال فى شنغهاى ، أم أنه قد رحل فعلا الى نانكين ، فان محاولة الاغتيال الفاشلة تضفى على اجتماع اللجنة العسكرية أهمية بالغة . ومع ذلك ، ماذا ينتظر منه ؟ لقد نقل تأكيد كلابيك ـ ذلك العصر ـ الى لجنة مركزية مستريبة ، وتحرص على أن تكون كذلك : وجاء هذا الاعتداء مصداقا لنظريات كيو ، الى حد يعفيه من القيام بتأكيدها.

وفضلا عن ذلك ، كانت اللجنة تدبر للاتحاد ، لا للنضال : وكان الزعيم السياسي للحمر ، وأحد زعماء الزرق قد ألقيا فى شنغهاى ـ منذ أيام ـ خطبا مؤثرة . وبدا اخفاق الجماهير فى الاستيلاء على منطقة الامتيازات اليابانية في هانكيو يبين أن الحمر مشلولون فى الصين الوسطى نفسها ، وكانت القوات المنشورية تزحف على هانكيو التى ينبغى أن تقاتلهم قبل أن تقاتل قوات تشانج ـ كاى ـ شيك ...

وتقدم كيو فى الضباب ، و « ماى » الىّ جواره دون أن يتكلما . اذا كان لابد للشيوعيين من أن يقاتلوا الليلة ، فانهم لن يكادوا يتمكنون من الدفاع عن أنفسهم . وسواء أكانوا قد سلموا أسلحتهم الأخيرة أم لم يسلموها ، فكيف يشتبكون فى قتال لا ينادي به ضمن كل عشرة رجال سوى واحد ، ضد تعليمات الحزب الشيوعى الصينى ، وكيف يحاربون جيشا عديدا مؤلفا من المتطوعين البورجوازيين المسلحين على الطريقة الأوروبية ومتفوقا من حيث أنه البادىء بالهجوم ؟ فى الشهر الماضى ، كانت المدينة كلها تطالب بجيش ثورى متحد ، أما الديكتاتور فكان يمثل المصالح الأجنبية ، وكانت المدينة متطرفة فى وطنيتها ، وكانت البورجوازية الصغيرة التى تستوعب عددا كبيرا من أفراد الشعب ، ديموقراطية ، لا شيوعية ، وكان الجيش ، فى هذه المرة هناك مهددا ، لا هاربا صوب نانكين ، ولم يكن تشانج ـ كاى ـ شيك جلاد مذبحة فبراير ، بل ، كان بطلا وطنيا ، اللهم الا فى نظر الشيوعيين . وهكذا كان الجميع ضد البوليس ، فى الشهر الماضى ، أما اليوم ، فكان الشيوعيون ضد الجيش وستقفي المدينة موقف الحياد ، ولعلها أميل للجنرال . وماكانوا

يستطيعون الدفاع عن الأحياء العمالية الا فى مشقة ، وربما استطاعوا الدفاع عن تشاپاى ثم ماذا ؟ لو كان كلابيك مخطئا ، وتأخر رد الفعل شهرا واحدا ، اذن لاستطاعت اللجنة العسكرية ، وكيو وكاتوف تنظيم مائتى ألف رجل، ولتمكنت جماعات الهجوم الجديدة المؤلفة من شيوعيين مقتنعين أن يسيطروا على النقابات : بيد أنه لابد من شهر على الأقل لانشاء منظمة دقيقة تستطيع توجيه الجماهير ·

وتظل مشــكلة الأسلحة قائمة · فلابد من أن نعرف كيف يمكن تسليم الجماهير فى حالة قيام تشانج ــ كاى ــ شيك بانقلاب للاستيلاء على السلطة ، لا أن نتساءل عما اذا كان من الواجب تسليم ألفين أو ثلاثة آلاف بندقية · واذا طال النقاش ، طال بقاء الرجال بلا ســلاح · وحتى اذا طالبت اللجنة العسكرية بالأسلحة ــ أيا كانت الأسباب التى تدعيها ــ فان اللجنة المركزية التى تعرف أن المبادىء التروتسكية تهاجم الاتحاد مع الكومنتانج ــ تفرغ من كل موقف يمكن أن يبدو ــ ســواء بالحــق أو بالباطل ــ مرتبطا بموقف المعارضة الروسية ·

بدأ كيو يرى فى الضباب الذى لم ينقشع بعد ــ والذى أرغمه على السير على الرصيف خوفا من السيارات ــ الضوء الخافت المنبعث من المنزل الذى انعقدت فيه اللجنة العسكرية · ضباب وليل كثيفان: فلم يجد بدا من اشعال قداحته ليعرف الساعة · كان قد تأخر بضع دقائق · واعتزم الاسراع ، فوضع ذراع ماى تحت ذراعه : فضمت نفسها فى رفق اليه · وما كاد يخطو بضع خطوات ، حتى أحس فى جسد « ماى » بشــهقة ، وارتخاء صــاعق وسقطت على الأرض ، وهى تنزلق أمامه · « ماى ! » وتعثر وسقط على يديه ورجليه ، وفى هذه اللحظة التى نهض فيها ، تلقى بكل قوة ضربة من هراوة على قفاه · فسقط الى الأمام عليها ، بكل جسمه ·

وخرج ثلاثة من رجال البوليس من أحد المنازل · وانضموا الى الشرطى الذى ضربه وكانت سيارة خالية تقف على مبعدة ، فقذفوا كيو فيها ، ثـم شرعوا فى الرحيل ، ولم يبدءوا فى تقييده الا بعد رحيلهم ·

وحين ثابت «ماى» الى رشدها (وكان ما ظنه كيو شهقة هو ضربة هراوة على

أسفل الضلوع) ، كانت ثلة من جنود تشانج ـ كاى ـ شيك تحرس مدخل اللجنة العسكرية ، ولم تلحظهم ـ بسبب الضباب ـ الابعد أن اقتربت منهم اقترابا شديدا • وواصلت «ماى» السير فى نفس الاتجاه (كانت تتنفس فى مشقة وتتألم من الضربة) حتى عادت بأسرع ما يمكن الى منزل چيسور •

## منتصف الليل

ما أن علم هملريش أن قنبلة قد ألقيت على تشانج ـ كاى ـ شيك ، حتى انطلق جريا وراء الأنباء • وقيل له ان الجنرال قد قتل وأن القاتل لاذ بالفرار ، ولكنه ـ أمام السيارة المقلوبة وغطائها المنزوع ـ شاهد جثة تشن على الرصيف ، ضئيلة ، تنزف منها الدماء ، وقد بللها الضباب ، وجلس الى جانبها جندى لحراستها ، كما علم أن الجنرال لم يكن موجودا فى السيارة • وخيل اليه ـ وكان مخطئا ـ أن رفضه التجاء تشن اليه ، كان من أسباب مصرعه • فهرع يائسا الى مركز الاسعاف الشيوعى فى حيه ، ومكث هناك ساعة يناقش ـ بلا جدوى ـ محاولة الاغتيال • وفيما هو كذلك دخل أحد الرفاق وأنهى اليهم بالخبر التالى : هو أن جنود تشانج ـ كاى ـ شيك قد أغلقوا لتوهم اتحاد النساجين فى شاپاى •

ـ « ولم يقاوم الرفاق ؟ »

ـ « لقد أعدم الذين احتجوا جميعا رميا بالرصاص على الفور • وفى شاپاى ، يطلق الرصاص على المجاهدين أيضا ، أو تحرق منازلهم •• ولقد تفرقت الحكومة البلدية ، وأغلقت النقابات • »

ولم تصدر تعليمات من اللجنة المركزية •• وانصرف الرفاق المتزوجون فى الحال ، لتهريب زوجاتهم وأطفالهم •

وما أن خرج هملريش حتى سمع طلقات الرصاص ، وكان يجازف بأن يتعرف الجنود عليه ، ولكن كان لابد من اصطحاب الطفل والمرأة قبل كل شيء • ومرت أمامه فى الضباب سيارتان مصفحتان ، وعربات نقل محملة بجنود تشانج ـ كاى ـ شيك • وعلى بعد ، كانت طلقات الرصاص لا تنقطع أبدا ، كما كان بعضها ينطلق على مسافة قريبة جدا •

ولم يكن ثمة جنود فى شارع الجمهوريتين ، ولا فى الشارع الذى يقع حانوته فى ناصية من نواصيه . كلا .. انقطع ظهور الجنود . وكان باب الحانوت مفتوحا . وجرى الى الداخل ، وهناك فى كل مكان على الأرض ، قد تناثرت قطع الاسطوانات فى بقع كبيرة من الدم . لقد « مسح » الحانوت بالقنابل اليدوية ، كأنه خندق . وعلى منضدة الحساب ، استلقت امرأته ، مقعية تقريبا ، وقد اصطبغ صدرها بلون الجرح . وفى ركن ، ذراع طفل وبدت اليد ـ وهى منفصلة عن الجسد أصغر حجما مما كانت عليه فى الواقع . وحدث هملريش نفسه قائلا : « على شرط أن يكونا قد ماتا ! » وكان خائفا ـ على الأخص ـ من الاحتضار الذى ينبغى أن يشهده ، عاجزا لايستطيع الا أن يتألم فحسب ، كما هى العادة ، كان يخشى ذلك أكثر مما يخشى هذه الأدراج الملطخة بالبقع الحمراء والشظايا . وأحس من خلال حذائه بالأرض اللزجة . « هذا دمهما . » وبقى جامدا فى مكانه ، لا يجرؤ على الحركة وهو ينظر .. وينظر ... واكتشف أخيرا جثة الطفل على مقربة من الباب الذى كان يخفيها . وانفجرت على البعد قنبلتان . وكان هملريش يتنفس فى مشقة ، وقد سحقته رائحة الدماء المنتشرة . « لا داع لدفنهما ... » وأغلق الباب بالمفتاح ، ووقف أمامه . « اذا أتوا وتعرفوا على فأنا هالك لا محالة . » ولكنه لم يستطع الانصراف .

وكان يعلم أنه يتعذب ، غير أن هالة من اللامبالاة أحاطت بألمه .. تلك اللامبالاة التى تعقب الأمراض والضربات فوق الرأس . ما من ألم يمكن أن يثيره : وخلاصة القول أن القدر قد نجح هذه المرة فى أن يسدد اليه ضربة أفضل من سائر الضربات الأخرى . ولم يكن الموت يدهشه : فهذا يتساوى مع الحياة . وكان الشىء الوحيد الذى يمضه هو تفكيره فى أنه قد كان هناك وراء هذا الباب عذاب يعادل ما يوجد الآن من دماء . ومع ذلك ، فقد أساء القدر اللعب هذه المرة ، فهو حين انتزع منه كل ما يملكه ، قد حرره .

ودخل ، ثم أغلق الباب . وعلى الرغم من انهياره ، واحساسه بأنه قد تلقى ضربة بالهراوة على أم عنقه ، وتخاذل كتفيه ، على الرغم من كل هذا فانه لم يكن يستطيع أن يطرد من انتباهه هذه الفرحة الضارية الثقيلة العمقية ، فرحة التحرر . وفى فزع ورضى أحس بها تزمجر فى نفسه كنهر يتدافع تحت الأرض ، ويقترب ، وكانت الجثتان مطروحتين هناك ، وقدماه

اللتان كانتا تلتصقان بالارض ، قد التصقتا بدمائهما ، ما من شيء يمكن أن يكون أشد عبثا من هذه الجريمة ، وعلى الأخص جريمة قتل الطفل المريض : فقد كان يخيل اليه أن هذا الطفل أشد براءة من المرأة الميتة • ولكنه ، لم يعد الآن عاجزا • الآن يستطيع أن يقتل هو أيضا • وتكشفت له بغتة أن الحياة ليست هي الطريقة الوحيدة للاتصال بين الكائنات ، بل انها ليست أفضل طريقة ، انه يعرفهما ، ويحبهما ، ويملكهما في الانتقام أكثر مما يملكهما في الحياة • واحس ، مرة أخرى ، بنعليه يلتصقان وترنح : ان العضلات لا يساعدها الفكر •• بيد أن حماسا شديدا ضج بالثورة في نفسه أقوى حماس عرفه في حياته ، واستسلم لهذه النشوة الرهيبة استسلاما تاما• « يستطيع المرء أن يقتل في حب •• في حب ، يا لعنة الله ! » وردد هذا القول وهو يضرب منضدة الحساب بقبضته ـ وكأنه يتحدى الكون كله •• وسحب يده في الحال • وقد أحس كأن شيئا ضغط على حلقه بحيث لا يستطيع أن يشهق : لقد كانت منضدة الحساب ملطخة بالدماء أيضا ونظر الى بقعة الدم التي أصبحت قاتمة اللون فوق يده المرتعشة وهي تهتز كأنما أصابته نوبة عصبية : وراحت تنفصل عنها قشور صغيرة •• يجب أن يضحك ، أن يبكي ، أن يهرب من هذه العقدة الملفوفة في الصدر •• لا شيء يتحرك • واستقرت لامبالاة الكون الشاسعة مع النور الساكن على الاسطوانات وعلى الموتى ، وعلى الدم • وأخذت هذه العبارة « كانوا ينتزعون أطراف المحكوم عليهم بأسياخ محماة في النار » تصعد وتهبط في دماغه ، وكان قد نسيها منذ عهد المدرسة ، ولكنه أحس أنها تعني في غموض ، أنه يجب أن يرحل ، وأن ينتزع نفسه هو أيضا من هذا المكان •

وأخيرا ، أصبح الرحيل ممكنا ، دون أن يدري كيف أصبح ذلك • واستطاع أن يخرج ، وشرع يسير في تهيج مكدور يثير في نفسه دوامات من الحقد لا حدود لها •• وتوقف ، بعد أن قطع ثلاثين مترا • « لقد تركت الباب مفتوحا عليهما • » وعاد على أعقابه •• وكلما اقترب أحس بالشهقات تتكون وتنعقد في مكان أكثر انخفاضا من الحلق ، هناك في الصدر ، حيث استقرت • وأغمض عينيه ، ثم شد الباب • فقرقع القفل : انه مغلق ••• وانصرف مرة أخرى • وغمغم قائلا في الطريق : « لم ينته الأمر بعد ، بل لقد بدأ •• لقد بدأ » وتقدم ـ وقد دفع كتفيه الى الأمام ـ كقائد زورق

متجها صوب بلاد غامضة لا يعرف عنها الا أن الناس يقتلون فيها ، وكأنه يسحب بكتفيه ودماغه ثقل موتاه جميعا ·· الذين لم يعودوا يمنعونه ــ أخيرا ــ عن التقدم ·

وبيدين مرتجفتين ، وأسنان تصطك ، تدفعه حريته الرهيبة ، وصل بعد عشر دقائق الى مركز الاسعاف · وكان منزلا من طابق واحد ·. ولم يكن من شك أنهم قد وضعوا المراتب مرفوعة خلف النوافذ ، فعلى الرغم من عدم وجود المصاريع الخشبية لم يكن المرء يستطيع أن يرى مستطيلات مضيئة في الضباب وانما أشعة رأسية فحسب ، وكان الهدوء الذى يخيم على الشارع ــ الذى يكاد يكون زقاقا ــ هدوءا مطلقا · وكانت هذه الخطوط المضيئة تتخذ هناك شدة اشارات الميناء الضوئية الضئيلة والحادة فى الوقت نفسه · ودق الجرس ، ففتح الباب نصف فتحة ، وتعرفوا عليه · ووراء الباب وقف أربعة من المحاربين وقد أمسكوا بمسدسات الموزر فى قبضاتهم ، ينظرون اليه أثناء مروره · وكان الدهليز الواسع ــ أشبه بجماعات الحشرات يعج بحياة غامضة الاتجاه ، ولكنها واضحة الحركة ، كأن كل شيء يأتى من الكهف · أما الطابق العلوى فكان خاليا من الحياة · وبمعزل عن الآخرين ، كان هناك عاملان يقومان بتركيب مدفع رشاش فوق أعلى السلم يسيطر على الدهليز · ولم يكن هذا المدفع يلمع ، ولكنه كان يجذب الانتباه كالمحراب فى الكنيسة · وكان ثمة طلبة وعمال يركضون · ومر أمام لفائف من الأسلاك الشائكة ( فيم يمكن أن تفيد هذه الأسلاك ؟ ) وصعد درجات السلم ثم دار حول المدفع الرشاش ، وأخيرا بلغ البسطة · وخرج كاتوف من أحد المكاتب ، ونظر اليه نظرة استفهام · ودون أن يقول شيئا ، مد يده الدامية ·

ــ « هل جرحت ؟ هناك ضمادات فى الطابق السفلى · هل أخفى الصبى ؟ »

ولم يكن همليريش يستطيع أن يتكلم ·· فدفع يده فى عناد وبلاهة ، وقال لنفسه : « هذا دمهما » بيد أن ذلك ليس مما يمكن الافصاح عنه ·

وقال أخيرا « عندى سكين ·· اعطنى بندقية · »

ــ « لم يعد لدينا منها الكثير · »

ــ « قنابل يدوية اذن · »

وتردد كاتوف ٠

ـ « عليك اللعنة ، أتظن أننى خائف ! »

ـ « انزل ٠٠ هناك قنابل يدوية في الصناديق ٠٠ انها ليست كثيرة ٠٠ هل تعرف أين كيو ؟ »

ـ « لم أره ٠٠ ولكننى رأيت تشن : لقد مات ٠ »

ـ « أعلم ذلك ٠ »

ونزل هملريش ٠٠ وكان بعض الرفاق قد غاصوا بأذرعهم حتى أكتافهم يفتشون في صندوق مفتوح ٠٠ لقد أوشكت الذخيرة على النفاد ٠ وأخذ الرجال المضطربين يتحركون في نور المصابيح الساطع ، ولم تكن هناك فتحات لمرور الهواء ، وأدهشه حجم هذه الأجساد الكثيفة التى التقى بها متحلقة حول الصندوق ، بعد الأشباح التى كانت تتسلل تحت مصابيح الدهليز المحجوبة ، أدهشه حجم هذه الأجساد ، وكأن هؤلاء الرجال قد اكتسبوا الحق فجأة ــ حيال الموت ــ فى حياة أقوى من حياة الآخرين ٠ وملأ جيوبه ثم صعد مرة أخرى ٠ وكان الآخرون ــ الأشباح ــ قد انتهوا من تركيب المدفع الرشاش ، ووضعوا الأسلاك الشائكة خلف الأبواب الى الوراء قليلا حتى يمكن فتحه : اذ كانت دقات الجرس تتوالى دقيقة بعد أخرى ٠ وأطل من كوة الباب : كان الشارع الذى يلفه الضباب هادئا وخاليا دائما ، وكان الرفاق يصلون دون أن يكون من الممكن تمييز أشكالهم فى الضباب ، وكأنهم أسماك فى مياه عكرة ، تحت عمود الظل الذى تلقيه سطوح البناء ٠ واستدار على أعقابه لكي يبحث عن كاتوف : فى وقت واحد ، دقتان متعجلتان من الجرس ، وطلقة رصاص أعقبتها صوت أنفاس تختنق ، ثم سقط جسم ٠

« ها هم أولاء ! » صاح بهذه العبارة فى وقت واحد عدد من الحراس الواقفين عند الباب وخيم الصمت على الدهليز ، تقطعه الأصوات المكتومة وجلبة الأسلحة الصاعدة من الكهف ٠ واتخذ الرجال مراكز القتال ٠

**الساعة الواحدة والنصف :**

تقدم كلابيك في دهليز فندقه الصينى ، وهو يفيق من كذبته ، كما

يفيق الآخرون من نشوة الخمر ؛ وكان الخدم الوصفيون المنبطحون على منضدة مستديرة تحت لوحة الأجراس ، يرشون بذور عباد الشمس حول المباصق ٠٠ وكان يعرف أنه لن ينام ، ففتح باب حجرته فى كآبة ، وألقى سترته فوق النسخة المألوفة من « أقاصيص هوفمان » وسكب شيئا من الويسكى ، اذ كانت الخمر تبدد القلق الذى يهبط عليه فى بعض الأحيان • ثمة شيء قد تغير فى الحجرة • واجتهد فى أن يتحول بفكره عن هذا الموضوع ، فان غياب أشياء معينة غيابا لا تفسير له خليق بأن يسلط عليه قلقا طاغيا • وكان قد توصل الى الهرب من كل ما يؤسس عليه الناس حياتهم : الحب ، الأسرة ، العمل ، ولكنه لم ينجح فى الهرب من الخوف • ولقد انبثق الخوف فى نفسه شعورا حادا بوحدته ، ولكى يطرد هذا الشعور كان يدلف فى العادة الى أقرب حانة ، ويلجأ الى النسوة اللواتى يمنحن أجسادهن ويفتحن قلوبهن بينما يشرد منهن الفكر الى شيء آخر • أما الليلة فقد كان الفرار مستحيلا : فقد كان منهك القوى ، متخما بالأكاذيب وضروب الأخوة الوقتية ٠٠ وأبصر نفسه فى المرآة فاقترب منها قائلا :

ـ « مع هذا كله أيها العزيز ٠٠ لماذا تهرب ، فى واقع الأمر ؟ وكم من الوقت سيدوم كل هـذا ؟ لقد كانت لك زوجة : ولكن ما علينا ما علينا ! وعشيقات ، وأموال ، وتستطيع أن تفكر فى كل ذلك حين تشعر بالحاجة الى الأشباح لتهزأ بك • لا كلمة ! ان لك مواهب ، كما يقولون ـ وخيالا وكل الصفات الضرورية لخلق رجل طفيلى: وتستطيع أن تكون وصيفا لـ «فيرال» حين تصل من العمر الى أرذله • وهناك أيضـا مهنة الجنتلمان المتسول ، والبوليس والانتحار • قواد؟ ها هو جنون العظمة يعاودك• يبقى الانتحار٠٠ وهذا ما أقوله لك ٠٠٠ ولكنك لا تريد أن تموت • لا تريد أن تموت أيهـا الوغد الصغير ! انظر ، فان لك مع ذلك سحنة من تلك السحن الجميلة التى تليق بالأموات ٠٠٠ »

وازداد اقترابا حتى لامست أنفه المرآة ، وشوه سحنته ، ففتح فمه متخذا هيئة المزراب ؛ وقال كأن هذا القناع يجيبه :

ـ « ألا يستطيع كل انسان أن يموت ؟ من الواضح ، أنه لابد من وجود جميع الأصناف لكى يكون ثمة عالم • صه ، فانك حين تموت ، ستذهب الى الفردوس • وسيكون الله رفيقا طيبا لشخص مثلك ٠٠٠ »

وأبدل من سحنته ، فأغلق فمه ، وسحبه نحـو ذقنه ، وأغمض عينيه نصف اغماضة ، كأنه يرتدى قناع محارب من الساموراى فى حفلة تنكرية ٠ وفى الحال ـ وكأن القلق الذى لم تكف الأقوال للافصاح عنه ، قد وجد له تعبيرا مباشرا يؤديه بكل قوته ـ بدأ فى تغيير سحنته ، فجعلها قردا تارة ، وأبله تارة أخرى ، ومذعورا تارة ثالثة ، وفى حالة اغماء تارة رابعة ٠٠ وتحول الى كل الصور التمثيلية التى يمكن أن يعبر بها الوجه الانسانى ٠ ولم يكن هذا كافيا فاستخدم أصابعه ، يشد بها ركنى عينيه ، أو يوسع بها فمه حتى يصبح كالرجل الضاحك الذى يشبه فمه فم الضفدعة ، مفرطحا أنفه ، مطيلا أذنيه ٠ وكان كل وجه من هذه الوجوه يتحدث اليه ، ويكشف له عن جزء من نفسه حجبته الحياة ؛ واتخذت هذه العربدة فى الحجرة المنعزلة مع ضباب الليل الذى تكاثف عند النافذة ، صورة لهو الجنون الفظيعة ٠ وسمع ضحكته ـ رنة صوت واحدة شبيهة بجرس فى صوت أمه ، واكتشف وجهه ، فجأة ، فتراجع فى فزع ، وجلس لاهث الأنفاس ٠ وكانت هناك كراسة من الورق الأبيض ، وقلم من الرصاص على المقعد ٠ لو أنه استمر على هـــذه الحال فسوف ينقلب مجنونا ، ما فى ذلك ريب ٠ ولكى يدافع عن نفسه ضد هـــذه المرآة المخيفة ، شرع فى الكتابة :

« سينتهى بك الأمر الى أن تصبح ملكا ، ياعزيزى توتو ، ملكا فى دفء مستشفى مريح للمجانين ، بفضل هذيانك الذى هو صديقك الوحيد ؛ اذا واصلت الشراب ٠ ولكن ، هل أنت مخمور فى هذه اللحظة ، أم لا ٠٠ أنت الذى تتخيل كل هذه الأشياء ، ماذا تنتظر لكى تتخيل نفسك سعيدا ؟ هل تعتقد ٠٠٠ »

وطرق البـــاب ٠٠ فتدحرج « كلابيك » الى الواقع ٠٠ متحررا ولـكنه مبهور ٠٠ وطرق الباب من جديد ٠

ـ « ادخل ٠ »

معطف من الصوف ، وقبعة من الفلين الأسود ، وشعر أشيب : انه الأب چيسور ٠

وتلعثم كلابيك قائلا : « ولكننى ٠٠٠ ولكننى ٠٠٠ »

قال چيسور : « لقد ألقى القبض على كيو ٠٠ هل تعرف كوينج ؟ »

ـ « أنا ٠٠ ولكنني لم أتسبب في شيء ٠٠٠ »

ونظر اليه چيسور متمعنا وقال لنفسه : « لعله لا يكون مخمورا ٠٠ »

وردد قائلا : « هل تعرف كوينج ؟ »

ـ « أجل ، أنا ، أنا ٠٠ أعرفه ٠٠ ولقد اديت له خدمة ٠٠ خدمة عظيمة ٠»

ـ « هل تستطيع أن تطلب منه خدمة ؟ »

ـ « يستطيع كوينج بوصفه مديرا للأمن عند تشانج ـ كاى ـ شيك أن يطلق سراح كيو ، أو على الأقل ، أن يمنع اعدامه رميا بالرصاص : هذا أشد الأمور استعجالا ، أليس كذلك ٠٠٠ »

ـ « مفهوم ٠٠٠ مفهوم ٠٠٠ »

وكان مع ذلك ، قليل الثقة في اعتراف كوينج بجميله ، الى درجة أنه رأى من العبث بل من الوقاحة أن يذهب لزيارته ، حتى بعد المعلومات التى أدلى بها شبيلفسكى ٠ وجلس على السرير ، وقد طأطأ أنفه الى الأرض ٠ لم يكن يجرؤ على الكلام ، وتبين من لهجة چيسور أنه لايشك مطلقا في مسئوليته ازاء هذا الاعتقال : بل كان چيسور يرى فيه الصديق الذى جاء يحذر كيو في ذلك الأصيل ، لا ذلك الرجل الذى كان يقامر في الموعد الذى ضربه لـ « كيو » ٠ بيد أن « كلابيك » لم يستطع أن يقنع نفسه بهذا ، فلم يتجاسر على النظر اليه ، ولم يستطع أن يتمالك هـدوء أعصابه ٠ وأخذ چيسـور يتساءل من أية دراما ، أو أى شطط خرج كلابيك ، دون أن يتكهن بأن وجوده سبب من أسباب هـذه الأنفاس اللاهثة ٠٠ وكان يبدو لـ « كلابيك » أن چيسور يتهمه :

ـ « أنت تعرف ياعزيزى ، أننى لست ٠٠ مجنونا ـ في نهاية الأمر ـ الى هذا الحد ، أنا ٠٠ أنا ٠٠ »

ولم يكن يستطيع أن يكف عن التلعثم ، وكان يبدو له أحيانا أنچيسور هو الشخص الوحيد الذى فهمه ، وأنه أحيـانا يعتبره مهرجا ٠ ونظر اليه الرجل العجوز دون أن يقول شيئا ٠

ـ « أنا ٠٠ ما رأيك في ؟ »

وكان چيسور يود لو أمسك به من كتفيه ، واقتاده الى كونيج ، بدلا من الحديث معه ، غير أن هذه الحيرة كانت تبدو تحت السكر الذى عزاه اليه ، حتى أنه لم يكن يجرؤ أن يرفض الدخول فى اللعبة .

ـ « هناك أولئك الذين يشعرون بالحاجة الى الكتابة ، وأولئك الذين يشعرون بالحاجة الى الحلم ، وأولئك الذين يشعرون بالحاجة الى الكلام .. وهذا كله سواء .. والمسرح ليس شيئا جديا ، وانما مصارعة الثيران هى الشىء الجدى ، وكذلك الروايات ليست شيئا جديا ، وانما جنون الكذب هو الجدى . »

ونهض كلابيك ، فسأله چيسور :

ـ « هل أصيب ذراعك ؟ »

ـ « مجرد الم فى العضلات .. لا كلمة ... »

وكان كلابيك قد أدار ذراعه في حركة مرتبكة لاخفاء ساعة يده عن نظر چيسور ، وكأن هذه الساعة التى دلته على الوقت فى دار القمار ـ تريد أن تشى به .. غير أنه لاحظ من سؤال چيسور أن هذه الحركة كانت حمقاء .

ـ « متى ستذهب لرؤية كوينج ؟ »

ـ « صباح غد ؟ » فقال چيسور فى مرارة :

ـ « ولماذا لا يكون ذلك الآن ؟ ان البوليس لا ينام الليـل ، ويمكن أن يحدث أى شىء ... »

ولم يكن كلابيك يريد شيئا أفضل من ذلك . ولم يكن هـذا الشعور بدافع من الندم ـ فلو أنه كان على مائدة القمار من جديد لبقى مرة أخرى ـ وانما على سبيل التعويض .

ـ « هيا بنا يا عزيزى ... بسرعة .. »

وأقلقه من جديد التغيير الذى لاحظه حين دخل الحجرة ، ونظر فى امعان ، فأذهله أنه لم يلمح ذلك التغيير من قبـل . كانت احدى اللوحات الطاوية « التي تحمله على جناح الأحلام » وأجمل تمثالين عنده ، قد اختفت . وعـلى

المائدة ، وقع نظره على رسالة بخط شبيلقسكى · وتكهن بالاسر · ولكنه لم يجرؤ على قراءة الخطاب ، ذلك لأن شبيلقسكى هو الذى أبلغه بأن كيو مهدد . فلو أنه تهور بالحديث عنه ، فلن يمسك نفسه عن الافضاء بكل شيء · فتناول الخطاب ، ووضعه فى جيبه ·

وما أن خرجا الى الشارع ، حتى التقيا بالسيارات المصفحة وعربات النقل المحملة بالجنود ·

ولم يكن « كلابيك » قد استرد كل هدوئه ، ولكى يخفى انزعاجه الذى لم يستطع بعد أن يتخلص منه ، تظاهر بالجنون ، كعادته ·

ـ « ليتنى كنت ساحرا ، اذن لأرسلت الى الخليفة حصانا بقرن واحد ·· أجل ··· حصانا بقرن واحد ·· بحيث يبدو فى القصر يلون الشمس ، صائحا : « أعلم أيها الخليفة أن السلطانة الأولى تخونك ! لا كلمة ! » وسأبدو أنا رائعا لو كنت على هيئة حصان بقرن واحد ، وأنا بأنفى هذا ! ومن المفهوم طبعا ، أن هذا كله غير حقيقى · يقال ان أحدا لا يعرف مقدار اللذة التى يمكن أن يشعر بها المرء اذا عاش فى نظر شخص آخر حياة أخرى غير حياته هو·· وعلى الأخص ، فى نظر امرأة ما ··· »

ـ « ومن هى المرأة التى لم تتظاهر بحياة زائفة على الأقل بالنسبة لرجل من الرجال الذين عرضوا لها فى الشارع ؟ »

ـ « هل تعتقد ·· أن الناس جميعا مصابون بجنون الكذب ؟ »

وكانت جفون كلابيك تختلج فى عصبية ، وأبطأ فى سيره ·

قال : « كلا ··· اصغ الى ·· تكلم معى فى صراحة : لماذا تعتقد أنهم ليسوا كذلك ؟ »

وأحس الآن فى نفسه برغبة ـ غريبة عليه بصورة شاذة ، ولكنها جد قوية ـ فى أن يسأل چيسور عن رأيه فى الميسر ، ومع ذلك ، كان يعتقد ـ اعتقادا لاشك فيه ـ انه لو تحدث عن الميسر فسيعترف بكل شيء ·· هل سيتكلم ؟ ان الصمت يدفعه الى ذلك قسرا ، ولحسن الحظ ، أجاب چيسور :

ـ « لعلنى آخر من يصلح من الناس لاجابتك .. الافيون لا يعلم المرء الا شيئا واحدا ، وهو أنه خارج الألم الجثمانى ، لا يوجد شيء واقعى . »

ـ « الألم ، أجل .. و .. الخوف .. »

ـ « الخوف ؟ »

ـ « الم تشعر بالخوف قط .. أثناء تناولك الأف ... الافيون ؟ »

ـ « كلا ... لماذا ؟ »

ـ « آه .... »

والحقيقة أن جيسور كان يعتقد أنه لو كان العالم بلا واقع فان الناس ، بل أولئك الذين يعارضون العالم أشد معارضة ، يملكون واقعا قويا جدا ، وأن كلابيك بالذات ، واحد من الكائنات النادرة جدا التى لا واقع لها . وكان « جيسور » يعانى هذه الحقيقة فى قلق ، لأنه بين هذين اليدين المصنوعتين من الضباب وضع مصير « كيو » وهناك ، تحت المواقف التى يتخذها كل انسان ، أعماق يمكن لمسها ، والتفكير فى الألم الذى يمكن أن يحتمله الشخص يجعل من الممكن تقدير طبيعة هذه الأعمال . وقد كان ألم كلابيك مستقلا عنه ، كالم الطفل ؛ فهو لم يكن مسئولا عنه ، ومن الممكن أن يحطمه هـذا الألم ، ولكنه لا يمكن أن يدخل عليه أى تغيير . وكان كلابيك يستطيع أن يتوقف عن الوجود ، وأن يختفى فى رذيلة ما ، أو ضرب من ضروب الجنون، ولكنه لا يستطيع أن يصبح رجلا . « قلب من ذهب ، ولكنه أجوف . » ولاحظ جيسور أن أعماق كلابيك لا تنطوى على الم أو وحدة . كما هى الحال بالنسبة لسائر الناس ، ولكنها تنطوى على الاحساس . وكان جيسور يحكم أحيانا على الناس بأن يتخيلهم فى شيخوختهم : أما كلابيك فلم يكن يستطيع أن يشيخ : فالعمر لا يؤدى به الى التجربة الانسانية ، وانما الى الادمان: ادمان النساء أو المخدرات ـ حيث تتلاقى جميع وسائله لتجاهل الحياة . وحدث البارون نفسه قائلا : « ربما لو سردت عليه كل شيء ، لوجد كل شيء عاديا .. » وكانت طلقات الرصاص تدوى الآن فى أنحاء المدينة الصينية كلها . وطلب كلابيك من جيسور أن يتركه عند حدود منطقة الامتيازات : اذ أن « كوينج » لن يستقبله . وتوقف جيسور ، وهو ينظر الى طيفه الهزيل المضطرب يبتلعه الضباب .

* *

كان مقر القسم الخاص من بوليس تشانج ـ كاى ـ شيك ، فيللا بسيطة مشيدة حوالى ١٩٢٠ على طراز « بيكون ـ لى ـ بروبير » ، غير أن نوافذها كانت محاطة بزخارف برتغالية مسرفة ، ضاربة الى الصفرة والزرقة • ووقف على الباب حارسان ، وجنود آخرون أكثر من اللازم ، وكان الرجـال جميعا مسلحين ، هذا كل شيء • وعلى بطاقة قدمها له سكرتير ، كتب كلابيك «توتو» ، وترك السطر الخاص بسبب الزيارة خاليا ، ثم انتظر • وكانت هذه هى المرة الأولى التى يجد نفسه فيها فى مكان مضاء منذ أن غادر حجرته : فأخرج من جيبه رسالة شبيلفسكى وأخذ يطالعها •

« صديقى العزيز

لقد استسلمت للحاجة • • وكانت شكوكى قائمة على أساس ، ولكنى أمعنت الفكر : انك تسمح لى على هذا النحو بأن أعود الى الطمأنينة ، والأرباح التى تلوح لى بها صفقتى فى هذه اللحظة ـ عظيمة القيمة ومضمونة الى درجة أننى سأتمكن ـ بكل تأكيد ـ قبل عام واحد ، من أن أقدم لكَ مصحوبة بشكرى تحفا من نفس النوع • بل أجمل منها • ان تجارة الأغذية فى هـــذه المدينة ••• »

وأعقبت ذلك أربع صفحات من الشروح •

وقال كلابيك لنفسه : « ليس ذلك أفضل ••• ليس أفضل بحال من الأحوال •• » غير أن حارسا أقبل يطلبه •

كان كونيج ينتظره ، جالسا الى مكتبه ، ووجهه ناحية الباب • ونهض كونيج بجسمه المكتنز ووجهه الأسمر ، وأنفه المنحدر فى سحنته المربعة ، وتقدم نحوه وشد على يده بطريقة سريعة قوية أبعدتهما أكثر من أن تكون قد قربت بينهما •

ـ « هل أنت على ما يرام ؟ حسن • كنت أعرفَ أننى سأراك اليوم •• وكنت سعيدا لاستطاعتى أن أكون ذا نفع لك ـ بدورى • »

فأجاب كلابيك شبه متلعثم : « أنت رجل مرهوب •• ولكننى أسائل نفسى • أليس ثمة سوء تفاهم : فأنت تعلم أننى لا أشتغل بالسياسة •• »

ـ « لا وجود لسوء تفاهم • »

وقال كلابيك لنفسه : « ان عرفانه بالجميل يبدو أشبه بالتعطف من جانبه • »

ـ « أمامك يومان للرحيل •• لقد أسديت الى خدمة ذات مرة : وها أنذا اليوم قد أرسلت من يحذرك • »

ـ « كي ••• كيف ؟ ؟ أكنت أنت الذى أرسلت من يحذرنى ؟ »

ـ « وهل تعتقد أن شبيلفسكى كان يجرؤ ؟ انك تعامل ادارة الأمن الصينى، غير أن الصينيين لم يعودوا هم الذين يديرونها • وهكذا لم يعد ثمة مجال للسخافات الآن • »

وبدأ كلابيك يعجب بـ « شبيلفسكي » ، وان شاب هذا الاعجاب ضرب من الغضب •

واستطرد قائلا : « ومادمت تريد أخيرا ، أن تتذكرنى ، فاسمح لى أن أطلب منك شيئا آخر • »

ـ « وما هو ؟ »

ولم يعد « كلابيك » يأمل كثيرا : فان كل اجابة جديدة من كونيج أثبتت له أن الصداقة التى كان يعتمد عليها ، لا وجود لها ، أو لم يعد لها وجود • واذا كان كونيج قد قام بتحذيره ، فمعنى ذلك أنه لم يعد مدينا له بشىء • وهكذا قال مدفوعا بالرغبة فى اراحة ضميره ، أكثر من أن يكون مدفوعا بالأمل :

ـ « أليس فى الامكان القيام بأي شىء من أجل الفتى چيسور ؟ أعتقد أنك لا تهتم كثيرا بهذه المسائل ••• »

ـ « ومن يكون ؟ »

ـ « شيوعى ••• على ما أعتقد • »

ـ « ولماذا هو شيوعى أولا ؟ ألأن والده شيوعى ؟ أم لأنه مولد ؟ أم لأنه لا يجد عملا ؟ من الحماقة أن يكون أحد العمال شيوعيا ، فما بالك به ! وأخيرا ، ماذا ؟ »

ـ « ليس من الممكن تلخيص المسألة في يسر ••• »

واستغرق كلابيك فى التفكير :

ـ « ربما ، لأنه مولد ··· ولكنه كان يستطيع أن يدبر أمره ، فقد كانت والدته يابانية ··· ولكنه لم يحاول ، انه يقول شيئا عن : ( ارادة الكرامة ) ··· »

ـ « بدافع الكرامة ! »

واستولى الذهول على كلابيك : كان « كونيج » يصرخ فى وجهه ، ولم يكن ينتظر أن يكون لهذه الكلمة مثل هذا التأثير الشديد · فتساءل : « هل أفلت لسانى ؟ »

وقال كونيج متسائلا ، وهو يحرك سبابته فى عصبية وكأنه يستمر فى الكلام دون أن يسمعه أحد :

ـ « ماذا يعنى هذا ، أولا ؟ » وردد قائلا : « بدافع الكرامة ! » ولم يكن كلابيك يستطيع أن يخطىء فى فهم اللهجة التى تشيع فى صوته : انها لهجة الحقد · وكان واقفا على يمين كلابيك ، فأضفى أنفه الذى كان يبدو معقوفا حدة شديدة على وجهه ·

ـ « قل لى ـ يا عزيزى الصغير توتو ، هل تؤمن بالكرامة ؟ »

ـ « عند الآخرين ··· »

ـ « نعم ؟ »

فأخلد كلابيك الى الصمت ·

ـ « أتعرف ما كان يفعله الحمر بالضباط الأسرى ؟ »

وظل « كلابيك » ممتنعا عن الاجابة · لقد أصبح الأمر خطيرا ، وأحس أن هذه الجملة تمهيد ، أو مساعدة يعطيها كونيج لنفسه : فهو لم يكن ينتظر ردا ·

ـ « كنت فى سيبيريا ، مترجما فى معسكر للأسرى · وتمكنت من الخروج من هذا المعسكر بأن التحقت بخدمة الجيش الأبيض تحت قيادة سيمينوف·· وكان البيض والحمر عندى سيان ، كل ما كنت أريده هو أن أعود الى ألمانيا· وأسرني الحمر · وكدت أموت من البرد ، وكانوا يلطموننى بقبضاتهم وهم

يدعوننى بالكابتن ( كنت ملازما حينذاك ) حتى أسقط على الأرض ، ليرفعوننى من جديد • ولم أكن أرتدى بزة سيمينوف الرسمية ذات رءوس الموتى الصغيرة •• بل كنت أضع نجمة فوق كل كتف • »

وتوقف عن الكلام ، فقال كلابيك لنفسه : « انه يستطيع أن يرفض دون أن يهول فى المسألة الى هذا الحد • » واستطرد « كونيج » بصوت لاهث ثقيل ينطوى على شيء حاول كلابيك أن يفهمه :

ـ « لقد دقوا مسمارا فى كل كتف من كتفى خلال كل من النجمتين•• مسمارا طويلا كالاصبع ••• انصت جيدا لما أقول ياعزيزى الصغير توتو • »

وأمسك بذراعه ، وقد سدد عينيه فى عينى كلابيك ، وهو ينظر اليه نظرة غائمة :

ـ « وبكيت كما تبكى المرأة •• كما يبكى العجل •• بكيت أمامهم •• أتفهم ؟ أجل ؟ فلنترك القصة عند هذا الحد ••• فلن يخسر أحدنا شيئا • »

وأوضحت هذه النظرة التى تعبر عن رجل يشتهى شيئا ما •• أوضحت لكلابيك ما يريد • ولم يكن هذا الاعتراف موضع دهشة : ذلك أنه لم يكن اعترافا ، بل انتقاما • ومن المؤكد أنه يقص هذه الحكاية ـ أو يرددها لنفسه ـ فى كل مرة يستطيع فيها أن يقتل ، وكأن هذه القصة تستطيع أن تخدش المهانة التى لا حدود لها •• المهانة التى تعذبه ، حتى ينبثق منها الدم •

ـ « من الأفضل ـ يا عزيزى ـ ألا تحدثنى كثيرا عن الكرامة •• ان كرامتى •• كرامتى أنا ، هى أن أقتلهم • وماذا تريد ان يهمنى من الصين ! ها ! وهل تعيننى الصين ؟ اننى لم أنضم الى الكومنتانج الا لكى أستطيع أن أقتل عددا منهم ••• اننى لم أعد أحيا ، كما كنت أحيا من قبل ، كانسان، كأى شخص كان ، كآخر أحمق من الحمقى الذين يعبرون أمام هذه النافذة ، الا حين يقتلون •• ان حالى أشبه بحال مدمن الأفيون مع غليونه ••• ضرب من الجنون •• لقد جئت تطلب منى أن أنقذه ؟ لو أنك أنقذت حياتى ثلاث مرات ••• »

وهز كتفيه ، ثم استطرد غاضبا :

ـ « هل تعرف يا عزيزى توتو ما يعنيه أن ترى حياة شخص ما تتخذ

معنى ٠٠ معنى مطلقا ، وأن تشمئز من نفسك ٠٠٠ »

وأنهى جملته من بين أسنانه ، ولكن دون أن يتحرك ، وقد وضع يديه في جيوبه ، وأخذ شعره المرتب يهتز مع كل كلمة ينتزعها من نفسه .

قال كلابيك بصوت هامس : « هناك النسيان ٠٠٠ »

ــ « لقـد انقضى أكثر من عام دون أن أضـاجع امرأة ! فهـل يكفيك هذا ؟ و ٠٠ »

وتوقف بغتة ، ثم استطرد بصوت أشد انخفاضا :

ــ « ولكن قل اذن يا عزيزى توتو ــ ان الفتى چيسور ، الفتى چيسور، ٠٠ لقد أشرت الى سوء تفاهم ، أما زلت تريد أن تعرف لماذا صدرت ادانتك؟ سأنبئك بالسبب . ألم تكن أنت الذى عقدت صفقة بنادق « شانتونج » ؟ فهل تعرف لمن كانت هذه البنادق ؟ »

ــ « اننا لا نطرح أسئلة فى هذه المهنة ، ولا كلمة ! »

وقرب سبابته من فمه ، وفقا لعاداته المألوفة ٠٠ ولكنه أحس بالحرج على الفور .

ــ « لقد كانت مرسلة الى الشيوعيين . ومادمت تجازف بحياتك ، فكان من الواجب عليهم أن يخبروك ٠٠ ومهما يكن من أمر ، فقـد كانت المسألة كلها نصب واحتيال . لقـد استخدموك لكسب الوقت ، وفى نفس الليلة نهبوا السفينة . وان لم أكن مخطئا ، فقد كان ربيبك الحالى هو الذى ورطك فى هذه المسألة . »

وأوشك كلابيك أن يجيبه بقوله : « ومع ذلك فقد تسلمت قيمة عمولتى » غير أن هذا التصريح الذى أدلى به محدثه قد أشاع الرضا على وجه هذا الأخير، الى درجة أن البارون لم يعد يريد الآن الا الانصراف . وعلى الرغم من أن كيو قد وفى بوعوده ، الا أنه قامر بحياته دون أن يخبره . هل كان من الممكن أن يقامر بها لو أنه عرف ؟ كلا . كان كيو على حق حين آثر قضيته عليه : ومن ناحية أخرى فانه ( أى البارون ) على حق حين يتخلى عن « كيو » لاسيما وهو فى الحقيقة لا يستطيع شيئا . وهز كتفيه فى بساطة .

ــ « اذن ، فأمامى ثمان وأربعون ساعة للرحيل ؟ »

ــ « أجل ٠٠ أنت لا تصر على ما تريد ٠٠ وأنت مصيب فى ذلك ٠ الى اللقاء ٠ »

« يقول انه لم يرقد مع امرأة منذ أكثر من عام » بهذا حدث كلابيك نفسه وهو ينزل درجات السلم ٠ ٠ لابد أنه يفضى فى العادة بهذه الاعترافات ، لأولئك الذين سوف يموتون ٠٠٠ وأيا كان الأمر ، فالأفضل حقا أن ألوذ بالفرار ٠ » ولم يستطع أن يتخلص من اللهجة التى قال بها كونيج هـــذه العبارة : « لكى يعيش المرء كانسان ٠٠ كأى انسان ٠٠ » وظل مشدوها بهذا الادمان الشامل الذى لا يستطيع أن يشبعه الا الدم وحده : وكان قد شاهد من ضحايا الحروب الأهلية فى الصين ، وفى سيبيريا ما يكفى لكى يعرف ما ينجم عن المذلة الشديدة من انكار للعالم : الدم المراق فى عناد ، والمخدرات ، والأمراض العصبية هى وحدها التى تغذى المرء فى مثل هــذه العزلة ٠ وأدرك الآن لماذا كان كونيج يحب صحبته ، اذ لم يكن يجهل كيف يضعف ــ فى حضرته ــ كل واقع ٠ ومشى متباطئا ، فزعا من أن يجد چيسور الذى كان ينتظره فى الجانب الآخر من الأسلاك الشائكة ٠ ماذا يقول له ؟ ٠٠ ها قد فات الأوان : اذ تقــدم چيســور للقائه ــ تدفعه اللهفة ــ خارجا من الضباب ، على بعد مترين منه ٠ وكان يحلق فيه ببصر زائغ ، كالمجانين ٠

واستولى الفزع على كلابيك ، فتوقف عن السير ٠٠ وكان « چيسور » قد أمسك بذراعه :

وسأله بصوت حزين ، دون أن يغيره الانفعال : « ألا يمكن عمل أى شىء؟ » وهز كلابيك رأسه بالنفى ، دون أن ينطق بشىء ٠

ــ « هيا بنا ٠ سأطلب المعونة من صديق آخر ٠ »

وكان جنونه قد تكشف له ، حين أبصر كلابيك خارجا من الضباب ٠ والحوار الذى تخيله بينهما ، بعد عودة البارون ، كان عبثا : ذلك أن كلابيك لم يكن مترجما أو وسيطا ٠٠ وانما كان ورقة لعب ٠ ومادام اللعب قد تــم بهذه الورقة ، وخسرت ــ وهذا ما كان ظاهرا على وجه كلابيك ــ فلا مفر من اللعب بورقة أخرى ٠ وعلى الرغم من أنه كان مفعما بالقلق والكرب الشديد

فقد ظل محتفظا بصفاء فكره فى أعماق يأسه • وكان « فيرال » قد خطر على باله ، غير أن « فيرال » لم يكن ممن يتدخلون فى نزاع من هـذا القبيل • وذهب ليحاول اقناع صديقين له بالتدخل •••

واستدعى كونيج سكرتيرا وقال له :

ــ « غدا ، أريد الفتى چيسور ــ هنا ــ بعد انتهاء اجتماعات المجلس • »

**الساعة الخامسة**

من نوافذ الطابق الأول شاهد كاتوف وهملريش فوق الومضات القصيرة المنبعثة من طلقات الرصاص المصفرة ، فى نهاية الليل ــ مطلع النهار وهو يحدث انعكاسات ضوئية رصاصية على السقوف المجاورة فى نفس الوقت الذى أخذت فيه ملامح المنازل فى الوضوح • وشرع كل منهما يميز من جديد وجه الآخر ، ويعرف ما يفكر فيه ، بعد أن بلل المطر شـعرهما ، وعلاهما الشحوب • انه اليوم الأخير • لم تعد ثمة ذخيرة تقريبا ، وما من حركة شعبية هرعت لنجدتها •• هناك طلقات مدافع ناحية « شاپاى » : انهم رفاق محاصرون مثلهما • ولقد شرح « كاتوف » لـ « هملريش » لماذا أصبحا هالكين : ففى أية لحظة سيحمل رجال تشانج ــ كاى ــ شيك المدافع الصغيرة العيار التى يستخدمها حرس الجنرال ، وما أن يتمكنوا من ادخال واحد من هذه المدافع فى المنزل المواجه لمركز الاسعاف ، فسوف تتداعى المراتب والجدران كما فى ألعاب المهرجان • وكان المدفع الرشـاش الذى يملكه الشيوعيون لا يزال يسيطر على باب هذا المنزل ، حتى اذا نفد الرصاص ، انتهت سيطرته عليه • وهذا شىء لن يطول انتظاره ، اذ أنهم ظلوا يطلقونه فى ثورة غضب ، مدفوعين بثار يريدون أن يأخذوا به مقدما : ولـما كانوا يعلمون أن مصيرهم القتـل لا محالة ، فان القتل كان هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن يخلعوه على ساعاتهم الأخيرة •• بيد أنهم بدءوا يملون هذا أيضا • وأصبح أعداؤهم لا يظهرون الا نادرا ، بعد أن أحسنوا التحصن شيئا فشيئا • وبدا كأن القتال قد ضعف أثناء الليـل ، وأن هـــذا النهـار الوليـد الذى يكشف عن شـبح عـدو واحد ، يحمل لهم التحرر ، كما حمل الليل سـجنهم ، وهو خاطر واضح البطلان • وأصبح انعكاس ضوء النهار رماديا شاحبا ، على سقوف المنازل ، وفوق المعركة المتوقفة ، بدا كأن النور يمتص قطعا كبيرة من الليل ، دون

التي يترك أمام المنازل سوى شلنات سود • وطفقت الظـلال تنكمش رويدا رويدا ، وكان النظر اليها يتيح للمرء ألا يفكر في الرجـال الذين سيلقون حتفهم هنـاك • كانت هـذه الظـلال تتقلص كما تفعل كل يوم في حركتها الأبدية ، وان تكن تفعل اليوم ذلك في فخامة وحشية ، لأنهم لن يروها بعد ذلك أبدا • وفجأة أضيئت النوافذ المقابلة جميعا ، وانهمر الرصاص صوب الباب كأنه حفنة من الحصى : كان أحد رجالهم قد أبرز سـترة فوق طرف عصا •• وقنع العدو بموقف المراقبة •

قال هملريش : « ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ » وكان يحصى الجثث التي ظهرت الآن في عرض الشارع •

وأجاب كاتوف بصوت يكاد يكون منخفضا : « هذا كله مضيعة للوقت •• وما عليهم الا أن ينتظروا ••• فالنهار لهم • »

ولم يكن هناك سوى خمسة من الجرحى مستلقين في الحجرة ؛ ولم يكونوا يتأوهون بل كان منهم اثنان يدخنان وهما يتطلعان الى النهار الذي بدأ يبزغ بين الجدار والمراتب • وعلى مسافة أبعد ، كان « صـوين » ، ومقاتل آخر يحرسان النافذة الثانية • وكادت طلقات الرصاص أن تنقطع •• هل كانت قوات تشانج ـ كاي ـ شيك تنتظر في كل مكان ؟ وحين كان الشيوعيون هم المنتصرون في الشهر السابق ، فانهم كانوا يعرفون تقدم تلك القوات ساعة بساعة . ولكنهم اليوم لا يعرفون شيئا ، كما كان المنهزمون حينذاك لا يعرفون شيئا • وانفتح باب المنزل المعادي ، وكأنما ليؤكد ما قاله كاتوف منذ لحظة ( كان الممران أحدهما في مواجهة الآخر ) ، وفي الحال ، أنبأت فرقة مدفع رشاش الشيوعيين بما يجري حولهم • وحـدث كاتوف نفسه قائلا : « انهم يحملون المدفع عن طريق الأسطح • »

ـ « من هنا ! »

وكان رجاله المشرفون على المدفع الرشاش هم الذين ينادون • فخرج هملريش وكاتوف ركضا ، بعد أن أدركوا الموقف : ان المدفع الرشـاش المعادي ـ الذي يحميه دون شك درع من الصلب ـ يطلق نيرانه بلا توقف • ولم يكن ثمة شيوعيون في ممر مركز الاسعاف ، نظرا لأن هـذا الممر يقع تحت نيران مدفعهم الرشاش الذي يسيطر من أعلى درجة في السلم ـ وهو

مصوب الى أسفل ـ على طريق دخول أعدائهم • غير أن الدرع المصفح يحمي الآن هؤلاء الأعداء • ومع ذلك فلابد قبل كل شيء ـ من الاستمرار في اطلاق النار • وكان الهداف قد سقط على جانبه ، صريعا بلا شك ؛ وكان مالىء خزان المدفع هو الذي صرخ •• وطفق يملأ الخزان ، ثم يطلق النار ، رصاصة تلو رصاصة • وكان الرصاص يجعل قطعا من خشب السلم ومن قشرة الحائط تتطاير ، وكانت بعض الأصوات المكتومة التي تنبعث في فترات غريبة السرعة من الصمت تدل على أن بعض تلك الرصاصات يدخل في جسد شخص حي أو ميت • ووثب هملريش وكاتوف ، وزمجر البلجيكي قـائلا : « لن تكون أنت ! » وبضربة من كتفه نحى كاتوف ، فتدحرج في الدهليز ، ووثب هو الى مكان الهداف • وكان العدو يطلق نيرانه الآن في مكان أشد انخفاضا •• ولم يستمر اطلاقه طويلا وسأل هملريش : « أما زالت هناك ضمادات ؟ » وبدلا من أن يجيب أبرز مالىء خزان المدفع الرشاش رأسه الى الأمام ، وهبط السلم كله • ولاحظ هملريش أنه لا يعرف كيف يحشو مدفعا رشاشا •

وصعد في قفزة واحدة وأحس أن عينه وسمانة ساقه قد أصيبتا اصابة خفيفة • وفي الدهليز ، فوق الزاوية التي يطلق العدو منها النار ، توقف : ولم تكن عينه قد أصيبت الا بقطعة من الجص انفصلت عن الحائط برصاصة ، وكانت سمانة ساقه تنزف ، فقد أصيبت اصابة سطحية برصاصة أخرى • لقد دخل الآن الحجرة التي كان بهـا كاتوف متكئا ، يجتذب نحوه مرتبـة باحدى يديه ( لا لكي يحتمي وراءها ، بل ليختبىء ) ويمسك بالأخرى مجموعة من القنابل اليدوية : اذ كانت القنابل اليدوية ـ اذا انفجرت على مقربة ـ هي التي تستطيع وحدها أن تؤثر في الدرع المصفح •

وكان لابد من القائها من النافذة في ممر الأعداء • ووضع كاتوف مجموعة أخرى وراءه ، فأمسك بها هملريش وألقاها في نفس الوقت الذي قذف فيه كاتوف بمجموعة من فوق المرتبة • ووجد كاتوف نفسه ملقى على الأرض ، وقد حصده الرصاص ، وكأن قنابله اليدوية هي التي طرحته أرضا : فبمجرد ظهور رأسيهما وأذرعهما من وراء المرتبة ، انهال عليهما الرصاص من النوافذ جميعا ـ « ألم تكن هذه القرقعة الشبيهة بقرقعة عيدان الكبريت صادرة عن ساقية ؟ » ألقى هملريش على نفسه هذا السؤال بعد أن انبطح في الوقت

المناسب • وما برحت الرصاصات تدخل دائما ، غير أن الجدار كان يحمى الرجلين الآن بعد أن سقطا : اذ كانت فتحة النافذة على بعد ستين سنتيمترا فوق الأرض • وعلى الرغم من طلقات البنادق كان هملريش يشعر بالسكون فقد صمت المدفعان الرشاشان وتقدم على مرفقيه صوب كاتوف الذى لم يكن يبدى حراكا ، وجره من كتفيه • وتبادل الاثنان النظرات فى صمت ، خارج نطاق الرصاص : وكان نور النهار الساطع قد اجتاح الغرفة الآن على الرغم من المراتب والاستحكامات • وفقد كاتوف وعيه ، وقد ثقبت فخذه بقعة حمراء أخذت تتسع على أرض الحجرة وكأنها موضوعة على نشافة • وتناهى الى هملريش صوت سوين وهو يصيح : « المدافع ! » ثم انطلق انفجار هائل بلا دوى ، وفى اللحظة التى رفع فيها رأسه ، تلقى صدمة عند قاعدة أنفه ، وفقد وعيه بدوره •

وثاب هملريش الى رشده شيئا فشيئا ، صاعدا من الأعماق صوب هذا السطح من الصمت الغريب ، حتى لقد خيل اليه أنه هو الذى يبعث فيه الحياة : لقد كف المدفع عن الانطلاق • وكان المدفع قد تحطم بزاوية مائلة ، وعلى الأرض ، وقد غطتهم قطع الحصى والحطام ، رقد كاتوف والآخرون ، فاقدين وعيهم ، أو فارقتهم الحياة • وكان يشعر بظمأ شديد ، بالحمى • ولم يكن الجرح الذوى أصيب به فى سمانة ساقه خطيرا • وزحف حتى بلغ الباب وعند الدهليز ، تمكن من النهوض متثاقلا مستندا على الجدار • وباستثناء رأسه الذى وقعت عليه قطعة انفصلت عن البناء ، فقد كان ألمه منتشرا لا يستطيع له تحديدا ، ونزل متعلقا بالسياج •• لا على السلم المؤدى الى الشارع حيث ينتظر الأعداء دائما ، بلا شك ، ولكن على السلم المؤدى الى الفناء • كان قد انقطع اطلاق النار •• وكانت جدران ممر الدخول مليئة بالفجوات التى تؤوى فيما سبق مناضد • فألقى بنفسه فى أول فجوة صادفها ، ونظر الى الفناء •

الى يمين منزل يبدو مهجورا ( وان كان على يقين من أنه ليس كذلك ؟ كانت هناك حظيرة من صفيح ، وعلى بعد منزل به حافتان بارزتان كالقرنين ( على طراز المعابد الهندية ) ، وصف من الأعمدة الخشبية التى يتناقص طولها شيئا فشيئا حتى تغوص صوب الريف الذى لن يراه أبدا • وكانت الأسلاك الشائكة المتشابكة عبر الباب تخطط هـذا المنظر المميت والنهار الرمادى

بخطوط سوداء كأنها تصدعات فى وعاء صينى • وظهر شبح وراء هــــذا المنظر • شبح أشبه بالدب : انه رجل قادم بوجهه وقد انحنى ظهره تماما ، وبدأ يتعلق بالأسلاك الشائكة •

وكان رصاص هملريش قد نفد ، فجعل يتابع ببصره هذه الكتلة التى تمر من سلك الى آخر قبــل أن يستطيع التنبؤ بحركتها ( كانت الأســلاك واضحة فى ضوء النهار ، ولكنها كانت خارج منظوره ) ، وتعلقت الكتلة ، ثم سقطت ، وتعلقت من جديد، كالحشرة الضخمة • واقترب هملريش ملتصقا بالحائط • وكان من الواضح أن الرجل ، سيمر ؛ ومع ذلك فقد حدث فى هذه اللحظة أن أخذ ـ بعد أن تورط ـ يحــاول التخلص من الأسلاك التى اشتبكت بثيابه وهو يصدر قباعا * غريبا ، وخيل الى هملريش أن هـــذه الحشرة المتوحشة يمكن أن تبقى هناك الى الأبد هائلة مطوية عــلى نفسها ، ومعلقة فى ذلك النهار الرمادى • غير أنها مدت يدا واضحة سوداء مفتوحة متباعدة الأصابع لتمسك بسلك آخر ، وواصل الجسم حركته •

وكانت هذه هى النهاية •• فوراءه ، الشارع والمدفع الرشاش ؛ وفوق ، كاتوف ورجاله منطرحين أرضا • وهذا المنزل المهجور ، القائم فى مواجهة المركز بلاشك يكمن فيه ضــاربو المدفع الرشــاش ، أولئك الذين ما زالوا يملكون ذخيرة من الرصاص • فاذا خرج أطلقوا الرصاص على ركبتيه ، لكى يأخذوه أسيرا ( أحس فجأة ، بهشاشة هذه العظام الصــغيرة ، الرضفات * ولكنه ربما استطاع على الأقل أن يقتل هذا الشخص •

ومضى هــذا المسخ المؤلف من الدب والانسان والعنكبوت يخلص نفسه من الأسلاك • والى جانب كتلته السوداء ، كان ثمة خط من النور يحدد ضلع مسدسه • وأحس هملريش بنفسه كأنه فى أعماق ثقب ، أقل افتتانا بهذا المخلوق البطىء الذى يقترب كالموت نفسه ، منه بكل مايعقبه ، بكل ماسيسحقه مرة أخرى كغطاء التابوت حين يطبق على انسان حى ؛ وكان ما خنق حياة أيامه جميعا ، هو الذى يعود ها هنا ليسحقه بضربة واحدة • « لقد طحنونى طيلة

---

(*) الصوت الذى يحدثه الخنزير •
(*) الرضفات جمع رضفة وهى صابونة الركبة ••

سبعة وثلاثين عاما ، وسيقتلونني الآن • » ولم يكن عذابه هو الذى يقترب فحسب ، بل كان عذاب زوجته المبقورة البطن ، وعذاب ابنه المريض المقتول : لقد امتزج هذا كله فى ضباب من العطش والحمى والحقد • وأحس من جديد ببقعة الدم على يده اليسرى ، دون أن ينظر اليها • ولم تكن كالحرق أو كشىء يضايقه ، بل كل ما فى الأمر أنه كان يعلم أنها موجودة هناك ، وأن هـذا الرجل سيخرج فى نهاية الأمر من الأسلاك • وهـذا الرجل الذى سيكون أول عابر ، لن يقتل أولئك الذين يزحفون فى الطابق العلوى فى سبيل المال، وانما من أجل فكرة ، من أجل ايمان ، وهذا الشبح المتوقف الآن أمام سد الأسلاك الشائكة ، كان هملريش يبغضه ، بل يبغض حتى تفكيره ـ فلم يكن يكفى أن يقتلهم هذا الجنس من السعداء ، بل ينبغى أن يعتقد أيضا أنه على صواب • وكان الطيف ـ بعد أن شد الآن قامته ـ يمتد بشكل عجيب على الفناء الرمادى ، وعلى أسـلاك البرق التى تغوص فى الهدوء الذى لا حد له لهذا الصباح الربيعى الممطر • ومن احدى النوافذ ارتفعت صيحة نداء ، رد عليها الرجل ، وملأت اجابته الدهليز ، وأحاطت بهملريش • واختفى خط النور الواقع على المسدس ، غائصا فى الجراب ، وحل مكانه قضيب مسطح يكاد يكون أبيض فى هذه العتمة : كان الرجل يسحب حربته •• ولم يكن رجلا ، بل كان كل ما عاناه هملريش حتى هذه اللحظة • وفى هذا الدهليز المظلم ، وازاء هؤلاء الجنود القابعين وراء المدفع الرشاش عبر الباب ، وهذا العدو الذى يدنو •• مس البلجيكى جنون الحقد ، وبدا له أن دم أهله لـم يعد بقعة دم على يده ، بل انه مازال سائلا وساخنا • « هكذا قد أذاقونا جميعا الموت طيلة حياتنا •• ولكن هـذا سيدفع الثمن •• سيدفع الثمن ••• » واقترب الرجل ـ خطوة خطوة ، وقد شهر حربته الى الأمام • وجلس هملريش القرفصاء ، وأبصر على الفور أن الطيف يكبر ، بينما أخذ الجـذع يتصاغر فوق سـاقين قويتين كالأوتاد • وفى اللحظة التى وصلت فيها الحربة فوق رأسـه ، نهض وتعلقت يده اليمنى بعنق الرجـل ، وجعل يضغط عليها • وسقطت الحربة من جراء الصدمة • وكان هذا العنق أضخم من أن تطوقه يد واحدة ، فغاص الابهام وأطراف الأصابع فى تشنج داخل اللحم بدلا من أن توقف تنفسه ، غير أن يده الأخرى كانت قد أصيبت بالجنون ، فأخذت تخبط على الوجه اللاهث فى غضب عنيف • وطفق هملريش يزمجر قائلا : « ستدفع الثمن ! ستدفع الثمن ! » وترنح الرجل ، وبغريزته استند الى الحـائط •

ودق هملريش رأسه على الحائط بكل قوته ، وانحنى لحظة ، وأحس الرجل الصينى بجسم ضخم يدخل فيه ، ويمزق أحشائه : انها الحربة وفتح يديه الاثنتين ، ثم وضعهما على بطنه وهو يئن أنينا حادا ، وسقط ، وكتفاه الى الأمام ، بين ساقى هملريش ، ثم ارتخى دفعة واحدة ، وعلى يده المفتوحة سقطت قطرة من الدم من الحربة تبعتها قطرة أخرى • وكأن هذه اليد التى تتلطخ لحظة بعد أخرى بالدم ، كانت رمزا لثأره ، ولهذا تجاسر هملريش أخيرا ونظر الى يده ، فأدرك أن بقعة الدم قد انمحت منذ ساعات •

واكتشف أنه قد لا يموت • فاندفع يجرد الضابط من ثيابه ، وقد استولى عليه فى وقت واحد الحب لهذا الرجل الذى جاء يحمل له الخلاص ، والغضب لأن ثيابه لا تنتزع بسرعة كافية من جسمه ، وكأنه يحتجزها • وأخذ يهز هذا الجسد المنقذ ، وكأنه يرقصه ليسقط عنه الثياب • وأخيرا ، ارتدى حلة الضابط ، وأظهر نفسه من النافذة المطلة على الشارع ، وقد أخفى وجهه المائل بحافة (الكاكست) • وفتح الأعداء الرابضون فى مواجهة المركز — النوافذ وهم يتصايحون • « ينبغى أن أنجو بجلدى قبل أن يصلوا الى هنا • وخرج من جانب الشارع ، ثم انعطف الى اليسار ، كما كان ينبغى أن يفعل الرجل الذى قتله ، لكى يلحق بجماعته •

وصاح الرجال الواقفون فى النافذة : « أسرى ! »

وأتى مصادفة بحركة صوب أولئك الذين كان من المفروض أن ينضم اليهم • وكان امتناعهم عن اطلاق النار عليه شيئا طبيعيا وغبيا فى الوقت نفسه : اذ لم يتبق فى نفسه شىء من الدهشة • وابتدار الى اليسار مرة أخرى ، وانصرف نحو منطقة الامتيازات : وكانت هذه المنطقة محروسة ، ولكنه كان يعرف جميع المنازل ذات المدخلين التى توجد فى شارع«الجمهوريتين»•

وكان رجال الكومنتانج قد شرعوا يخرجون ، الواحد تلو الآخر ••

# الجزء السادس

قال الحارس : « مؤقتا • »

وأدرك كيو أنهم يزجون به في السجن العام •

وما أن دخل السجن ، بل وقبـل أن يستطيع النظر ، صدمته الرائحة الكريهة : مزيج من السلخانة ، ومعرض الكلاب ، والمراحيض • وكان الباب الذى اجتازه لتوه يؤدى الى دهليز شبيه بالدهليز الذى غادره ، وعلى اليمين ، وعلى اليسار ، وحتى السقف قضبان خشبية ضخمة • وفى تلك الاقفاص الخشبية ، كان ثمة رجال • وفي الوسط ، كان السجان يجلس الى منضدة صـغيرة عليها سوط : مقبضه قصـير ، وذبالته مفرطحة عريضة كالكف ، وسمكها سمك اصبع •• وقصارى القول انه سـلاح • قال : « ابق هنا يا ابن الخنزير • »

وكتب الرجل الذى اعتاد الظلام – البيانات المطلوبة عن أوصافه • وكان كيو مازال يعانى من ألم رأسه ، واعطاه السكون احساسا بأنه سيغمى عليه ، فاستند بظهره على القضبان •

وصاح صوت من خلفه : « كيف •• كيف •• كيف حالك ؟ »

كان صوتا غريبا كصوت الببغاء ، ولكنه صـوت انسان • وكان المكان من الظلمة بحيث لم يستطع أن يميز وجهه ، اذ لم يكن يبصر سوى أصـابع ضخمة متشبثة بالقضبان – غير بعيد عن عنقه • ووراءها كانت أشباح مسرفة فى الطول تتزاحم ، منها ما رقد على أرائك خشبية ، ومنها ما ظل واقفا : رجال أشبه بالدود •

أجاب وهو يتنحى : « لست على ما يرام تماما • »

قال السجان : « اغلق فمك •• يا ابن السلحفاة •• اذا كنت لا تريد أن تتلقى يدى فوق فمك • »

وكان كيو قد استمع عدة مرات الى كلمة « مؤقت » وبذلك أدرك أنه لن يبقى طويلا فى هذا المكان • واعتزم ألا يستمع الى الشتائم ، وأن يحتمل

كل ما يمكن احتماله ، المهم هو أن يخرج من هنا لمواصلة الكفاح . ومع ذلك ، فقد أحس الى درجة الغثيان بالمذلة التى يشعر بها كل انسان أمام الانسان الذى يخضع له تمام الخضوع : عاجزا حيال هذا الشبح الوسخ ذى السوط ــ مسلوبا من نفسه .

وصاح الصوت من جديد : « كيف .. كيف .. كيف حالك ؟ »

وفتح السجان بابا ، يتخلل لحسن الحظ قضبان اليسار : ودخل كيو الاصطبل . وفى مؤخرته ، كانت هناك أريكة خشبية يرقد عليها رجل واحد . وأعيد اغلاق الباب .

وسأله الرجل : « سجين سياسى ؟ »

ــ « أجل . وأنت ؟ »

ــ « كلا . كنت فى عهد الامبراطورية من المنادرة ( المثقفين ) .. »

وبدأ كيو يتعود على الظلمة .. وبالفعل كان محدثه رجلا مسنا ، أشبه بالقط الأبيض العجوز الذى يكاد يكون بلا أنف ، وله شارب هزيل وأذنان مدببتان .

ــ « ... اننى أبيع النساء .. وحين تكون تجارتى رائجة ، أعطى نقودا للبوليس ، فيتركنى فى سلام .. وحين تسوء الأحوال يعتقد أننى أضن عليه بالمال ، فيزج بى فى السجن . ولما كانت الأحوال سيئة فى الوقت الحاضر ، فاننى أفضل أن أطعم فى السجن ، بدلا من ان أموت جوعا وانا متمتع بحريتى ... »

ــ « هنا ! »

ــ « فلتعلم .. ان المرء يعتاد على ذلك .. والأحوال فى الخارج كذلك ليست حسنة جدا ، حين يكون المرء عجوزا مثلى ، وضعيفا ... »

ــ « ولكن ، كيف لم توضع مع الآخرين ؟ »

ــ « اننى أرشو كاتب السجن أحيانا .. وهكذا ، فى كل مرة أحضر الى هنا ، أضم الى فئة المساجين ( المؤقتين ) . »

وحمل السجان الطعام : أدخل من بين القضبان سلطانيتين صغيرتين مليئتين بعجينة بلون الوحل ينبعث منها بخار آسن كالجو المحيط بالمكان · لقد دس مغرفة في قدر من الفخار ، وقذف بالعجينة المتماسكة فى كل سلطانية صغيرة ، فسقطت فيها محدثة صوتا كالطبل ، ثم انصرف الى المساجين القابعين فى القفص الآخر ، واحدا واحدا ·

قال صوت : « لا داع لذلك : فالموعد غدا · » ( وقال المثقف العجوز لـ « كيو » انه يعنى بذلك تنفيذ حكم الاعدام فيه ) ·

وقال صوت آخر : « وأنا أيضا ·· وعلى هذا يمكنك أن تعطينى ضعف كمية العجين ·· فان التفكير فيما سيحدث غدا ، يجعلنى أشعر بالجوع · »

وسأله الحارس : « أتريد قبضتى على فمك ؟ »

ودخل جندى ، ليسأله سؤالا · فاجتاز القفص الأيمن ، وضرب جسدا فى رفق ، وقال :

ــ « انه يتحرك ·· ليس من شك أنه مازال حيا ··· »

وانصرف الجندى ·

ومد « كيو » بصره بكل انتباهه محاولا أن يرى الى أى هذه الأشباح تنتمى تلك الأصوات التي اشتد قربها من الموت ، ولعله قد بات مثلها · ولم يستطع أن يميز شيئا : هؤلاء الرجال سيموتون قبل أن يزيدوا بالنسبة اليه عن مجرد أصوات ·

وسأله رفيقه : « أنت لا تأكل ؟ »

ــ « كلا · »

ــ « ان الحال يكون دائما على هذا النحو فى البداية ··· »

وتناول سلطانية كيو · ودخل الحارس ، ثم لطم الرجل بكل قوته ، وخرج من جديد ، حاملا السلطانية دون أن يتفوه بكلمة·

وتساءل كيو بصوت خفيض : « لماذا لم يلمسنى أنا ؟ »

ــ « لقد كنت أنا وحدى المذنب ، ولكن ، ليست هذه هى العلة : فأنت

سجين سياسى ، مؤقت ، كما أنك ترتدى ثيابا أنيقة ، ولهـذا سيحاول أن ينتزع منك ــ أو من أهلك ــ شيئا من النقود ٠٠ ولكن هـذا لا يمنع ٠٠ انتظر ٠٠٠ »

وقال كيو لنفسه : « المال يتعقبنى حتى فى هذا الجحر ! »

وكان المشهد متفقا مع جو الأساطير ، حتى لقد خيل اليه أن خسة السجان خسة غير واقعية تماما ؛ وبدت له فى الوقت نفسه قدرا نتنا ، وكأن السلطان يكفى لتحويل كل انسان الى حيوان ٠٠ كما لم تكن هذه المخلوقات المغمورة التى يعج بها المكان وراء القضبان، والتى تثيرالخوف وكأنها الزواحف أو الحشرات الهائلة التى راودت أحلام طفولته ٠٠ لم تكن هذه أيضا من بنى البشر ٠ عزلة ومذلة كاملتان ٠٠ ودار فى نفسه : « انتبه » اذ أحس أنه قد ازداد ضعفا ٠ وخطر له أنه لو لـم يكن قد تغلب عـلى فكرة موته ، لالتقى بالرعب وفتح محبس حزامه ، ودس قنينة السيانور فى جيبه ٠

وهتف به الصوت من جديد : « كيف ٠٠ كيف ، كيف حالك ؟ »

وصاح المساجين من القفص الآخر معا : « كفى ! »

وكان كيو قد تعود الآن على الظلمة ، فلم يدهشه عدد الأصوات : فقد كان هناك ما يزيد على عشرة أجسام راقدة عـلى الأرائك الخشـبية ، وراء القضبان ٠

وصاح السجان : « أظنك ستخرس ؟ »

ــ « كيف ٠٠ كيف ٠٠ كيف حالك ؟ »

ونهض السجان ٠

وسأل كيو بصوت خافت : « أتراه مهرجا أم متمردا ؟ »

فأجاب المثقف : « لا هذا ولا ذاك ٠ انه مجنون ٠ »

ــ « ولكن لماذا ٠٠٠ »

وكف كيو عن توجيه الأسئلة : فقد سد جاره أذنيه ٠ وتردد فى الظلمة صياح حاد أجش ، ينم عن الألم والرعب فى آن واحد ٠ فبينا كان كيو ينظر

الى جاره المثقف ، كان السجان قد دحل القفص الآخر بسوطه • وطرقعت ذبالة السوط ، فانطلقت الصيحة نفسها مرة أخرى • ولم يجرؤ كيو على سد أذنيه ، بل انتظر ، متعلقا بقضيبين ، الصرخة الرهيبة التى ستسرى مرة أخرى فى جسده حتى أظافره •

قال أحد الأصوات : « اضربه بشدة ، حتى يدعنا فى سلام ! »

وقالت أربعة أو خمسة أصوات : « فلينته هـذا كله حتى ننام فى هدوء • »

ومال المثقف على كيو ، سادا أذنيه دائما : « هذه هى المرة الحادية عشرة التى يضربه فيها ــ على ما يبدو ــ منذ سبعة أيام • فأنا هنا منذ يومين : وهذه هى المرة الرابعة منذ مجيئى • وعلى الرغم من كل شىء •• فالمرء يسمع قليلا •• وأنا لا أستطيع ان أغمض عينى ، كما ترى : اذ يخيل الى أننى حين أنظر اليه ، فكأنى أمد له يد المساعدة ، واننى لا أتخلى عنه ••• »

ونظر كيو أيضا ، ولكنه لم يكد يبصر شيئا •• وتساءل فى فزع : « شفقة أم قسوة ؟ » ان كل ما هو منحط فى الانسان ، وكل ما هو قابل للافتنان قد أهيب به هنا فى عنف وحشى كأشـد ما تكون الوحشـية ، وكان كيو يصارع بكل فكره هذا الهوان الانسانى : وتذكر الجهد الذى كان ضروريا بالنسبة اليه دائما لكى يفر من رؤية الأجسام الانسانية المعذبة اذا التقى بها مصادفة : كان ينتزع نفسه انتزاعا من مثل هـذا المشـهد • أما أن بشرا يستطيعون شهود رجل مجنون ، غير مؤذ ــ بل عجوز بلا ريب اذا حكمنا عليه من صوته ــ ويوافقون على تعذيبه . فقد استحضر هـذا الى ذاكرته نفس الفـزع الذى أحس به حـين أفضى اليه تشن باعترافاته ، ليلة هانـكيو : « الأخطبوط •• » وقد حدثه كاتوف عن المجهود الذى يبذله طالب الطب حين تفتح أمامه ــ للمرة الأولى ــ بطن انسان ، فتسفر عن أعضاء حية • انه نفس الرعب الذى يشل المرء ، الرعب الذى يختلف اختلافا تاما عن الخوف، رعب جبار حتى قبل أن يحكم عليه الذهن الواعى ، وانه لرعب أبعث على الحيرة بمقدار ما أحس كيو بخضوعه له • ومع ذلك ، فان عينيه اللتين كانتا أقل تعودا على الظلمة من عينى رفيقه ، لم تميزا سوى ومضة الجلد التى تنتزع الأنات كأنها خطاف • ومنذ الضربة الأولى ، لم يبد حراكا ، بل ظل

متشبثا بالقضبان ، وقد وضع يديه فى مستوى وجهه • ولكنه لم يلبث أن صاح :

ـ « أيها السجان ! »

ـ « أتريد ضربة ؟ »

ـ « أريد أن أكلمك • »

ـ « نعم ؟ »

وبينما كان السجان يغلق القفل الضخم غاضبا ، أخذ المذنبون الذين تركهم يتواثبون ، اذ كانوا يبغضون المسجونين « السياسيين » الذين لم يكونوا يختلطون بهم •

ـ « أقدم ، أيها السجان ، أقدم ! دعنا نضحك ! »

وكان الرجل قد وقف فى مواجهة كيو ، يشطر جسمه رأسيا قضيب من القضبان الحديدية ، ويعبر وجهه عن أحقر أنواع الغضب •• غضب الأحمق الذى يعتقد أن سلطته موضع الاعتراض ، ومع ذلك ، لم تكن ملامحه خسيسة : فهى ، منتظمة ، عادية •••

قال كيو : « اسمع • »

وحدق كل منهما فى عينى الآخر ، وكان السجان أطول من كيو الذى ما برحت يداه متشبثتين بالقضبان على كل من جانبى رأسه • وقبل أن يفطن كيو الى ما حدث ، خيل اليه أن يده اليسرى قد تمزقت اربا : فقد هوى السوط الذى يمسك به السجان خلف ظهره ، على يده بكل قوة • ولم يستطع كيو أن يمنع نفسه من الصراخ •

ودمدم المساجين الذين يقفون قبالته : « حسن جدا ! • لقد جاء دورهم • »

وكانت يدا كيو قد سقطتا بطول جسمه ، وقد استولى عليهما خوف ذاتى ، دون أن يلحظ هو شيئا من ذلك •

وسأله الحارس : « ألديك شىء آخر تريد أن تقوله ؟ »

وكان السوط الآن بينهما ٠

وصر كيو على أسنانه بكل قوته ، وبنفس المجهود الذى يحتاج اليه ارفع ثقل هائل ، ودون أن تفارق عيناه الحارس ، حول يديه مرة أخرى نحو القضبان ٠ وبينما كان يرفعهما متمهلا ، تراجع الرجل تراجعا غير ملحوظ ، لكى يفسح لحركته مكانا ٠٠٠ وفرقع السوط - على القضبان هذه المرة ٠ وكان رد الفعل المنعكس أقوى من كيو ٠ فسحب يديه ، ولكنه أعادهما فورا فى توتر أرهق كتفيه ، فأدرك الحارس من نظرته أنه لن يسحبهما هذه المرة ٠ فبصق فى وجهه ورفع السوط متعمدا ٠

قال كيو : « اذا أنت ٠٠٠ كففت عن ضرب المجنون ٠٠ فسوف أعطيك حين أخرج ٠٠ خمسين دولارا ٠ »
ولاح التردد على السجان ، ولكنه قال أخيرا :

- « طيب ٠ »

ونحى نظرته بعيدا ، وأحس كيو أنه تخلص من توتر عنيف حتى ظن أنه على وشك الاغماء ٠ وكانت يده اليسرى تؤلمه الى درجة أنه لم يكن يستطيع أن يطبقها ٠ ورفعها فى نفس الوقت الذى رفع فيه يده الأخرى الى مستوى كتفيه ، وتركها ممدودة ، فى هذا الوضع ٠

وانطلقت ضحكات أخرى ٠

وسأله الحارس وهو يقهقه أيضا : « أتبسط لى يدك ؟ »

وصافحه ٠ وأحس كيو أنه لن ينسى طوال حياته هذه الضغطة على اليد ، لا بسبب ما عاناه من ألم ، ولكن لأن الحياة لم تفرض عليه شيئا أبشع من ذلك ٠ فسحب يده ، وألقى بنفسه على الأريكة ٠ وتردد الحارس ، وهز رأسه وهو يحكها بمقبض السوط ، ثم عاد الى المنضدة ، بينما طفق الرجل المجنون ينشج بالبكاء ٠

ومرت ساعات رتيبة من المهانة ٠ وأخيرا ، أقبل عدد من الجنود يطلبون كيو لاقتياده الى الشرطة الخصوصية ٠ لعلهم يسوقونه الى الموت ، ومع ذلك

فقد خرج فى فرحة أدهشه عنفها : فقد خيل اليه أنه ترك هناك شطرا دنسا من نفسه ٠

ـ « ادخل ! »

ودفع أحد الحراس الصينيين « كيو » من كتفه ، ولكن دون لكز ، ذلك أن الحراس حين يتعاملون مع الأجانب ( وكان كيو بالنسبة للشخص الصينى يابانيا أو أوروبيا ، ولكنه أجنبى بكل تأكيد ) كانوا يخففون من الوحشية التى يعتقدون أنهم ملزمون باتباعها ٠٠ وباشارة من كونيج ، ظلوا خارج الحجرة ٠ وتقدم كيو صوب المكتب ، مخفيا فى جيبه يده اليسرى المتورمة ، ناظرا الى هذا الرجل الذى أخذ بدوره يبحث عن عينيه : وجه حليق حـاد الزوايا ، أنف منحرف ، وشعر ممشط ٠ « من الجلى أن رجلا سيأمر بقتلك دون شك ــ يشبه أى رجل آخر » ومد كونيج يده نحو مسدسه الموضوع على المائدة : كلا ٠٠ لقد تناول علبة السجائر ، وقدمها لـ « كيو » ٠

ـ « شكرا ٠٠ اننى لا أدخن ٠ »

ـ « ان طعام السجن كريه ، كما ينبغى أن يكون ، فهل تحب أن تتناول غداءك معى ؟ »

وعلى المائدة ، كانت القهوة ، والبن ، وفنجانان ، وشرائح من الخبز ٠

ـ « بعض الخبز فحسب ٠ أشكرك ٠ »

وابتسم كونيج :

ـ « انه نفس وعاء القهوة لى ولك ، كما ترى ٠٠٠ »

وكان كيو قد حزم أمره على الحذر ، ومهما يكن من أمر ، فان كونيج لم يلح فى شىء ٠ وظل كيو واقفا ( لم يكن هناك مقاعد ) أمام المكتب ، وهو يقضم خبزه كالطفل ٠ وكان كل شىء بعد مهانة السجن يتسم بخفة غـير حقيقية ٠ وكان يعلم أن حياته فى خطر ، بيد أن الموت نفسه بدا له أمرا بسيطا ٠ وأوحت اليه انسانية رئيس الشرطة بشىء قليل من الثقة ؛ وقد ظل كونيج بعيدا عنه ، وكأنه منفصل عن أريحيته : فهى متقدمة قليـلا ، وهو متأخر قليلا ٠ ومع ذلك ، لم يكن من المحال أن تصدر رقة هذا الرجل

عن اللامبالاة : فهو من الجنس الابيض وربما انتهى الى هذه المهنة عن طريق المصادفة ، أو الجشع٠٠ وكان هذا ما يتمناه كيو الذى لم يكن يشعر نحوه بأى تعاطف ، ولكنه كان يريد أن يستريح ، أن يتخلص من التوتر الذى أرهقه في السجن . واكتشف مبلغ الارهاق الذى يلحق بالمرء حين يكون مرغما على اللجوء كلية الى ذاته ٠

ودق جرس التليفون ٠

قال كونيج : « آلو ٠ أجل ، جيسون ، كيوشى (١) ٠٠ تماما ٠ انه عندى ٠ »

ثم قال مخاطبا كيو : « يسألونني عما اذا كنت مازلت حيا ٠ »

ــ « لماذا أرسلت في طلبى ؟ »

ــ « أعتقد اننا سنتفاهم ٠ »

التلفون من جديد ٠

ــ « آلو ٠ كــلا ٠٠٠ كنت أقول له اننا سنتفاهم بكل تأكيد ٠ رميا بالرصاص ؟ اتصل بى مرة أخرى ٠ سنرى ٠ »

ومنذ أن دخل كيو ، لم تتحول نظرة كونيج عن عينيه ٠

سأله وهو يعلق السماعة : « ما رأيك في الموضوع ؟ »

ــ « لا شىء ٠ »

وخفض كونيج عينيه ، ثم رفعهما :

ــ « هل أنت حريص على الحياة ؟ »

ــ « هذا يتوقف على الكيفية التى عليها أعيش ٠ »

ــ « من الممكن أيضا أن يموت المرء بطرق متباينة ٠ »

ــ « ليس لنا أن نختار ٠٠٠ »

ــ « أعتقد أننا نختار دائما طريقتنا فى الحياة ؟ »

---

(١) « كيو » اختصار لاسم « كيوشى » ٠

وكان «كونيج» يفكر في نفسه • أما كيو ، فكان قد اعتزم ألا ينزل عن أى شيء جوهرى ، ولكنه لم يكن يريد في الوقت نفسه أن يثير غضبه :

ــ « لا أدرى ، وأنت ؟ »

ــ « لقد قالوا لى : انك شيوعى ، بدافع •• من الكرامة •• فهل هذا صحيح ؟ »

ولم يفهم كيو بادىء الأمر ، اذ كان يتساءل ــ وهو ينتظر فى توتر أن يدق جرس التلفون ــ ماذا يعنيه هذا الاستجواب الغريب ، وأخيرا سأل كونيج : « أتهتم بهذا حقا ؟ »

ــ « أكثر مما يمكن أن تظن • »

وكان ثمة تهديد يشيع فى لهجته ، وان لم يظهر فى عبارته نفسها ، وأجاب كيو :

ــ « أعتقد أن الشيوعية ستجعل الكرامة ممكنة بالنسبة لأولئك الذين أحارب معهم • وعلى كل حال فان القوة المضادة للشيوعية ترغمهم على الا تكون لهم كرامة ، اللهم الا اذا كانت لهم حكمة •• والحكمة نادرة بينهم ، كما هى نادرة بين غيرهم •• بل ربما كانت أشد ندرة بينهم لأنهم فقراء ، ولأن عملهم يفصلهم عن حياتهم • لماذا سألتنى هذا السؤال ، ما دمت لاتصغى لاجابتى ؟ »

ــ « ماذا تعنى بالكرامة ؟ انها لا تعنى شيئا على الاطلاق • »

ودق جرس التلفون • وقال كيو لنفسه : « حياتى » ، ولم يرفع كونيج السماعة •

قال كيو : « انها ضد المذلة •• وحين يأتى المرء من حيث أتيت ، فانها تعنى شيئا • »

وظل جرس التلفون يرن دون مجيب ، فوضع كونيج يده على الجهاز • وألقى هذا السؤال فحسب : « أين أخفيت الأسلحة ؟ »

ــ « تستطيع أن تدع التلفون هادئا • لقد فهمت أخيرا ، أن هذه المكالمة مجرد تمثيلية تقومون باخراجها من أجلى • »

وانحنى كيو بسرعة : فقد كان كونيج على وشك أن يقذف على رأسه بأحد المسدسين ، الفارغ طبعا ، ولكنه وضعه على المنضدة .

قال : « عندى ما هو أفضل من ذلك .. أما فيما يتعلق بالتلفون ، فسرعان ما سترى ان كان بجرد حيلة ، أيها العزيز .. هل سبق لك أن شاهدت شخصا يعذبونه ؟ »

وحاول كيو أن يضم أصابعه المتورمة فى جيبه . وكان « السيانور » فى هذا الجيب الأيسر ، فخشى أن يسقط منه اذا حاول أن يرفعه الى فمه .

ــ « لقد شاهدت على الأقل أناسا عذبوا : فقد خضت غمار الحرب الأهلية

وما يدهشنى ، هو لماذا سألتنى عن المكان الذى خبئت فيه الأسلحة .. فانت تعرف مكانها ، أو ستعرفه ــ فلماذا تسألنى ؟ »

ــ « لقد سحق الشيوعيون فى كل مكان . »

وظل كيو صامتا .

ــ « لقد سحقوا فعلا . فكر مليا : اذا اشتغلت من أجلنا ، فقد نجوت ، ولن يعلم ذلك أحد ... انى أدبر أمر هربك ... »

وحدث كيو نفسه قائلا : « كان لابد أن يبدأ الأمر على هذا النحو . » ومنحته العصبية قدرة على السخرية ، وان لم يكن يريدها . ولكنه كان يعرف أن البوليس لا يقنع بالعهود المشكوك فيها . ومع ذلك ، فقد أدهشه هذا العرض ، وكأنه ــ لأنه عرض تقليدى ــ قد كف عن أن يكون حقيقيا .

واستطرد كونيج قائلا : « أنا وحدى الذى سأعرف . هذا يكفى .. »

وتساءل كيو : « لماذا هذا الاعتداد الذى نطق به عبارة « هذا يكفى ؟ »

وأجاب فى صوت محايد : « لن أدخل فى خدمتك . »

ــ « حذارى : فانني أستطيع أن أرسلك الى البوليس السرى مع عشرة من الأبرياء قائلا لهم : ان مصيرهم مرهون بك ، وانهم سيبقون فى السجن اذا لم تتكلم ، وانهم أحرار فى اختيار وسائلهم ... »

ــ « الجلادون ، أبسط من ذلك كثيرا ... »

ـ « هذا خطأ • فان تعاقب الصراعات وألوان القسوة سر من ذلك • لا تتحدث عما لا تعرف ••• بعد على الأقل • »

ـ « لقد شاهدتهم تقريبا يعذبون مجنونا •• مجنونا •• أتفهمنى ؟ »

ـ « هل تقدر المجازفة التى تجازفها تمام التقدير ؟ »

ـ « قلت لك ، اننى اشتركت فى الحروب الأهليــة •• فأنا أعرف •• ولقد قام رجالنا أيضا بالتعذيب فلابد من مسرات كثيرة للناس لكى نعوض هذا الذى ارتكبناه •• وعلى أى حال ، فلن ألتحق بخدمتكم • »

وظن كونيج أنه على الرغم مما قاله له « كيو » فانه لم يفطن الى وطأة الخطر الذى كان يتهدده • وقال لنفسه : « ان شبابه يساعده • » وكان قد استجوب منذ ساعتين ، سجينا من التشيكا ، ولم تمض عشر دقائق حتى كانا قد تآخيا : ذلك أن كلا منهما كان ينتمى الى عالم لم يعد هو عالم الناس، واذا كان « كيو » لا يخاف نظرا لقصور فى خياله ، فصبرا •••

ـ « ألم تسأل نفسك لماذا لم أقذف بالمسدس فى وجهك ؟ »

ـ « اننى أعتقد أننى قريب من الموت •• وهذا يطفىء حب الاستطلاع • وقد قلت ان لديك وسائل أفضل ••• »

ودق « كونيج » الجرس •

ـ « ربما جئت اليك الليلة لأسألك ما رأيك فى الكرامة الانسانية • »

وأردف قائلا للحراس الذين دخلوا : « الى فناء السجن •• قسم أ »

**الساعة الرابعة**

اختلط كلابيك بالحركة التى تدفع جماهـير منطقة الامتيازات صوب الأسلاك الشائكة : ففى شـارع الجمهوريتين كان الجـلاد يمر حاملا سيفه المقوس عـلى كتفه ، تتبعه كوكبة من رجال البوليس المسلحين بمسدسات الموزر • وعاد كلابيك أدراجه عـلى الفور • وتوغل فى منطقة الامتيازات • لقد قبضوا على كيو ، وتحطم الدفاع الشيوعى ، وقتل عدد من أصدقاء الحركة فى المدينة الاوروبية نفســها •• وقد أمهله كونيج حتى المساء : فلن يظل مستمتعا بالحماية بعد ذلك •• وكانت ثمة طلقات فى كل مكان تقريبا •

ويخيل اليه ، والريح تحملها ، أنها تقترب منه ومعها الموت • قال وهو يصر على أسنانه : « لا أريد أن أموت ، لا اريد ان اموت ••• » ولاحظ انه يركض •• وأخيرا وصل الى رصيف الميناء •

لم يكن يحمل جواز سفر ، كما لم يكن يملك من المـال ما يكفي لشراء تذكرة •

ثلاث بواخر ، احداهما فرنسية • وتوقف كلابيك عن الجرى •• أيختبيء في زوارق النجاة المغطاة بقماش القازع السميك ؟ لا مندوحة له من الصعود الى السطح ، ولن يسمح له الرجل القائم على السلم بالعبور • هذه حماقة ، على كل حال •• ماذا عن المخازن الموجودة في بطن الباخرة ؟ أحمق ، أحمق ، أحمق • أيذهب لمقابلة القبطان ، بالقوة ؟ كم تخلص من مآزق في حياته على هذا النحو ! أما في هذه المرة فقد يظنه القبطان شيوعيا ، ويرفض قبوله على سفينته • والسفينة سترحل بعد ساعتين ، هـذه اذن لحظة غير مناسبة لازعاج القبطان • واذا اكتشف أمره بعد ابحار الباخرة فسوف يدبر أموره ، ولكن ، ينبغي الصعود اليها الآن •

وتخيل نفسه في ركن ما ، قابعا في برميل ، بيد أن خياله لم ينقذه هذه المرة • وبدا له كأنه يقدم نفسه قربانا لهـذه البواخر الهائلة ، الجاثمة ، المحملة بالمصائر، التي لاتأبه له الى درجة الحقد، وكأنما يضرع اليها لتشفع له عند اله مجهول • ووقف ازاء الباخرة الفرنسية : وأخذ ينظر ، مفتونا بسلم الصعود، الى الناس الذين يصعدون وينزلون ( لم يكن منهم من يفكر فيه ، أو يخمن لهفته ، ولهذا السبب ود لو يقتلهم جميعا ) ، وهم يبرزون تذاكرهم أثناء اجتيازهم المعبر • هل يلفق تذكرة زائفة ؟ سخف !

ووخزته بعوضة ، فهشها ، وحينئذ لمس وجنته : لقد بدأت لحيته تنبت• وقرر أن يذهب للحلاقة دون أن يبتعد عن السفينة ، وكأن اعتناء المرء بزينته مما ييسر أمر الرحيل • وهناك وراء مخازن البضائع ، بين الحانات الأمريكية وحوانيت العاديات ، لمح حانوت حلاق صيني • وكان صاحب المحل يملك مقهى زريا أيضا ، ولم يكن يفصل بين تجارتيه سوى حصيرة مشدودة • وجلس كلابيك ــ منتظرا دوره ــ الى جانب الحصير ، وواصل مراقبة سلم الباخرة • وعلى الجانب الآخر ، كان ثمة أشخاص يتحدثون : قال صـوت رجل : « هذا هو الثالث • »

ـ « أجابه صوت امرأة : « لن يأخذنا أحد ومعنا الطفل • ماذا لو حاولنا الذهاب الى أحد الفنادق الفخمة ، فربما ؟ ••• »

ـ « بهذه الثياب التى نرتديها ؟ ان البواب ذا الأشرطة سيطردنا قبل أن نلمس الباب • »

ـ « للأطفال الحق فى البكاء هناك أيضا •• فلنحاول مرة أخرى فى أى مكان آخر • »

ـ « منذ أن يرى أصحاب الفنادق الطفل ، فانهم سيرفضون • وليست هناك سوى الفنادق الصينية التى يمكن أن تقبل ، غير أن الطفل سيمرض بسبب طعامهم القذر • »

ـ « لو أننا استطعنا أن نهرب الطفــل ، فى أحد الفنــادق الأوروبية الفقيرة ، فربما لم يجرءوا على القائنا الى الخارج ، ما دمنا قد أقمنا فعلا • ومهما يكن من أمر ، فاننا نكون قد كسبنا ليلة • وعلينا أن نلف الطفل حتى يعتقدوا أنه حزمة من الثياب • »

ـ « الثياب لا تصرخ • »

ـ « لن يصرخ و ( البزازة ) فى فمه • »

ـ « ربما ••• سأدبر الأمر مع الرجل ، على أن تلحق بى فيما بعد • لن تمكثى هكذا أكثر من دقيقة أمامه • »

وساد الصمت • ونظر كلابيك الى الصقالة •• وتناهى الى سمعه حفيف أوراق •

ـ « انك لا تستطيع أن تتصور كم يحز فى نفسى • أن أحمله على هــذا النحو •• وانى لأشعر أن ذلك سيكون فألا سيئا طيلة حياته ••• وأخشى أن يؤذيه ••• »

وعاد الصمت من جديد • أتراهما قد رحلا ؟ وترك الزبون مقعده •• وأشار الحلاق الى كلابيك ، الذى استقر فى ذلك المقعد دون أن تتحول عينه عن الباخرة •• وكان السلم خاليا فى هــذه اللحظة ، ولكن ما كاد وجه كلابيك يغطى بالصابون حتى صعد بحار ، وقد أمسك بيديه دلوين جديدين

( لعله قد اشتراهما لتوه ) ووضع مكنسة على كتفه • وتابعه كلابيك بنظراته خطوة خطوة : وود لو كان كلبا على شرط أن يصعد الكلب هذا السلم وأن يرحل • ومر البحار أمام الرجل الواقف على « الصقالة » دون أن يقول شيئا •

ودفع كلابيك أجر الحلاقة ، وهو يرمى بقطع النقود على الحوض ، ونزع المناشف التى وضعها حول رقبته ، وخرج ، ممتلىء الوجه بالصابون • كان يعرف أين يجد بائعى الثياب القديمة •• وحملق الناس فيه ، فعاد على أعقابه بعد عشر خطوات ، وغسل وجهه ، ومضى من جديد •

ووجد ـ دون عناء ـ حلة بحار زرقاء عند أول بائع التقى به • وبلغ فندقه بأسرع ما يستطيع ، وأبدل ثيابه • « تلزمنى أيضا مكانس أو أى شىء من هذا القبيل • هل اشترى من الخدم مكانس قديمة ؟ سخف : فلماذا يتنزه بحار بمكانسه فى البر ؟ لكى يتنفس هواء أجمل ؟ هذه بلاهة تامة • انه اذا كان قد اجتاز الصقالة بمكانسه فذلك لأنه ابتاعها من البر ••• اذن فلابد أن تكون المكانس جديدة ••• فعلينا بشرائها • »

ودخل دكانا بطريقته « الكلابيكية » المعتادة •• وازاء نظرة الاحتقار التى رشقه بها البائع الانجليزى هتف قائلا : « فى أحضانى ! » ووضع المكنسة على كتفه ، واستدار ، فأسقط مصباحا من النحاس ، وخرج •

وكانت هذه العبارة « فى أحضانى ! » تعبر عما يشعر به على الرغم مما فيها من مبالغة مقصودة : فقد كان حتى هذه اللحظة يمثل ملهاة يسودها القلق ، اراحة لضميره وبدافع من الخوف ، ولكن دون أن يفلت من الفكرة التى لا يستطيع الاعتراف بها لنفسه وهى أنه قد يفشل ، غير أن ازدراء البائع ـ على الرغم من أن كلابيك متناسيا حلته ، لم يكن ليتخذ هيئة البحار ـ أثبت أنه يستطيع النجاح • واتجه صوب الباخرة ، والمكنسة فوق كتفه ، متطلعا فى سيره الى العيون جميعا لكى يجد فيها تأكيدا لمهنته الجديدة • وعاوده مرة أخرى ذلك الذهول الذى أحس به حين كان يقف أمام الصقالة •• ذهول لاحساسه بأن مصيره أمر لا يحفل به الآخرون ، وبأنه لا وجود له الا بالنسبة الى نفسه : فلقد كان المسافرون يصعدون منذ لحظة دون أن يلتفتوا

الى هذا الرجل الواقف على الرصيف ، ربما ليلقى هناك مصرعه ، والآن ينظر السابلة بلا اكتراث لهذا البحار ؛ ولم يبرز من هذا الحشد شخص مندهش. أو شخص يتعرف عليه ، بل ما من وجه ظهر عليه شيء من الفضول ٠٠٠ ولم يكن الأمر أن حياة زائفة يمكن أن تدهشه ، ولكنها فرضت عليه هذه المرة فرضا ، وربما توقفت عليها حياته الحقيقية ٠ وأحس بالظمأ ٠ فتوقف عند مشرب صينى ، ووضع مكانسه على الأرض ٠ وما أن شرب ، حتى أدرك أنه لم يكن ظمآن على الاطلاق ، بل كان يلتمس اختباراً آخر ٠ وكانت الطريقة التى ناوله بها صاحب المشرب باقى نقوده كافية لكى يعلم ذلك ٠ فمنذ أن أبدل ثيابه ، تبدل العالم من حوله ٠ وأخذ يبحث فيم تغير العالم : انها النظرات التى لم تعد كما كانت ٠ لقد أصبح جليسه العادى المتلقى لجنونه بالكذب جمهورا من الناس ٠

وفى الوقت نفسه ــ سواء أكان الأمر متعلقا بغريزة الدفاع أو باللذة ــ فقد غمره هو نفسه ذلك القبول العام لشخصيته الجديدة ٠ والتقى على حين غرة ، ومصادفة ، بأروع نجاح فى حياته ٠٠ كلا ٠٠ ان الناس لا وجود لهم، ما دام يكفى المرء ثوب لكى يهرب من نفسه ٠ ولكى يجد حياة أخرى فى عيون الآخرين ٠ وقد كان هذا ــ من حيث العمق ــ هو الغربة عينها ، والسعادة عينها اللتين فاز بهما حين اختلط لأول مرة بالجمهور الصينى ٠ « ومع ذلك يقولون بالفرنسية ( صنعت قصة ) faire une historie بمعنى كتبتها ، لا بمعنى عشتها ! » وتسلق المعبرة ــ حاملا مكانسه كأنها البنادق ، ومر ــ وقد لانت ساقاه ــ أمام الرجل الواقف عند « الصقالة » ، حتى وجد نفسه على سطح السفينة ٠ ومضى الى الأمام بين الركاب ، ووضع مكانسه على لفة من الحبال ٠ لم يكن ثمة ما يخاطر به الآن قبل أول مرسى ، ومع ذلك فقد كان أبعد ما يكون عن الاطمئنان ٠ واقترب منه أحد الركاب ، وكان روسيا تشبه رأسه شكل حبة الفول ، وقال له :

ــ « هل أنت من بحارة السفينة ؟ »

ودون أن ينتظر جوابا استطرد قائلا :

ــ « هل الحياة ممتعة على ظهر السفينة ؟ »

ــ « أما عن هذا ، فليست لديك أية فكرة ، ياصديقى ؛ ان الفرنسى

يحب الترحال ، هذه حقيقة : فلا تتفوه بكلمة • الضباط أنذال ، غير أنهم ليسوا أكثر نذالة من أصحاب الأعمال ، والمرء لا ينام نوما مريحا ( أنا لا أحب السراير المعلقة : مسألة ذوق ) ، ولكننا نأكل جيدا ، كما أن المرء يرى أشياء كثيرة • حينما كنت فى أمريكا الجنوبية كان المبشرون يلقنون الهمجيين عن ظهر قلب خلال أيام وأيام ، ترانيم صغيرة باللغة اللاتينية • فاذا وصل الأسقف ، بدأ المبشر فى قيادة الفرقة : ويسود الصمت ، والهمجيون يشملهم الاحترام • ولكن • لا تتفوه بكلمة ! لقد جاءت الترنيمة من تلقاء نفسها : فان ببغاوات الغابة ــ يا صديقى ــ الذين لم يسمعوا غيرها ، ينشدونها فى خشوع وتبجيل ، اننى التقيت مرة وسط البحر • فى جزر « سولاويسى » ( باندونيسيا ) منذ عشر سنوات بسفن عربية ــ قديمة هائمة ، منحوتة كغلاف جوزة الهند الخشبى وملآنة بأموات أهلكهم الطاعون ، وقد تدلت أذرعهم هكذا على طول السياج تحت سيل من النوارس • تماما ••• »

ــ « هذا من قبيل حسن الحظ •• فانا أسافر منذ سبعة أعوام ومع ذلك لم أشاهد شيئا كهذا • »

ــ « لابد من ادخال أساليب الفن فى الحياة ياصديقى •• لا لكى تنشىء فنا • كلا •• والله ، كلا ! ولكن للاستمتاع بالحياة •• لا تتفوه بكلمة ! »

وربت على بطنه ، واستدار فى حذر ، فقد وقفت سيارة يعرفها عند أسفل السلم : انه فيرال يعود الى فرنسا •

وشرع صبى يجوب جناح الدرجة الأولى ، وهو يقرع جرس الرحيل • وكانت كل دقة من الجرس ترن فى داخل صدر كلابيك •

وهجس فى نفسه : « أوروبا •• لقد انتهى العيد •• والآن الى أوروبا •» وبدا له كأن فرنسا ماثلة أمامه مع الجرس الذى أخذ يقترب منه ، لا بوصفه ايذانا بالخلاص ، بل بالسجن • ولولا خطر الموت الذى يتهدده ، لنزل الى الشاطىء مرة أخرى •

وسأل الروسى : « هل مشرب الدرجة الثالثة مفتوح ؟ »

ــ « منذ ساعة • ويستطيع كل الناس أن يذهبوا اليه الى أن تبحر السفينة • »

ـ « هيا بنا لنسكر ... »

* *

**الساعة السادسة**

فى القاعة الكبيرة ـ التى كانت يوما ما فناء مدرسة ـ انتظر مائتا جريح شيوعى حتى يتم الاجهاز عليهم . وكان « كاتوف » الذى جاء ضمن الدفعة الأخيرة ، يتكىء على مرفقه ، وينظر حواليه . كان الجميع ممددين على الأرض، وقد جعل كثيرون منهم يئنون بطريقة منتظمة غير مألوفة ، وكان بعضهم يدخنون كما فعل أولئك الذين كانوا فى مركز الاسعاف ، بينما أخذت حلقات الدخان تتصاعد حتى السقف ، الذى قد شمله الظلام رغم النوافذ الأوروبية الواسعة ، التى أعتمها المساء والضباب فى الخارج . وكان هـذا السقف يبدو عاليا جدا ، فوق هؤلاء الرجال الراقدين جميعا . ومع أن النهار لم يكن قد اختفى بعد ، فان الجو كان جوا ليليا . وتساءل كاتوف : « أيرجع هـذا الى الجروح ، أم لأننا نرقد جميعا كأننا فى محطة ؟ انها محطة ، وسنرحل منها الى لا مكان .. هذا كل ما فى الأمر ... »

وكان أربعة من الحراس الصينيين يتجولون وسط الجرحى ، وقد ثبتوا الحراب فى بنادقهم ، وكانت حرابهم تعكس بصورة غريبة ضوء ذلك النهار الواهن ، وقد بدت واضحة مستقيمة فوق جميع هذه الأجساد التى فقدت شكلها . وفى الخارج ، فى أعماق الضباب ، كانت الأضواء المصفرة ـ التى تنبعث من مصابيح الغاز بلا شك ـ تبدو هى أيضا ساهرة عليهم ، وكأنما صدر عنها ( لأنه صدر كذلك من أعماق الضباب ) صفير طغى على الهمسات والتأوهات : انه صفير قاطرة ، لقد كانوا على مقربة من محطة « شاباى » . ثمة شىء فى هذه القاعة الواسعة متوتر توترا عنيفا ، لم يكن هو انتظار الموت . وعلم « كاتوف » علم ذلك من حلقه : انه العطش والجوع . وطفق ينظر ـ وقد أسند ظهره الى الجدار ـ من اليسار لليمين : كثير من الوجوه المعروفة ، اذ كان عدد كبير من الجرحى محاربين فى « التشون » tchouns وعلى طول جانب من الجوانب الضيقة فى القاعة ، كان مكان خال ـ طوله ثلاثة أمتار ـ محجوزا . فسأل بصوت مرتفع : « لماذا يبقى الجرحى مكدسين

بعضهم فوق بعض بدلا من أن يتحركوا الى ذلك المكان ؟ » وكان كاتوف ضمن الدفعة التى جيء بها أخيرا • واستند على الحائط ، محاولا النهوض ، وعلى الرغم من أن جروحه كانت توجعه فقد خيل اليه أنه يستطيع أن يظل واقفا ، ولكنه توقف ، وهو ما زال منحنيا : ودون أن يتفوه أحد بكلمة واحدة ، أحس حوله برعب شديد جعله يجمد فى مكانه • أكان ذلك الرعب فى النظرات ؟ انه لا يكاد يتبينها • أكان فى الأوضاع لقد كانوا جميعا فى أوضاع الجرحى الذين يتعذبون لحسابهم الخاص • ومع ذلك ، وأيا كانت الطريقة التى انتقل بها ، فقد كان الرعب ماثلا هناك — لم يكن خوفا بل فزعا •• فزع الحيوان •• فزع الانسان المنفرد ازاء ما ليس انسانيا • ودون أن ينقطع عن الاستناد الى الجدار ، تخطى كاتوف جسد جاره •

وتساءل صوت منبعث من الأرض : « هل أنت مجنون ؟ »

— « لماذا ؟ »

سؤال وأمر فى آن معا • ولكن ما من مجيب • وبدلا من أن يلقيه أحد الحراس — وكان على بعد خمسة أمتار منه — على الأرض ، نظر اليه فى ذهول •

وسأل من جديد فى عنف أشد : « لماذا ؟ »

فقال صوت آخر منبعثا من الأرض دائما : « انه لا يعرف » وفى الوقت نفسه ، قال صوت آخر أشد انخفاضا : « سيعرف فى الوقت المناسب •• »

وكان قد ألقى سؤاله الثانى بصوت مرتفع جدا • وكان تردد هذا الحشد ينطوى فى ذاته على شيء رهيب ، ولأن جميع هؤلاء الرجال تقريبا يعرفونه : لقد كان الخطر المعلق على هذا الحائط يجثم على الجميع، وبالأخص عليه هو •

قال أحد الجرحى : « عد الى الرقاد • »

لماذا لا يناديه أى واحد منهم باسمه ؟ ولماذا لا يتدخل الحارس ؟ لقد رآه وهو يعيد الى الأرض بكعب بندقيته منذ لحظة جريحا كان يريد تغيير مكانه ••• واقترب من محدثه الأخير ، واستلقى الى جواره فقال الرجل بصوت منخفض : « انهم يضعون هناك أولئك الذين سيعذبونهم • »

وفهم كاتوف · الجميع يعرفون ، ولكنهم لا يجرؤون على قول ما يعرفون سواء أكانوا يخافون من الكلام ، أم لأن ما من واحد فيهم يجرؤ على التحدث بذلك اليه · فقد قال صوت : « سيأتي ذلك في الوقت المناسب ··· »

وفتح الباب ··· ودخل جنديان يحملان مصباحين يحيطان بنقالات تدحرج الجرحى كاللفافات ، بالقرب من كاتوف · وجاء الليل ، صاعدا من الأرض حيث تتقاطع التأوهات كالجرذان الجارية ، ممتزجة برائحة بشعة : فقد كانت الغالبية العظمى من الرجال لا تستطيع الحركة ·· وأغلق الباب من جديد ·

ومضى الوقت ·· لاشيء سوى خطوات الحراس ، ولمعة الحراب الأخيرة فوق آلاف صرخات الألم · وفجأة ، وكأنما جعلت الظلمة الضباب أشد كثافة ، تردد من بعيد جدا صفير القاطرة ، أشد اكتئاما · وضغط أحد الواصلين الجدد ـ وكان منبحطا ـ بيديه على أذنيه ، وجأر ولم يصرخ الآخرون ، غير أن الرعب كان ماثلا هناك من جديد ، على سطح الأرض ·

ورفع الرجل رأسه ، وانتصب على مرفقيه ، وصاح : « أوغاد ، قتلة ! »

وتقدم أحد الحراس ، فدحرجه بضربة من قدمه في ضلوعه · فسكت · وابتعد الحارس · وشرع الجريح يجمجم · وكان المكان قد اشتدت ظلمته الآن الى درجة لم يستطع معها كاتوف أن يميز نظرته ، ولكنه كان يسمع صوته ، وأحس أنه سيتكلم كلاما واضحا في الحال · والواقع أنه لم يلبث أن قال : « ·· انهم لا يطلقون بنادقهم على الأسرى ، ولكنهم يلقون بهم أحياء في مرجل القاطرة ·· والآن ·· ها هم يصفرون ·· » وعاد الحارس ، فساد الصمت ، ولم تنبعث الا أصوات الألم ·

وفتح الباب من جديد ·· حراب أخرى ، مضاءة الآن من أسفل الى أعلى بضوء المصابيح ·· ولكن ·· دون أن يجلبوا أية جرحى هذه المرة · ودخل ضابط من ضباط الكومنتانج بمفرده · ومع أن كاتوف لم يعد يرى سوى كتلة الأجسام ، الا أنه أحس أن كل رجل قد تخشب · وهناك ، وقف الضابط ·· بلا حجم ·· مجرد شبح لا يكاد يجلوه ضوء المصابيح على خلفية المساء ، وقف ليلقي أوامره على أحد الحراس ·· واقترب هذا الأخير باحثا عن

كاتوف ، فلم يلبث أن عثر عليه • ودون أن يلمسه ، ودون أن يتفوه بشيء ، أومأ اليه فقط ـ باحترام ـ أن ينهض • فاستطاع النهوض في مشقة ، وقد أدار وجهه الى الباب ، هناك حيث استمر الضابط في القاء أوامره ، بينما وقف الجندي الى يساره ممسكا البندقية باحدى ذراعيه ، والمصباح بالذراع الأخرى • وعلى يمينه ، لم يكن غير الفراغ الشاغر والجدار الأبيض • وأشار الجنـدي الى الفراغ ببندقيته ، فابتسـم كاتوف في مرارة ، وفي كبـرياء يائسة • غير أن احدا لم يكن يرى وجهه : أما الحارس فقد تعمد ألا ينظر اليه ، بينما استند كل جريح من أولئك الجرحى الذين لا يحتضرون على ساق أو ذراع ، أو ذقن ، ليتابعوا بنظراتهم شبحه الذي لم يكن حالك السواد ، والذي أخذ يكبر على حائط المعذبين •

وخرج الضابط ، بينما ظل الباب مفتوحا •

وأدى الحراس تحيتهم بالسلاح : فقد دخل أحد المدنيين ، ومن الخارج صاح صوت « قسم ١ » لم يلبث أن أقفل الباب علي أثره • واصطحب أحـد الحراس الرجل المدني نحو الحـائط دون أن يكف عن الدمدمة ، وتعرف كاتوف الذي كان قريبا جدا •• تعرف ـ مذهولا ـ على كيو • ولما لم يكن كيو جريحا ، فقـد ظن الحراس الذين شاهدوه بين ضابطين ، أنه أحـد مستشاري تشانج ـ كاي ـ شيك الأجانب ، وحين أدركوا الآن خطأهم ، أخذوا يسبونه من بعيد • ورقد « كيو » في الظل الى جانب كاتوف •

وسأله كاتوف : « هل تعرف ما ينتظرنا ؟ »

ـ « لقد حرصوا على اخطاري •• ولكنني لا أبالي : ان لدي السيانور •• أمعك أنت أيضا ؟ »

ـ « أجل •• »

ـ « أأنت جريح ؟ »

ـ « في الساقين ••• ولكنني أستطيع أن أمشي • »

ـ « أكنت هنا منذ زمن طويل ؟ »

ـ « كلا •• متى اعتقلوك ؟ »

ـ « مساء أمس ٠٠ أما من طريقة للهرب ، من هنا ؟ »

ـ « ما من سبيل ٠٠ ان الجميع تقريبا مصابون بجراح خطيرة ٠٠ وفى الخارج ، جنود فى كل مكان ٠٠ ألم تر المدافع الرشاشة أمام الباب ٠ »

ـ « بلى ـ أين اعتقلوك ؟ »

وكان الاثنان فى حاجة الى الهرب من هذه السهرة الجنائزية ، وفى حاجة الى أن يتكلما ٠٠ ويتكلما ٠ أما كاتوف فقد أخذ يتحدث عن الاستيلاء على مركز الاسعاف وأما كيو ، فقد جعل يتحدث عن السجن ، وعن مقابلته مع كونيج ، وعما عرفه منذ ذلك الحين ، قبل أن يدخل السجن المؤقت ، وكان قد علم أن « ماى » لم تعتقل ٠

كان كاتوف راقدا على جنبه ، على مقربة منه ، يفصله عنه كل ما يعانيه من ألـم : فم منفرج وشفتان متضخمتان تحت أنفه المرح ، وعينان شـبه مغمضتين ٠٠ ولكنه كان مرتبطا بهذا الرجل ، تصله به تلك الصداقة المطلقة، الخالية من التحفظات والريبة ، التى لا يمنحها سوى الموت : وهذه الحياة التى قدر عليها المـوت ، وقد حطت الى جـوار حياته فى ذلك الظـل المـلىء بالتهديدات والجروح ، وسط هؤلاء الاخوة جميعا من متسولى الثورة : ان كل واحد من هؤلاء الرجال قد فطن فى غيظ فطنة عابرة الى العظمة الوحيدة التى يمكن أن تكون له وحده ٠

واقتاد الحراس ثلاثة من الصينيين ، ووضعوا منفصلين عن حشد الجرحى، وعن الرجال الراقدين على طول الجدار أيضا ٠ وكان قد تم اعتقالهم قبـل القتال ، وحوكموا محاكمة غامضة ، وهم ينتظرون الآن الاعدام رميا بالرصاص٠

ونادى أحدهم : « كاتوف ! »

وكان « لو ـ يو ـ شوين » شريك هملريش ٠

ـ « ماذا ؟ »

ـ « هل تعرف اذا كان الرمى بالرصاص يجرى على مقربة من هـــذا المكان ، أم بعيدا عنه ؟ »

ـ « لا أدرى ٠ اننا لا نسمع شيئا ٠٠ على أية حال ٠ »

وقال صوت أبعد قليلا :

ــ « يبدو أن الجلاد ، سينتزع ــ بعد تنفيذ الحكم ــ أسنانك الذهبية ! »

فقال صوت آخر :

ــ « لا أبالى ، لأننى لا أملك أسنانا ذهبية • »

وكان الصينيون الثلاثة يدخنون السجاير ، نفسا وراء الآخر ، في عناد •

وسألهم أحمد الجرجى ، وكان أبعد قليلا : « ألديكم عدد من علب الكبريت ؟ »

ــ « أجل • »

ــ « أرسلوا الى واحدة • »

وأرسل اليه « او » علبته •

وقال بصوت هامس : « أود أن يتمكن أحدكم من ابلاغ ابنى أننى قد استقبلت الموت بشجاعة » وأضاف بصوت أشد همسا : « ليس من اليسير على المرء أن يموت • »

واكتشف « كاتوف » في نفسه سرورا مكتوما : فليس لديه زوجة أو أطفال •

وفتح الباب •

وصاح الحارس : « أرسل الى واحدا ! »

وتلاصق الرجال الثلاثة واحدا بجوار الآخر •

قال الحارس : « ما بالكم ؟ •• احزموا أمركم ••• »

ولم يجرؤ على الاختيار • وفجاة تقدم أحد الصينيين المجهولين خطوة الى الامام ، والقى سيجارته التى لم تكد تشتعل ، وأشعل أخرى بعد أن حطم عودين من الثقاب ، ومضى نحو الباب حثيث الخطى وهو يزرر أزرار سترته واحدا وراء الآخر • وأغلق الباب من جديد •

وجمع أحمد الجرجي أعواد الثقاب المحطمة • وكان هو وجيرانه قد كسروا

العلبة التى أعطاها لهم « لو ـ يو ـ شوين » قطعا صغيرة ، وأخذوا يلعبون بها « السيجة » وبعد أقل من خمس دقائق ، فتح الباب مرة أخرى :

ـ « واحد آخر ! »

وتقدم « لو » ورفيقه معا ، وقد أمسك كل منهما بذراع صاحبه • وأخذ « لو » يتلو بصوت مرتفع لا طابع له ، مشهد موت البطل من مسرحية شهيرة ، غير أن المجتمع الصينى القديم كان قد انهار تماما ، فلم يستمع اليه أحد •

وسأل الجندى : « أيكما ؟ »

فلم يجب أحد •

ـ « هيا •• لا مفر من الكلام •• اليس كذلك ؟ »

وفرقهم بضربة من بندقيته : وكان « لو » أقرب اليه من الآخر : فامسكه من كتفه •

وخلص « لو » كتفه من قبضة الجنـــدى ، وتقدم • أما رفيقه فعاد الى مكانه ، ورقد •

وأحس كيو كم سيكون الموت أصعب بالنسبة لهذا الرجل ممن سبقاه : فلقد أصبح من دونهما الآن وحيدا • وانه لفى مثل شجاعة « لو » ما دام قد تقدم معه • غير أن طريقته التى يرقد بها الآن على الأرض ، ككلب الصيد القابع ، وقد أحاطت ذراعاه بجسمه ، كانت تفصح عن خوفه • والواقع ، أنه أصيب بنوبة عصبية ، حين لمسه الحارس • وأمسك به جنديان : أمسك أحدهما قدميه ، وأمسك الآخر رأسه وحملاه •

أغمض كيو عينيه ، بعد أن رقد على ظهره ، واضعا يديه على صدره : كان هذا هو الوضع الذى يتخذه الموتى تماما • وتخيل نفسه فى هذا الوضع، ممددا بلا حراك ، مغمض العينين ، تعلو وجهه تلك الطمأنينة التى يهبها الموت لمدة يوم واحد للجثث كلها تقريبا • وكأنما يجب التعبير عن كرامة أبأس الناس • لقد شاهد أشخاصا كثيرين يحتضرون ، واعتقد دائما ـ تساعده فى ذلك تربيته اليابانية ـ أنه من الجميل أن يموت المرء « ميتته » الخاصة ، أي موتا يشابه الحياة التي عاشها • وكان يعتقد أيضا أن الموت شيء سلبي ،

أما الانتحار ففعل ايجابى • وحين يأتون للبحث عن أول واحد فيهم ، فسوف يقتل نفسه فى وعى تام • وتذكر ــ وقد توقف قلبه عن الخفقان ــ اسطوانات الحاكى •• كان زمانا يحتفظ فيه الأمل بمعناه ! لن يعود لرؤية « ماى » وكان الألم الوحيد الذى يمس أعماق نفسه هو ألمها ، وكأن موته اذناب • وخطر له : « هذا هو ندم الموت » فى سخرية مقبضة • ولم يكن يشعر بشىء من هذا تجاه أبيه الذى كان يبدو له دائما فى مظهر القوة ، لا فى مظهر الضعف• وكانت « ماى » قد خلصته منذ عام من كل شعور بالعزلة ، وان لم تخلصه تماما من كل شعور بالمرارة • وما كاد يفكر فيها حتى انبثق فى نفسه ذلك الشعور الغامر بالهرب فى الحنان الذى يحدثه اندماج الأجساد لأول مرة ، هذا فى الوقت الذى انفصل فيه تماما عن الأحياء •• « ينبغى الآن أن تنسانى •• » ولو كتب ذلك اليها لما زادها الا عذابا وتعلقا به « وكأننى أقول لها أن تحب شخصا آخر • » يا للسجن من مكان يتوقف فيه الزمن ، بينما يستمر فى كل مكان آخر ••• كلا ! انما فى فناء السجن هذا الذى تفصله المدافع الرشاشة عن بقية العالم •• فى هذا المكان ، على الثورة ــ أيا كان مصيرها ، وأيا كان المكان الذى ستبعث منه ــ أن تتلقى الضربة القاضية ، وفى كل مكان ، يكدح الناس فيه : فى الألم ، وفى الباطل ، وفى المذلة ، تتجه الافكار الى قوم حكم عليهم بالاعدام شبيهين بهؤلاء ، كما يصلى المؤمنون، وفى المدينة ، بدأ الناس يحبون هؤلاء الذين قدر عليهم الموت ، وكأنهم ماتوا فعلا ••• ومن بين كل الأماكن التى غطتها هذه الليلة الأخيرة من الأرض ، كان مكان الحشرجات هذا هو أشد الأماكن ثقلا بما يحمله من حب رجولى ، بلا أدنى ريب • عليك بالأنين مع هذا الحشد الراقد ، وبالانضمام الى هذا الالم المبذول ــ الى أقصى همس شكاواه ! وأشاعت ضجة غير مسموعة همس الألم هذا حتى أعماق الليل : لقد كان لهؤلاء الرجال جميعا أطفال شأنهم فى ذلك شأن هملريش ، ومع ذلك ، فان المصير المحتوم الذى تقبلوه قد تصاعد مع طنين الجرحى الصادر عنهم ، كما تصعد الطمأنينة فى المساء ، حتى غمر كيو وهو مغمض العينين ، وقد شبك يديه فوق جسده المهجور ، فى جلال النشيد الجنائزى • هكذا يكون قد قاتل فى سبيل ما يحمل فى عصره أقوى المعانى ، وأعظم الآمال ، وها هو يموت وسط هؤلاء الذين ود أن يعيش بينهم ، انه يموت ــ كأى واحد من أولئك الرجال الراقدين ــ لأنه أعطى معنى لحياته • وما قيمة حياة لا يقبل المرء أن يموت فى سبيلها ؟ ومن السهل أن

يموت الانسان ، حين لا يموت وحيدا ! انه موت مشبع بهذه الرجفة الأخوية بهذا الجمع من المهزومين الذين ستعترف بهم الجماهير على أنهم شهداؤها ، أسطورة دامية ستتألف منها أساطير ذهبية ! كيف يمكن ألا يسمع - والموت مطل عليه فعلا - هذه الهمسة من التضحية الانسانية التى تهيب به قائلة ان قلب الانسان الباسل ملاذ للموتى لا يقل قدرا عن الروح ؟ انه يمسك الآن بالسيانور فى يده • وكم تساءل مرارا : أيموت فى يسر ؟ وكان يعلم أنه لو قرر أن يقتل نفسه ، فسيقتل نفسه ! ولكن ، لما كان يعرف عدم المبالاة الضارية التى بها تميط لنا الحياة القناع عن أنفسنا ، فانه لم يكن بلا قلق بشأن اللحظة التى سيسحق فيها الموت فكره بكل ثقله ، دون رحمة •

كلا ، ان الموت يمكن أن يكون فعلا مجيدا ، والتعبير الأسمى عن حياة ما أشبه هذا الموت بها ! كما أنه يعنى أيضا الافلات من هذين الجنديين اللذين يقتربان منه فى تردد • وحطم قطعة السم بين أسنانه ، كما لو كان أمر بذلك، وسمع « كاتوف » يسأله فى قلق ، ويلمسه ، وفى اللحظة التى أراد فيها أن يتشبث به ، وقد تقطعت أنفاسه ، أحس أن قواه جميعا تتجاوزه وتتفسخ بعيدا عنه قبل أن يستولى عليه تشنج جبار •

وأقبل الجنود يبحثون بين الحشد عن سجينين لا يستطيعان النهوض • ولم يكن من شك فى أن احراق المرء حيا يمنحه حقا فى تشريفات خاصة ، وان تكن محدودة : فقد حملا على نقالة واحدة ، هذا فوق ذاك ، أو يكاد يكون فوقه ، ثم ألقيا على يسار كاتوف ، وكان الى يمينه يرقد « كيو » بعد أن فارقته الحياة • وفى المكان الخالى الذى يفصل هؤلاء الرجال عن الذين لم يحكم عليهم الا بالموت ، أقعى الجنود على مقربة من مصباحهم • وغاصت الرءوس والنظرات رويدا رويدا فى الظلام ، بحيث لم تكن تعود الا نادرا الى هذا الضوء الذى كان يدل فى مؤخرة القاعة ، على مكان الماثلين للاعدام •

وأحس كاتوف منذ أن مات كيو - الذى ظل يحتضر دقيقة على أقصى تقدير - أنه قد رد الى عزلة زاد من شدتها وايلامها أنه كان فى كنف من رجاله • وكانت صورة الصينى الذى لزم أن يحملوه ليقتلوه ، - وقد عصفت به نوبة عصبية - تسيطر عليه • ومع ذلك ، فقد كان يجد فى هذا التسليم

التام احساسا بالراحة ، وكأنه كان ينتظر هذا منذ سنوات : راحة يلقاها مصادفة ، ويعثر عليها من جديد ، في اللحظات الفاجعة من حياته . ترى أين قرأ هذه العبارة : « ليست كشوف المكتشفين بل آلامهم هى التى أحسدهم عليها ، وهى التى تجتذبنى ... » وترامى الصفير البعيد الى القاعة للمرة الثالثة ، وكأنما ليجيب على خاطره . ووثب جاراه الراقدان على يساره .. وكانا صينيين فى ميعة الصبا : أحدهما سوين الذى لا يعرفه الا لأنه قاتل معه فى مركز الاسعاف : أما الثانى ، فلم يكن يعرفه ( لم يكن پى ) لماذا لم يكونا مع الآخرين !

وسأل : « تنظيم جماعات القتال ؟ »

فأجاب سوين : « محاولة اغتيال تشانج ـ كاى ـ شيك . »

ـ « مع تشن ؟ »

ـ « كلا .. لقد أراد أن يلقى القنبلة بمفرده . ولم يكن تشانج فى السيارة . أما أنا فكنت أنتظر السيارة فى مكان أبعد . وقد القوا القبض على ، ومعى القنبلة . »

وكان الصوت الذى أجابه مختنقا ، مما دعا كاتوف الى أن يتفرس بانتباه فى الوجهين : كان الشابان يبكيان ، دون أن تصدر عنهما زفرة . وجال فى ضمير كاتوف : « لا جدوى من الكلمات . » وأراد سوين أن يحرك كتفه ، ولكن وجهه تقلص من الألم ، فقد كان جريحا فى ذراعه أيضا .

قال : « سأحرق .. سأحرق حيا .. والعينان أيضا ، العينان ، أتفهم ؟ »

وهنا كان رفيقه ينتحب .

قال كاتوف : « من الممكن أن يكون ذلك بحادثة . »

وكان يبدو أنهما لا يتحادثان معا ، بل كأنهما يخاطبان شخصا ثالثا غير مرئى .

ـ « ليس الأمر سواء . »

ـ « كلا .. فهذا أقل روعة . »

وردد سوين بصوت أشد انخفاضا : « العينان أيضا ·· العينان أيضا·· وكل أصبع من الأصابع ·· والبطن ، البطن ··· »

قال الآخر بصوت أصم : « اسكت ! »

وكان يريد أن يصرخ ، ولكن لم يعد فى استطاعته أن يفعل ذلك ، وتصلبت يداه على مقربة من جروح سوين الذى تقلصت عضلاته ·

وتمتم كاتوف : « الكرامة الانسانية » وقد عادت الى خاطره المقابلة التى تمت بين كيو وكونيج · وكف كل من الماثلين للاعدام عن الكلام · وفيما وراء شعلة المصباح ، فى الظلمة التى أطبقت الآن تماما ، لم تنقطع جلبة الجروح — وازداد اقترابا من سوين ورفيقه ، وكان أحد الحراس يروى قصة لزملائه : فكانوا برءوسهم المجتمعة يحولون بين المصباح والماثلين للاعدام الذين لم يعد من الممكن أن يرى بعضهم بعضا · وعلى الرغم من الجلبة ، وعلى الرغم من كل أولئك الرجال الذين قاتلوا مثله ، كان كاتوف وحيدا ·· وحيدا بين جثة صديقه الميت ، ورفيقيه المذعورين ·· وحيدا بين هذا الجدار ، وذاك الصفير المتبدد فى الليل · بيد أن الانسان يستطيع أن يكون أقوى من هذه الوحدة ، بل ربما استطاع أن يكون أقوى من هذا الصفير البشع : كان الخوف فى نفسه يصارع ضد أفظع اغواء فى حياته · وفتح بدوره قفل حزامه · وأخيرا قال بصوت منخفض جدا : « أنت ، يا من هناك ·· سوين ، ضع راحتك على صدرى ، وخذه منى حين ألمسه : اننى أريد أن أعطيك ما عندى من السيانور ··· انه لا يكفى الا اثنين فقط · »

كان قد زهد فى كل شىء ، الا فى أن يقول ان السيانور يكفى لاثنين فقط ، وحطم قطعة السيانور الى نصفين ، وهو راقد على جنبه · وحجب الحراس الضوء الذين كانت تحيط بهم هالته المضطربة ، ولكن ، ألن يتحركوا ؟ من المحال أن يرى المرء شيئا ، وكان كاتوف يقدم هذه الهبة التى هى أثمن من حياته لتلك اليد الدافئة التى استقرت عليه ، لا الى أجسام ، ولا الى أصوات · وتقلصت كأنها حيوان ، وانفصلت عنه على الفور · وانتظر ، وقد توتر جسده كله ·· وفجأة ، سمع أحد الصوتين :

— « لقد ضاعت ·· سقطت · »

ولم تكد اللهفة تغير شيئا من هذا الصوت ، وكأن هذه الكارثة الحاسمة الفاجعة ، لم تكن ممكنة ، وكأن كل شيء كان يمكن علاجه • أما بالنسبة لكاتوف ، فقد كان الأمر محالا •• وتصاعد غضب لا حدود له داخل نفسه ، ولكنه لم يلبث أن هدأ ، وقد تغلبت عليه هذه الاستحالة • ومع ذلك ! كيف يخطئ « هذا » لكي يفقده هذه الأبله !

وسأل : « أين ؟ »

ـ « قبل جسدي •• لم أستطع أن أمسك به حين ناولني اياه سوين : ان يدي جريحة أيضا • » .

قال سوين : « لقد أسقط الجزءين • »

لاشك أنهم سيبحثون في المكان الممتد بينهم •• وبحثوا بعد ذلك بين كاتوف وسوين ، الذي كان يرقد عليه الآخر تقريبا ، اذ كان كاتوف يشعر دون ان يرى شيئا أن كتلة الجسدين قريبة منه • وأخذ يبحث هو أيضا ، جاهدا في التغلب على عصبيته ، وفي وضع يده منبسطة على الأرض من عشرة سنتيمترات ، الى عشرة سنتيمترات ، وفي كل مكان يستطيع أن يبلغه • ومست أيديهمـا يده • وفجـأة أمسكت بها احداهمـا ، وضغطت عليه ، واحتفظت بها •

وقال أحد الاصوات : « وحتى لو لم نجد شيئا ••• »

وضغط كاتوف هو أيضا على اليد ، وقد أوشك على البكاء ، متأثرا بهذه الأخوة المسكينة التي لا وجه لها ، ولا صوت حقيقي لها تقريبا ( فان أنواع التهامس جميعا متشابهة ) وهي التي منحت له في هذا الكلام نظير أعظم هبة قدمها في حياته ، وربما قدمها عبثا • ومع أن سوين واصل بحثه ، فان اليدين ظلتا متحدتين • وتحول الضغط فجأة الى تشبث :

ـ « ها هي ذي • »

يا للعبث ! •• ولكن ! سأل الآخر :

ـ « هل انت متأكد من أنها ليست حصاة ؟ »

لقد كان على الأرض قطع كثيرة من الجص •

قال كاتوف : « اعطنيها ! »

وبأطراف أصابعه ، تعرف على شكليهما ٠

وناوله اياهما ـ ردهما اليه ـ وضغط بقوة أشد على اليد التي كانت تبحث من جديد عن يده ، وانتظر ، وقد ارتجفت كتفاه ، واصطكت أسنانه ، وخطر له : « حبذا لو أن السيانور لم يتحلل على الرغم من الورقة المفضضة !» وفجأة لوت اليد التي يمسك بها يده ، فكأنه قد اتصل خلالها بالجسم الغائب في الظلام ، وأحس أن هذا الجسم متوتر ٠ وتاق الى مثل هـــذا الاختناق التشنجي ٠ وفي نفس هذه اللحظة تقريبا ، انطلقت من الآخر صرخة مكتومة لم يلحظها أحد ٠٠ ثم ، لا شيء ٠

وأحس كاتوف أنه مهجور ٠ فانبطح على بطنه ، وانتظر ٠٠ دون أن تنقطع الرجفة التي أصابت كتفيه ٠

وفي منتصف الليل ، عاد الضابط ٠ وبين صليل الأسلحة المتصادمة ، اقترب ستة جنود من المحكوم عليهم بالاعدام ٠ لقد استيقظ المعتقلون جميعا ٠ ولم يظهر المصباح الجديد بدوره غير صور طويلة مختلطة ـ قبور في الأرض المقلوبة فعلا ـ وومضات عــلى بعض العيون ٠ وكان كاتوف قد تمكن من النهوض ٠ وأخذ الجندي الذي يقود هذه الكوكبة من الحرس ، بذراع كيو ، فأحس بتصلبها ، فأمسك بسوين على الفور ، وكان ذاك متصلبا أيضا ٠٠٠ وانتشر اللغط من أول صفوف المعتقلين الى آخرها ٠٠ وأمسك قائد الكوكبة بقدم الأول ورفع ساقه ثم ســاق الثاني ، ولكنهما سقطتا ، متصلبتين ٠ فنادى الضابط الذي صنع مثل صنيعه ٠٠ وتضخمت الضجة بين صفوف المعتقلين ونظر الضابط الى كاتوف :

ـ « موتى ؟ »

لمــاذا يجيبه ؟

ـ « اعزلوا أقرب ستة من المساجين ! »

فأجاب كاتوف : « لا فائدة ، فانا الذي أعطيتهما السيانور ٠ »

وتردد الضابط ثم سأله أخيرا : « وأنت ؟ »

فأجاب كاتوف في سرور عميق : « لم يكن هناك الا ما يكفي لاثنين ٠

وخطر له : « سأتلقى الآن ضربة بكعب البندقية فى وجهى • »

وتحول لغط المساجين الى صخب •

وقال الضابط : « هيا • فلنسر • » ولم يضف شيئا الى ذلك •

ولم ينس « كاتوف » أنه قد حكم عليه بالاعدام فعلا ، وأنه أبصر المدافع الرشاشة مصوبة نحوه ، وأنه استمع اليها حين أطلقت ••• « ما أن أصبح فى الخارج ، حتى أحاول ان أخنق واحدا منهم ، وسأترك يدى مطبقتين عليه حتى يضطروا الى قتلى •• وسيحرقوننى ، ولكننى سأكون ميتا حينذاك • » وفى هذه اللحظة نفسها لف احد الجنود ذراعه حول جسم كاتوف ، بينما شد آخر يديه خلف ظهره ، وربطهما • وحدث نفسه قائلا : « ما أسعد حظ هذين الصغيرين ! هيا ! فلنفترض أننى مت أثناء اشتعال حريق ! » وشرع فى المسير • واطبق الصمت مرة أخرى كانه فخ ، على الرغم من التأوهات• وسلطت شعلة المصباح ــ كما فعلت ذلك منذ لحظة على الجدار الأبيض ــ ظل كاتوف الذى أصبح الآن حالك السواد على النوافذ الكبيرة التى تطل على الليل ، وكان يمشى متثاقلا ، يقدم ساقا وراء أخرى ، تعوقه جروحه عن المسير ، وحين كان تمايله يقترب من المصباح ، كان طيف رأسه يتبدد فى السقف • وكانت ظلمة القاعة كلها قد شاعت فيها الحياة ، وأخذت تتابعه بنظراتها خطوة خطوة • وساد السكون الى درجة أن الأرض كانت ترن كلما وطئتها قدمه ، وطفقت الرءوس التى تهتز من أعلى الى أسفل ، تتابع ايقاع خطواته ، بشعور من الحب ، والذعر ، والاستسلام وكأن كل امرىء ــ رغم تشابه حركات الجميع ــ يكشف عن نفسه وهو يتتبع هذا الرحيل المترنح • وظل الجميع مرفوعى الرءوس : وأغلق الباب من جديد •

وبدأت تصعد من الأرض جلبة من الأنفاس العميقة ، هى بعينها جلبة أنفاس النوم : لقد كان جميع أولئك الذين لم يموتوا بعد ، وهم لا يبدون الآن حراكا ، وانما يتنفسون من أنوفهم ، وقد التصقت من القلق أفكاكهم ، ينتظرون الصفير •

## اليوم التالى

ظل چيسور ينظر الى غليونه ، ما يزيد على خمس دقائق • وأمامه ، كان

المصباح موقدا « هذا لا يلزم المرء بشيء » وصندوق الأفيون الصغير مفتوحا .
والابر ممسوحة . وفي الخارج ، كان الليل . وفي الحجرة ، كان ضوء
المصباح الصغير ، ومستطيل كبير من النور ، هو باب الحجرة المجاورة مفتوحا
حيث حملوا جثة كيو . وكان الفناء قد أخلى لآخرين ممن أعدموا ، ولم يكن
ثمة من يعترض على أن تؤخذ الجثث التي تلقى في الخارج . ولم يعثر أحد
على جثة كاتوف . وقد أحضرت « ماى » جثة كيو ، متخذة من الاحتياطات ،
ما تتخذه مع جريح شديد الاصابات . كان هناك ممددا .. ولم يكن رزينا ـ
كما كان كيو قبل أن ينتحر ، يعتقد أنه سيكون ، بل كان متشنجا بسبب
الاختناق ، شيئا آخر مختلفا عن الانسان . ومشطته ماى قبل زينته الجنائزية ،
وهي تتحدث بفكرها الى الحضرة الأخيرة لهذا الوجه بكلمات الأمومة الهائلة ،
دون أن تجسر على النطق بها ، خوفا من أن تسمعها هي نفسها . وتمتمت
قائلة : « يا حبي » وكأنها تقول : « يا جسدى » اذ كانت تعرف جيدا أنه
ليس شيئا غريبا ، بل جزءا من ذات نفسها ، انتزع منها ، « يا حياتي .. »
وفطنت الى أنها تقول ذلك لميت ، بيد أنها كانت قد تجاوزت ـ منذ وقت
طويل ـ مرحلة الدموع ..

وراود جيسور هذا الخاطر : « كل ألم لا يساعد أحدا ألم لا معنى له . »
وكان في حالة من حالات الحذر وقد سحره مصباحه ، لائذا بذلك الافتتان .
« ان السلام هناك ... السلام » ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يمد يده . وكان
لا يؤمن بأى حياة بعد الموت ، كما لم يكن يضمر أى اجلال للموتى ، ومع ذلك
لم يجرؤ على أن يمد يده .

واقتربت منه ، وقد لان ثغرها ، وغرق في هذا الوجه الغائب النظرة ..
ووضعت أصابعها في رفق على معصمه .

قالت بصوت قلق يوشك أن يكون همسا : « تعال .. يبدو لى أنه قد
استدفأ قليلا ... »

وبحث عن عينى هــذا الوجه الانساني الذى اشتد به الألم ، دون أن
يدركه الشرود قط . ونظرت اليه بلا ارتباك ، نظرة الأمل فيها أقــل من
الضراعة ، ذلك أن آثار السم غير يقينية دائما ، وقد كانت طبيبة . ونهض ،
ثم تبعها ، وهو يذود عن نفسه أملا بلغ من القوة بحيث خيــل اليه أنه لو

استسلم له ، فانه لن يستطيع احتمال استرداده منه · وجس جبهة كيو التى عاثتها الزرقة ، وهذه الجبهة التى لن تحمل تجاعيد أبدا ·· كانت باردة ، برودة الموت التى لا لبس فيها · ولم يجرؤ على أن يسحب أصابعه ، وأن يلتقى بنظرة ماى ، فترك عينيه مثبتتين على راحة كيو المفتوحة ، هناك بدأت بعض الخطوط تنمحى فعلاً ··

قال : « كلا » عائدا الى حزنه العميق الذي لم يكن قد فارقه · ولاحظ انه لم يكن قد صدق ماى · وأجابته :

ـ « وا حسرتاه ! » دون أن تضيف شيئا آخر ·

ورأته ينصرف الى الحجرة المجاورة ، مترددا · فيم يفكر ؟ ما دام كيو هنا ، فان كل تفكير يجب أن يدور حوله · ان هذه الميتة كانت تتوقع منها شيئا ما ، اجابة تجهلها، ولكنها مع ذلك موجودة · يا لحظ الآخرين الخسيس، بصلواتهم ، وزهورهم الجنائزية ! اجابة تعدو القلق الذى ينتزع من يديها ضمات الأمومة التى لم يتلقاها أى طفل منها ، اجابة أعمق من هـذا النداء الرهيب الذى يدفع به المرء الى محادثة الموتى بأرق صور الحياة · ان هـذا الفم الذى قال لها بالأمس : « ظننت أنك ميتة » لن يتكلم بعد الآن أبدا ، وما كان ينبغى أن تدخل فى تواصل مع ما تبقى هنا من حياة بائسة ·· مع جسد ، بل مع الموت نفسه · وظلت هناك ، بلا حراك ، تنتزع من ذكرياتها آلام احتضار عديدة سبق أن تأملها فى اذعان ، وقد سرت فى نفسها سلبية شاملة وهى ترحب فى وحشية بالعدم ترحيبا لا جدوى منه ·

واستلقى « جيسور » من جديد على الأريكة · « ثم ينبغى أن أستيقظ فيما بعد ··· » الى متى سيحمل اليه كل نهار هذا الموت من جديد ؟ كان الفليون هناك : يمثل السلام · ما عليه الا أن يمد يده ، ليعد الكرة الصغيرة ، وسيفكر بعد ربع ساعة فى الموت نفسه بعدم اكتراث بسماحة لا حد لها ، كما يفكر في مشلول يريد أن يوقع به الأذى · فلن يكون فى استطاعة الموت أن يبلغه ، وانما سيفقد كل سيطرة ، ينسل فى رفق نحو الطمأنينة التى تشمل الكون كله · كان التحرر هناك ·· قريبا غاية القرب · ما من معونة يمكن أن تمنح للموتى · فلماذا نزداد عذابا ؟ وهل الألم قربان للحب ، أم للخوف ؟ ·· غير انه ظل لا يجرؤ على أن يلمس الصينية ، وراح القلق يعتصر

حلقه فى نفس الوقت الذى اعتصرته فيه الرغبة والشهقات المكبوتة • وامسك اعتباطا أول كتيب صادفه ( لم يكن يمس أبدا كتب كيو ، ولكنه كان يعلم أن كيو لن يقرؤها) وكان عددا من مجلة «سياسة بكين» قد سقط عندما أحضروا الجثة ــ وفى هذا العدد كان نص المحاضرة التى طرد چيسور بسببها من الجامعة • وعلى الهامش ، وجد كتابة خطها كيو : « هذه المحاضرة هى محاضرة أبى • » ولم يخبره كيو قط أنه كان يوافق عليها • وطوى چيسور المجلة فى رفق ، وتأمل أمله الميت •

وفتح الباب ، وقذف بالأفيون فى الظلام ، ثم عاد الى الجلوس ، خفيض الكتفين ، منتظرا الفجر ، منتظرا أن يخفت صوت الألم نتيجة لاستنفاده فى الحوار الدائر بينه وبين نفسه ، ألمه •• وعلى الرغم من العذاب الذى فتح فمه ، وأبدل قناعه الرزين بوجه ذاهل ، فانه لم يفقد كل سيطرة علىّ نفسه • وفى هذه الليلة ، تغيرت حياته : فان قوة الفكر ليست عظيمة حيال التغير الذى يمكن أن يفرضه الموت على انسان ما • ولقد رد الى نفسه من الآن فصاعدا •• ولم يعد للعالم معنى ، بل لم يعد له وجود : سكون بلا رجعة ، هناك ، الى جانب هذ الجسد الذى كان معقد الصلة بينه وبين الكون •• سكون أشبه بانتحار الآله • لم ينتظر من كيو نجاحا أو سعادة ، ولكن ، ماذا يكون العالم اذا خلا من كيو ؟ « لقد قذف بى خارج الزمان » ، لقد كان الابن خضوعا للزمان ، لتدفق الأشياء ، ولقد كان چيسور بلاشك أملا ، كما كان قلقا : أملا فى لاشىء •••انتظارا•••وكان ينبغىأن يتحطم حبه ، لكى يكتشف هذا • ومع ذلك ، كان كل ما يحطمه يجد لديه ترحيبا تهما ! « ثمة شىء جميل فى أن يموت الانسان » بهذا حدث نفسه • وأحس بالألم الجوهرى يرتعش فى نفسه ، لا ذلك الألم الذى يأتى من الكائنات أو من الأشياء ، بل الألم الذى ينبع من الانسان نفسه ، والذى تحاول الحيــاة أن تنتزعها منه ، وكان يستطيع أن يتحاشاه • ولكن على شرط أن ينقطع عن التفكير فيه ، بيد أنه كان يغوص فيه أكثر فأكثر ، وكأن هذا التأمل المذعور هو الصوت الوحيد الذى كان يمكن أن يسمعه الموت ، كأن هذا الألم لكونه انسانا ، والذى ملأه الى أعماق فؤاده كان الخطاب الوحيد الخليق بأن تسمعه جثة ابنه المقتول •

# الجزء السابع

**باريس ، يوليو**

كان فيرال يروح بالصحيفة التى هوجم فيها الاتحاد أعنف هجوم ، حين وصل آخر الوافدين الى حجرة انتظار وزير المالية • وبين جماعات المنتظرين كان يجلس المدير المساعد للحركة العامة للأرصدة ، ( كان شقيق فيرال قد مرض ـ بحكمة ـ فى الأسبوع السابق ) ـ ومندوب بنك فرنسا ، ومندوب البنك الرئيسى للشئون الفرنسية ، ومندوبى مؤسسات التسليف • وكان فيرال يعرفهم جميعا : فهذا ابن فلان وهذا صهر فلان ، وهؤلاء من الموظفين السابقين فى التفتيش المالى وفى الحركة العامة للأرصدة ، وكانت العلاقة بين الدولة والمؤسسات أوثق من ألا تدفع هذه المؤسسات الى الافادة من ارتباطها بموظفين يجدون لدى زملائهم القدامى ترحيبا مواتيا• ولاحظ فيرال دهشتهم: فقد كان من مقتضيات العرف أن يصل قبلهم ، وحين لم يروه هناك ، ظنوا أنه لم يستدع للاجتماع • أما أن يسمح لنفسه بالحضور آخرهم ، فكان شيئا أدهشهم • وكان كل شىء يفصـــل بينهم : رأيه فيهم ، ورأيهم فيه ، وطريقتهم فى ارتداء ملابسهم : فقد كانوا جميعا تقريبا يرتدون ثيابهم فى اهمال لا شخصى ، أما فيرال فكان يرتدى بذلته الخليطة الموشاة ، وقميصا من الحرير الرمادى ذا ياقة لينة من شـــنتهاى • ومجمل القول انهما كانا جنسين مختلفين •

*

وأدخلوا لدى الوزير على الفور تقريبا •

وكان فيرال يعرف الوزير معرفة سطحية •• أيرجع هـذا التعبير على الوجه الذى ينتمي الى عصر آخر الى شعره الأبيض الكثيف كشعر «الباروكة» الشائعة فى عصرالوصاية ؟ ان هذا الوجه الدقيق الملامح ذا العينين الصافيتين، وهذه الابتسامة البالغة الحفاوة ـ ( فقد كان برلمانيا قديما ) تتفق مع شهرته كوزير لبق ، وهى شـهرة توازى شهرة اندفاعه حين يسـيطر عليه مزاجه النابليونى • وبينما كان كل امرىء يتخذ مجلسه ، طرقت خاطر « فيرال » حكاية شهيرة : « عندما كان الوزير وزيرا للخارجية ، هز ذات مرة أذيال سترة مبعوث فرنسا الى مراكش ، وفجأة تمزق ظهر السترة ، فقرع الجرس قائلا : « احضروا احدى ستراتى للسيد • » ثم قرع الجرس مرة ثانية فى اللحظة التي اختفي فيها الحاجب وقال : « أقدم سترة • لأنه لا يســتحق

سواها . » وكان وجهه غاية فى الجاذبية لولا نظرة يبدو آنها تنكر ما يعد به فمه : وكانت احدى عينيه من الزجاج اثر اصابته فى حادث .

وانتظم مجلسهم : مدير الحركة العامة للأرصدة على يمين الوزير ، وفيرال على يساره ، أما المندوبون فعلى أريكة فى مؤخرة المكتب .

قال الوزير : « تعرفون أيها السادة لماذا دعوتكم لهذا الاجتماع . وليس من شك فى أنكم قد درستم المسألة . واترك لمسيو فيرال أن يلخصها لكم ، وأن يعرض عليكم وجهة نظره . »

وانتظر المندوبون فى صبر أن يقص عليهم فيرال ـ كما جرت العادة ـ بعض النوادر .

قال فيرال : « أيها السادة ، من المألوف فى اجتماع كهذا ، أن يقدم المرء تقارير متفائلة . وتحت أعينكم تقرير التفتيش المالى ، ان موقف الاتحاد ـ من الوجهة العملية ـ أسوأ مما ينبىء به هذا التقرير . ولن أقدم لكم أبوابا متضخمة ، أو قروضا مشكوكا فيها . ومن الواضح أنكم تعلمون خسائر الاتحاد ، وأحب أن أوجه اهتمامكم الى جانبين من المكاسب لا يمكن أن يشير اليهما أى تقرير ، وباسمهما تطلب معونتكم .

الجانب الأول هو أن الاتحاد يمثل العمل الفرنسى الوحيد من نوعه فى الشرق الأقصى . وحتى فى عجزه ، ولو أشرف على الافلاس ، سيظل بناؤه سليما . ان شبكات عملائه وفروع تجارته للبيع أو الشراء داخل الصين ، والصلات المستقرة بين شراته الصينيين وشركاته الانتاجية فى الهند الصينية ، كل هذا « باق » ويمكن بقاؤه . ولا أغالى اذا قلت ان نصف تجار «يانجستى» يعتقدون أن فرنسا هى الاتحاد ، كما أن اليابان هى « ميتسوبيشى وشركاه » وأنتم تعلمون أنه من الممكن مقارنة منظمتنا من حيث الاتساع بشركة ستاندارد اويل . وفضلا عن ذلك فان الثورة الصينية لن تكون أبدية .

والنقطة الثانية هى أنه بفضل الروابط التى تجمع بين الاتحاد وبين شطر كبير من أصحاب التجارة الصينية ، قد شاركت بأشد الطرق فعالية فى استيلاء الجنرال تشانج ـ كاى ـ شيك على السلطة . وبهذا أصبح من المؤكد منذ الآن أن ذلك المشروع الخاص بمد السكك الحديدية الصينية التى نصت

الاتفاقيات على أن يكون من نصيب فرنسا انما سيعهد به الى الاتحاد ... وهذه مسألة تدركون أهميتها ، وعلى هذا الأساس أطلب منكم الموافقة على تقديم المعونة التي يطلبها الاتحاد منكم ، بسبب ما تثبت وجوده ، يبدو لى وجيها أن أتمنى ألا تختفى من آسيا المنظمة القوية الوحيدة التى تمثل بلدنا – حتى ولو خرجت من الأيدى التى أسستها . »

ومضى المندوبون يفحصون فى عناية ذلك التقرير الذي سبق أن أحاطوا به ، والذى ما كان يضيف الى معلوماتهم شيئا جديدا : فلقد كان كل منهم ينتظر أن يتكلم الوزير ، وتكلم الوزير فقال :

« ليس من مصلحة الدولة فحسب ، بل من مصلحة المؤسسات أيضا ألا تصاب الثقة . وسقوط منظمات مهمة مثل بنك الصين الصناعى ، والاتحاد ، لا يمكن الا أن يكون ضاراً للجميع . »

كان يتحدث بتبلد ، متكئا على ظهر مقعده ، شارد النظرة ، وهو يداعب بطرف قلمه « النشافة » الموضوعة أمامه . وانتظر المندوبون أن يزداد موقفه تحديدا .

قال مندوب بنك فرنسا : « هل يسمح سيدى الوزير بأن أعرض عليكم رأيا يختلف قليلاً ؟ اننى الوحيد هنا الذى لا يمثل بنكا للقروض ، وبالتالى فلست متحيزا ، ستعمل الصدمات خلال بضعة شهور ، على التقليل من الودائع ، هذا حق ، غير أنه بعد ستة شهور ، ستعود المبالغ المسحوبة آليا ، ولاسيما الى تلك المؤسسات الرئيسية التى تقدم ضمانات أكبر . وربما كان انهيار الاتحاد – الذى هو أبعد ما يكون عن الضرر بالنسبة للبنوك التى يمثلها هؤلاء السادة – ربما كان اهم على العكس من ذلك ، مفيدا ... »

– « مع هذا الفارق ، وهو أنه من التهور اللعب بالأرصدة . فان افلاس خمسة عشر بنكا من بنوك الأقاليم لن يكون مفيدا للمؤسسات ، حتى ولو لم يكن ذلك الا بسبب الاجراءات السياسية التى سيؤدى اليها هذا الافلاس . »

وقال فيرال لنفسه : « هذا كله كلام لا يقول شيئا اللهم الا أن بنك فرنسا يخاف من الارتباط ، وانه سيدفع اذا دفعت المؤسسات . »

وساد الصمت .. والتقت نظرة الوزير المتسائلة بنظرة أحد المندوبين :

وجه ضابط من ضباط الفرسان ، ونظرة ملحة ، على أهبة اللوم ، وصوت واضح :

ـ « وعلى عكس ما نصادفه عادة فى مثل المحادثات التى تجمعنا ، يجب ان أقول اننى أقل تشاؤما من السيد فيرال حول مجموع أبواب التقرير الذى قدم لنا • ان موقف بنوك الجماعة مهدد بكارثة ، هذا حق ، غير أن بعض الشركات يمكن الدفاع عنها ، حتى فى صورتها الحالية • »

قال فيرال : « انه العمل فى مجموعه ذلك الذى أسألكم الابقاء عليه • فاذا تحطم الاتحاد ، فقدت أعماله كل معنى بالنسبة لفرنسا • »

وقال مندوب آخر له وجه نحيف مرهف : « على العكس ، ان السيد فيرال يبدو لى متفائلا على الرغم من كل شىء ، فيما يتعلق بالأرصدة الرئيسية للاتحاد •• والقروض لم تستبعد بعد • »

وكان ينظر أثناء حديثه الى قلابة سترة فيرال ، وتابع هذا نظرته حائرا ، وانتهى به الأمر الى الفهم : انه الوحيد الذى لم يضع أوسمته •• عن عمد • وكان محدثه من حملة وسام الشرف ( كوماندور ) ولهذا أخذ ينظر فى عداء الى هذه العروة التى تزدريه • ولم يكن فيرال ينتظر قط أى تقدير لغير قوته •

قال : « أنتم تعلمون أنها ستستبعد •• تستبعد وتغطى • وهـــذا يعنى البنوك الأمريكية لا عملاءها الذين سيأخذون ما نجعلهم يأخذونه • »

ـ « فلنفترض ذلك •• واذا غطى القرض ، فمن يضمن لنا انشاء السكك الحديدية ؟ »

قال فيرال فى شىء من الدهشة ( لم يكن من الممكن أن يجهل محدثه ما أزمع أن يجيبه به ) :

ـ « ولكن من المفروغ منه أن الشطر الأكبر من الأرصـــدة لن يدفع الى الحكومة الصينية ، وانما سيذهب مباشرة من البنوك الأمريكية الى الشركات المكلفة بتصنيع المواد ، هذا شىء واضح • والا هل تعتقدون أن الأمريكيين سيقدمون القرض ؟ »

ـ « طبعا •• غير أنه من الممكن أن يقتل تشانج ـ كاى ـ شيك أو أن

يهزم ، واذا بعثت البلشفية من جديد ، لن يتم اصدار القرض • ومن جهتى أنا ، لا أعتقد أن تشانج ـ كاى ـ شيك سيظل قائما بالسلطة • ومعلوماتنا تؤكد أن سقوطه وشيك • »

وأجاب فيرال : « لقد سحق الشيوعيون في كل مكان •• وقد غادر بورودين لتوه هان ـ كيو وعاد الى موسكو • »

ـ « الشيوعيون •• بلا شك ، ولكن ، ليست الشيوعية على الاطلاق • لن تعود الصين أبدا الى ما كانت عليه ، وبعد انتصار تشانج ـ كاى ـ شيك، ما زال هناك خطر أمواج جديدة للشيوعيين ••• »

ـ « رأيى أنه سيظل فى السلطة بعد عشر سنوات أخرى : ولكن ، ما من مشروع لا ينطوى على شيء من المخاطرة • »

وجال فى خاطره : ( لا تستمعوا الا الى شجاعتكم ، التى لا تنصحكم بشيء أبدا • وتركيا ، حين لم تعد درهما واحدا اليكم ، وراحت تشترى بأموالكم مدافع للحرب ؟ انكم لا تستطيعون أن تقوموا وحدكم بمشروع واحد عظيم • وحين تنتهى ألاعيبكم القذرة مع الدولة ، تحسبون جبنكم حكمة ، وتظنون أنه يكفيكم أن تكونوا بلا أذرع لكى تصبحوا « فينوس ميلو » •• وهـذه مغالاة • )

وقال بصوت عذب مندوب شاب مجعد الشعر : « لو ظل تشانج ـ كاى ـ شيك مسيطرا على الحكومة ، فسوف تسترد الصين استقلالها الجمركى • فمن يضمن لنا ـ حتى لو وافقنا على كل ما يفترضه السيد فيرال ـ أن نشاطه فى الصين لن يفقد كل قيمته فى اليوم الذى فيه تكفى بعض القوانين الصينية لاعدامه ؟ وهناك أجوبة عديدة يمكن أن تقدم عن هذا السؤال ، على ما أعرف •• » فقال فيرال : « أجل •• عديدة • »

وأجاب المندوب الذى له وجه ضابط : « ومع ذلك ، يظل هذا المشروع غير يقينى ، أو حتى لو افترضنا أنه لا ينطوى على أية مخاطرة ، فلابد له من قرض طويل الأجل ، والحقيقة أنه يقتضى مشاركة فى مسألة تستمر طيلة العمر •• ونحن نعرف جميعا كيف اوشك مسيو « جرمان » على أن يقود « الكريدى ليونيه » الى الخراب لاهتمامه بشركة ( ألوان أنيلين ) ، وان تكن

من أفضل المشروعات الفرنسية • ووظيفتنا ليست المشاركة فى صفقات ، وانما اقراض الأموال على أساس ضمانات ، ولأجل قصير • أما فيما عدا ذلك، فالكلمة ليست لنا ، بل للبنوك التجارية • »

وساد الصمت من جديد •• صمت طويل هذه المرة •

وكان فيرال يفكر فى الأسباب التى دعت الوزير الى عدم التدخل • كان الجميع ، وهو نفسه ــ يتحدثون بلغة تقليدية منمقة ، شبيهة بلغات الطقوس الآسيوية : فليس غريبا أن يكون كل شيء صينيا • أجل ، من الواضح جدا أن ضمانات الاتحاد غير كافية والا ، فما معنى وجوده هنا ؟ ومنذ أن قامت الحرب ، بلغت الخسائر التى احتملها التوفير الفرنسى ( وقال لنفسه : « كما تقول صحف التشهير : وكان الغضب يمده بالحرارة ) الذى اكتتب فى الأسهم والسندات الخاصة بالصفقات التجارية التى أوصت بها المؤسسات والبنوك التجارية الكبرى ــ حوالى أربعين مليارا ــ أى ما يزيد على اتفاقية فرانكفورت • كانت الصفقة الرديئة تدفع نسبة سمسرة أكبر من الصفقة الجيدة ، هذا كل ما فى الأمر • ولكن لم يكن بد من أن تعرض هذه الصفقة الرديئة على المؤسسات بوساطة واحد من أهلها ؟ انهم لن يدفعوا الا اذا تدخل الوزير رسميا ، لأن فيرال لم يكن واحدا منهم • فهو غير متزوج ، وتدور حوله قصص نسائية ، ويقال انه من مدمنى الأفيون ، وقد احتقر وسام جوقة الشرف ( اللجيون دونير ) • وربما كان متكبرا الى درجة لا تسمح به بأن يكون مترافقا أو منافقا • ولعل الفردية العظيمة لا يمكن أن تنمو نموا كاملا الا على سماد من النفاق : ولم يصل بورجيا الى منصب البابا مصادفة•• ولم يكن كبار الفرديين يتجولون وسط الثوريين الفرنسيين المنتشين بالفضيلة فى أواخر القرن التاسع عشر ، بل فى عصر النهضة ، فى بناء اجتماعى هو المسيحية ، بكل تأكيد ••

قال أكبر المندوبين سنا وهو يمضغ فى آن واحد المقاطع وشاربه القصير الأبيض كشعره المتموج : « سيدى الوزير ، أما أننا على استعداد لاعانة الدولة فهذا شيء لا يحتاج الى فضل بيان •• مفهوم •• وأنتم تعلمون ذلك • »

وسحب مونوكله ، وتحولت حركات يديه ذات الأصابع المتباعدة قليلا الى حركات رجل أعمى •

ـ « ولكن ، مع ذلك ينبغي أن نعرف الى أى مدى . ولا أقول ان كلا منا لا يستطيع أن يتولى تقديم خمسة ملايين .. حسن . »

وهز الوزير كتفيه هزة غير ملحوظة .

ـ « ولكن ، ليست هذه هى المسألة ، مادام ينبغى على الاتحاد أن يدفع على الأقل ٢٥٠ مليونا من الودائع . ماذا اذن ؟ ان كانت الدولة تعتقد أن أزمة على هذا القدر من الأهمية ستكون ضارة ، فانها تستطيع بنفسها أن تدبر الأموال ، وأولى منا بانقاذ المودعين الفرنسيين والمودعين الاناميين بنك فرنسا والحكومة العامة للهند الصينية ، اذ أن لنا نحن أيضا مودعينا وحملة أسهمنا . وكل منا جاء الى هنا ليمثل مؤسسته ... »

( وقال فيرال لنفسه : « من المفهوم أن الوزير لو أوضح أنه يصر على تدعيم الاتحاد ، فلن يكون ثمة مودعين أو حملة أسهم . )

ـ « ... من منا يمكن أن يؤكد أن حملة أسهمه يوافقون على قرض يهدف الى المحافظة على مؤسسة مزعزعة ؟ ان رأى حملة الأسهم ـ وليسوا وحدهم فى هذا الرأى ـ نعرفه جيدا ! يجب تطهير السوق ، وملاشاة الصفقات التى لا تقوى على الحياة . فالمحافظة عليها بصورة مصطنعة ـ هى أسوأ خدمة يمكن أن تسدى الى الجميع . وماذا يكون من شأن المنافسة الحرة التى تقوم عليها حياة التجارة الفرنسية ، لو تمت المحافظة على الصفقات الفاسدة بصورة آلية ؟ »

( وقال فيرال لنفسه : يا صديقى ، ان مؤسستك قد طالبت الدولة فى الشهر الاخير ، برفع التعريفة الجمركية بنسبة ٣٢٪ لتيسير المنافسة الحرة ، بلا شك ! )

ـ « ... والآن ؟ ان مهمتنا هى اقراض الأموال على ضمانات كما قيل بحق . والضمانات التى يقدمها لنا السيد فيرال .. لقد استمعتم الى السيد فيرال نفسه ، فهل تريد الدولة أن تحل محل السيد فيرال هنا ، وأن تعطينا الضمانات نظير موافقتنا على منح الاتحاد الأموال التى يحتاج اليها ؟ وبعبارة موجزة ، هل تهيب الدولة ـ دون تقديم أى تعويض ـ بولائنا ، أم أن الدولة تطلب منا ـ هى لا السيد فيرال ـ أن نيسر عملية مالية ، ولو كانت طويلة الأجل فى الحالة الاولى ، ولاؤنا للدولة أمر مفروغ منه ـ أليس كذلك ؟

ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا اخيرا حملة اسهمنا ، وفى الحالة الثانية ، ما هى الضمانات التى تقدمها لنا ؟ » .

وحدث فيرال نفسه قائلا : « لغة تكتنفها « الشفرة » التامة . ولو لم نكن مستغرقين فى تمثيل ملهاة لأجاب الوزير قائلا : « اننى أتذوق الفكاهة فى كلمة « ولاء » . ان جوهر مكاسبكم صادر عن علاقاتكم بالدولة . وأنتم تعيشون على السمسرة ، وهى وظيفة لها أهمية مؤسساتكم ، ولا تعيشون من عمل أو فعالية . ولقد أعطتكم الدولة هذه السنة مائة مليون بصورة أو بأخرى ، وستسترد منكم عشرين ، فباركوا باسمها ، وافرنقعوا . » ولكن لا وجود لأى خطر .. وأخرج الوزير من أحد أدراج مكتبه علبة من الحلوى « الكراملة » اللينة ، وأدارها على الحاضرين . فأكل كل واحد قطعة ماعدا فيرال . انه يعرف الآن ما يريده مندبو المؤسسات : الدفع ، ما دام من المحال مغادرة هذا المكتب دون أن يتنازلوا عن شىء ما للوزير ، ولكنهم يريدون أن يدفعوا أقل مبلغ ممكن . أما الوزير ... وانتظر فيرال ، واثقا من أنه ما زال يفكر : « ماذا كان يبدو على شوازيل أنه فاعل لو كان فى مكانى ؟ » يبدو : ان الوزير لا يطلب من عظماء المملكة دروسا فى الارادة .. وانما الوقار أو السخرية ؟ »

قال الوزير وهو ينقر المائدة نقرات خفيفة بقلمه : « السيد المدير المساعد للحركة العامة للأرصدة ، سيقول لكم ، مثلما أقول ــ اننى لا أستطيع اعطاءكم هذه الضمانات دون تصويت من البرلمان .. وقد جمعتكم أيها السادة لأن المسألة التى نناقشها تتعلق بهيبة فرنسا : فهل تعتقدون أن من وسائل الدفاع عنها طرح هذه المسألة أمام الرأى العام ؟ »

ــ « بلا شك .. بلا شك ــ ولكن ، اسمح لى يا سيدى الوزير ... »

صمت ، واستغرق المندوبون الذين كانوا يمضغون حلواهم فى حالة من حالات التأمل ليحتموا من لهجة اقليم « أوفرنى » التى أحسوا فجأة أنهم مهددون بها ، اذا فتحوا أفواههم . ونظر اليهم الوزير دون أن يبتسم واحدا وراء الآخر ، ونظر اليه فيرال ــ الذى كان يراه من جانب وجهه ذى العين الزجاجية ــ كما ينظر الى ببغاء بيضاء كبيرة ، جامدة عابسة وسط عدد من الطيور .

واستطرد الوزير قائلا : « ارى »سن أيها السادة ، أننا متفقون على هذه النقطة . ومهما كانت الطريقة التى نواجه بها هذه المشكلة ، فمن الضرورى تسديد الودائع . وستشارك الحكومة العامة للهند الصينية فى تدعيم الاتحاد بنسبة الخمس .. فما هو نصيبكم فى المساهمة ؟ »

ولاذ كل منهـم الآن بقطعته من الحلوى . وقال فـيرال لنفسه : « متعة صغيرة . انه يود أن يتلهى ، غير أن النتيجة واحـدة بدون الحلوى ... » وكان يدرك قيمة الحجة التى ساقها الوزير . وقد كان أخوه هو الذى رد على هؤلاء الذين يطلبون من الحركة العامة للأرصدة تحويلا دون تصويت من البرلمان : « لماذا لا أعطى لصديقتى العزيزة على الفور مائتى مليون ؟ »

فترة صمت .. أطول من فترات الصمت السابقة . وكان المندوبون يتهامسون فيما بينهم .

قال فيرال : « سيدى الوزير ، لو أن شئون الاتحاد السليمة عادت الى سابق عهدها ــ بصورة أو بأخرى ، ولو أن الودائع دفعت ، على أى الحالات، ألا تعتقدون أن ثمة مجالا لأن نتمنى بذل مجهود أعظم ولكن على ألا تستبعد منه المحافظة على الاتحاد ؟ أليس لوجود هيئة فرنسية على هذا المدى من الاتساع أهمية فى نظر الدولة تعادل أهمية بضع مئات من الملايين فى صورة ودائع ؟» فقال الوزير : « خمسة ملايين ليست رقما جادا ، أيها السادة . أينبغى على أن أهيب ــ بطريقة أشد الحاحا ــ بالولاء الذى تحدثتم عنه ؟ اننى أعرف انكم تتمسكون ومجالس ادارتكم تتمسك ، بتحاشى رقابة الدولة على البنوك . ألا تعتقدون أن انهيار مشروع كالاتحاد لا يدفع الرأى العام الى المطالبة بهذه الرقابة على النحو الذى يمكن أن تصبح به مستبدة ... بل ربما عاجلة ؟ »

وحدث فيرال نفسه قائلا : « مزيد من اللغة الصينية . فهذا معناه الوحيد هو : « كفوا عن اقتراح خمسة ملايين مضحكة . » والرقابة على البنوك تهديد لا معنى له حين تلوح به حكومة سياستها معارضة الاجراءات التى من هذا القبيـل . ولا يود الوزير أن يلجأ الى هـــذا الاجراء حقا بأكثر مما يريد المندوبون المسيطرون على وكالة هافاس شن حملة صحفية على الوزير . والدولة لا تستطيع أن تلعب لعبة خطرة ضد البنوك ، كما أن البنوك لا تريد أن تلعب مثل هذه اللعبة ضد الدولة ؛ ذلك لأن الدولة والبنوك متواطئة فى كل شىء :

نفس الموظفين ، نفس المصالح ، نفس السيكلوجية • وسيكون الصراع بينهما أشبه بالصراع بين رئيسى قلمين دار واحدة ، وهو صراع ـ من ناحية أخرى ـ يعود بالحياة على الدار ••• ولكن بصورة سيئة • وكما حدث له فى فندق « آستور » ، لم تنقذه الا ضرورة عدم اظهار الضعف ، أو أى غضب • ولكنه كان مهزوما : فانه حين جعل من الفعالية قيمته الجوهرية ، لم يعوض شيء وجوده ازاء هؤلاء الرجال الذين احتقر أشخاصهم وأساليبهم دائما ، فى هذا الموقف الذليل المهين • لقد كان أضعف منهم ، ومن ثم فان كل ما يفكر فيه ـ وفقا لمذهبه نفسه ـ قد أصبح باطلا •

قال أكبر المندوبين سنا : « سيدى الوزير ، نحن حريصون على أن نظهر مرة أخرى نوايانا الحسنة للدولة ، ولكن ، اذا لم تكن هناك ضمانات ، فنحن لا نستطيع ـ ازاء حملة أسهمنا ـ أن نواجه قرضا للاتحاد أعلى من الودائع الموجودة ، على أن يضمن القرض باشرافنا الذى نقوم به فى هذه الحالة على شئون الجماعة السليمة • ويعلم الله أننا لسنا حريصين على هذا الاشراف ، وانما نقوم به احتراما لمصلحة الدولة العليا ••• »

وقال فيرال لنفسه : « انه شخصية لا نظير لها حقا ، بهيئته التى تشبه هيئة أستاذ متقاعد تحول الى « أوديب » ضرير • وجميع البلهاء ، بل وفرنسا نفسها ، انما يلتمسون النصح لدى هؤلاء المديرين للوكالات ، واليهم تلقى أموال الدولة ـ كالجلد المسحوز ـ حين ينبغى مد سكك حديدية استراتيجية فى روسيا أو بولندا أو القطب الشمالى ! ومنذ أن قامت الحرب ، أضاعت هذه العصا الجالسة على الأريكة ـ أضاعت على المستثمرين الفرنسيين ثمانية عشر مليارا فى سندات الحكومة وحدها • حسن جدا : كما كان يقول منذ عشر سنوات: « ان كل من يطلب المشورة لاستغلال ثروته من شخص لايعرفه معرفة وثيقة ، لابد أن يحل به الخراب • » ثمانية عشر مليارا • فضلا عن أربعين مليارا ذهبت فى صفقات تجارية ، وفضلا عنى أنا أيضا •

قال الوزير : « مسيو داميرال • »

ـ « سيدى الوزير ، ليس بوسعى الا أن أنضم الى ما قيل على مسمعكم الآن •• ولا أستطيع ـ شأنى فى ذلك شأن « مسيو دى موريل » ـ أن أربط المؤسسة التى أمثلها دون الضمانات التى تحدث عنها • فلو أننى فعلت

ذلك ، لانتهكت المبادىء والتقاليد التى جعلت من هذه المؤسسة واحدة من أقوى المؤسسات فى أوروبا ، وهى مبادىء وتقاليد كثيرا ما هوجمت ، ولكنها تسمح لها بان تبذل ولاءها للدولة حين تهيب بها كما أهابت منذ خمسة أشهر، وكما تهيب بها اليوم ، وكما قد تهيب بها غدا ٠٠ وتكرار هذه النداءات ، وما عزمنا عليه من تلبيتها ـ هو ما يرغمنى ـ يا سيدى الوزير ـ على أن أطلب الضمانات التى تقتضى هذه المبادىء ، وتلك التقاليد ، على أن نؤكدها لحملة اسهمنا ، والتى بفضلها سمحت لنفسى أن أقول لكم ـ ياسيدى الوزير ـ اننــا تحت تصرفكم ٠٠٠ فليس من شك أننا نستطيع أن نسـهم بعشرين مليونا ٠ »

وتبادل المندوبون النظرات فى ذعر : ستسدد الودائع ٠٠ وفطن فيرال الآن الى ما أراده الوزير : ارضاء شقيقه دون التزام ، وتسديد الودائع ، وأن يجعل المؤسسات تدفع ، ولكن أقل مبالغ ممكنة ، واصدار بيان مرض٠ واتصلت المساومة ، سيتحطم الاتحــاد ، غير أن انهياره لا يهم الوزير اذا سددت الودائع ٠٠ وستحصل المؤسسات على الضمان الذي طلبته ( انها ستخسر مع ذلك ، ولكن خسائر قليلة ) ٠ وسيكون من الممكن المحافظة على بعض الأعمال ، على أن تصبح تابعة للمؤسسات ٠٠ أما الباقى ٠٠ ها هى ذى أحداث شنغهاى ستنحل الى شىء لا معنى له تماما ٠٠ وكان يفضل أن يشعر بأنه جرد من كل شىء ، وأن يرى عمله خارج يده حيا ، وان اغتصب أو سرق ٠ بيد أن الوزير لن يرى سوى الخوف الذى يعتمل فى نفسه من البرلمان ، ولن يمزق اليوم سترة أحد ٠ ولو كان فيرال فى مكانه ، لبدأ بتولى أمر اتحاد قد أصلح فساده ثم أبقى عليه بعد ذلك بأى ثمن ٠ أما المؤسسات، فلقد أكد دائما تخوفها الذى لا علاج له ٠ وانه ليذكر مزهوا كلمة قالها أحد خصومه : « ان فيرال يريد دائما أن يكون البنك دارا للمقامرة ٠ »

ودق جرس التلفون ، قريبا جدا ٠٠٠ ودخل أحد الملحقين :

ـ « سيدى الوزير ، رئيس مجلس الوزراء على الخط الخاص ٠ »

ـ « قل له ان الأمور تسير سيرا حسنا جدا ٠٠ كلا ، سأذهب بنفسى ٠ »

وخرج ، ثم عاد بعد لحظة ، وألقى نظرة استفهام على مندوب البنك الرئيسى للشئون الفرنسية ، وهو الوحيد الممثل هنا ، وكان لهذا المندوب

شارب مستقيم مواز لنظارته ، وصلعة ، وسحنة مرهقة ٠٠ ولم يكن قد تفوه بكلمة واحدة بعد ٠

قال متمهلا : « ان الابقاء على الاتحـــاد لا يهمنا بأى حال من الأحوال ، والمشاركة فى السكك الحديدية أمر تؤكده الاتفاقيات لفرنسا ٠ واذا سقط الاتحاد ، فان شركة أخرى سوف تتكون أو سوف تنمو لتحل محله ٠ »

قال فيرال : « وهذه الشركة الجديدة ، بدلا من نهوضها بتصنيع الهند الصينية سوف تقوم بتوزيع الأرباح ٠ ولكنها ، مادام لـم يسبق لها ان فعلت شيئا لتشانج ـ كاى ـ شيك فسوف تجد نفسها فى نفس الموقف الذى تجودن فيه أنفسكم اذا لم تكونوا قد أديتم شيئا قط للدولة ، وأما المعاهد فسوف تحولها شركة أمريكية ، أو بريطانية ، الى « ستار » (باراڤان) فرنسى بكل تأكيد ٠ وسوف تقرضونها المال الذى ترفضون اقراضى اياه ٠ لقـد أنشأنا الاتحاد لأن البنوك الفرنسية فى آسيا تتبع فى الضمانات سياسة من شأنها أن تنتهى الى اقراض الانجليز لكى لا تقرض الصينيين ٠ أما نحن فقد اتبعنا سياسة المجازفة ، وهذا ٠٠٠ »

ـ « أنا لم اجرؤ على أن أقول ذلك ٠ »

ـ « ٠٠٠ واضح ٠ ومن الطبيعى أن نجنى نتائج هـــذه السياسة ٠ وسيصان الاقتصاد (وابتسم بركن واحد من ركنى فمه) حتى ثمانية وخمسين مليارا من الخسارة ، لا ثمانية وخمسين مليارا وبضع مئات من الملايين ٠ فلنر معا اذن ـ أيها السادة ، اذا شئتم ، كيف يمكن أن يتوقف الاتحـــاد عن الوجود ٠ »

### كوبيه

فى ضوء الربيع المتساطع صعدت « ماى » ـ التى لم تكن تستطيع لشدة فقرها أن تستأجر سيارة ـ الى منزل كاما٠ ولو كان متاع چيسور ثقيلا، لكان لابد من اقتراض شىء من المال من المصور العجوز ، للحاق بالسفينة ٠ وكان چيسور قد أنبأها ، وهو يغادر شنغهاى ، أنه سيلجأ الى كاما ، وحين وصل، بعث اليها بعنوانه ٠٠ ومنذ ذلك الحين لم يصلها منه شىء ٠٠ حتى حـين

اخبرته انه قد عين أستاذا بمعهد صن ـ يات ـ سن فى موسكو ٠ فهل كان يخشى البوليس اليابانى ؟

وكانت تطالع أثناء سيرها رسالة من « يى » سلمت اليها عند وصول السفينة الى « كوبيه » ، حين كانوا يفحصون جواز سفرها ، فقد استطاعت أن تؤوى ـ بعد موت « تشن » ـ هذا الشاب الذى كان تلميذا له ، فى الفيلا التى لاذت بها ٠ وجاء فى الرسالة :

« ٠٠٠ وكل أولئك الذين تمكنوا من الفرار من شنغهاى ينتظرونك ، وقد استلمت الكتيبات ٠٠٠ »

وكان قد نشر تحت اسم مستعار وصفين لموت تشن : أحدهما نابع من قلبه ، قال فيه : « ان اغتيال الديكتاتور هو واجب الفرد نحو نفسه ، وينبغى فصله عن العمل السياسى الذى تحدده القوى الجماعية ، » أما الوصف الآخر فكان موجها الى التقليديين : « وكما أن الواجب البنوى ـ الدين الذى ندين به لأسلافنا ـ يدفعنا الى أن نبحث عن أنبل حياة لنا ، فكذلك يتطلب من كل فرد منا اغتيال المغتصب ٠ » وقد أعادت المطابع السرية طبع كتيباته ٠

« ٠٠٠ رأيت أمس همليرشن ، الذى يفكر فيك ٠ انه الآن عامل تركيب بمصنع الكهرباء ، وقد قال لى : « فى الماضى بدأت أحيا حين خرجت من المصنع ، أما الآن فقد بدأت أحيا حين دخلته ٠ وهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أعمل فيها ، وأنا اعرف لماذا أعمل ، لا منتظرا فى صبر أن اموت ٠٠٠ » اخبرى جيسور اننا ننتظره ٠ ومنذ أن جئت هنا أفكر فى المحاضرة التى قال فيها : « الحضارة تتحول حين يصير فجاة أشد عناصرها ايلاما ـ المذلة للعبد ، والعمل بالنسبة للعامل الحديث قيمة من القيم ، وحين لا يصبح الأمر فرارا من هذه المذلة ، بل انتظارا للخلاص بوساطتها ، ولا يصبح فرارا من هذا العمل ، بل العثور فيه على علة وجودك ٠ ويجب أن يصبح المصنع ـ الذى ما زال أشبه بكنيسة ملحقة بالمقابر ـ بمثابة الكاتدرائية قديما وأن يرى فيه الناس ـ بدلا من الآلهة ، القوة الانسانية فى صراعها ضد الأرض ٠٠٠»

أجل : ان الناس لا يساوون ـ بلاشك ـ الا ما أمكنهم أن يغيروه ٠ ولقد مرت الثورة الآن بمرض رهيب ، ولكنها لم تمت ٠ وقد كان كيو وأمثاله

سواء أكانوا أحياء ام موتى ، مهزومين أم منتصرين ، هم الذين أخرجوها الى العالم • وتابعت قراءة الرسالة :

« ساعود الى الصين بوصفي مهيجا للثورات : فأنا لا أستطيع أن أصبح قط شيوعيا خالصا •• وما من شيء قد انتهى هناك • وربما التقينا هناك مرة أخرى ، وقد قيل لى ان طلبك قد قبل •• »

وسقطت من الرسالة المطوية قصاصة مقطوعة من صحيفة ، فتناولتها :

« ينبغى أن يصبح العمل السلاح الرئيسى فى حرب الطبقات • وان أهم خطة للتصنيع فى العالم هى الآن موضع بحث : وهذه الخطة تهدف الى تغيير جمهوريات الاتحاد السوفيتى كلها فى خمس سنوات ، وجعلها واحدة من أولى الدول الصناعية فى أوروبا ، ثم اللحاق بأمريكا ، وتجاوزها •• هذا المشروع العملاق ••• »

وكان چيسور ينتظرها واقفا داخل اطار الباب ، مرتديا الكيمونو • ولم يكن فى الممر حقائب •

وسألته وهى تدخل حجرة مجردة من الأثاث ، لا تحتوى شيئا سوى الحصر والأوراق ، وقد أسفرت مصاريعها المنزوعة عن الخليج بأكمله : « هل تسلمت رسائلى ؟ »

ـ « أجل • »

ـ « فلتسرع ، لأن السفينة ستعاود الرحيل بعد ساعتين • »

ـ « لن أرحل ، يا ماى • »

ونظرت اليه ، ثم قالت لنفسها : « لا جدوى من استجوابه ، فسوف يشرح قصده • » بيد أنه هو الذى سال :

ـ « ماذا ستصنعين ؟ »

ـ « سأحاول أن أخدم فى أقسام مهيجات الثورة • ويبدو أن الأمر قد دبر فعلا • سأصل الى فلاديفوستوك بعد غد ، لأرحل منها فورا الى موسكو• فاذا لم تسر الأمور على ما يرام ، فسأعمل طبيبة فى سيبيريا • وأرجو أن ينجح الأمر الأول •• فلقد مللت من التمريض • والحياة دائما مع المرضى ،

حين لا يكون ذلك في سبيل كفاح معين ــ يحتاج الى حالة خاصة من النعمة الالهية . وأنا ، لم يعد في نفسي أى نوع من النعم ٠٠ وفضلا عن ذلك ، فقد أصبح من غير المحتمل بالنسبة لى الآن أن أشاهد شخصا يموت ٠٠ وأخيرا٠٠ ان كان لابد أن أفعل ذلك ٠٠ فهذه طريقة للأخذ بثأر كيو ٠ »

ــ « لا ينتقم المرء وهو فى مثل سنى ٠٠ »

والواقع ، أن شيئا فى نفسه كان قد تغير ٠٠ كان بعيدا ٠٠ منفصلا ، وكان شطرا واحدا من نفسه هو الذى يوجد معها فى هذه الحجرة ٠ وتمدد على الأرض ، فلم يكن ثمـة مقاعد ٠ واستلقت هى أيضـا الى جانب صينية للأفيون ، وسألته قائلة : « فماذا أنت صانع ؟ »

وهز كتفيه فى غير مبالاة وقال :

ــ « اننى هنا ــ بفضل كاما ــ أستاذ حر لتاريخ الفن الغربى ٠ لقـد عدت الى مهنتى الأولى ، كما ترين ٠٠٠ »

وبحثت عن عينيه ، وهى مشدوهة ، وقالت :

ــ « وحتى الآن ، بعد أن هزمنا سياسيا ، وأوصدت مستشفياتنا ، تتكون جماعات سرية فى الأقاليم جميعا ٠٠ ولن ينسى رجالنا قط أنهم يقاسون من أجل قضية بشر آخرين ، لا بسبب حياتهم السابقة ٠ وقد كنت تقول : « لقد استيقظوا واتبين من نوم ران عليهم ثلاثين قرنا ، ولن يعودوا بعده للنوم مرة أخرى ٠ » وكنت تقول أيضا ان أولئك الذين منحوا وعيهم بالثورة الى ثلاثمائة مليون بائس ، لم يكونوا ظلالا كالبشر العابرين ــ ولو أصابتهم الهزيمة ، أو التعذيب ٠٠ ولو أصبحوا أمواتا ٠٠ »

وصمتت برهة ، ثم استطردت قائلة : « وهم أموات الآن ٠ »

ــ « اننى أفكر فى ذلك دائما ــ يا « ماى » ٠ هذا شىء آخر ٠٠ ان موت كيو ، ليس هو العذاب فحسب ، أو التغيير فحسب ٠٠ انه ٠٠٠ تحول ٠ اننى لم أحب العالم قط حبا جما . وانما كان كيو هو الذى يربطنى بالبشر ، وبه كانوا يوجدون بالنسبة لى ٠٠٠ أنا لا أرغب فى الذهاب الى موسكو ٠٠ وسيكون تدريسى سيئا هناك ٠ لقد انقطعت الماركسية عن الحياة داخـل نفسى ٠٠٠ كانت فى نظر كيو ارادة . أليس كذلك ؟ أما فى نظري أنا ، فانها

قدر ، وكنت أوافقه لأن قلقى من الموت يتفق مع القدر • ولم يعد فى نفسى شىء من القلق تقريبا ـ يا « ماى » ـ منذ أن مات كيو ، أصبح الموت عندى سواء • لقد تحررت فى آن واحد ( تحررت ! ••• ) من الموت ومن الحياة ، فماذا عسانى أصنع هناك ؟ »

ـ « أن تتغيز من جديد ، ربما • »

ـ « ليس عندى ابن آخر أفقده • »

وأدنى منه صينية الأفيون ، وأخذ يعد غليونه ، وأشارت باصبعها ـ دون أن تقول شيئا ـ الى ربوة من الروابى القريبة : كان ما يقرب من مائة عامل ، مربوطين من أكتافهم ، يسحبون حملا ثقيلا جدا غير مرئى ، فى حركة العبيد المعروفة منذ آلاف السنين •

قال : « أجل ، أجل • »

وأضاف بعد لحظة : « ومع ذلك ، احذرى : فهؤلاء على استعداد للموت فى سبيل اليابان • »

ـ « وكم يستغرق ذلك من الوقت ؟ »

ـ « أطول من العمر الذى سأعيشه • »

وكان چيسبور قد دخن غليونه فى شهيق واحد • وعاد لفتح عينيه :

ـ « من الممكن أن يخدع الانسان الحياة زمنا طويلا ، ولكنها تنتهى دائما بأن تجعل منا ما جعلنا من أجله • ان كل رجل عجوز اعتراف ، صدقنى ، واذا كان كثير من الشيوخ يقضون حياة فارغة ، فذلك لأن كثيرا منهم كانوا فارغين ، ولكنهم يخفون هذه الحقيقة • بيد أن هـــذا نفسه لا أهمية له • وينبغى على الناس أن يتمكنوا من إدراك أنه لا وجود لشىء حقيقى ، وأن هنـاك عوامل من اختراع التـأمل ـ بالأفيون أو بدونه ـ حيث كـل شىء باطل ••• »

ـ « وماذا نتأمله فى تلك العوالم ؟ »

ـ « ربما ، لا شىء سوى هذا الباطل •• وهذا كثير • »

وكان كيو قد قال لماي : « ان الأفيون يلعب دورا كبيرا في حياة أبي ،

ولكننى أسائل نفسى أحيانا هل الأفيون هو الذى يحدد حياته ، أم أنه يبرر به بعض القوى التى تبعث القلق فى نفسه ... »

وواصل چيسور حديثه قائلا : « لو أن تشن عاش خارج الثورة ، فاعتقادى أنه كان سينسى اغتيالاته بلا شك . ينسى ... »

— « ان الآخرين لم ينسوا ، وقد حدثت محاولتان ارهابيتان منذ موته .. انه لم يطلق النساء ، ولهذا لم أعرفه قط ، ولكننى أعتقد أنه ما كان يستطيع أن يعيش خارج الثورة ، ولو عاما واحدا . لا وجود لكرامة لا تؤسس على الألم . »

وكان لا يكاد يسمعها .

واستطرد قائلا : « ... ينسى ... منذ أن مات كيو ، اكتشفت الموسيقى . الموسيقى وحدها تستطيع أن تتحدث عن الموت . انى أنصت الى « كاما » الآن كلما أخذ فى العزف . ومع ذلك دون أن أبذل مجهودا من جهتى ( كان يتحدث الى نفسه بقدر ما يتحدث الى ماى ) ماذا أتذكر أيضا ؟ رغباتى وقلقى ، مصيرى نفسه ، حياتى ، أليس كذلك ؟ ... »

( وحدثت ماى نفسها قائلة : « ولكن فى أثناء تحررك من حياتك ؛ هناك رجال من أمثال كاتوف ، يحترقون فى المراجل .. ومن أمثال كيو ... » )

وضاعت نظرة چيسور فى الخارج ، وكأنها تتبع حركة نسيانه ... وهناك عبر الطريق ، كانت آلاف الأصوات المنبعثة من أعمال الميناء تبدو وكأنها ترحل مع الأمواج صوب البحر المضىء .. وكانت تتجاوب مع لألاء الربيع اليابانى بكل ما يبذل اله الرجال من مجهود .. بالبواخر ، والروافع والسيارات والجماهير النشيطة . وكانت « ماى » تفكر فى رسالة « پى » : « انه فى هذا العمل — المنطلق كالحرب — على الأرض الروسية كلها ، وفى ارادة الجماهير التى ترى فى هذا العمل الحياة نفسها ، فى هذا كله وجد أمواتها ملاذهم . وكانت السماء تتألق من خلال ثغور أشجار الصنوبر ، كما تتألق الشمس ، والسحاب النسيم الذى كان يميل الأغصان فى لين ، على جسديهما الممددين . وخيل الى چيسور أن هذا النسيم ينفذ عابرا جسده ، كأنه نهر ، كأنه « الزمن » نفسه ، ولأول مرة ، خطرت له هذه الفكرة وهى أن

الزمان الذى يقربه من الموت ، لا يفصله عن العالم ، بل يربطه به فى توافق مطمئن • وتطلع الى تشابك الروافع على حافة المدينة ، والى البواخر ، والى الزوارق المنسابة على صفحة البحر ، والى البقع الانسانية الموجودة على الطريق وقال لنفسه : « كلهم يتعذبون.•• وكل منهم يتعذب لأنه يفكر •• وفى الأعماق ، لا تفكر الروح فى الانسان الا بوصفه أبديا •• والوعى بالحياة لا يمكن أن يكون الا قلقا • لا ينبغى التفكير فى الحياة بوساطة الروح ، بل بالأفيون • كم من آلام متناثرة فى هذا النور ، ستتلاشى حين يتلاشى الفكر ! ••• » وضم فى عرفان بالجميل أنبوبة غليونه ، وقد تحرر من كل شىء ، حتى من كونه انسانا ، متأملا اضطراب كل هذه الكائنات المجهولة التى تسعى نحو الموت فى الشمس التى تعشى الأبصار ، وكل يهدهد فى أخفى أعماق نفسه قاتله المتطفل • وحدث نفسه قائلا أيضا : « كل انسان مجنون ولكن ماذا يكون المصير الانسانى ان لم يكن حياة من الجهود فى سبيل وحدة هذا المجنون بالكون ؟ •• » وتراءى له فيرال مرة أخرى فى ضوء المصباح المنخفض أمام الليل الملىء بالضباب ، وأنصت اليه وهو يقول : « كل انسان يحلم بأن يكون الها ••• »

وغزت الهواء خمسون صفارة فى آن واحد : كان اليوم هو « وقفة » العيد ، وفيه يتوقف العمل • وقبل أن يعترى الميناء أى تغيير ، كان رجال صغار الأحجام — يظهرون كفتيان الكشافة — على الطريق الأيمن الذى يفضى الى المدينة وسرعان ما تغطيه الجماهير ، نائية ، سوداء ، وسط ضوضاء آلات التنبيه : انهم أصحاب العمل والعمال يغادرون مصانعهم معا • والجماهير تتدافع كأنها تشن هجوما ، تحملها تلك الحركة القلقة التى يبدو عليها أى حشد حين يتأمله المرء من بعيد • وكان جيسور قد شاهد فرار الحيوانات نحو الينابيع، عند هبوط الظلام : كان واحد منها ، ثم بعضها ، ثم جميعها ، تهرول صوب الماء مدفوعة بقوة تهبط مع الظلمات ، وفى ذاكرته ، أضفى الأفيون على اندفاعها الكونى انسجاما وحشيا ، بينما بدا له الناس الضائعون فى الجلبة البعيدة التى تحدثها أحذيتهم الخشبية ، مجانين جميعا ، منفصلين عن الكون الذى يخفق قلبه فى مكان ما من الضوء النابض هناك عاليا ، فيأخذهم ثم يرمى بهم فى العزلة وكأنهم حبات حصاد مجهول • وكانت السحب الخفيفة ، المرتفعة جدا ، تعبر فوق أشجار الصنوبر القاتمة ، لتذوب رويدا رويدا فى السماء ، وقد بدا له أن جماعة منها •• هذه الجماعة بالذات — تمثل الرجال الذين عرفهم

أو أحبهم ، والذين أصبحوا أمواتا • وكانت الانسانية كثيفة ثقيلة ، ثقيلة بلحمها ، ودمها ، وعذابها ، لاصقة بنفسها التصاقها مؤبدا ، ككل ما يموت ، بيد أن الدم نفسه ، واللحم نفسه ، والألم نفسه ، بل الموت نفسه ، تتلاشى هناك في الأعالي ، في النور ، كما تتلاشى الموسيقى في الليل الساجي: وذهب فكره الى موسيقى كاما ، وخيل اليه أن الألم الانساني يصعد ، ويتبدد كأنه أغنية الأرض نفسها ، وعلى السلام المرتجف ، المختبىء في صدره اختباء قلبه ، كان الألم ــ الذى تمت له السيطرة عليه ــ يطرقه على مهل بذراعيه الخاليتين من الانسانية •

ورددت قائلة : « هل تدخن كثيرا ؟ »

وكانت قد ألقت هذا السؤال من قبل ، ولكنه لم يسمعها • وعادت نظرة چيسور الى الغرفة ، ثم قال :

ــ « أتعتقدين أننى لا أتكهن بما يدور فى فكرك ؟ وهل تعتقدين أننى لا أعرفه خيرا مما تعرفينه ؟ وهل تعتقدين أنه ليس من اليسير على أن أسألك بأى حق تحكمين على ؟ »

واستقرت نظرته عليها وهو يقول :

ــ « أليست لديك أية رغبة فى انجاب طفل ؟ »

ولم تجب : ان هذه الرغبة العارمة دائما تبدو لهـا الآن بمثابة خيانة • ولكنها تأملت فى ذعر هذا الوجه المطمئن • وكان فى الحقيقة قادما اليها من أعماق الموت ، غريبا كأنه جثة من القبور العامة • لقد نقشت أعمـال كيو فيما فرض على الصين المنهكة من قمع ، وفيما يعترى الجماهـير من قلق أو أمل ، وكأن هذه الأعمال نقوش الامبراطوريات البدائية فى صخور شقتها الأنهار • ومع ذلك فان تلك الصين القديمة التى ألقى بها هؤلاء النفر بلا رجعة فى وجه الظلمات ، محدثين دويا كهزيم السيل ، لم تمح من وجه العالم ، كما لم يمح معنى حياة كيو من وجه والده •

وواصل چيسور حديثه قائلا :

ــ « الشىء الوحيد الذى أحببته قد انتزع منى ، أليس كذلك ، ومع ذلك تريدين ان أبقى كما أنا • اتعتقدين أن حبى لم يكن مساويا لحبك •• انت ، يا من لم يطرأ على حياتها تغير ؟ »

ـ « كما لا يطرأ تغيير جسم انسان حى أصبح ميتا ••• » .

وتناول يدها ، ثم قال :

ـ « أنت تعرفين هذه العبارة : « لابد من تسعة أشهر لصنع انسان ، ويكفى يوم واحد لقتله • » وقد عرفنا ـ أنا وأنت ـ ماتنطوى عليه هذه العبارة من صدق بقدر ما يمكن أن نعرف ••• ماى ، اسمعى : ان الأمر لا يحتاج الى تسعة أشهر فحسب ، بل لابد من خمسين عاما لنصنع انسانا •• خمسين عاما من التضحيات •• ومن الارادة •• ومن ••• ومن أشياء كثيرة ! وحين يتكون هذا الرجل ، وحين لا يعود فيه شيء من الطفولة أو المراهقة •• وحين تصبح رجلا ـ حقا ـ لا يصلح عندئذ الا لأن يموت • »

ونظرت اليه في رعب ، أما هو فكان يتطلع من جديد الى السحب :

ـ « لقــد أحببت كيو حبا قلمــا يكنه الآباء لأبنائهم •• وأنت تعلمين ذلك ••• »

وظل ممسكا بيدها ، ثم جذبها نحوه فوضعها بين راحتيه :

ـ « أصغى الى : ينبغى أن نحب الأحياء ، لا الأموات • »

ـ « لست ذاهبة الى هناك لكى أحب • »

وأخذ يتأمل الخليج الرائع ، المشــبع بالشمس ، وكانت قد ســحبت يدها •

ـ « على طريق الانتقام ، نلتقى ـ ياصغيرتى ماى ـ بالحياة ••• »

ـ « ليس هذا سببا للبحث عنها •• »

ونهضت ، وأعطته يدها ، علامة الوداع ، ولكنه تناول وجهها بين كفيه ، وقبلها •• لقد قبلها كيو على هذا النحو فى اليوم الأخير •• على هــذا النحو تماما ، منذ ذلك الحين ، لم تضم رأسها يدان •

قالت فى كبرياء مريرة : « لم أعد أبكى الآن •• هيهات • »

دار الطباعة الحديثة
٩ كنيسة الأرمن ـ أول شارع الجيش
ت ٩٠٨٢١٨ ـ مصر : ت ٨٩٩٩١

